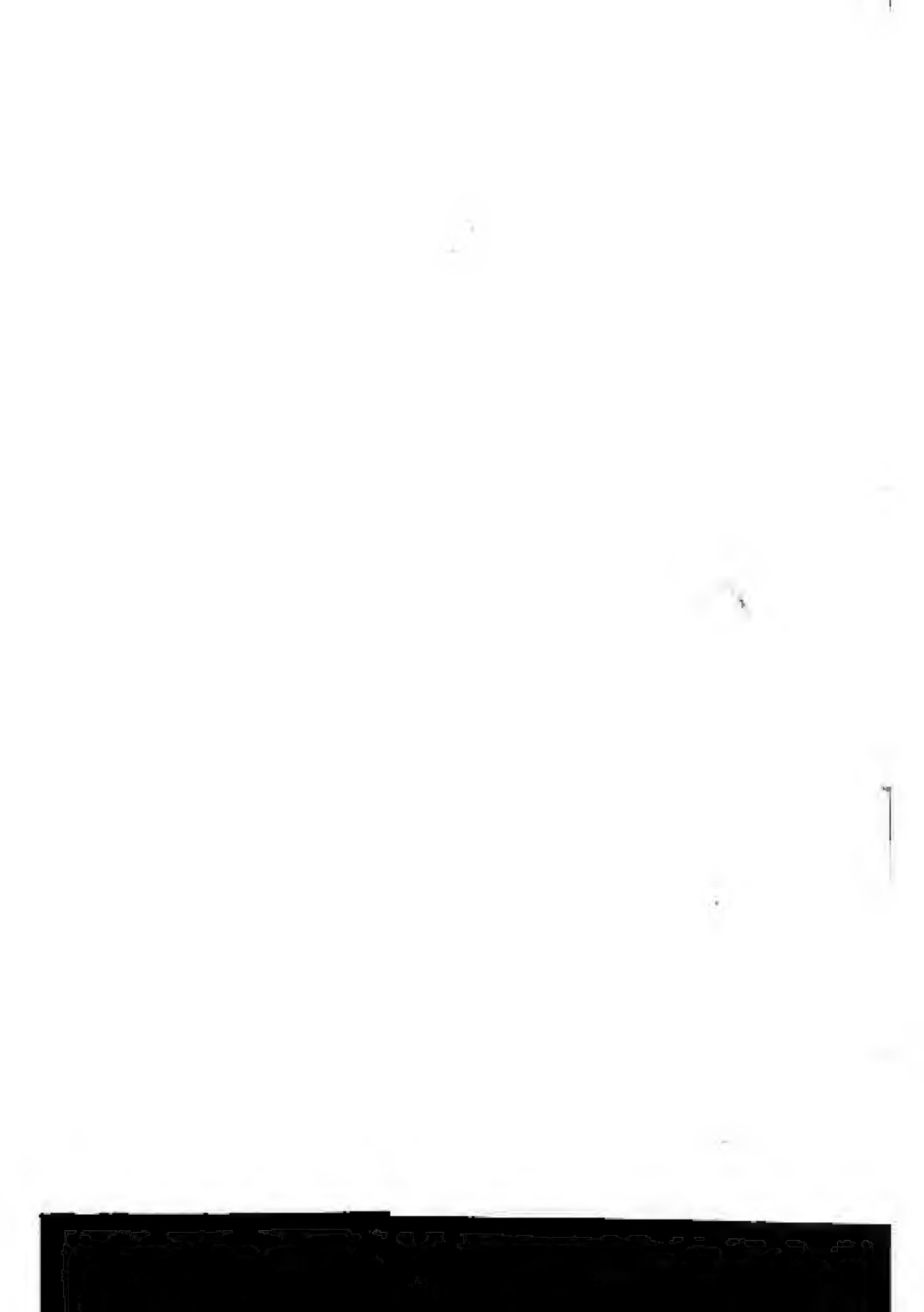


الأصوات التاريخية للخلافت العربية والإفريقية

جurnal دكرى الخامس





الأصول التاريخية

للعلاقات العربية الإفريقية

309.277
2706

قاسم
م

أ. يعرب غ. أنور في

ع - الشام لبريد - العلاقات الإفريقية - تاريخ

دكتور جمال زكريا قاسم

الهيئة العامة للكتاب
309.0492706
قاسم
52521

1417 هـ - 1996 م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة: ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر

١٩٨١٨٤ - ٥



تفريع الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية في عام ١٩٧٥ في وقت وصلت فيه العلاقات العربية الإفريقية إلى أقصى حالات إزدهارها، ويرجع الفضل في ذلك إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣م التي استطاعت أن تمحو ما يقرب من عشرين عاما من مكاسب إسرائيل ونفوذها السياسي والاقتصادي الذي بلغته في القارة الإفريقية، كما يرجع الفضل في ذلك أيضا إلى أزمة الطاقة العالمية وما ترتب عليها من ثورة سحرية في النفط، حيث أخذت المساعدات العربية تتدفق على كثير من الدول الإفريقية.

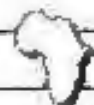
غير أن التعاون العربي الإفريقي الذي وصل إلى هذه خلال حقبة السبعينيات لم يلبث أن تعرض لضربات متلاحقة حين استغل أعداء ذلك التعاون - من بقايا الاستعمار القديم ودعاة الاستعمار الجديد - الدعوى الانفصالية لتشكيك في الروابط العربية الإفريقية، وعمدت كثير من الدراسات الاستعمارية إلى استغلال سلبيات تاريخ العرب في إفريقيا بطريقة طغت على كل إيجابياتهم ولذا لم يكن من الغريب أن ينظر الإفريقيون والعرب إلى بعضهم البعض من خلال أعين استعمارية، حتى أن فلسفة الرغبة التي كانت تعد نشأتها في ثلاثينيات هذا القرن ردة فعل ضد الاستعمار الأوربي وتجارة الرقيق

الأطلسية أصبحت ردة فعل ضد تجارة الرقيق العربية عبر شرق إفريقيا والصحراء الكبرى وضد الوجود العربي برمته، وفضلاً عن ذلك فقد حصلت كثير من الكتابات الزلججة العرب مسئولية التجريد السياسي والاقتصادي لإمبراطوريات إفريقية كبيرة.

وقد يكون حقيقة أن تلك المواقف السلبية لا تعكس كل الضمير الإفريقي إزاء العرب، إلا أنه لا ينبغي إهمال ردود أفعال المصفوة الإفريقية ضد كافة أشكال الهيمنة السياسية وكافة عمليات الاستيعاب الثقافي الذي تعرضت له القارة الإفريقية، حيث لم تعد نظرة الإفريقيين للعرب أكثر من كونهم عناصر أجنبية وفدت على إفريقيا، وأن شأنهم ليس أكثر شأنًا من الأوربيين، بل إن صورة العرب والمسلمين أصبحت أكثر ارتباطًا في ذهن الإفريقيين بصورة العبودية والاستغلال حتى إن تعبير «الاستعمار العربي» أو ما يطلق عليه «الغزو العربي لإفريقيا» أصبحا وجهين لعملة واحدة.

وترتب على ذلك أن أصبح تاريخ العرب في إفريقيا عيبًا على صانعي السياسة المحدثين وعلى دفعة التعاون العربي الإفريقي بسبب ما ألقى في طرقات ذلك التاريخ من شوائب استغللت استغلالاً متعمداً لفصم العلاقات بين العرب والأفارقة. ومن ثم كانت حياتنا في كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية التي أقيمت لنا فرصة المشاركة فيها والحاجة بالتعاون العربي الإفريقي أو بالعلاقات العربية الإفريقية بصفة عامة التأكيد بأن أي قرار سياسي أو اقتصادي لن تكون له أدنى فاعلية ما لم يركز على قاعدة صلبة تحمل من التجربة التاريخية التي مر بها العرب والإفريقيون مجالا للتقارب وليس للتباعد فيما بينهم.

والحقيقة أن إضعاف الروابط العربية الإفريقية ظل هدفاً أساسياً من أهداف حركة الاستعمار بامتداد مراحلها، بدءاً من مرحلة الاستعمار التجاري وعبوراً بمرحلة الإمبريالية ووصولاً إلى مرحلة الاستعمار الجديد. وقد امتد هذا الإضعاف لكل جانب من جوانب الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية، وصحب ذلك توسيع فتاعات تاريخية من جانب القوى الاستعمارية بلغت لسوء الحظ رواجاً ملحوظاً في الأوساط الإفريقية بل وفي بعض الأوساط العربية، كان أخطرها وصفه المرحلة التاريخية السابقة على غندوم الأوربيين للقارة الإفريقية باعتبارها «عصر ما قبل التاريخ الإفريقي»، وكأنه لم يكن للإفريقيين تاريخ معروف



أو مكتوب قبل حركة الكشف البحرية الكبرى. ثم كان منها أيضا محاولات متعمدة ومستعرة لتشويه الروابط العربية الإفريقية التي كانت قائمة، واستمرت تتجلى بشكل أو بآخر، التغلغل الأوربي في القارة الإفريقية. وقد استخدم المستعمرون كل الأدوات المتاحة لإتمام هذا التشويه. وعاونهم في تحقيق هذا الهدف أمراء :

أولهما : فقدان أو تبشير المدونات العربية التي توارثت تاريخ العلاقات العربية الإفريقية.

وثانيهما : أن معظم الباحثين العرب والأفارقة سواء في الجامعات أو مراكز البحوث العلمية قد صرفوا عن التصدي لما جاء في المصادر الأوربية في شأن هذه العلاقات إما نتيجة لوقوعهم تحت تأثيرها، وإما لاختيارهم الطريق الأسهل في الكتابة عن تاريخ الحركة الاستعمارية بسبب وفرة مصادرها الأوربية.

ولعل أهمية الدراسة التي بين أيدينا ترجع إلى أنها قد خرجت عن ذلك النمط التقليدي وسعت إلى رصد الروابط العربية والإفريقية، كما حيث يبراز هذه حقائق على درجة كبيرة من الأهمية من بينها التأكيد على عمق الروابط العربية الإفريقية وما نجم عنها من مؤثرات ثقافية وحضارية شهدت القارة الإفريقية.

وعلى الرغم مما يراه البعض أن الاستعمار الأوربي كان له أثر كبير في إتاحة الفرصة لتسهيل اتصال العرب والمسلمين بمناطق في إفريقيا لم يكن الاتصال بها يسيرا، بفضل ما قام به المستعمر من إجتثاث الغابات الكثيفة وتعميد الطرق إلا أنه من ناحية أخرى كثف جهوده التبشيرية للمحد من هذه الانطلاقة، بل لقد وصل الأمر إلى درجة استخدام الرسالة التبشيرية لخدمة الأهداف الاستعمارية. وما يؤكد ذلك أن المبشرين تجاوزوا في كثير من الأحيان عن بعض التعاليم المسيحية في محاولة منهم لاجتذاب عدد أكبر من الإفريقيين. ويضاف إلى ذلك ما حرص عليه المبشرون من محاربة اللغة والثقافة العربية واستخدام الأبجدية اللاتينية بدلا من الأبجدية العربية، التي كانت مسئلة في كثير من الكتلبات الإفريقية، واستبعاد الكثير من المفردات العربية التي دخلت في كثير من اللغات الإفريقية. كما حكمت الإرساليات التبشيرية على تعزيج بعض أجيال من الإفريقيين الذين نشروا كراهية العرب والثقافة العربية بسبب ما أقدم عليه المبشرون والمستعمرون من تشويه تاريخ العرب في إفريقيا.



وليس من شك في أن السيطرة الاستعمارية في الوقت الذي كانت تطبق فيه على إفريقيا كانت تطبق أيضا وبدرجات متفاوتة على العالم العربي مما أتاح الفرصة لتنفيذ السياسة الاستعمارية الخاصة بتفكيك الروابط العربية الإفريقية، وبغض النظر عن ذلك فقد عملت الدراسات الاستعمارية إلى إيجاد التباين بين العرب والأفارقة وجعلت ذلك التباين يتركز على واسب نفسية استمدتها من الصورة المشوهة التي رسمها المستعمر عن تاريخ العرب في إفريقيا.

وعلى الرغم مما كان متوقعا من أن تتغير تلك المفاهيم مع رحيل المستعمر وانتشاع حبه السيطرة الاستعمارية عن كل من إفريقيا والوطن العربي، وبالتالي تعود الروابط العربية الإفريقية إلى المجرى الذي كانت تسير فيه إذا بنا فاجأ بأن التباين يزداد اتساعا، فعلى أثر استقلال الدول الإفريقية جلبت النخبة التي ارتبطت ثقافيا واقتصاديا بالاستعمار الجديد، وأصبحت نجد من بعض الأفارقة من يقف موقفا متباينا من العرب حيث تعرض هؤلاء لتأثيرات ثقافية أجنبية بلغت من قوتها درجة كانت تطمس معها كل المؤثرات الثقافية العربية والإسلامية، وقد يكون ذلك أيضا نتيجة لسياسات التعاون العربي الإفريقي.

وبالتالي فإن توثيق العلاقات العربية لا يزال يتطلب جهدا كبيرا من أجل حوار عربي إفريقي يهدف إلى إعادة النظر في تاريخ العرب في إفريقيا برؤية موضوعية وفي إطار الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة، ولعل ما يدفعنا إلى تأكيد ذلك لهُ على الرغم مما حظى به التاريخ الإفريقي خلال الفترة الاستعمارية من دراسات هامة أسهم في إعدادها كثير من الباحثين والسياسيين إضافة إلى العديد من المراكز والمعاهد العلمية المتخصصة، إلا أن ما يؤخذ على معظم هذه الدراسات عدم توجيهها عناية كبيرة إلى وضع التاريخ الإفريقي في إطاره المنهجي السليم، ولعل ذلك كان دافعا للدول الإفريقية المستقلة إلى أن تقرر في أول مؤتمر لها عقد في أكرا في عام ١٩٥٨ توجيه مزيد من العناية للتاريخ الإفريقي وإلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ إفريقيا.

وفي تقديرنا أن دور العرب في إفريقيا ينبغي أن يحتل مكانا رئيسيا في التاريخ الإفريقي، ويحدونا إلى ذلك أسباب عديدة من بينها ارتباط مصائر العالم العربي بالقارة الإفريقية في عصور مختلفة من التاريخ، وامتزاج الحضارة العربية



الإسلامية بالخصارات المتعددة للشعوب الإفريقية مما جعل العالم العربي والإفريقي يحكم التخوم الجغرافية المشتركة وسرعة الاندماج بين شعوبهما وتاريخيهما الحافل بالكفاح المشترك أقرب إلى التضامن والتفاهم.

ومن ثم كان اهتمامنا في هذه الدراسة بتحديد المعالم الرئيسية للأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية في محاولة لإجلاء بعض جوانبها والعمل على تقويمها وذلك على الأقل بمقارنتها بعلاقات أوروبا بالقارة الإفريقية. وبما لا شك فيه أن مجرد إلقاء نظرة راعية على العلاقات العربية الإفريقية وعلاقات القارة الإفريقية بأوروبا منذ بدء حركة الاستعمار الأوربي يمكن أن توضح لنا بجلاء المعالم الرئيسية لطبيعة تلك العلاقات وعلى الفرق الشاسع بينهما. وسوف يتضح لنا من فصول ذلك الكتاب مدى الازدهار الذي أتم به تاريخ العرب في إفريقيا وما أفترون به تاريخ العلاقات الإفريقية بالدول الاستعمارية بالاستتراف المادي والبشري للقارات الإفريقية وشعوبها.

ومع تأكيدنا لتلك الحقائق التاريخية إلا أنه ينبغي مع ذلك أن يكون العرب في حوارهم مع الأفارقة أكثر تفهما للشخصية الإفريقية التي قد تنبج إلى ردود أفعال معاكسة لتحقيق ذاتيتها. وإن كان ما يدعو إلى التفاؤل ظهور نخبة إفريقية أصبحت تدعو في وقتنا الحاضر إلى الاعتزاز بالتراث الثقافي العربي باعتباره تراثا إفريقياً وذلك لحظ ما كان يحرم من المستعمر على ترويجه من أن الإفريقيين عاشوا خلال العصور السابقة للاستعمار هملا لا تاريخ لهم ولا ثقافة.

وانخبروا فأننى أرجو بإعادة نشر هذا الكتاب - في صورته المعدلة والمضاف إليها - أن يسد فراغاً في المكتبة العربية، وأن يسلط الأضواء على موضوعات جديدة يمكن أن ينفذ منها الباحثون إلى آفاق رحبة.

وعلم الله قصد السبيل

جمال ذكريا فاسم

مصر الجديدة

١٩٩٥/١٠/١٥م





المقدمة

تحاول هذه الدراسة التركيز على التعبير الرئيسية التي انتقلت عن طريقها لمؤثرات العربية والإسلامية إلى القدرة الإفريقية والدور الذي لعبته ذلك التعبير في تحرير الروابط الثقافية والاقتصادية وفي إسماعها شعوبه العارة الإفريقية بمعناه الجديدة نتيجة انهيارات البشرية التي اتحدت من تلك التعبير طريقها إلى أوسع القدرة الإفريقية ودواجلها

وتشتمل هذه المعابر في ثلاثة مناطق رئيسية هي الساحل الشرقي لإفريقيا الذي أسهم بدور ملحوظ في توثيق الروابط الاقتصادية والسياسية بين سواحل الخليج العربية وجنوب الجزيرة العربية من ناحية وشعوب شرق إفريقيا من ناحية أخرى. كما شكلت مصر معادها ما من لحافة الحضارية التي أثرت بدورها على الشعوب الإفريقية وخاصة في سواحل البحر الأحمر الإفريقية والحبشة وسودان وادي النيل وبنية البحيرات الاستوائية.

وقامت منذ وموانئ الشمال الإفريقي يدور لا يمكن تجاهده في بقى المؤثرات الحضارية والاقتصادية إلى شعوب عرب إفريقيا، وتم ذلك عبر الصحراء الكبرى، التي لم تكن عاملا من عوامل الانعزال بقدر ما كانت حلقة هامة من حلقات التوصل الثقافي والاقتصادي بين مناطق الواقعة في شمالها وبين مناطق الواقعة في جنوبها من إقليم إفريقية السودانية.



وقد ترتب على تلك الاتصالات مزاج اشتقاقية عربية بالثقافات المتعددة
لشعوب الإفريقية أو فيما يطبق عليه علم الاجتماع التداخل الحضاري
Acculturation وهو أمر أسفر عن ظهور ثقافة عربية إفريقية واضحة المعالم بعد أن
وجدت كثير من الشعوب الإفريقية في ذلك المزيج المركب أساساً لبناء مستقبلها
السياسي والاجتماعي.

وبخلاف ذلك، فقد ترتب على تفاعل العرب واندماجهم في الشعوب
الإفريقية، ظهور جسيع الكثير من بصمات العربية والإفريقية كما شأت
حضارة عربية إسلامية لها طابع هريمي، وكان لأثر هذه المشاركة جانب إيجابي غثلي
في ذلك الميراث الثقافي والديني لدى مسحة العرب للأفرقة وامتزاجه مع ما كان
قد نهيا لهم من حضارة وثقافة مختلفة بهم.

ولم يجر الإنسان في هذا المجال إلى أن العرب لم يفرضوا على الإفريقيين
ثقافتهم وإنما حافظوا على التقاليد الإفريقية، كما هم يقسم العرب بهم المؤسسات
للحياة عد دحو لهم بل إن تلك المؤسسات انحلت أشكالاً جديدة في إطار الحضارة
الإسلامية، وطفا ما تؤكد بعض الدراسات بالنسبة أنه عدم تقاسم العرب مع
لأفرقة في موطنهم حيث اندمج صحتي وبيئتها من الامتصاص أو القمع
التعصبي، ويؤكد تلك الحقيقة بقاء اللغات واللهجات الإفريقية إلى جانب اللغة
العربية التي احتفظت بمكرها كلفة للثقافة والتعامل. ولا ينبغي ذلك أن كثير من
المفردات العربية دخلت اللغات واللهجات الإفريقية، أو أن هذه اللغات توث
بمعرف العربي، فب هذ التفاعل لم يهض دليلاً على التفاعل والامتزاج الثقافي.
ومى ذلك بصدد يؤكد بومان وديميله وسترومان في كتابهما الإفريق وحضارتها أن
التدوين بالكتابة العربية يعد دليلاً على اندك العنصر واطاقة العقيدة عند الشعوب
سوداء في القارة الإفريقية، بل إن اللغة العربية في عملية التمزج هذه لم تجد بدا
من أن تقتبس بعض المفردات من تلك اللغات

ولم يكن قيام الإفريقيين بتدوين عند من لغاتهم بلحقة بالهجسية العربية
المأثرة الوحيدة التي خلغوها لى العترة السابقة للاستعمار، كما لم تكن النتيجة
الوحيدة التي أسفرت عن وصوح المؤثرات العربية، بل شاول الإفريقيون لى
للسنات العربية الإسلامية وازدهرت حواصر كثيرة لها فى بلادهم، وسبع من

الأدلة الكثيرة في اللغة والأدب والتاريخ ومختلف العلوم الإسلامية، ويؤكد ذلك آلاف المخطوطات التي نقل الأوروبيون منها الكثير إلى مكتبات بلادهم.

ومن مما تجدر الإشارة إليه بعمده ذلك أن هناك شعوبا كثيرة قد أسهمت في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية، وكان للشعوب الإفريقية دورها في ذلك أيضا وقد تكون إسهاماتهم دون إسهامات غيرهم، ولكن هذا للقصور يرجع في تقديرنا إلى انحصار دورهم في الحفاظ على الثقافة العربية الإسلامية والعمل على نشرها في الوقت الذي كانت تواجه فيه خطر التدهور والانحيار منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

وما يسترعى الانتباه أيضا أن لعرب تصادفوا ثقافيا وسلايا مع الأفارقة، ورغم ذلك التسامح عن ترصيع واقتناع إذ لم يحرف عن العنصر أصلها عنهم أو كراهيتهم للإفريقيين، وذلك على عكس المستعمرين لأوروبيين الذين فرقوا ثقافتهم وبعثهم على الإفريقيين ولم يسمحوا معهم حيث عطلوا على تكوين مجتمعات يهيمن عليها قسز الإفريقيين وتحولوا بينهم وبين ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية، كما اتحدوا من التبشير والتخريب عوامل لفصل الإفريقيين عن ماضيهم وتراثهم فهدموا لاستغلالهم ماديًا وبشريًا وذهبيًا عليهم مينايا وفكر.

وقد يكون حقيقة أن كثير من العلماء الأوروبيين الذين هتمرو بالدراسات الإفريقية قد أمرو خدمة شعوب الإفريقية بحيايتهم ما يدرسون من تراث الإفريقي وما أمكنهم جمعه وتدوينه من تراث مساق، إلا أنه لا ينبغي أن تبطل تلك الإنجازات عما ستهف به بعض منهم من مسح الثقافة الإفريقية وتشويه مصادرها، فضلا عن تشويه تاريخ العرب والإسلام في إفريقيا، من ذلك مثلا ما عمدت إليه بعض المصادر الأجنبية من التأكيد بأن العلاقات بين العرب والأفارقة لم تكن مباحنة إذ حرق العرب إفريقيا جنوب الصحراء واستعبدوا سكانها وفرضوا عليهم وثقافتهم في الوقت الذي لم يضم فيه الأفارقة بحرق مضاد للمنطقة العربية وكسبت الحال بالنسبة لشرق إفريقيا التي سيطر عليها العرب وأنشئ بها عدة (معمرات) عربية، وذلك غير نحو ما ذهب إليه السير ريتشارد كروبلاند في كتابه لشرق إفريقيا وغربها حيث اعتبر العرب عنصرًا من العنصر العارية أو المستعمرة.

ولعل ذلك مما دفع بعض الباحثين العرب المهتمين بالعلاقات العربية الإفريقية إلى محاولة تعديل تلك الصورة وذلك بالدخول إلى التركيز على دور الأفاقة في العالم العربي سواء بعلاقتهم بشبه الجزيرة العربية أو بتأثير الوهج من البلاد العربية واستخدامهم في جيش العباسي والثورات التي قاموا بها والتي تبرز من بينها ثورة الرمح بين أعوام ٨٦٩ - ٨٧١ والتي تمحو خلالها في البصرة عيني البصرة وجنوب العراق

يتضح مما أوردناه أن افق إفريقيا تعرضت لتيارات ثقافية متباينة أوجهها تيار عربي إسلامي استغرق حقب طويلة من العصور الوسطى وجانب من العصور الحديثة، وبلغ من قوة أثره أن صارت الثقافة العربية جزءا من التشكيل العقلي للإفريقيين

وثانيهما ، تيار ثقافي عربي بدأ منذ حركة الكشوف البحرية الكبرى التي امتدت من القرن الخامس عشر الميلادي وإن كان لم يبلغ عتوقه إلا في خلال القرن التاسع عشر، وبلغ من قوته أنه كاد يطمس التيار الثقافي العربي الإسلامي بسبب ما استعمله المستعمرون من التنظيمات الإدارية وما صنعتها الإمبراطيات التبشيرية في تشييد عدة أجيال من الإفريقيين بدلين تشبهوا بالثقافة الغربية

وبالتالي فإن افق إفريقيا دخلت منذ العصر الاستعماري دورا جديدا من أدوار تاريخها احتلست سماته احتلافا كبيرا عن الأدوار السابقة التي مر بها تاريخها. ولعل مما يستحق الانتباه أن المعيار الرئيسية التي صيغت إشارات إليها قد تأثرت بدورها بالظروف التاريخية والاشعيرات التي حدثت من بعدهم وبوصول الاستعمار الأوروبي إلى العالم العربي وإفريقيا

في خلال المرحلة التاريخية التي سقت مجيء البرتغاليين وعلى وجه التحديد خلال الفترة الواقعة بين القرنين ثامن والحادي عشر الميلاديين كانت تلك المعايير سواء في مواعيل شرق إفريقيا أو مصر أو موانئ الشمال الإفريقي تعيش في درجة كبيرة من الانعاش المعكرو ولاقتصادى سبب سيطرة العرب على الملاحة والتجارة في المحيط الهندي وسيطرتهم على تجارة الشرق التي كانت تمر

عبر الطرق البرية والبحرية سواء في الخليج العربي أو في البحر الأحمر إلى سواحل البحر المتوسط في طريقها إلى أوروبا وقد أحدث ذلك الانتعاش انعكاساته الواضحة على كل من شرق ووسط القارة الإفريقية ودونها ولكن ما كاد البرتغاليون يسيطرون على موارد التجارة الشرقية نتيجة استكشافاتهم البحرية التي أدت إلى تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحري المباشر إلى أوروبا طريق رأس الرجاء الصالح - واحتكاكهم بتلك التجارة حتى ترتب على ذلك انكسار واقصحة لمثلت على تدهور شرق إفريقيا ومصر والشمس الإفريقي حضاريا واقتصاديا، وفقدت تلك المعبى الرئيسية قوتها في التأثير الحضارى والاقتصادى، حيث بدأت القارة الإفريقية تتعرض لمؤثرات الاستعمارية. ولعلنا لا نسرف في القول إذا ما ذهبنا إلى النهضة الأوروبية الحديثة قامت على صفاء المقدرات الإفريقية وأن أوروبا خرجت من عبور الظلام لتدخنها الشعوب الإفريقية التي مرت منذ القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ميلادى بدور من يتحفظ، ولعل مما يثير الانتباه أن يكون هو نفس الدور أو على الأقل امتداد الطبعى ما حدث في العالم العربى سواء كان ذلك نتيجة بتأثيرات الاقتصادية التي سببها البرتغاليون أو نتيجة لما ترتب على حكم العثمانيين للبلاد العربية من تخلف وركود.

وإذا كان القرن التاسع عشر أملاى بعد عصر البقعة والتخلف في العالم العربى يمكننا أن نميز ذلك القرن أيضا عصر البقعة والتخلف في القارة الإفريقية، بل نستطيع أن نقرر أن ما حدث في إفريقيا كان انعكاسا أو امتدادا طبيعيا لما حدث في العالم العربى. وفي الوقت الذى لم تنجح فيه محاولات الإحياء والسجيد سواء بالمجاهدات النبيلة أو التحديثية أن تنقل العدم العربى من المصير السيئ الذى كان يترتب به في القرن التاسع عشر ميلادى فإن نفس هذه الظاهرة تكاد نلمسها واضحة في إفريقيا ولعل تشابه المصير بين الشعوب العربية والإفريقية يؤكد لك الظروف التاريخية لتشابه التي مرت بها العرب والأفارقة.

جنير بالذكر أن حركات البقعة والإحياء في كل من العالم العربى وإفريقيا اتحدت عدة اتجاهات، منها ما كان يرجع إلى لأحد من حضارة العربية ونقل المؤسسات والنظم الأوروبية الحديثة، ومنها ما كان يقوم على لأحد من لأصول



الإسلامية وتنقية التراث العربي والإفريقي من الشوائب التي هبكت به طوب
سنوات العزلة والركود.

ومن المتفق عليه أن الاتجاه لتحديث في العالم العربي ظهر واضح مد
مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر وما تبعه من قيام بدولة امصرية الحديثة التي
أثرت في كثير من الأفكار الإفريقية تأثيرا ملحوظا، كما شجرت مصر في تأثيرها
الخصوى دولة عربية إفريقية أخرى وصلت إلى درجة كبيرة من التطور والأزدهار
خلال سنوات القرن التاسع عشر ومعنى به دولة البوسعيد التي أتت من جريره
والبحار قاعدة لها، وأثرت تأثير ملحوظا في المناطق الداخلية من إفريقيا وخاصة في
أعالي الكونغو ومنطقة أنجويار الاستوائية.

أما الاتجاه الفلسفى فقد وضح في العالم العربي على أثر ظهور الدعوة
الوهابية في أواسط الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر، واستمر تأثير
تلك الدعوة مستمرا وممتدا إلى أقطار عديدة سواء في العالم العربي أو الإفريقي
حيث تأثرت القارة الإفريقية بتلك الحركة السلفية فقامت بها عدة حركات مشابهة
في مناطق كثيرة كحركة السنوسية في ليبيا وحركة همدان بنموذجها في ليبيا، إلى
جانب حركات مهلوية ظهرت في كل من مصر والصومال والسودان كنما امتدت
تلك الحركات الدينية إلى كثير من مناطق غرب إفريقيا.

غير أن توقيت ظهور حركات الأحياء والتجديد بأفكارها الدينية أو التحديثية
لم يكن توقيتا متساويا لأنها ظهرت في القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي شهد
تقدم أوروبا من ساحيتين مادية والعسكرية، فكان من الطبيعي أن تصطبغ حركات
الإصلاح والتجديد هذه بصبغة الدول الاستعمارية في السيطرة على الأقطار العربية
والإفريقية ونصبها إلى مناطق نفوذ قبض سها، وأدى ذلك إلى خضوع العالم
العربي، كما خضعت القارة الإفريقية للموجة الإمبريالية التي وصلت إلى أقصى
مدى لها في السوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسوات الأولى من القرن
العشرين.

وقد حرص الاستعمار الأوروبى خلال سيطرته على الأقطار العربية والإفريقية
على قضم وشائج الصلات بين شعوبها، ورغم أن الهدف الاستعماري كان واحدا
من أجل الوصول إلى هذه الغاية إلا أن الأساليب الاستعمارية اختلفت فيما بينها،

فعلی حين كانت أهم ما تهدف إليه بريطانيا هو انهاء على القوى العربية الإفريقية بتجارتهم وتقسيم ممتلكاتها كما فعلت إزاء سلطنة ليبيا والتوسع المصري في إفريقيا، عصبيت غرب من تاجيها إلى النصبى بالقوى الإسلامية في غرب إفريقيا والعمل على صحنه الثقافة بحرية والإسلامية محيية بشر نفوذ أشتالي من الشعوب التي خضعت لها في إفريقيا.

وعلى الرغم من الدور الحضارى الذى قام به العرب ولا أن الكتابات الاستعمارية تحدثت على ذلك الدور باعتباره نمط استعماري قامت به القوى العربية ضد لشعوب الإفريقية، ولعلنا نجد ما على تلك الاتهامات فيما أورده جريسين ولور الدولة في حكومة بنتريس لومب الذى كتب يقول "أنه دور البلجيكيون كل شيء في الكونغو، ليست مدينة ستالي فيل سوى مدينة بيرومب التي أقامها ذلك لتاجر العرب فيب قدوم الرحالة مشمس، وليس العرب كما قالوا ب تجار رقيق وإنما هم تمت الموجة الإنسانية التي اختلطت به وصهرتنا وتركزنا على أرضنا دعاهم والبلجيكيون يحصلونهم بالأسلحة الحديثة، وليس أعز هيك شيء سوى هلا الدم العربى الذى ماله في الماضي كما حال ويسيل دم الآن على أيدي نفس أعداء العرب والإفريقيين في القرن الماضي".

ويتمتع بعدد الدراسات الاستعمارية إلى التهميين من دور العرب الحضارى في إفريقيا فإنها تجس بنتركيسر على دور أوروبا في اكتشاف القارة الإفريقية وتجهيزها والحقيقة أن أوروبا سم تستطع أن تصل إلى دواجل القارة الإفريقية لا يعتمدوا على مجلات العرب ومدوناتهم وكثير من تمت لمصنعات ترجم إلى اللغات الأوربية المختلفة كتب عتف رواد حركة الكشف والارتياح الأوربي بالدور الرائد الذى قام به العرب في التعرف على لأجزاء الداخلية من بحريه، ولم يجرؤ وجد من أولئك برحمة أو المستكشفين لأوربيين على المتوغل في القارة الإفريقية إلا بالاعتماد على طرق انقواهل العربية وعلى مراكز لتجارية التي أنشأها العرب على طول طرق القوافل، كما استحدث كثير منهم بالأدلاء العرب في عملياتهم الاستكشافية التي لم تكن في حقيقتها كشفا وإنما كانت تمجيلا عسما بدلق كانت معروفة لدى سكانها من العرب والإفريقيين.

وليس من شئ في أن الدراسة الموضوعية تستطيع أن تسعح جانباً مما تعطيه المصادر الاستعمارية من الطبع مؤداه أن الوجود العربي في إفريقيا كان بمثابة غزو استعماري يستهدف في الدرجة الأولى عمليات التسلط والاستغلال، ولا يزال تلك المقولات تستخدم حتى وقتنا الحاضر ضمن الجهود الرامية إلى فهم الروابط العربية لإفريقية، وعن ذلك أن العرب يمثلون استعماراً جديداً في إفريقيا وأن هدفهم لا يزال كما كان عليه العرب قديماً وهو نشر الإسلام ومحاربة الأديان الأخرى، وقد يصل الأمر إلى تشكيك لقبائل الإفريقية المسيحية وخاصة في الدول الإفريقية التي تسكنها مجموعات إسلامية كبيرة العدد

وقد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أن حركات الاستقلال والتحرر في العالم العربي كانت أسبق من حركات التحرر والاستقلال في القارة الإفريقية ولا نعالى في العول إذا ما ذكرنا أن الموجات التحررية في العالم العربي كان لها تأثير كبير في دفع الحركات التحررية لدى كثير من شعوب القارة الإفريقية، وحين تحقق العرب العربية والإفريقية استقلالها أدركت أن تضامنها يشكل عنصراً مهماً من عناصر استمرار الكفاح ضد محاولات الاستعمار في شكله الجديد انعقاد إليها، ومن ثم اتخذ التضامن العربي الإفريقي أسلوباً جماعياً من خلال منظمة الوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية من أجل إيجاد تنسيق في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وجميع استراتيجيات عربية إفريقية لتنمية

وعلى الرغم من أن الشعوب العربية الإفريقية وصل إلى درجة كبيرة من التقدم خلال حقبة السبعينيات، لا أنه بدأ يتمركز خلال العقبة التالية لعمليات شديدة من قبل الاحتكارات العنصرية وموائيل الإعلام الأجنبي التي استغلت سلبيات التمرد العربي الإفريقي والعمل على وضع العقبات أمام ذلك التعاون. ومن ذلك التركيز على أن المساعدات العربية للدول الإفريقية غير مرتبطة بمشروعات مدروسة أو برامج محكمة أو الإصافة إلى فقدان المعاصر نيسرية من فليس وكوادو لازمة لتحقيق تلك المشروعات. والفقو أيضاً بأن المساعدات التي تقدمها الدول العربية لدول الإفريقية ليست إلا محاولة من جانب الدول العربية لا تتطلب الدول الإفريقية إلى تأييد القضايا العربية ضد عرضها في محافل دولية

ومن المبادئ أن كان التعاون العربي الإفريقي يصر على هذا الأساس فإدى
 فيه من الصعوبة في هذه الحالة، عطاؤه قوة تحركه وبمعكس ذلك، إذا كان يرتكز على
 أيديولوجية أو مبادئ واضحة، ولا نجد في هذا المجال أدنى من أوضحه الرئيس
 السامي ليرلد مسجور حينما قال: «بفتح الحروف الوردية العربية الإفريقية
 التي عقد في دكاكر عام ١٩٧٦» إن كل من سعى عمدا أو بلا شعور لكي يجعل
 من التماس الحري الإفريقية مسألة احتراق بالجميل إزاء المساعدات التي تقدمها
 الدول العربية إلى الدول الإفريقية إنما يفتقره حظاين في آن واحد، أولهما أنه
 موهما مثل هذا بشكل زيادة الإفريقية وشرفها، أما الخطأ الثاني فإنه يؤدي إلى تشييد
 أو صر التماس والتأزر التي تجمع الأجيال العربية والإفريقية فيجعل منها كتلتين
 متضادتين!

وما هو جديد بالذكر ما يعمد إليه أعداء التعاون العربي الإفريقي من التركيز
 على ما سببه الدول العربية التهمية من أضرار باقتصاديات الدول الإفريقية خلال
 أزمة الطاقة العالمية، وأنه كان لها أثر في التضخم لاقتصادي والكماد العم السى
 أدى إلى حذوية موازين مدفوعات الدول الإفريقية وانقار اقتصادياتها واختفة
 أن دول النفط العربية قدمت إسهاماتها الإيجابية لتخفيف لأضرار لاقتصادية التي
 لحقت ببعض الدول الإفريقية وغيرها من دول بعلم الثالث من خلال صندوق
 لتسمية الإفريقي وصندوق عقد الدولي، أو من خلال تقديمها للمعونات
 والقروض مباشرة.

وبالإضافة إلى ذلك تعتمد وسائل الإعلام لأجبية إلى انتركيز على أن الدول
 العربية تنفق بحساء على ماء نرسمات الدبية دور العنية بالمتطلبات الضرورية
 للشعوب الإفريقية، مثل هذه الحملات تتجاهل الروابط الروحية بين العرب
 والأفارقة وهي في تقديرنا أكثر اهتماما، وإن كان ينبغي في الوقت نفسه أنه
 تفتقر بالمتطلبات الضرورية والأساسية لشعب الشعوب.

كل ذلك يعد أعداء التعاون العربي الإفريقي إلى تيت قناعه في دول
 الإفريقية بأن يستخدم الدول العربية التي تجمع بين اليوثية العربية والإفريقية إلى
 منظمة الوحدة الإفريقية التي تأسست في عام ١٩٦٣، قد أوهن لمضة وورطها في
 مشكلات القائمة بين الدول العربية الإفريقية كالمنازعات الحدودية بين المغرب
 والجزائر وبين العرب والبوليزاريو وغير ذلك من المشكلات الأخرى

وما كان التوسع من العرب الإفريقي يشكل حتمية تاريخية وعسكرية فمن الضروري لمباحثين العرب والافارقة التصدي لكافة المعاولات التي يراودها زيادة الثقة بين الفريقين. ومن ثم كان اهتمامنا في هذا الكتاب ببرز عمق الروابط العربية الإفريقية حيث عالجنا في الفصل الأول ما كتبه العرب عن إفريقيا من مصنفاتهم ومسجلاتهم. وذلك قبل أن تبدأ أوروبا التعرف على سواحل القارة الإفريقية

وعالجنا في الفصل الثاني استقرار العرب في سواحل شرق إفريقيا وتأسيسهم للحمد والإمارات الإسلامية بحكم الروابط التي كانت قائمة بين سواحل الخليج والجزيرة العربية وسواحل المشرق الإفريقي.

وفي الفصل الثالث سنت لبرية بالتعرف على السلطات الإسلامية التي أحاطت بالحدود حيث كان العرب والمسلمين مع سلطات مزدهرة أطلق عليها المصنفون العرب دول الطراز الإسلامي. كتب توغلل العوي في بلاد البوابة، وظهرت العديد من الإمارات والسلطات الإسلامية

أما الفصل الرابع فقد تعرضت فيه لعلاقة العرب بأقاليم غرب السودان وما نتج عن توغللهم في تلك الأقاليم عبر الصحراء الكبرى من انتشار المؤثرات العربية والإسلامية والغضاء على الممانك الوثنية وقيام دول إسلامية على أنقاضها من وإلى ظهور محاور إسلامية كان من أبرزها مدينتا تيككو وشنقيط.

وتعرضنا في الفصل الخامس من الكتاب إلى مناقشة مسألة الرق وتجارة الرقيق في إفريقيا باعتبارها ظاهرة اقتصادية سادت المجتمعات العربية والإفريقية آنذاك. وإذا كنا قد حارنا في هذا الفصل بجهود مقبولة بين تجارة العرب في الرقيق وتجارة الرقيق الأوروبية فلم يكن هدفنا من ذلك الانحياز إلى أساليب تبريرية أو اقتصادية إيماننا بأن الاسترقاق هو لاسترقاق سواء صغر أو كبر حجمه وسواء حس أم سهت أساليبه وإنما كان الهدف دحض ما روجته المصادر الأجنبية من أن القتل الجغرافي من العدم القديم كان بمثابة سوق كبير يحتاج إلى إمداد صحيحة من الرقيق إذ إن هذا المصدر لم تفرق بين الرق في العدم العربي والعالم العربي، فعمى حين تدخل الأوروبيون والأمريكيون من الرق نظاما اقتصاديا فيه كان بشكل

عند العرب على لأعلى بغير جزماء كما أن حدود الرقيق لم تكن هي لسمه
لتي انصرفت به النشاط لاقتصادى العرب إذ لم سوق الرقيق فى تعامل العربى كان
محدود وسهل التشبع إذ لم سوق الرقيق العربى وبغضلا عن ذلك هذه
الرجوع إلى بصللت العربية التي كنت عن إفريقيا يمكن أن نعرف منها بسهولة
على منتجات الإفريقية التي كان يقوم العرب بالأشغال بها أو بالبادلة عليها غير
الرقيق .

أما فصول لتقية من الكتاب - السادس والسابع والثامن - فقد تناولت دور
القوى الاستعمارية فى تفكيك سلطة الخديوي والنقضاء على ما وصف إليه مصر من
امتداد فى القدرة الإفريقية، إضافة إلى دور هذه القوى فى تصدى الحركات البعثية
والإحياء فى عرب إفريقيا

بقى أن نشير هنا تأكيداً بروبط العرصة الإفريقية إلى التداخل بين
العرب العربى والإفريقى، فهناك عشر دول عربية تقع فى بقارة إفريقيا يجمع
موطنوها بين هويتهم العربية والإفريقية، كما تبلغ مساحة مواطن العرب فى
إفريق أكبر من مساحتها فى آسيا ويصل تعدادهم فى إفريق إلى أكثر من ثلث
سكانها ويتنسى فلا يوجد فى إفريق كنها شعب يذانبهم فى العدد أو يشغل من
أرضها قدر ما يشغله

وإذ كانت الحقائق تاريخية وأخرافية واسيموجرافية تؤكد أنه ليس هناك
إفريق دون عرب، كما أنه ليس للعرب وجود مستقل عن القارة الإفريقية، فمن
هذا تبرز أهمية الدعوة إلى وضع منهج جديد لدراسة تاريخ إفريقيا بحيث لا يقتصر
على الرؤية الاستعمارية أو الرؤية الإفريقية المعرطة فى شخصيتها أو شيوعيتها،
وحين يتم لتوصل إلى هذا المنهج فإن تاريخ العرب سيحتل جانب هام فى تاريخ
إفريقى



الفصل الأول

إفريقيا في المصنفات العربية

ترجع أهمية المصنوعات العربية إلى أنها كتبت في عصور كانت القارة الإفريقية فيها بعدة عن مجال المعرفة الأوروبية، ولذلك اهتمت المعلومات التي وردت فيها من إفريقيا مادة غريبة وأصيل في نوعها. وهذا لا شك فيه أنه قد سبق جغرافيو العرب ورحلاتهم ومؤرخوهم وملازمهم في العالم الغربي على مجال المعرفة الإفريقية^(١) ولاأوروبيون هم يركزون اهتمامهم على القارة الإفريقية ومحاولة كشف مجاهلها، إلا في أعقاب حركة الاكتشاف البحرية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، كما أن كتاباتهم انحصرت على السواحل ومصبات الأنهار الكبرى حتى أواخر القرن السابع عشر، وذلك قبل أن تبدأ عمليات الارتداد الأوروبي فاحل القارة الإفريقية^(٢). وعلى العكس من ذلك ظهرت كثير من المعلومات الخاصة بإفريقيا في المصنوعات العربية ابتداء من القرن التاسع الميلادي إذ يتفق كثير من الباحثين على تصحيح اأسماء الجغرافية وانتعاشها عند العرب حول ذلك الوقت بسبب ما أقدموا عليه من ترجمة الكتب اليونانية والرومانية وإضافاتهم إلى المعارف الجغرافية القديمة لكثير مما توصلوا إليه نتيجة أسفارهم في آسيا وإفريقيا والمحيط الهندي، إذ كان للشاهد التجري أثر كبير في تطور المعرفة الجغرافية سبب ازدهار التجارة البحرية وامتدادها شرقاً إلى الصين، وشمالاً عبر أواسط آسيا حتى سواحل البلطيق، وجنوباً إلى أجزاء العربى من المحيط الهندي

(١) يتصرف حتى جهود العرب الكاشفة في إفريقيا يمكن الرجوع إلى أطلس إفريقيا وعصر الجغرافيا الذي نشره الأوروپوسب كمال في خمسة مجلدات بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ - كذلك يمكن الرجوع إلى شارل دي لا بروس في كتابه لاكتشاف إفريقيا في العصور الوسطى الذي نشره الجمعية الجغرافية المصرية بين عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٧ فظر

Charles de La Rencine, La decouverte de l' Afrique aux Moyen Age. Le Caire 1921
١927

(٢) عبد الرحمن زكي - التراجع العربي للتاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا، راجع مباحثات العلوم الفلكية للجمعية المصرية للعلوم والتاريخ ١٩٦٧ / ١٩٦٥ ص ٩

والساحل الشرقي لإفريقيا حتى جزيرة مدغشقر وغرباً إلى أراضي سودان ولعل ذلك كان حافزاً لظهور كثير من المصنفات التي تناولت هذه البلاد بالوصف أو المشاهدة كما أن اتساع العالم الإسلامي كان دافعاً بدوره إلى وضع المصنفات الجغرافية مما يشمله من مسالك ومخاطبات من مخالك.

ولدينا بكثير من المصنفات العربية لعمدة التي عيب بنسجيد بعض المعلومات عن إفريقيا يمكن تتبعها حسب توافدها الرسمى حيث إنهم تكونوا متصلة تكاد تكون متصلة الحلقاء تبدأ من القرن التاسع الميلادي وتنتهي في القرن الخامس عشر وقد يكون من السهولة أن يستعرض من خلالها مدى تقدم المعلومات الخاصة بإفريقيا وتبعها من وقت إلى آخر وعلى الرغم من يأخذ بعض مستشرقين على هذه المصنفات من نوح كثيرة من القصور من ذلك مثلاً أن المتقدم في المعلومات الخاصة بإفريقيا ليس مطرد بالنسبة لتوالي السنين أو أنها - باستثناء بقيت منها - ليست موفقة بالحاجة في حين أن راصحها كانوا أولى من غيرهم في تسجيل معلومات وأهية عن مناطق كانت تشكل جزءاً من العالم الإسلامي وأن كثير مما ورد فيها كانت تحنطه الأسطورة أو الخيال في درجة أن منطقة شرق إفريقيا كانت تعد من المصادر الهامة للأساطير الجغرافية في الأدب العربي^(١) لا أنه على الرغم من ذلك فإن هذه المصنفات تعد في تقديرنا ذات أهمية بالغة ويمكن أن تقول أنها حاولت إلقاء الضوء على بعض المناطق الإفريقية في الوقت الذي لم تذكر فيه المصادر الأوروبية المعاصرة لها شيئاً باستثناء ما ذكره ماركوبولو Marco Polo الذي قدم برحلاته المشهورة إلى شرق في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٩٥) وأورد بعض المعلومات البسيطة عن مفديشيو وزنجبار وتجاره الأخيرة بالعاج بوجه خاص^(٢)، على أن ما يأخذ المستشرقون على هذه المصنفات من قلة المادة التي وردت فيها عن القارة الإفريقية إنما يرجع في تصورنا إلى أن المناطق الإفريقية التي ورد ذكرها في المصنفات العربية كانت تعد معطرفة عن قلب العالم الإسلامي ومن ثم فلم تحظ بشيء كبير من اهتمام المصنفين كما أن ما يأخذ المستشرقون على

(١) فرانكفونكر تاريخ الأدب العربي منذ العرب (مترجم) القسم الأول، ص ١١.

(٢) Travels of Marco Polo, Trans. by A. Ricci, p. 341-345.



بعض هذه المصنعات من غلبة الأسطورة أو الخيال لم يلق حاقلاً دون استخلاص الكثير من الحقائق والصور الحية، وعندما عديها، حتى أنه من الإصاف أن يؤكد هنا أن هذا كثيراً من المؤرخين والمؤرخين الأوروبيين لم يستطيعوا أن يتجاوزوا فصل الرواد المعرسة من جغرافيين ورحالة ومؤرخين إذ أنهم أشاروا في بحوثهم ومؤلفاتهم إلى ما كتبه هؤلاء عن القرون الإسلامية التي ظهرت وعلى الأخص في غرب إفريقيا، نذكر منهم بوفيل Bovill، وبير Palmer^(١)، ودي لاغوس، كما عترف غيرهم بعمق المؤثرات المعرسة والإسلامية في شرق إفريقيا من أمثال جيان Guillain وجيريل فرب Fernand، وريو Reinoud، وجريميل فريمان Freeman، وغيرهم كثيرون.

وقد تصديدا بعضاً خاصة أخبار الرحالة التي قام بها العرب في إفريقيا فهي أدعى إلى تعريضنا بما وصلوا إليه من معرفة ببعض أحوال القارة الإفريقية. ولكن من المعروف أن الرحالة العرب لم يسووا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادر، أم معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات في وضعه من كتب التاريخ أو جغرافيا البلدان، كما أشار بعضهم إلى رحلات قام بها غيرهم ولم يصل بها غيرهم إليها شيء من تأليف أصحابها أنفسهم. وقد تناثر الجغرافيون العرب في القرنين ثامن والتاسع (الميلاديين) بأن معظمهم كانوا من الرحالة جمعوا كثيراً مما كتبه عن طريق المشاهدة والأسماء ولعل أقدم الكتابات العربية عن غرب إفريقيا تلك التي كانت متعلقة بمسكة ضانا، حيث كانت تعد من أوائل اللؤلؤ في غرب إفريقيا التي اكتسبت قدراً كبيراً من الشهرة والثروة، وكانت تعد من شمال النيجر الأعلى، وكان المرادى العنكي أول من كتب عنها، فهو يشير بإختصار جتمع إلى أرض لهب وذلك حد ريارته لها، خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي (٧٣٣م)، كما زارها الخوارزمي خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي (٨٣٣م)، وحدد موقعها في خريطة التي نقلها عن بهيموس، كما تحدث عن السودان العربي، وعن الحملات العربية التي وصلت إلى جنوب الصحراء.

Palmer H. R. History of Katsina, Journal of the African Society XXVI, April (١) 1927, pp. 226-232.

الكبرى، وكان مما ذكره حينئذ ذلك المؤرخ عبد الله بن أبي حنيفة البهري لوس
وأرض السودان فظهر بهم ظهر لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب، ثم لبيا
اليقوي (٨٧٢م) الذي قام برحلات كثيرة في بلاد فارس والهند ومصر والمغرب،
وقد استعاد من رحلاته الكثيرة هذه فيما وضعه من مؤلفات إذ ذكر في مقدمة كتابه
«البلدان» «إني عييت في عقول شدي وعذ أحياي سى وحفة ذهني بعلم
أخبار البلدان والصفة ما بين كل بلد وبلد لأنى صارت حديث ناسن وانصبت
أسفاري ودام تعريي»، ويهنا من كتاب اليقوي فيما يحتض إفريقيا ما يتعلق به
بالشمال لإفريقي وتاريخ ممالك السودان الغربي وتخصصة أن اليقوي رأى طبعه
معظم ما عرض له في كتابه فعد أشار إلى مناجم الذهب وقوافل الرقيق في غرب
كما أشار إلى جوار واعتبرها أكبر ممالك السودان، ولكنه ذكر عن غافا أنها كانت
قوية أيضا

وحول منتصف القرن التاسع الميلادي يبرز أمامنا سليمان التاجر وكتائفة من
ذلك النوع الذي يمكن أن نسميه أدب المميزات أو القصص سحري^(١)، وقد ترك
لنا وصفا حيا لساكني الشرق من إفريقيا والجزر والموانئ المختلفة وأبدن ومكانها
والعاصيل والمنتجات وبلغ التجارة، كما نجد في كتاباته وصفا شدي لأخير الملاحة
في المحيط الهندي، وقد وصف بالإضافة إلى ذلك بلاد الرجب بقوله
«وبلادهم واسعة الأرحاء ونباتاتهم لا تنمو إلا سوداء في لون بشرتهم»، ونظرا
لعدم وجود معلومات متوافقة عن شخصية سليمان فإذ بعض الباحثين قد تشكك
في سبب هذه القصص إنه إلى أن أكد المستشرق الفرنسي جبريل فيران Porrand
صحة نسبتها إليه، والجدير بالذكر أن كتابات سليمان التاجر قد أقيت عناية خاصة
من العلامة رينو Reinard كما أخرج سوفاجيه دراسة أخيرة لها منذ عدة

Reinaud, Relation des Voyages fait par les Arabes et Persans à l'Inde et la Chine, (١)
Tome, I p. 177

(٢) قرنتكوسكي (الغليسي)

لأربع الأدب الجغرافي عند العرب، القسم الأول من ١٢ وما بعده، نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول
للمربية، ترجمة صلاح الدين عثمان.

وفي أواخر القرن التاسع الميلادي يبرز أسماء ابن خردادبة، ويقرر لتشرق السويدي أعاصير كراشوفسكي، أن جميع مؤلفات ابن خردادبة وأشهرها كتابه «السياح والممالك» لا تعرفها، ولا من أسماءها فقط، أو من الفسحة الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو للإشارات إليها في مصنفات المختلفة^(١) وقد اختص ابن خردادبة بلاد الرجب بتصويب أوفر من كتاباته عن إفريقية.

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي يسترعي اسمها كتاب الجيدان لاس لعميه ابهيداني (٣٩٩ م) ولجهد فيه إشارات وأصحة عن مملكة عانا وعاصم بالذهب. ثم الحبري للدرسي أبو علي بن رسته في كتابه «الخلق بكس» الذي كتبه بعد عشر سنوات من بن ألفيه (٩١٣ م)، والذي لا يعرف منه حتى الآن سوى الجزء السابع في العلكة والجغرافيا، ولكن هذين المصدرين - أو على الأحرى المادة التي تقيدها - فيهما على الأقل لم يتعرضا، لا بإشارات بسيطة عن القدرة لإفريقية باستثناء ما ورد فيهما من معلومات مفيدة عن بلاد الرجب التي عثرها ابن رسته أحد حدود العالم الذي كان معروف في عهده، أن ابن العقب فقد بحث بلاد غاب، كما سبق أن أشرنا، بتفصيلات أكثر فذكر الكثير من نباتاتها وحيواناتها وركز بصفة خاصة على فنانها بالذهب^(٢).

وفي أوائل القرن العاشر ميلادي نشر كتابات أبي زيد السيري (٣٨٧ - ٩١٥ م) الذي كان يعاصر لمعوي، ولكنه مات قبل أن يبدأ لمعوي رحلته، ولم يكن أبو زيد - وينسب إلى سيراف على الساحل الشرقي بدخليج العرب - رحالة أو جوارب آفاق، وإن كان مؤلفا المختصر على جمع وتدوين قصص لتأجير سليمان^(٣)، وأصناف إليها ما عرفه من رويات نقلها عن متجار الذين جاءوا بهجار

(١) بلصر السابق من ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) الطور واليسون: إفريقيا تحت أسماء جديدة ترجمة جسنار أحمد من ١٩٦٨.

(٣) ملكه مالى عبد الجفرايين لسمي - هو من جمعها وعلق عليها وقدّم لها صلاح الدين المنجد ج ١ من ٩ نقلا من كتاب البلدان لابن الفقيه.

(٤) ابن سليمان الداجر وأبو زيد السيري في كتاب.

Gabriel Ferrand, Documents Historiques et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turcs de VIIIe aux XVIIe siècles Tome I, p. 93 [Paris 1919].

(٥) راجع رينود رينود في أبو زيد السيري وسليمان الداجر
Relation des Voyages faits par les Arabes et Persans à l'Inde et de la Chine, Tome I p. LV II



الشرقة بعد أن عبر رندل من كيانها، وبذلك تبدو كتاباته على أنها نوع من أساطير البحر. وقد أحسد السيرافى في وصفه لبلاد الرّيح فذكر عنها بالإضافة إلى ما نقله عن التاجر سيمان أن بها موكد يعرف بعضهم بعضاً، وأن أهل الرّيح يحترمون العرب الذين بهم في غلوبيهم هيئة عظيمة^(١)، ويوقع أن كثير من المسموعات المتعلقة بشرق إفريقيا بصفة خاصة كانت مادة هدية للمعمرات، سدائد البحري ولقصاص ألعب ليلة وبيلة التي كانت تتجمع في ذلك الحين. إذ من المؤكد أن تكون بعض هذه لقصاص قد استرجعت من رحلات العرب في شرق إفريقيا لأنّه يوجد في المدينة بساحل شرق إفريقيا صخرة لا يزال الأهالي هناك حتى الآن يسمونها بصخرة السدائد^(٢).

وتطرد المسموعات العربية الخاصة بإفريقيا في القرن العاشر الميلادي بظهور أبي الحسن المسعودى الذي بدأ رحلاته في شرق إفريقيا بعد وفاة سيرافى، فاعترف أن المسعودى تردد على شرق إفريقيا في الفترة ما بين عامي ٩١٦ و ٩٢٦م إذ كانت له أكثر من رحلة قام بها في تلك المنطقة^(٣)، ويصفه بعض المستشرقين بهيراجوت العرب^(٤)، ولكن للأسف أن لا نعب من آثار المسعودى، لا كثيرين لا سبل إلى التعرف على دينا العرب التجارية في عهده برهر إلا بهما وخاصة ما يتصل منها بساحل شرق إفريقيا. وأشهر هلمين المؤلفين كتاب المسروج لسحب ومعدن استوحه أسد هكذا ليشير رغبة قارك في الاطلاع على ما كتبه، ويبدو أنه انتهى من تصنيفه هذا السفر الحاد في عام ٩٤٧م، ويعتبر في نظر كثير من المستشرقين خير ما كتبه وحالة لعصور الوسطى على وجه الإطلاق. وإن كان ما يوحده على المسعودى أنه على الرغم من أنه أقاص كثيرا في حديثه عن شعوب

(١) انظر مسند فتوح - دار العبادة السطانية باريس سنة ١٨٠٩ ويوجد هذا الكتاب معك بكتاب رينر من

رحلات العرب والفرنسي إلى الهند والصين

(٢) انظر في الرحلات العربية في المحيط الهندي

Rainard, Relation des Voyages fait par les Arabes et Persans à l'Inde et la Chine, 2 Tome 1875.

(٣) المسعودى: تاريخ الذهب ومعدن البحر ج ١ ص ٨٩

Freeman - Grenville, The Medieval History of the Coast of Tanganyika p. 40. Ber. (٤) in 1962

الزنج إلا أنه لا يتحدث من الاتصالات مباشرة وقعت بينه وبين سكان المدينتي التي زورها مما يجعل غيب إلى القول أن معظم المعلومات التي لطعن فيها المسعودي - إن لم تكن كلها - ربما يكون قد استقفاها من أحاديثه مع البحارة الذين سافر معهم في رحلاته، ومع ذلك فإن المسعودي بكتباته قد أضاع الطريق أمام الباحثين في تاريخ هذه المنطقة^(١) . ولقد فقد يكون من المناسب أن نعرض لأهم ما ذكره المسعودي خاصا بشرق إفريقيا، من ذلك حديثه عن بحر الزنج (جزء الغربي من المحيط الهندي)، ووصفه بالخطورة الشديدة في عبارة شهيرة له يقول فيها : «ركبت عدة من البحار كبخسر الصين والروم والقيروم واليمن وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصي كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج فموجه عظيم كالبحال الشواقي وهو مرج أحمر يريدون بذلك أنه يرتفع ارتفاع الجبال ويتحطم كاستحضر ما يكون من الأودية لا يكسر موجة ولا يظهر من ذلك ريد» ، وقد وصل للمسعودي إلى ساحل شرق إفريقيا بصحبة ينحدر من عمان وسيراف من مدينة سنجار «صحارة» وهي قصة بلاد عمان في ذلك الوقت، في جماعة من بواخيل السرافيين، وهم أريد الراكب، يقول المسعودي «ركبت فيه سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قبيلو إلى عمان وذلك في مركب أحمد وجد الصمد أخرى عبد الرحيم ابن جعفر السبرالي^(٢) . وقد أقام المسعودي على ساحل شرق إفريقيا زمنا، وحاول أن يتخطى الساحل إلى الداخل ولكنه لم يعمل إلى أبعاد كبيرة.

وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادي شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودي لا يتحدث عنها، وإنما اقتصر في وصفه على الروج فذكر أنهم يعيشون في إقليم يحده مسافة ألف وخمسمائة فرسخ على الساحل صوب الجنوب في المنطقة المحتلة فيما يعرف حاليا بالقرن الإفريقي شمالا إلى موزمبيق جنوبا . ولعن المسعودي كان أول من أدرك أن الروج ليسوا أمة واحدة بل هم قبائل شتى وشعوب مختلفة وفيما يبدو أن المسعودي قد وصل إلى أقصى منطقة وصل إليها العرب، فقد ذكر أنه

(١) يازل فالفيسون (مترجم) إفريقيا تحت أمراء، جطية من ص ٢٢ ٢٢٥

(٢) المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١ من ص ٣٢٨ - ٣٣٢، نشر دار الراجلة - القاهرة

وحمل إلى أقاصي بلاد الرّيح ونهبها تفصّل التراكيب العمالية والسيرانية، وهي حاية مقاصدهم في أسافل بحر الرّيح، وحلّد بلاد صفدة بأنها أقاصي بحر الرّيح وأقاصيه بلاد واق التواق، وهي أرض كثيرة الذهب كثيرة العجايب خصبة حارة بم ينهب أحد من فيه ولا من بعده من الوحالة العرب خلال المصور لومطى ور * هذه لطفة، والأرجح لفياء فيه يقرره كثير من الباحثين هو أن العرب لم يجدوا بعد سفانة ما ينافرون من أجبه فلم يكلّفوا أنفسهم مشقة بعد هذه السفنة، إذ كانت سفانة قديمهم بكل ما تستطيع مراكزهم أن تحمله من عاج أو ذهب أو رقيق^(١)

وقد بدأ السعدي حديثه عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة عن الهجرات الأولى التي قام بها أبناء كوش، وكيف ألجئوا بحب بين الشرق والعرب وسكوا أجزاء الشرقى من المرقية والجنوب الشرقى، وكروا شعوب البحة والسوبة، أن الرّيح قديم الذين لا يروا وحدهم سيرهم جنوباً وراه النيل الأعلى، وهم الذين فيه يقوى السعدي، اتخذوا دار محفكة وملكوا عليهم ملكاً سموه وقلبعن، وهي سمة ميوكهم في مائر الأمصار، ومن أهمية كتبات السعدي بهذا ذلك أنها تحدثنا عن أول دولة للرّيح تخلص، وهي غير سلطنة الرّيح التي تأسست في القرن العاشر الميلادي، واتحدت من مدينة كنوة حاصنة لها^(٢) وقد ذكر السعدي أن الرّوج يقتلون ملكهم حين يجزور عبيهم، وأن وقلبعن معها ابن العرب الكبير الذي عندهم ممالك السموات والأرض وسموه مكلجلو البركب وقلبعن - وهو يملك ميوك سائر الرّوج - في ثلاثمائة فرس، ودوابهم بقدر ويس في أرضهم خيل ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد، كذلك أشار السعدي إلى غنى المملكة بالذهب، وأن الرّوج هو عاصمتهم في أقصى الجنوب لتكون على مقربة من مناطق استخراجها وأنهم يصنعونه بكسرات وافر^(٣) ولعل السعدي

(١) جمال زكريا - قاسم - مصادر العربية لتاريخ شرق إفريقيا - مجلة الجمعية القارية المصرية - مجلد ١٤ ص ١٦٩ - ٢٣

(٢) انظر الفصل الثاني

(٣) للسعدي: مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٢.

يكون بذلك أول من كتب عن مناجم الذهب التي تشتهر بها بعض البروتيبات في
 اواسط إفريقيا (رامب وما لاري حنب)، ولكن السعدي لا يتحدث بوضوح تام أين
 كانت عاصمة سوفيس، ولا في أي سنة أسست؟ وعلى أي حال فمن المستبعد أن
 تكون هذه العاصمة في منطقة كما أشار إلى ذلك في بعض المواضع لأحمد كاتب
 محمد بنهار العرب، والأرجح كما يؤكد جيلاد *Guillard* استنادا على ما كتبه بن
 سعيد بعد ماكنى عام من رحلات السعدي أن عاصمة سوفيس في سنة ١١٠١
 كانت في نفسها المنطقة التي اكتشفها البرتغاليون والتي تقع على بعد مائة وخمسين
 ميلا من ساحل بعد مصب الرمييري ويسمى فيها قلعه من أهم قلاعهم وقد أشاد
 السعدي بمهارة البروج في أشغال المعادن وفي التجارة والزراعة أيضا - حيث ذكر
 بعض محصولاتهم - وفي صيد الأسماك لبعض النخيل، وأنهم حريصون على
 الحديد أكثر من حرصهم على الذهب حيث يتخذون من الحديد حللهم أما الذهب
 فيصنعون منه سلاسل ذواتهم، ولعل ذلك لكثره إحتاجهم به كما وصفهم بأنهم
 أهل خطبة وفصاحة بداهة في أحاديثهم^(١) ويقول السعدي في اختصار جامع
 البروج مع كثرة اصحابهم من القبيلة وجمعها لتعده غير متبعة بشيء من ذلك
 في آلتها رغم تبحرهم في الرعي بالجميد بدلا من الذهب والفضة، ثم يشير إلى ما
 يرموه البروج وما يأكونه فيقول: «والعالم على أقناعات البرج الفرة وبات يقاتل
 له الكلالى ويشبه القنقش» ومن غذائهم أيضا العسل واللحم، والبرج جرد علة
 قريبة من الساحل يستعملون في تنج من فواكه، ويحبون الخطبة وفي الكلام،
 وفتحهم نعين على ذلك حيث يقوم في القوم منهم رجل تقى يحثهم على طاعة الله
 ولا مثال بأوامره، ويسرعهم بالعقوبات الأليم، ثم يحضروا لأوامره، ويذكرهم في
 أكثر الأحيان في حق بأسلافهم من حروب حين سوا كلمة الله^(٢)»

وقد ركز السعدي في حديثه عن شرق إفريقيا على جزيرة قبلو ذكر عنها
 أنها جزيرة حارة فيها قوم من المسلمين يبيعون كفاف البروج، وكلهم في حكم أمير
 مسلم، لا أن لغتهم رنجية، وتردد عليها المراكب العمانية، وأشار إلى أنه وصل إلى

(١) السعدي ' مروج الذهب ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٤

(٢) كتابه ص ٣٣٣

قنبلو في رحته من مدينة مسجل مع جماعة من البحارة السيرافيين، ثم عاد في عام ٤٣٠ هـ من جزيرة قنبلو إلى عمان. ويبدو من كتابات المسعودي أن العرب كانوا قسبيين على دعام الملاحة في المحيط الهندي وخاصة في الجزء العربي منه الذي يتصل بسواحل شرق إفريقيا^(١). وقد حدد المسعودي تاريخ استقرار المسلمين في قنبلو بقرن ونصف قرن قبل رحته إذ قال إن المسلمين غلبوا على هذه الجزيرة وقتل في بلد الدولة العباسية. ولكن التاريخ الذي ذكره المسعودي لا يكاد يوافق تأميس أية إمارة عربية أو هجرة ملحوظة إلى شرق إفريقيا ولعله يكون قد تجاوز في تحديده بضع سنوات من نزول العرب بهنـه الجزيرة خلال هجرة نريديس إلى ساحل شرق إفريقيا وإذا صح هذا التجاوز وهو على أية حال لا يتعدى متوابع قنبلة، فلأننا نستطيع أن نرجع سبب نزول العرب في جزيرة قنبلو بأنه كان نتيجة هجرة النريديس إلى المنطقة على أن الموضوع الذي أشار إليه ليس كثير من الباحثين هو أية جزيرة كان يعيها المسعودي بجزيرة قنبلو. حقيقة أن المسعودي وضع بعض التحيينات الجغرافية الخاصة بموقع هذه الجزيرة؛ ولكن نظرا لكثرة عدد الجزر الموجودة على مقربة من ساحل شرق إفريقيا فلما لا نستطيع أن نحدد تحديدًا لفظ أية واحدة منها، وإن كان المشرق الفرنسي Roinaud يترى ميل بأن تكون جزيرة مدغشقر هي الجزيرة المقصودة بذلك؛ إلا أنه التحيينات التي أشار إليها المسعودي تكاد تطابق عليها إلى حد كبير^(٢). وإن كان ما يزال هناك اعتراض هام وهو . لماذا لم يحدث المسعودي عن عظم مساحة هذه الجزيرة إذا صح أن تكون قنبلو هي جزيرة مدغشقر التي كان يعيها؟ أما بقطان جيان فيميل إلى اعتبار هذه الجزيرة إحدى جزر القمر، ويحددها بالجزيرة الكبرى على وجه خاص؛ وهي

(١) يرجع في ذلك عهد حمراني العرب والملاح في المحيط الهندي، وكذلك آدم مشر * الخضاوا الإسلامية. (مترجم) ج ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٠

(٢) يعمل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن جزيرة قنبلو هي بعثها جزيرة مدغشقر استنادا إلى وجود كتابات عربية كثيرة في مدغشقر مما يؤكد دخول الإسلام إليها . وقد اعتنى كثير من مكاليه الدين الإسلامي وأثر العرب تأثير كبير في تكوين الجنس الميجيشي الذي يتألف أساسا من السكان الأصليين ومنغوم الملايو انظر

Roinaud, Relation des Voyages Faits par Arabes et Persans affide et de la Chine. Tome I pp. 131 - 133.

جزيرة ياقوت أو لاجريجة كما كانت تعرف في ذلك حين، والتي سيطلق عليها
الإيراني فيما بعد جزيرة الرانج ولكن التحديدات التي أشار إليها المسعودي
تختلف مع موقع الجزيرة خاصة من حيث تحديد أنها تقع على مسافة خمسة
فراسخ من عمان إذ إنها في الواقع تقع على مسافة أبعد من ذلك^(١).

وهناك من يرى اعتبار جزيرة قبلو هي جزيرة رنجار، وعلى الرغم من اشتراك
عليه من التسمية المحيطة لسلطنة كلوة أن العرب وصلوا إلى هذه الجزيرة قبل زمن
طويل من رحلة المسعودي، إلا أنه لا نستطيع مع ذلك أن نرغم أن تكون قبو
هي إحدى جزر باب أو مهاب أو رنجار، لأن سوق معظم مرة أخرى بالتحديدات
التي أوردها المسعودي بالنسبة لموقع جزيرة قبو، والتي أكد فيها أن الجزيرة تبعد
عن القارة مسيرة يوم أو يومين بينما هذه الجزر التي أشار إليها تسمى من الشاطئ
ولا تكاد تبعد عنه سوى سوي سويغات قليلة، وإن كان الاعتراض لأكثر أهمية هو ما
ذكره المسعودي أن هذه الجزيرة يسكنها مسلمون يتكلمون لغة الروم، ولما كان
يعرف أن العرب هم الذين تغلبوا على هذه الجزر قطعة الحار كانوا يتحدثون
اللغة العربية، ولهذا السبب لا يمكن اعتبار واحدة من هذه جزر الصغيرة هي ما
كان يعنيه المسعودي بجزيرة قبلو، أما المستشرق الفرنسي فيران فونه لم يقطع برأي
معين ممكنًا باعتباره قبلو إحدى الجزر التي تقع في البحر الجنوبي العربي من
البحر الهندي^(٢) وعلى الرغم مما ذهب إليه يبدو في أن تكون جزيرة قسنو هي
المقصودة بجزيرة مدغشقر ولا أننا لا نحيل إلى الأحاد برأيه معضين لأحد برأي
حيات وهو ذلك سمينة - الذي كان على علم بصفة بحال بقرب الملاحة إذ أكد
أنه لا يمكن الوصول إلى جزيرة مدغشقر في زمن المسعودي، لا بالوصول أولاً إلى
جزيرة القمر، فكيف لم يحدث المسعودي حر تلك الجزيرة؟ ومن ناحية أخرى إن
جزيرة مدغشقر كان لها لغة خاصة بها تختلف عن لغة الزنوج، وذلك اعتماد على
أبحاث فيران، ثم لا يمكن التسميم بفتح السبعين لجزيرة كبيرة كهذه وتخليهم

(١) سيد - والتي تاريخاً وجغرافياً وجزيرة من شرق إفريقيا من ٩٣ - القرن ١٢٢٧

Ferrandi, Documents Historiques et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turcs (٢)
relatifs à l'Extrême Orient de XIIIe aux XVIIe siècles Tome I p. 91 Paris, ١٩١٣.

عليها في وقت بدء هجراتهم إلى المنطقة. وأخيرا فإن المسعودي على الرغم من أنه قدم معلومات هامة عن شرق إفريقيا إلا أنه لم يذكر ك شيئا عن أحوال المناطق التي حدث فيها احتكاك مباشر بين العرب والمناطق الساحلية التي وصل إليها. وما لا يقبله المنطق بطبيعة الحال أن يكون المسعودي قد قدم برحلاته العديدة بقصد مشاهدة جزيرة قنيلو دون سواها، أو أن السفن التي كانت تعمل لم ترس على جهة من الجهات غيرها. واكتفى بإيراد الروايات التي سمعها من البحارة عن ليلاذ الداخلية، وعاصمة لنا لا معتقد أن يكون قد تعمق في الداخل كثير (١١) على أنه يحكم أن نصل إلى تعميل منطقي وهو أن للمسعودي عدم اتجاهه إلى دراسة الجهات التي مر بها لم يهتم بإيراد المراكز والإمارات التي أسسها العرب، أو التي وسموها إليها. على الساحل منذ عهد بعد قرن بدء رحلاته إلى هذه المنطقة، وإن كان ذلك مما يستدعي لأسم الشبه، لأن الرمي الذي وسمه للمسعودي إلى شواطئ شرق إفريقيا كان عهد تأسيس عدة مدن وإمارات هرة إسلامية صارت فيما بعد من أهم مراكز هذه الشواطئ وأرفعها شأنًا كما أن المسعودي لم يحاول - وكان ذلك لبوء - أن يضع صورة واضحة عما شاهده بنفسه أو يروي تجربته الخاصة بذلك فإنه لم يفعل ذلك لكان من المؤكد أن يأتي بـ «أحجر أومي» وإني أكتفى للمسعودي يذكر ما تورد إليه من أحاديث صحابة الذين كانوا يصنونه إلى تلك المناطق، وأمر لم يذكر المسعودي صراحة أنه شاهد بنفسه بعض مناطق شرق إفريقيا. حار لنا أن نشكك في أنه لم يشاهد هذه الليلاذ مشاهدة العيان، ومع ذلك فإن ما أوردته للمسعودي كان يمكن أن يكون أكثر جلاء لو أن مصنعاته الكبرى لم تسبها يد الصباغ، وخصص منها كتابيه الكبيرين «أخبار الرمان» ومن أباده الخطائير الذي كان يقع في أكثر من ثلاثين جزءًا، وذلك كتاب «وسيلة» إذ إن هذين الكتابين مع لأسم لا يرددهما إلا من خلال اقتباسات ضئيلة ليست بذات أهمية وردت في بعض المصنفات الأخرى، بينما لا يوجد لدينا من مؤلفات المسعودي سوى كتابه «مروج الذهب» ومعدن بلوهر» السبق، شاربا إليه، وهو أكثر مؤلفاته انتشارا وإيجارا، كما يوجد من قرائه الخبفي أيضا كتاب بعنوان «النسب والإشراف»، ومبادئ جغرافية في معظمها، يصف صاغت مؤلفاته الأخرى بسبب ضخمة حجمها وقلة

Przmann - Greaville, op. cit., p. 40. (11)



انتشدها^(١٦)، وعنى لرغم من أهمية كتابات المسعودي، إلا أنها لم تحل من العيوب المعروفة في تأليف معظم الجغرافيين والرحالة العرب خلال ذلك العهد، ومن تلك العيوب الاستطراد ونقل الخرافات ولأخبار السطحية دون تحقيقها تحقيقاً علمياً سليماً ولا يقتصر أثر المسعودي على إمدادنا بمعلومات عن إفريقيا بصيغ شتى لى إمداد المتجعة لدي من المصنفات السابقة، ولكن تأتي أهمية كتاباته في تأثيره على الكتاب الآخرين الذين أتوا من بعده، والذين تتحقق بهم معرفتنا عن إفريقيا^(١٧) وكتب سبق أن لاحظنا أن المسعودي كان يركز كثيراً على شرق إفريقيا، أما عن السودان العربي فقد يقتصر عند حد الإشارة إلى تجارة سبغ شي ذكر عنها أنها التجارة غريبة ملحة لتطرق^(١٨)

بعد المسعودي يسوز أماننا الإصحطري الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وله كتابان أحدهما حرف يكتاب لأتدليم، والأخر دامتلك والميت، وقد عمد الإصحطري في وضعه لهذين المصنفين على رحلاته في طلب العلم والمعرفة في الآفاق الإسلامية، وقد ردد كتابه الأول ببعض الخرافات، أما كتابه الثاني فقد عني فيه بتسجيل بعض المعالكة الإسلامية، من ذلك ما ذكره عن بلاد السودان التي وصفها بأنها لابنداب عريضة ويس لى أقاليم السودان من الحبشة والعمرة والبلجة وغيرهم، إقليم أوسع منه ويمتدون إلى قرب المحيط بما يسمى الحنوب، وما إلى الشمال على مسافة تنهى إلى مغاور مصر من وراء البحار ثم على متناول بينها ومن أرض النوبة ثم على مغاور بينها وبين أرض البريج وليس لها اتصال بشيء من الميت والعمارات إلا بدولة المغرب لصحوة المسالك بينها وبين سائر الأمم^(١٩).

ومن الجغرافيين الذين اهتموا بإفريقيا أبو القاسم محمد بن حوقل الذي ظل يتجول في البلاد الإسلامية قرابة ثلاثين عاماً، وقد زار ابن حوقل مصر ووصف الواحات الفاحشة والخارجة، وعرض لأهم مدن شمال إفريقيا كسرة

(١٦) كراشوفسكى تاريخ الأصابع الجغرافيين من العرب - القسم الأول من ١٧٨

(١٧) دى محمد حسن - الرحالة المسلمون في العصور الوسطى من ٣٧ - ٣٨

(١٨) Boyl, The Golden Trade of the Moors p. 11 London 1968

(١٩) الإصحطري - تملك والميتلك، تحقيق: آتدليم، القاهرة ١٩٦٦، من ٢١

وجداية ومنوعة ونوس، كما عرض وصفا للضريق بنى سلكها من نقيروان
إلى الناعرت

وقال إنه يتفق بالإصطخري في إحدى رحلاته لطلب حشم فطلب منه هد
أن يراجع كتابه المسالك والممالك ففعل، ولكنه ما لبث أن أخرج كتابا بنفس الاسم
اعتمد فيه على ما كتبه الإصطخري في كتابه، وبدا يلاحظ أن كتابي الإصطخري
وابن حوقل يحتويان على نفس المادة بل على نفس عدد الفصول الأمر الذي سبب
لبعض الباحثين الكثير من الخلط بين عمل كل منهما. وقد اشتهر كتاب ابن حوقل
باسم صورة لأرض أورده فيه بعض المعلومات التفصيلية عن القسم الشمالي من
شرق إفريقيا وخاصة مناطق الحشة واللوبة، وعفى الرغم من أنه لم يعرض
للقسم الجنوبي إلا بإشارات ضئيلة حيث ذكر أنه من أنجيين السمر إلى بلاد الرنح
بحر رته الشبيقة. إلا أن مع تلك المحظ ضئلا وهو إشارته إلى بعض الشعوب
البيضاء التي تنجر معهم، وإن كان قد كتفى عند هذه الإشارة إلى ذلك، وهذا ما
يتوجب لأسف لتقدير وعلى أي حال فقد تركزت معلوماته عن إفريقيا شمالي
خط الاستواء من بحر القفقر شرقا إلى المحيط الأطلنسي غربا، وعن ساحل إفريقيا
الشمالي إلى بلاد السودان، وبالملاحظ أن ابن حوقل لم يصف كتبه على هيئة
رحلة وإنما جاء أشبه بمصنف جغرافي لم يكتبه به بوصف البيلاذ فقط وإنما حدد
طريقه ومساكنها، كما يخلل كتابه محرواظ جغرافية ليست على درجة كافية من الدقة.

وتعتبر رحلات ابن حوقل عن الرحلات الهامة التي قام بها العرب في
إفريقيا خلال القرون العشرة لبيلاذ، أشار فيها إلى بلاد الرنح وإن كان لم يسهب
كثيرا في وصفه لتلك البلاد، إلا أنه أكد غناها بمعدن النسر، كما أشار إلى بحر
القمزم ومن يسكن جرائره من البيجة والأحباش، كما تحدث عن ممالك النوبة
المسيحية، وذكر عن النوبة أنها بلد أوسع من بحيرة يخرقها نيل مصر أنها
بصارى يقرب النوب من العرب، وأنها أهل سلم وليست يذاد حرم، وهي بلد
عامر خصب، من أحسن مملها بواحي حلوة، ولها أعلاه دهر يجرى من شرق
يعرف بأور يصب في النيل. وما يستتبع النظر زيارة ابن حوقل لمصر ووصفه
لبعض الطرق التي تعترفها بطريق الواصل من لسطاظ إلى الإسكندرية مار
بليط ونيس، والطريق من الفصايد إلى بديس وفاقوس ثم الرماح، كما تحدث

وتعتبر كتابات بن حوقل أول كتابات تصل إلينا تناول شىء من التفصيل
 المناطق الداخلية من غرب إفريقيا، فقد زار كمبي عاصمة غانا وشاهد نهر النيجر
 يتدفق تجاه الشرق مما أدى به إلى الاعتقاد خطأ بأنه نهر النيل، وأكد ابن حوقل أن
 وعباءة أودغشت لديهم صلات كثيرة بملكمة عاد أقصى مما ملكه العالم لما في بلادها
 من الثمر على أنه سم يركر كثيرا على وصف البلاد التي تعطيها الشعوب السوداء
 في غرب إفريقيا أو غيرها من المناطق الداخلية لأعزى فكما يقول إن حبه الطبيعي
 لحكومة منتظمة هو الذي دفعه لتجنب ذكر أى شىء عنهم^(١)، ولكنه يورد بعض
 المعلومات عن شعوب البجة والتوسبي والأخيش لأن لديهم، كما يقول، بعض
 مظاهر مدنية والوعي الذي الناتج عن قرب بلادهم من بلاد الأكثر تقدما، فيذكر
 عن البجة أنهم أشد سواد من الأخيش وأنهم لا يعتنقون قرى ولا مدن ولا
 أراضي زراعية. ويذكر عن بلاد الحشة أنها بلاد جافة يوجد فيها قليل من الماشية
 ومساحة كبيرة من الأراضي الزراعية، وأن جلود الحور وغيرها من الحيوانات
 تشتري من اليمن تأتي من هذه البلاد، بينما يذكر عن بنوة أن سكانها يصادون
 وأن بها من المدن والعمارة أكثر من الحشة؛ كما أنه نيل مصر يخترق هذه البلاد
 إلى أن يخرج منها إلى أرض الرميج ثم يتجاوزها إلى براري يتغير مسلكها

ويعد ابن حوقل بطالع المقدسي (٣٣٥ هـ - ٩٤٧ م) في كتابه أحسن
 التقاسيم في معرفة الأقاليم، ويعد المقدسي من أعظم الجغرافيين لعرب في القرن
 العاشر الميلادي اقتصر في كتاباته على وصف الأقاليم الإسلامية ولم يتعرض
 لوصف الأقاليم التي يسكنها غير المسلمين، وكتب عن جزايا كتابه أنه جمعه بعد
 جولاته العلمية في البلدان وحوله أقامه لإسلام وبقائه مع العلماء على أنه لا
 عهد ما أورده في مصنعاته، يمكن أن يضيفه إلى معلومات عن شرق إفريقيا خلال
 هذه الفترة؛ فالمقدسي لم يذكر أكثر من أن الجزء العربي من المحيط الهندي يبدأ
 بطنك وينتهي ببلاد الرميج، وهم غير الرموج الذين عرفوه في الهند^(٢)

ومن الجغرافيين الذين كتبوا عن إفريقيا في أواخر القرن العاشر الميلادي
 محمد الإدريسي الأندلسي المتوفى عام ٩٧٢ م ألف كتاب في وصف إفريقيا وأوروبا،

Havili op., cit. p.p. 61 - 62 (١)

Ibid. p. 62 (٢)

Lezard, Documents Historiques et Textes Géographiques Tome I p. 117 Paris (٣)
 913.

ومن الجغرافيين الذين كتبوا عن إفريقيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي
 محمد الثاني بن الأتلي المتوفى عام ٩٧٣م ألف كتابا في وصف إفريقيا والمغرب،
 وكان هذا الكتاب من أكبر المصادر التي اعتمدها عبد الله بن عبد العزيز الذي عرف
 بابن عبيد. وعرف أكثر بكنيته البكري، في كتابة مصنفة ألفها للمغرب عن ذكر بلاد
 إفريقية والمغرب، وكتابات البكري عن أقسام السودان العربي تشكل أول محاولة
 لوصف صحراء المنطقة ولا بدري ما إذا كان البكري قد زار غرب السودان أم
 أنه اكتفى بالأخذ عن سبقه، ولكن أهم أنه لا غناء من مرجعه القسم الذي جمع
 فيه كل ما وصل إليه عنه من وصف دقيق مثير لمعلنة هناك، ومن يقرأ شيئا لا
 وتصلى به بالتحليل والدراسة، وساعده على ذلك سعة أفقه وقرائنه، لكثيرة
 للمجلات العربية التي حوت بها مدينة قرطبة التي كانت مصدرا لا ينضب لأخبار
 غرب إفريقيا في ذلك الحين^(١) وقد ذكر البكري أن بمدينة غانا حيين، واحد
 للمسلمين به اثنا عشر مجدا وهذا من انهتهاء وأهل العلم، وهذا يوضح ما
 نتيجة اتصال المسلمين بشعوب غرب إفريقيا وما أحدثه ذلك لاتصال من بشر
 للدين الإسلامي، أما الآخر فهو مقر الملك، وإلى جانبها القصر أنشئ مسجد كبير
 لبؤدى فيه روار لذلك من المسلمين صلاتهم، الأمر الذي يشهد بظهور رعية مسلمة
 وفيرة للعلم كانت تدير هذا العدد الوفير من المساجد

وقد ترك لنا البكري الكثير عن مدينة كمبي عاصمة غانا، واعتمد في كتاباته
 عن العاصمة على المعلومات التي أمده بها أحد التجار المغيرة، ولحظ في حديث
 البكري عظمة البلاط ولأردها تجاري وعسكري، فقد ذكر أن بمقدرة ملك عاد
 أن يحدد بحرب مائتي ألف مقاتل منهم أربعون ألفا مسلحون بالسهام والنفوس،
 والبندقى بالخرابايت ولا شبهة أن البكري قد تلقى الكثير من أحاديث الرحالة
 والمغامرين الذين كانوا يضيفون عليها كثيرا من الخيال ونبالغة، وربما كان البكري
 أحسن من أن يعوت عليه ذلك. ويذكر ما أطلعته في كتاباته عن غرب إفريقيا أنه كتب
 عقب عروبة ابن بامبي وإلى امرئطيس، وكانت غزوة هذه ذات أثر بعيد في تقريب
 غرب إفريقيا إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط وهي كتابات البكري الشيء الكثير

عن ملكة غانا وهواند أحييت وقتها بملابس وأهم مركز متحضر جده وتحميد هرق
الإنسان بها ويعبرها من ذلك، كما نجد فيها إشارات كثيرة على محاولات للرطب
اختراق بصحره من أجل الوصول إليها، كما نعرض أيضا عدد الشعال الإفريقي
كطرابيس والفروان وقوس ووهواند وطنجة وسينة وفاس وسجلدسة وإعمات
واتصال بعضها ببعض وبالمناطق التي فصل بينها^(١)

كذلك يروى لدى في أواخر القرن العاشر الميلادي الحسن بن محمد الهبسي،
وهو عالم مصري، كان يهاجر لخليفة انصاسي النعير بالله، وضع بعد زيارته لبلاد
السودان كتاب في لطرق والسيرك (٩٨٥م) اعتبر بأنه أول كتاب عني بوصف أديم
السودان لخصه وصفا دقيقا، ولكن لما يلاحظ أنه أن ذلك الكتاب لم يصل
إليها^(٢)

وفي القرن الحادي عشر الميلادي، وقبل أن يصل إلى مصنفات الإدريسي،
وهي من مصنفات العربية الهامة التي عيت بإسريفا، لا نجد سوى البيروني في
كتابه الآثار الباقية عن القروبي الخالية، ويحفظ في كتاباته اهتمامات وصحة
بالأخص شرقى لأفريقيا حيث ذكر أن الساحل والجزر الجنوبية المتاخمة له شملت
قبائل متفرقة من الروج، كما أشار إلى جزيرة واق الرق واعتبرها إحدى جزر
الشمس، ووصف سكانها بأنهم سود يغلب عليهم البياض وأنهم يقتنون عميدة
الهند^(٣)، كما تحدث عن نشاط التجارى الذى كان قائما بين معالة ومهنة
وبصبي، وإن كان لم يخطئ معلومات مفصلة عن دور العرب في تلك التجارة
وقد أشار إلى أجزاء العربى من المحيط الهندي الذى أطلق عليه بحر البربر وحده
من مضيق صند في الشمال إلى معالة الرنج في الجنوب، وذكر أن المراكب لا
يمكنها أن تتجاوز سبعة، لعظم المخاطرة فيما بينها^(٤)، وفيما يبدو أنه قد

(١) أمير حبيد الكرى - كتاب العرب في ذكر بلاد إفريقية والاندلس وهو جزء من الكتاب المعروف بالملك
والملك طينة الجزائر ١٩١٩.

انظر ذكر بلاد السودان ص ١٧٤ وما بعدها.

(٢) زكى محمد حسن - إلى حالة المستعمرة في المصور الوسطى ص ١٢ - ١٣.

(٣) ظفر البيروني نقله عن

Guthrie Ferrand, op. cit., Tome, I, p. 163.

(٤) كراتشكوسكى - الأدب العربي عند العرب القسم الأول ص ١٤١.

توافرت للعرب معلومات هامة عن ساحل شرق إفريقيا الشرقي إلى ما يقرب من خط العرض ٢° جنوباً، أما عن البلاد الواقعة إلى الجنوب من ذلك فقد كانت فكرة العرب عنها نصفه عامة تستند على الخيول والتخمين، ولو أن علمهم بالكوارث التي كانت تنعمس لها السفن تشير إلى معرفتهم بطريق غير مباشر بمضيق موريشيوس الذي أسماه في بعض كتاباتهم بجبل الطلعة^(١).

ولاشك أن المعلومات التي أوردها المصنفون العرب والمسلمون سواء من وصلت إليها كتاباتهم أو من عذب مبرراتهم، قد ساعدت بها الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي واعتمد عليها في وضع كتابه وخريطته المعروفة.

والإدريسي جغرافي عربي (١١٦٦ م - ١١٨٦ م) أقام في صقلية في الفترة من ١١٣٨ حتى وفاته ١١٦٦ م^(٢)، في بلاط بطريرك روجر الثاني Roger II أحد ملوك النورمان، وقد عبره الكتاب الذي وضعه بكتاب روجر أو الرومان، وأسماء نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ولابد أن معاصري الإدريسي قد سمعهم دحوله في خدمة أمير كافر وخاصة أن الوقت كان وقت حروب صليبية، ولاشك أنه بعدم موافقة بني قومه كان مسبا في أن المعلومات المتعلقة بحياته قليلة في جملتها^(٣)، والقابض أن الإدريسي قضى رده من حياته الأولى مسترحلاً في إسبانيا وإفريقيا وآسيا الوسطى، وكان روجر مهتماً بجمع المعلومات المتعينة بالعالم والتي كان قد استحوذ على مادتها فأخرج منها الإدريسي هذه المصحح المعروف بكتاب روجر^(٤). وقد أخذ الإدريسي الكثير من مادته من الكتب الجغرافية السابقة عليه، وكذلك من التقارير التي كان يتلقاها من المسافرين ولاتجده هذا فصلاً عن المناطق التي ارتحل إليها بنفسه في إفريقيا، وكانت في منطقة الشمال الإفريقي على وجه التحديد، إذ لم يعرف عن الإدريسي أنه قبل وصوله في رحلاته على إفريقيا إلى أبعد من ذلك، ولكن نجد في كتاباته إشارات على مدى شرق إفريقيا على الرغم من

(١) بعضهم السابق من ٢٤٩

(٢) جيان - وثائق تاريخية وجغرافية عن شرق إفريقيا، ص ٥ - ٢٧

(٣) Hart, op. cit., p. 15

(٤) نظر جامعة إدريسي في دائرة المعارف الإسلامية، ويزيد من التفصيل في مرجع الإدريسي يمكن الرجوع إلى محمد عبد القادر حنين - الشرق الإفريقي، سلسلة اعلام الحزب رقم ٩٧

أنه لم يورد لنا معلومات وافيه عن هذه المدن وسبق أنه لم يهتم اهتمام كافياً بالاستعلام عن تلك البلاد، ومع ذلك فإن أهمية كتاب الإدريسي فيجب على بعض الشرق إفريقي أنه يكاد يكون أول المصدر التي تحدثت عن مدن الساحل وحرره من ذلك كلوة التي ذكر عنها أن لها تجارة هامة مع منطقة «ماليندي» التي وصفها بالاردهار. وما يشهد النظر أن الإدريسي لم يرحل إلى شرق إفريقيا كما فعل السعدي. ولكنه استمع كثيراً وقرا أكثر فأكثر ما أتت مغلقة من هذا الإقليم وقد انتهى من تأليف كتاب برقة الممتلئ في عام ١١٥٤م، وفي العام التالي قام بوضع خريطة للعالم، استجابة بطلب روجر^(١) ولأشك أن العشرة التي وضع فيها الإدريسي كتابه كانت فيها تجارة العرب مع شرق إفريقيا مدهرة اردهارا كبيراً، على أن الإدريسي لم يهتم بتجارة العرب في الذهب والعاج وإفريقي لأن هذه التجارة كانت معروفة في العالم العربي التجاري؛ ولما انصرف إلى الحديث عن تجارة جديدة وهي تجارة الحديد كما يلاحظ أيضاً تغير أوجه حياة في شرق إفريقيا من رحته السعدي إليها في نصف الأول من القرن العاشر إلى كتابات الإدريسي في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، مما يندفع إلى أن نلاحظ من السعدي حتى يذكر اسمها لأنه لم تكن تسمى في شيء بعيد أهمها أصبحت في من الإدريسي مدينة البرج، يحدثنا الإدريسي عنها فيقول: «الزنج يجمعون فيها مناجم الحديد ويستخرجونه ويشجرون في أطوار من ويرجون من حديدهم هذه أرباحاً كبيرة» كذلك تحدث عن حبة واشتعال أهلها تجارة حديد أيضاً مما يدل على الصلات التي كانت قائمة بين شعوب الهند ومن بعد على ساحل من التجار العرب وغيرهم، وخاصة من الهنود إذ كانت سيوف تصنع في الهند من حديد المتحصل عليه من شرق إفريقيا

وما يستلزم النظر أن هناك بعض مواقع فكرها الإدريسي لا تزال موجودة على أطراف الحالية ولو بالتقريب كبروة وماليندي ومكة ومنها ما اندرس معالمها ولا تزال تخضع لعمليات الكشف والتقيب^(٢) وقد أكد الإدريسي العلاقات

(١) Johnson Hury, A History of the Colonization of Africa by Alien Races, Chap. (١) bridge, 1913, p. 209

(٢) يازن جاليلسون - إفريقيا تحت المروءة الجديدة (مترجم) بيروت ١٩٦٦

التي كانت قائمة بين العرب وساحل شرق إفريقيا وإن كان قد قصر هذه العلاقة عند حدود التعامل التجاري دون أن يعنى بدراسة الإمارات أو ممالك الإسلامية التي أنشأها العرب على ساحل شرق إفريقيا، ويقول الإدريسي بعد ذلك أن جميع بلاد الزنج بقعاتهم من حديد وجدود النور الرخية وهي حمر لينة حد، يملكون أمتعتهم على رؤسهم وعلى ظهورهم إلى مدنتي مكة ومدينة فيسبون هاهنا ويشترون^(١)

وعنى الرعم من أهمية ما كنه الإدريسي إلا أن المعلومات التي أوردها ليس وافية تمامه هذا فضلا عن أنه أخطأ عند ذكره مدينة برة فذكر أنها لا تزال على وثيقها، إذ قال إنها واقعة بطرف بلاد الكفرة، ولكن من المعروف أن الإسلام كان قد انتقل إليها من زمن سبق بكثير من كتابات الإدريسي، كما أنه لم يشر إلى كلوة إلا بإشارة عابرة مع أنها نأست قبل مائتي سنة من مولد الإدريسي وبلغت في زمنه أقصى درجة من الازدهار، وكانت جرد بها مصفيا وربحبار تبعة لها، وحبته اختارهم يذكرهم الإدريسي أيضا، كما أنه لم يعرف مدينة مقدشو في حين أنه ذكر بعض المدن التي كانت تابعة لها كبروه وبركة، ويبدو أن الإدريسي لم يكن على دراية كافية بتلك الأماكن أو أنه لم يهتم بالاستعلام عنها اهتماما كافيا، ومع ذلك فإن الإدريسي يؤكد يكون هو الجغرافي الوحيد الذي ذكر أسماء بعض مدن وجرر شرق إفريقيا في حين لم يرد ذكرها عند غيره من المصنفين السابقين له باستثناء مسعودي إلا باعتبار أنها مجموعة من بجزر^(٢) كما أن الإدريسي لم يقتصر عند حد الإشارة إلى أقاصيم شرق إفريقيا ومدنها وإنما تفرع إلى غرب إفريقيا ولا سيما منطقة غانا، وعلقا لما يذكره الإدريسي كانت عاصمتها كيمبي أكبر سوق في السودان العربي حيث عتاد التجار من جميع أنحاء المغرب أن يجتمعوا في أسواقها^(٣) ومن الكهت أن المسلمين احتلوا سراكز عبي في المملكه كنورد - والكند، كما ذكر أن لخزانة الملكية كانت تحترق على قطعة كبيرة الحجم من الذهب أصبحت مشهورة

(١) انظر السابق ص ١٧ - ٢٠

(٢) Preissner - Gienville, Select documents on the East African Coast p. 41

(٣) هذا الرعم ونحوه : تراجيع العربية بتاريخ الإسلام في غرب إفريقيا ص ١٤

في القسم المخرجي، وفي القرن الرابع عشر يلاوي ذكر ابن خلدون بعضها من قبل أمير مسرة إلى بعض تجار مسرة، وذكر أن وزبها مع أكثر من مئة وأوصح الإدريسي أن ذهب غرم إفريقيا كان يأتي من مركزين أساسيين هما التكرور في الغرب وولجرا في الشرق، وقد وصف في أماكن كثيرة من كتابه ما كان عنه مقدور حال من الثراء، كما وصف أحوال ماضي والتكرور أكبر مدينتيه وأكبرها تجارة، فكان يدير فيها أهالي المغرب، الأقبص بالصوف والقمش والحرير ويخرجون منها يستبر والرقيق كما أسد الإدريسي بكثير من المعلومات عن حالة المغرب العربي، وله وصف دقيق بمدن في شمال إفريقيا وخاصة مدينة أعمات التي أكد اتصافها ببلاد السودان لغربي، كما أشار إلى طرق القوافل التي كانت تخرج منها، كما وصف منبته مراكش وفاس وصفا فريدا في موضعه^(١)

وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وضع سرج الدين أبو حفص عمر ابن الوردني مصنفها بعوان خريدة المعجائب وفريدة للعرائف وقد اعتمد فيه بالنقل عن المسعودي، وقد ذكر أنه كلف من سائب لسلطنة قائد فدعة حبب شامس لويدي أن يضع له دائرة شاملة على دائرة الأرض موضح ما اشتملت عليه، فوضع هذا الكتاب، وقد وصف فيه ساحل شرق إفريقيا من جردقوس بن مورميريا ذكر أن سكانه جميعا من المسلمين فيهم انقاض والامم، ونقل ما أورده المسعودي عن بلاد واق الواق وعجب لكثرة ما بها من ذهب حيث بن الروج يتخللون منه سلاسل دريهم، أما اكبرهم فيصنعون منه لباسا يلبسون به موتهم^(٢) وما تحذير الإشارة به أنه يوجد اختلاط لشي آخر لاسي الوردني ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر والسواكن الأولى من القرون الخامس عشر ويتبع زين العابدين أبي حفص بن الوردني، وقد ظل كتاب الخريدة ينسب خطأ إليه

أما في القرن الثالث عشر الميلادي فظلمت بالقوت الحموي بمجمعه المعروف بمعجم البلدان، وقد عرف بالقوت بأسفاره التجارية العديدة، وكان يشتغل بتجارة الكتب وقد مكنته محله هذا من جمع المادة النبعية اللازمة لمجمعه، على أنه لم يسجل ما احتار رجلائه وما وقع له من تجارب حلالها، ولا ريب في أن ما شاهدته

(١) التولا زيادة : الرحالة المغربي عن ص ٩٣ - ٩٤

(٢) راجع ابن الوردني خريدة المعجائب وفريدة للعرائف

ياقوت في أسفاره العديدة وما جمعه من الخرائط كان خير هدية له في تأليف مصنفه
 الفريد الذي فرغ منه في عام ١٢٢٤م^(١) بيد أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفادته
 ياقوت من رحلاته تحديد دقيق، إذ إنه لم يعين الأقاليم الإغريقية التي زارها بنفسه
 وكتب عنها، وإنما نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة مع أنه كان من
 أكثر العلماء طوافاً في عصره. ويعتبر معجم ليندسا من أهم المصنفات التي وضعها
 العرب في هذا الموضوع، ويوجد بهذا المعجم كثير من مدن شرق إفريقيا كمقديشو
 ونجيب وكلوة، ونهل ياقوت كان أول من أشار إلى الشعب السواحلي، ويقع
 ذلك من حديثه عنهم إذ أسماهم بشعب البربر «وهم غير البربر الذين بالغرب
 هؤلاء سود يشبهون البربر» جس متوسط بين الحبش والروم^(٢)، وفي ثعربيه
 بمقديشو ذكر أنها مدينة في أرض بلاد الرّيح وأهلها كدبهم عرباء سود، سودان ولا
 صفت لهم وإنما يدير أمورهم المنقبضون على اصطلاح بهم، وإذ قصدهم التاجر به
 أن ينزل على واحد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ومنها يجلد الصنفك والأسوس
 والحاج هذا أكثر أمتعتهم وقد يكون عندهم غير ذلك محبوب إليهم، كما تجلت
 ياقوت عن كل من مدينة الحب وكلوة وسفالة ورت كان ما أورده عن هذه المدن لا
 يشكل إلا شذرات بسيطة، فقد ذكر عن حبش أنها مدينة قرب بلاد الرّيح في أرض
 بربرية يجنب منها الزراعة وجلودها تتخذها أهل فارس عدلاً ولم يذكر عن كلوة
 إلا أنها موضع مارع الرّيح^(٣)، كما لم يذكر عن جنهات الأحرى التي تقع على
 ساحل شرق إفريقيا أكثر مما أورده الإدريسي عنها، ومع ذلك فإن ما ذكره ياقوت
 يعدّ مهماً رغم قلته، ويبدو أنه استقى معلوماته من التجار العرب الذين كانوا
 يلجئون إلى هذه الأقاليم بصلته هؤلاء التجار ويرؤساء عمان بوجه خاص، كما
 أشار ياقوت إلى جزيرة مدغشقر وأطلق عليها جزيرة القمر^(٤)، والواقع أن
 اجترع العرب لا يثقون على كثرة اسم هذه الجزيرة ولا على أصل اشتقاقها،
 فقد كتبه البعض منهم للإدريسي القُمر بضم القاف وإيم، وكتبه غيرهم، ومنهم

(١) دكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى من ص ١٥ - ١٦

(٢) ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ١، ص ١٧٦، القاهر ١٩٠٦

(٣) المعجم المأثور ج ١، ص ٢٧٧

(٤) راجع معجم ياقوت الحموي لتعرف على الأماكن التي أشار إليها

بأقوت وابن سعيد يسكنون الميم، وسبو من جزيرة إلى قوم القمر الذين هاجروا إليها، أما ابن الوددي والصوي فمعب الجزيرة باسم مقبر يفتح مقام سليمان، ويدعون العرب كانوا يعنون بها جزيرة مدغشقر وإن كان هناك من يعتقد أنهم كانوا يعنون بها إحدى جزر مقبر وخاصة أنه وصفت كل من لإدرسي وابن سعيد لجزائر القمر من حيث طبيعة الأرض وعدادات السكان لا يتسر طبيعته على جزيرة مدغشقر^(١)، وقد أشار لإدرسي إلى هذه الجزيرة وتحدث عن اختلاف أجناسها وتعدد شعوبها ولعائتها وعن عبي سوحده بالعبر، وأنه ليس هناك في بحر لروح جزيرة أكبر منها وقد يكون من مناسب أن يشير هنا إلى أن جزيرة مدغشقر وجزر القمر لأربعة لم تورد في المصنفات العربية إلا نادرا

كذلك تعرض بأقوت في معجمه إلى ممالك السودان الغربي فذكر عن هانا أنها مدينة كبيرة في جنوب بلاد السودان، كما تحدث عن إقليم مالي، فذكر عن التكرن أنها بلد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى حوض المغرب، كما تحدث عن أشير فذكر أنها من بلاد السودان وبيتها يسب الذهب الخالص وهي في جنوب المغرب^(٢).

ومن المصنفين العرب الذين اهتموا بممالك السودان الغربي في منتصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي أحمد بن عبد المولى الشرنشلي ١٢٢٣م فذكر أن بلدين إلى هذه الممالك من سلطنة مصر، ومن سلطنة مصر ثلاثة أشهر، ويوجد به تجار كثيرون من المغرب.

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي يبرز لدينا من المصنفين العرب ابن سعيد المنوفي ١٢٨٦م، وهو مؤلف جغرافيا من غرامطة درس جغرافيا بطليموس ووضع موسوعة هامة عرفت بجغرافيا لأقاليم السعة^(٣)، أورد فيها ما عرفه عن سواحل شرق إفريقيا مع ذكر لبعض مدنها كمدينة ومكة ومقدشهر، وتحدث عن

(١) حيان وتاريخه وجغرافيته وجزائره عن شرق إفريقيا، من ١٦ - ٢٢

(٢) صلاح الدين نصيب، تلكة مالي بين غيلبرتلين، بيلمين من ١٥

(٣) فخر ابن سعيد في السيرة الثانية من جزئه، من ٢٢٦ وما بعدها

هذه المدن مراعاة ترتيبها حسب موقعها الجغرافي من لشعاب إلى الجنوب . وقد وضع موسوعته على نهج كتاب الإدريسي برهة المشتاق إلى احترق لآفاق^(١١) . وأهم ما في كتاب ابن سعيد م ذكره من أن ملاحا عربيا يدعى بن فاطمة فارحون إفريقيا من المغرب إلى الشرق ، كتب وصف سواحل السفال ، وذكر وجود حاليات هندية كثيرة الهند تعيش في جزيرة بقم^(١٢) ، كما أورد تفصيلات كثيرة عن تلك الجزيرة تطابق جزيرة مفقطة إلى حد كبير مثل كونها طويلة غريبة طولها مسيرة أربعة أشهر وعرضها مسيرة عشرين يوما وأنها تحت حكم المسلمين^(١٣) .

وعلى الرغم من أن ابن سعيد كتب عن السودان العربي إلا أنه من المؤسف أن كتاباته لم تصل إلى كدنة ، وبكى يد قيسية ، بالإشارات التي وردت عنها في أبي العلاء وابن خلدون وغيرهم فلذلك فقد مؤلفاته يعد ولاشك مصورة معجزة للعلم^(١٤) . وعلى الرغم من أن نصوص الزمخشري في كتاباته الإدريسي وابن سعيد لا يتجاوز مائة عام فلذلك التباين الكبير واضح في كتاباتهم ، كما أنه ملاحظ بعض قصيرات من حيث أسماء المدن ، ولا يستطيع أن يعمل هذا الاختلاف بسبب التخيرات التي حدثت في السجل في عدة قصيرة ميا ، وإن كان هناك في كتابات ابن سعيد مواقع كثيرة ورد ذكرها في الإدريسي .

وبعد وفاة ابن سعيد يستمرعى انتباه مصنف جديد في تحيط البلدان لتركيا ابن محمد المعروف بالفروسي ، ويتضمن هذا المصنف بعض المعلومات المقيمة عن إفريقيا ، وإن كان يتميز بانجازه إلى العجائب ، ويتضح ذلك من عنوانه «عجائب الحيوانات وعرائب الموجودات» كما وضع كتاب آخر بعنوان «آثار البلاد وأخبار العباد» اقتصر فيه على ما نقله عن المسعودي بالسيرة الخفية عن زنج شرق إفريقيا أما عن بلاد السودان فقد ذكر عنها أنها بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي

(١١) جلد ١ ، وأما الخريطة وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ، ص ١٢٨

(١٢) مولود بن قمار - حاكم العالم الإسلامي - تعليق شكيب أرسلان ، ص ٣٧١ - ٣٧٣

(١٣) نظر بعض الكتابات التي أوردتها ابن سعيد في نسخة الثاني من كتابه ص ٦٠ وما بعده

Ferrand, Documents Historiques et Textes Géographiques.

Buvit The Golden Trade of the Moors, p. 65.

(١٤)



شماليها إلى أرض النوبة وحولها إلى البراري وشرقها إلى بحشة وغربها إلى البحر
المتوسط^(١٢)

ومن أبرز المصنفين العرب في القرن الرابع عشر الميلادي أبو العبد إسماعيل
سلطان حماد في مصنفه المعروف بـ"تقويم بستان" الذي اعتمد فيه كثيرا على ابن
مسيك وقد تعرض في مصنفه لكل من شرق وغرب إفريقيا، وأكد الروابط القائمة
بين شمال إفريقيا وشمال السودان العربي، فذكر أن المسافرين يقطعون الصحراء
بين سجنداسة وضاد؛ وهي مسافة طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش
والوهج^(١٣) على أن أكثر ما أوضحه أبو لحدا فيما يتعلق بشرق إفريقيا حديثه عن
التنوج على القسم الغربية في داخل (جبال كيمسجرو) قال إنه سمع بهذا ولا
يكاد يصدق^(١٤)، وعلى ذلك نستطيع أن نقول، بـ"عرب حروف" مناحق في داخلية
انقارة الإفريقية لم يصل إليها الأوربيون، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر الميلادي، ومن يقتصر أبو العبد في حديثه على زنج شرق إفريقيا وإنما على
بأحبار الزنوج الذين عاشوا في بلاد العربية فقد ذكر أن جمعة من زنوج زنجبار
أغاروا في عام ٢٥٦ هـ على بحر الحنوي من انحراف وأنهم استولوا على مدينة
لبصرة وبسوها كما نقل عن المؤرخ أن جزءا من جيش الخلفاء العباسيين بمعداد
كان مؤلف في القرن التاسع الميلادي من زنجبار^(١٥)

وفي القرنين الرابع عشر والخميس عشر الميلاديين انصرف العرب عن
البحر في المدينة ووجهوا اهتماماتهم إلى الحديث عن المعجائب وفي وصف العرب
من حيوان البر والبحر، ومن أهم الذين كتبوا في المعجائب شمس الدين أبو عبد الله

(١٢) زكريا القزويني كتاب البلاد وأخبار العباد، ص ٢١، طبع بيروت - ١٩٦٠

(١٣) صلاح الدين المنجد - حصار سيق ذكره ص ٢٧، الظفر أيضا تقويم البستان ص ١٢٧

(١٤) تامل كتابات أبي العبد في

Reinaud, Relations de Voyages faits par les Arabes et Persans a l'Inde et de La Chine
Tome II, p. 44.

وكذلك جيلان : ثلاث تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ٧٢ كما يمكن الرجوع إلى مادة
أبو العبد في دائرة المعارف الإسلامية
(١٥) نقل ما كتبه أبو العبد عن تاريخ البصرة في

Reinaud, op.cit., Tome II, p. 44.

وكذلك جيلان : ثلاث تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق إفريقيا ص ٧٢

الدمشقي في كتابه «نحلة البحر» في عجائب البر والبحر، وقد نقل الدمشقي بعض رواياته عن لسعودي؛ وفي فصل له عن بحر الرّيح عدد جزائر كثيرة فيه منها جزيرة قبيلو التي عني بها جزيرة مدغشقر^(١)، ولديا - بعد الدمشقي - عبد الرشيد ابن صالح المنقب بالبقوي، نسبة إلى باكور من ثغور بحر قزوين، وله كتاب «عجائب القدوة» أورد فيه بعض المعلومات عن جزيرة البحرين ولكنه أسماها ببحريه ذكر عنها أنها جزيرة من بلاد الرّيح وجميع السمن التي تتاجر مع هذه البلاد ترسو إليها ويمكن أن تعتبر جزيرة البحرين من عداد لاسكنة التي ذكرها المصنفون العرب في مصنعاتهم الجغرافية.

ويتيمر لقرون أربع عشر ميلادي بتراته في مجال المعرفة العربية عن غرب إفريقيا، هي خلال النصف الأول من ذلك القرن يعالط ابن فضل الله العمري في موضوعاته المصنعة «ممالك الأيبصر» أورد فيها الشيء الكثير عن مملكة مالي وذكر أنها في جنوب مهدية المغرب، وتنحصر بالبحر المحيط، وأنها تشتمل على أقاليم كثيرة، وبلاد مالي وغان وما معها بسلك إليها من غربي صحراء مصر على البرحات في طريق تسكنه طوائف من العرب ثم البربر يتوصل منه إلى مالي وغان. ويؤكد يكون هذا اتفاق بين الباحثين على أن العمري يعد أعظم ما كتب عن مالي؛ إذ قدم وصفها ودقيق للمملكة وأقاليمها ومنازلها وقبائلها وبنائها وديارها وأقواتها وتجارها وحيواناتها وعاداتها وتقاليد أهلها وعساكرها ومعلنيها وصلات منوكها من يجاورهم. وقد سقى معلوماته من أناس عاشوا في تلك البلاد وعرفوا أخبارها، أو من أمالي البلاد أنفسهم أو منوكهم الذين زاروا القاهرة أو من آخرين صحبوا هؤلاء الملوك^(٢)، وكثيرا ما يقتبس منه القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» ويأخذ منه بقرات كثيرة.

وفي سوات الأولى من النصف الثاني من لقرون أربع عشر يستمرى القليل من كتاب الرحالة العمري ابن بطوطة الذي سجل فيه رحلاته الكثيرة وأسماء

(١) بوتروجيو ستودارد - صنفه في ذكره - ج ١، ص ٢٧٧ - ٢٧٣

(٢) العمري - ممالك الأيبصر في ممالك الأندلس، ووجدت مجلدات تحتاج إلى استكمال من هذا النصف في دار الكتب لعمرة تحت رقم ٢٥٦٨

تجعة النظر في غرائب الأمصار وعمجئات الأسفار وقد بدأ ابن بطوطة رحلاته في عام ٧٢٥ هـ فاصبح طليح إلى مكة وله ثلاث رحلات وسعة الطول حاش فيها أكثر ما عرف في زمانه من بلاد، وقد هدف في رحلته الأولى شعب إفريقيا ثم بلاد الشام والهند والصين وأجره كثيرة من أسبب بما ظفده في رحلته الثانية ببلاد الأندلس أم رحلته الثالثة فقد كانت في عرب إفريقيا ومجاهدين، وقضى في رحلاته هذه ما يقرب من اثلاثين عاماً وبعد أن فرغ من رحلاته استقر في مدينة فاس حيث أمر سلطانه كاتيه بن جزي أن يكتب ما يمس به ابن بطوطة عنه حيث انتهى من تسجيل هذه الرحلات في عام ١٣٥٦، وظروف التي تم فيها تسوين رحلات ابن بطوطة تجعلنا لا نسى إذ هـ فهو في حكم عليه واتهمته بالخيب أو عدم الدقة فيما كان يرويهِ أن كثيراً من الأمور الموجه إليه يمكن أن يكون ناشئا عن ابن جزي، فأعجب الظن أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منظمة؛ وإن كان قد دون شيئاً قليلاً وبمه في أنه قد أضاعه خلال تجواله^(١)

وتحت رحلات ابن بطوطة في مناطق التي عرج فيها على أجزاء من لقارة الإفريقية، فهذه رحلة قام بها في عام ١٣٣٦م من زبلع إلى مقديشو ومكة وكنوة ومعلو ويكون أول انصنمين العرب الذين حدثت بإفصصة من الإمارات الإسلامية مهمة في شرق إفريقيا ورحلات ابن بطوطة على الرغم من عدم دقتها، إلا أنه لا عى عنها بالنظر لاحتوائها على بيانات وافية منها ما يمكن الاعتماد عليه، وقد أورد لنا تفصيل ثلاثة مراكز على الساحل الشرقي من إفريقيا هي مقديشو وكنوة ومكة، ذكر عن الأولى أن المسافة بينها وبين زبلع خمسة عشر يوماً، وهي مدينة متناهية الكبر أفاض في تحديث من نشاطها التجاري وأكد انصنمين اقتصادها بمصر إذ تمتع فيها الشباب لوفيمة المسونة إليها والتي لا نظير لها وسها تمتص إلى ديار مصر وميسرها، كما ذكر أن الفاضى الذى استصافه في منزله أثناء إقامته بمقديشو يدعى ابن البرهان، قال عنه إنه مصرى الأصل، ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر مقديشو وأن سلطانهما يحجبه العربية وإن كان يتكلم (مقديشية)

(١) رجع مادة ابن بطوطة في دائرة المعارف الإسلامية

ويظهر من وضعه لتدريسه أنها قد وصلت إلى درجة كبيرة من التطور وأصبح لها أنظمة وتقاليد خاصة بها، ويتضح لنا ذلك فيما أورده من التقاليد المتبعة في جلوس السطون على المرش وما يحيط به من أصراء ووزراء ووجوه القادة كل حسب مرتبته، إن الأطباء والأعيان ولا يوافق كسب تضرب عد حنوسه كما يتحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء وذوى الرأي وكيفية نظرهم في شكاوى الناس وتطبيقهم للشرعية الإسلامية، ثم يعمد في وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه السطة من اتساع في النعوذ ونحو مطرد في التجارة، كذلك يتحدث ابن بطوطة عن مدينة مينة وإن كانت المدة التي قضاها بها وهي ليلة واحدة لم تكن كافة بطبيعة الحال للتعرف عليها، كما أن للإطبات في وصفها فلم يذكر عنها سوى أنها شديدة المذهب ما جسد مبنية من خشب أن عن كلوة، وذكرها بصم الكفاف، في حين ذكرها ياقوت بكسر الكاف والأرجح أن تكون تسعة ياقوت هي الأصح لأن الجزيرة تسه كلوة لإسار⁽¹⁾ - فقد وصفها بأنها مدينة ساحلية عظيمة أكثر أهلها من بزواج، وهي من أحسن المدن وأتمها عمارة وكلها مبنية من الخشب وأهلها أهل جهاد لأنهم في ير واحد متصل مع كعد الرنوح، ولكنه أشار إلى إسلام كثير من الرنوح وأن هؤلاء يعد عبيد لديهم وصلح ويتعمون إلى المذهب الشافعي.

كما تحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة، ويهم من حديثه أن لسلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز، ويظهر ذلك من حديثه عن السلطان أبي الظاهر حسن وكان يكنى بأبي الموهب لكثرة مواهبه وكرمه، وقد ذكر عنه أنه كان كبير القرواب على أرض الرنوح الكفار يعير عبيدهم ويأخذ منهم العنائم حيث يخرج منها ويصرفه في الأوجه المعبية في كتاب الله ويحصل مصب دوى انقرب في خزانة على حدة فرد، جاءه الشرفاء فسمعه إليهم، وكان يشرب يقصوده من العراق والحجاز وسواها وذكر ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوة إلى بحيرة نو مصاهرة تحت بين بينين الحاكمين في كل من كموه وعمة، وعنى برهم من أنه وصف كموه بطريقة سم يسهه إليها أحد من قبل فون ما يدعو للأسف أنه لم يتوسع

Florentin- Grenville, op. cit., p. 47 (3)

في خليج عر علاقته سلطنة كلوة من الساحل السياسية والتجارية معبرها من
ساحل وخاصة أنها كانت هي رمة أهم مركز إسلامي في ساحل شرق إفريقيا،
وكانت حركة الاستيطان العربي والإسلامي بلغه أقصى حد له من القوة والانتشار
ولا شك أنه كان في استطاعته أن يواكب سيادات أكثر مما أوردته ولكنه لم يذكر
سوى القبيل مع أنه أقام بادية فترة كآية بحرف عليها ثمرة كاملاً^(١).

وبما هو جدير بسنكر أن لزم الذي وصل منه ابن بطوطة إلى ساحل شرق
إفريقيا وهو لهاية نشأ لأول من القرن الرابع عشر الميلادي، كانت معظم مدلول
الساحل تنتمي إلى العرب حين جاءت موجة كبيرة من مهاجرينهم خلال النصف
الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي على أثر اجتياح المغول دار الإسلام حتى
الفرات، ولحق أولئك المهاجرون بني حديتهم الذين سبقوهم في هجرتهم من
ساحل شرق إفريقيا، وقد جاء مهاجرون بجلده لبعاء دائمة ظهرت آثارها في
عمارتهم البربرية وأسواقهم لباهرة التي فئت بن بطوطة حين جاء الإقليم،
واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن نوعت مصادر ثرواتها أن تصل إلى درجة من
الأردنار تقترب من القبائل من حيث المعش والتشرف والرفعة، ويظهر ذلك من
وصف ابن بطوطة لمساحل الشرقي لإفريقيا. وعلى الرغم من أنه كتب على
معرفة وثيقة بالمجتمعات المتحضرة في البلدان الواقعة في قلب العالم الإسلامي إلا
أنه قد تعجب لشراء الكبير والحياة الرعيدة التي رآها في شرق إفريقيا، فحديثه عن
مدينة كلوة يوحى بأنها كانت من أجمل بقاع الأرض وأكثرها رونقاً وهدوءاً، وكذلك
أيضاً حديثه عن عسبة ومقشيشو، حيث أعطى عبوداً حبة ناطقة بمجتمعات غلة
وترفة^(٢).

ولابن بطوطة رحلات أخرى في السودان العربي حيث سافر إلى بعض هذه
الممالك موثق من قبل أبي عبد سلطان فاس في مهمة لا يعرف تفاصيلها،
ووفقت زيارته إلى مالي عهد صديقه وهو أخ لما موسى سلطان مالي الشهير،

(١) ابن بطوطة، حمة القطار في صجانب الأسعار والمزاليب الأصهار، ج ١، ذكر سلطان مقديشو وكلوة

(٢) جسي أحمد محمود، انتشار الإسلام والتجارة العربية في إفريقيا، القاهرة ١٩٥٨.

انظر أيضاً جسي، وثلاثي تاريخية وحديثة، وتجارية من سوي إفريقيا، ص ١٩٥.

وقد بدأت رحلته من ساجلماسة حيث انضم إلى جماعة من التجار إذ كانت العلاقات التجارية متعقدة ودائمة بين بلدان المغرب العربي وأقاليم السودان لغربي، وقد عسرت القافلة الصحراء الكبرى في عام ١٣٥٢ م ووصف ابن بطوطة الطريق التي سلكها، فذكر الشيء الكثير عن قافلة التكاشيف التي كانت عدة تتقدم القافلة لتجديرة لتدبغ ما قسومها لكي يبعث إليها بديده، وإذ لم تكن قافلة التكاشيف دون قافلة التجارة تكون معرضة لبرمتها للصوص عظماء في الصحراء، وكان يسلم للتكاشف دقة مطلق من الذهب وقد أورد ما يحسن بوزان (ليو الإفريقي) في أوائل القرن السادس عشر ميلادي أحداً من قافلة حسب طريقها، وأطلقت مكاشف أعين! وقد وصلت القافلة التي كان يصطحبها ابن بطوطة بعد خمسة وعشرين يوماً إلى مدينة تغاري حيث كان يستخرج ملح، ولاحظ ابن بطوطة أن الزوج في عرب يترقب يتعاملون بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة، ومن تغاري وصلت القافلة إلى تلسرغلا، وتحدثت وحادثنا عن شدة الحرارة في الصحراء فذكر أن القافلة كانت ترحل بعد صلاة العصر وتسير في الليل وتتوقف هذا الصباح، وأخيراً وصلت نقاضة إلى أبو لائن بعد سبعة شهورين كاملين، وذكر عن أبو لائن أنها أوطأ أقاليم محاذ السودان وأقصاها شمالاً، وثبت أهلها مصروعة من المنوجات المصرية، وأعجب ابن بطوطة بسلم هذه المدينة فذكر أنهم جحيلات أعظم شأن من الرجال وإذ كان قد تعجبت من احتياط الجيوش بشكل ينبغي ما عرفه في بلاده.

ثم عاثر ابن بطوطة أبو لائن صيماً شطراً حتى ابواقعة جنوبها على مسيرة أربعة وعشرين يوماً ووصل إلى مدينة كادسحو على نهر ليجر وظنه نهر النيل فذكر أنه ينحدر من كادسحو إلى بلدة كابر قبلدة زائفة ثم إلى تيكسو ومن تيكسو إلى بلدة كوكو ثم إلى مولى قبلدة يوفي ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة وجنلة^(١).

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢، القاهرة ١٩٣٣، ص ٣



وذكر ابن بطوطة الكثير عن أحوال مالى وعادات أهلها وتقاليدهم وثقافتهم
 وبحثهم الزراعى. وكنى ذكره أن من عادات أولى الأمر فيها أن يمتعروا ناس
 من دحويي، لا بالإدب، وكان ابن بطوطة قد عرف ذلك قبل رحلته إليها فكتب إلى
 رؤساء الجلسنة العربية فيها فحصدوه له على ذلك الإذن واستأجروا له دار يقيم
 فيها، وكان من بين أولئك الرؤساء تاجر مصرى، وحين يذو أنه كان يوحده فى
 مبنى حامية مصرية بدوئة، فقد أشار ابن بطوطة إلى مرض أصيب به وكان علاجه
 على يد أحد أطباء تلك الحدة كما تحدث عن أحوال سكان وعاداتهم.

ولا شك أن مذكرات ابن بطوطة عن غرب السودان تسمى فهو كبير عبي
 لإقليم، وبعض هذه المذكرات فيها الشيء الكثير من لشبه، ومن العريف أنه كان
 يرمى إلى كثير من الاحتمال يذكر النساء، فقد وصف ساء أير لاثى بأنهن أتم النساء
 جمالا وأبعدهن صورة يوم يكن ابن بطوطة عن يصفى الأوصاف على الساء دون
 حجاب فليس من شك فى أنه شهد الكثيرات منهن فى رحلاته المختلفة، وقد ذكر
 عن المرأة فى غرب السودان بأنها أعظم شأنًا من الرجل فى كثير من المناطق التى
 رحل إليها ويهمهم من كتاباته أنه للإسلام لتعلم لوب محب صرقة، كما غمز فى دراح
 كثيرة بما تحصل بالحياة فى المقام السودان من خبث وعادات ومثل استعادية، وبما
 أثار دهشة ابن بطوطة أو مروره فيما يبدو أن الساء كن يحتمطن بأصدقته من
 الرجال، وكمالك كان يفعل برجان لكن منهم حليقة أو رقيقة

وقد تحدث عن مشهد رآه حينما دخل يوما منزل القاصى بعد أن أسأذه فوجد
 به فى وظيفة امرأة حسنة فساءت يريد أن يلعب من حيث أتى فصاح للقاصى
 وعلم منه أن يدخل ففى رقيقته ويعجب ابن بطوطة بأن نوحى به يمكن قاضى
 محاسب وإنما كان عتيها يلجأ إليه الناس لحل مشكلاتهم والتمنق فى شئون دينهم
 وكان حذجا فوق هذا كله! وقد حلف ابن بطوطة عن عذبة مالى الكثير من
 الوصف المفضل فقد ذكر عن الرليخ فى المملكة أنهم أقل من أن يظلموا بمقتون
 يظلم كب لا ينفقته شعب وسلاطنتهم لا يأمح أحدا من شيء منه، كما تحدث عن
 لاس وشموله فى بلادهم بحيث لا يخاف امانر إليها ولا المقيم عيها من سارق أو

خاصب، كذلك لا يتحرمون مال من يموت ببلادهم من لبيضان (ويعني العرب) ولو كان الفناطير المقتطرة إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه. كما أشاد ابن بطوطة بمدينة جنى التي عندها أعظم عدد السودان لعربي من حيث الغنى والثروة وقد غادر ابن بطوطة مالى إلى تنكتر ومنها إلى تكنا شرق وكانت آخر مدينة رحل إليها من بلاد السودان لعربي إذ جاءه أمر من السلطان يطلب منه الرجوع إلى فاس وقد ذكر المستشرق شيرن أن المعلومات التي أتى بها ليسو الإفريقي في القرن السادس عشر، حقيقة أن رحلات ابن بطوطة شغلت الأذهان وتصارت الأقوال بشأنها فابعض رماه بالكذب والتهويل ومن ذلك ابن خلدون الذي ذكر في مقدمته أن ابن بطوطة كان يروى حكايات غريبة يتماحى الناس بتكذيبها، ولكن بما لا شك فيه أن هذه الرحلات على ما فيها قد أفادت عدم التصديق والتاريخ والاحتجاج، كما يرجع إليها الفضل في إمدادنا بمعلومات وافرة عن الأجراء التي ارتحل إليها ابن بطوطة في غارة إفريقية

وفي نهاية القرن الرابع عشر ميلادي يطالع أبو بلعاسم ابن نعوى بردى من مصنفه المعروف «الذهل العاصي والمستوفى بعد الوافي»، وقد نقل عنه المقرئى قرجنة لأحد قصاة مدينة لامو في شرق إفريقيا التقى به في مكة، وذكر عن لامو أنها بلدة من بلاد الزنج على مقربة من مديشيو، ويمكن استنتاجاً من كتابات ابن نعوى بردى والمقرئى أن مدينة لامو كانت موجودة في عام ١٣٨٢م^(١) ولابد أنها قد تأسست في عهد أقدم من ذلك لأنه كان بها في ذلك العام سكان مسلمون كما كان فيهم قاضى عليم بالشريعة الإسلامى.

وفي سنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر ميلادي يطالعنا عند الرحمن بن خلدون الذي أورد له حقائق هامة عن السودان الغربي، كما قدم معلومات دقيقة عن قبائل طوارق والعرب والبربر في تدوينهم المسكور وقد ذكر ابن خلدون مدينة تاكدا أهم مدينه في سلطنة مالى باعتبارها مركزاً هاماً لخط سير القوافل التي كانت

(١) نقل عن جيلده ج ٦ ص ٢٩٩ - ٢٣٣.

تعتبره مسود في طريقها إلى القاهرة مما يوضح الاتصالات التجارية التي كانت قائمة بين مصر وعالي.

وفي أواخر القرن الخامس عشر وضع القلقشندي موسوعته الضخمة اصبح الاعشى في صناعة الإنشاء، وفي الجزء الخامس من تلك الموسوعة تحدث القلقشندي عن الممالك الإسلامية في إفريقيا وخص بالذكر مملكة مالي التي اعتبرها مملكة الخامسة من ممالك الجهة الجنوبية في مملكة الديار المصرية، ومنها إلى خمسة أقسام - الإقليم الأول مالي، والثاني صوصو، والثالث غانا، والرابع كوكو، والخامس بلاد التكرور الواقعة إلى شرق من كوكو وتبعا من جهة العرب مملكة برنو، مع ملاحظة أن المادة التي عتمد عليها القلقشندي قد اشتقاها عن سبقه من المصنفين إذ نقل كثيرا عن ابن سعيد وأبي الفداء كما وضع اعتماده على البعري، وصحى أية حال فإن قيمة ما ذكره القلقشندي أنه جمع في كتابه الكثير منصوص المؤلفات التي لم تصل إلينا، كما أنما بصورة جلية لمجتمع مملكة مالي، وأورد لنا لحكمها قبل وبعد اعتناقهم للدين الإسلامي، كما أوضح حقوق العلاقات التي كانت تربط السيد من ممالك السودان العربي بمصر^(١)

ومنذ النصف الأول من القرن الخامس عشر لجذب المصنعات العربية العامة لتي أممتنا بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر ميلادي، وهي الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي الذي كان المسلمون في خلاله على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ عليها والسيطرة على تجارتها.

وفي الوقت الذي بدأت فيه المصنعات العربية في التلاشي تبدأ المصادر البرتغالية في الظهور وأهمها ما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد حركة الاستكشافات البحرية من أمثال ماسكودي جوما Vasco de Gama وكاستييدا Castenheida وجويز وباربوسا Barbosa وغيرهم كثيرون، ثم تسالي بعد ذلك المصادر الأوروبية عن إفريقيا وخاصة مجلات انفراد الأوروبيين الذين توغلوا في القارة الإفريقية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

(١) القلقشندي - صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، ج ٤، ص ٢٨٤ - ٢٩٠

والجدير بالذكر أن بعض لكتاب الأوروبيين نعدوا في قليل أو كثير نجاهل
لمؤثرات العربية ومنهم من حاول النيل من حضارة الإسلامية في إفريقيا، وسنة
كشف إفريقيا ودغال الحضارة فيها إلى أوروبا وهذه نظرة قاصرة لأن أوروبا نفسها
لم تصل إلى كشف صحاح القارة الإفريقية إلا بفضل اعتمادها على مصمحات
العربية، والكثير من هذه المصمحات توجع إلى السمات الأوربية المختلفة وقد أشاد
الكثيرون من دوا حركة الكشف والارتداد لأوروبا بالنور الذي قام به العرب في
التعرف على أجزاء من القارة الإفريقية وسبقهم في ذلك، من إن كثير من الرحالة
الأوروبيين قرءوا بأماكن ما كتبه العرب عن المناطق التي ارتادوها كما أن هناك من
المستشرقين من أهم بوبراق فقبل انطباعات العربية في تعريف أوروبا بالقارة
الإفريقية

وقد أثرت المصنوعات الأوروبية عند وطد الاستعمار الأوروبي أقسامه في
إفريقيا أهمية التراث العربي الإفريقي فنقلوا الكثير من مخطوطات العربية إلى
مكتبات بلادهم كالمكتبة لبريطاني بلندن British Museum Library والمكتبة
الوطنية بباريس Bibliothèque Nationale وغيرها، وقد دأبوا على ترجعتها إلى
لغاتهم، كما شططت الجمعيات والمعاهد المعنية بالدراسات الإفريقية وأسهمت في
نشر وتحقيق الكثير منها كما تهتم الجامعات الإفريقية في الوقت الحاضر بجمع
التراث العربي والإفريقي حيث تهض جامعات عتبا وبيجيريا وغينيا والسنغال بجمع
وتصنيف ما في حوزتها من مخطوطات عربية، وقد صدر في السنوات الأخيرة
ثلاث عام لمخطوطات العربية الموضوعة في مكتبتى لاهوس ولونجارا في كوتونا
ببيجيريا (١) كما نهض جامعة ينادان بالتعريف بالمخطوطات المحلية التي في
حوزتها (٢)، وفي شرق إفريقيا توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحلية،
ولاشك أنها أشد ما يكون احتياجا لدراسة هذه المخطوطات وسماعها من أمده
التدريجية منها لى تقدمه من بعض جوانب الهامة، ولجدير الإشارة بهذا بحث إلى

(١) Arif and Aha Hasima, Descriptive Catalogue of the Arabic Manuscripts in (١)
Nigeria Library - London 1965
(٢) Kenneth o. W. B. IV A catalogue of the Arabic Manuscripts Preserved in the (٢)
University Library Ibadan 1955 - 1958.

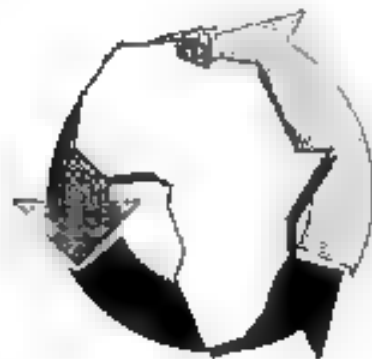
دور جرنيل فريمان أحد خييس بتاريخ شرق إفريقيا قبل عصر البرتغالي، كذلك ينسحب أن سوء الفهم الذي نلها كل من مسجحات ورس ومنتشر في دراسة سريبات السواحلية وحسرتهم لمحاذا في العثور على اندولات العربية والسواحلية كتاريخ لأمور وبنات متخلصوا منها مادة ذات أهمية كبيرة في تطور الإمارات العرب والإسلامة في شرق إفريقيا^(١)، وحاصلة تاريخ لأسرة السهالية في جزيرة بات وجزيرة لامو لثيو موح بن أحمد النافري وهي محفوظة سواحلية حلقها منتشر وأشار إليهم في كتابه «الإسلام في شرق إفريقيا» (Islam in East Africa) هذا إلى جانب دراسة جرنيل فريمان عن كتاب حنة الكلاوية ومختصره السفوة في تاريخ كلوا.

وليس من شك في أن تاريخ العرب في إفريقيا يعد من الصفحات المجدبة في التاريخ الإفريقي، ونحن أن نتبع الطرود للتدريس العرب لاقتناء آثاره قبل أن يصعب تدويع العربية أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوروبية وحدها، فإن معظم هذه المصادر كتبت بالنظرة الأوروبية وكان صعب عليها أن ترى حنة من حبات العرب^(٢).

(١) انظر في كتابه

Prinot A., The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast Arab Shiraz and Swahili London 96 see also A. Warner, A Swahili History in Pate, Sigand. n the Land o Zay London 1913 and Freeman Grenville, The East African Coast London 1962

(٢) انظر دراسة عن المصادر العربية في شرق إفريقيا، المجلد ١ من مجلة الجمعية العربية للدراسات التاريخية في ٢٢٦



الفصل الثاني

العرب في شرق إفريقيا
حتى تأسيس سلطنة زنجبار

معنى في هذا الفصل شتيع علاقة العرب بتروى إفريقيا حتى قيام
السلطة العربية في وجرى في أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر ميلادى
رد من المؤكد أن هذه السلطة لم تقم فجأة، وإنما كان قيامها نتيجة مراحل
متعددة مرت بها تاريخ العرب في شرق إفريقيا. ومهد ظهورها رواد كشيروى من
العرب وحملوا السلطة منذ أمة بعيدة وأسسوا المراكز التجارية والإمارات العربية
لإسلامه إلى أن جاء دور السلطة العربية في توحيد تلك التكتلات الصغيرة
فتملكة تحت قوائها.

وقد ظهرت مؤثرات لإسلامية والعربية في تلك المنطقة من ساحل شرق
إفريقيا المعتدلة من رأس جردقوى شمالا إلى خليج حضارو جنوب، والتي أطلق
العرب عليها مدخل المريج أو زنجبار من العارسية بار بمعنى الساحل، حيث كان
التجارة من جنوب الجزيرة العربية وسوسحل الخليج العربى أقدم من وطنها، وكان
قبومهم إليها ملتجدة حيناً أو للاستيطان حين آخر. وعسى الوعم من أنهم كانوا قلة
من الناس يأتون في فترات محددة إلا أنه يحصى الزمن بدأ احتلالهم يشتد بالسكان
فتزاجوا من ساء القبائل وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة
الذهب والعدج والرقيق^(١) حتى أن ما يلاحظ أن القبائل الإفريقية لم تتمكن من
أن يتوسع أو تذيب الوصين عليها لأن مورد العرب كان منها لا يكاد ينقص،
وترتب على ذلك أن احتفظ هؤلاء الناحون إلى حد كبير بسماتهم الصغيرة، وإن
كان قد برز من هذا الوضع المتحرك الناتج من تعدد لقطاعات والمناصر التي كانت
تقد من الهد ودرمس وجزر انشرق لأقصى بالإضافة إلى الجزيرة العربية والخليج،
الثقافة واللغة السواحلية، وهذه وتلك لاشت في أنها كانت المريج لمركب الذى
لجاء الساحل الشرقى لإفريقيا من ثقافات متعددة ولعاب متبينة وقدت عليه

Ingrams, H., Arabia and the Isles p. 3 (١)

ومن المؤكد أن العرب كان لهم تأثيرهم الواضح في ساحل شرق إفريقيا بدل
 على ذلك أنه الإغريق والرومان أطلقوا على اسم غراب AZANIA نسبة إلى إحدى
 لمحدث بحريته القديمة وهي مملكة عرب التي يقال أنها وجدت في منطقة ما من
 جنوب جزيرة العرب في فترة سابقة على ظهور الإسلام لم تحدد تحديداً واضحة،
 وانتقل سكانها إلى شرق إفريقيا حيث سب الإغريق والرومان هذا الساحل إليهم
 فيما بعد ولكن هو حدير بالذكر أنه على الرغم من معرفة الإغريق والرومان
 بساحل شرق إفريقيا، إلا أنهم لم يتصنوا به اتصال العميقة ثم حدث أن عرب
 العربيون لغزوات من الشمال وهجرات قبيلة عيرت من معسكر حصاراتهم وخاصة
 حيث وجدت في الساحل قائل بجالا وصومال وسبأ وغيرهم من شعوب
 بقرن الإفريقي وأصبحت المنطقة لمادج حياتهم وأزالوا ما وجدوه من حضارة
 قائمة^(١) ومع ذلك فقد ظل الاتصال التجاري يمتد ويتسع قبل الإسلام بين
 جزيرة العرب وموانئ الساحل الشرقي لإفريقيا وقد مددت العرب من الجعفرية
 على نشاط حركة الملاحة لأن الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي
 تمكن السفن الشراعية الصغيرة معروفة باسم الـ Dhow من التمدد برحلتين
 متتاليتين في السنة بأقل مجهود في فصل الخريف تدفعها الرياح في اتجاه جنوبي
 عربي فخرج من خليج عمان إلى المحيط الهندي ثم تدير بمحافظ الساحل الإفريقي
 الذي يسكن في اتجاه جنوبي عربي، وفي فصل الربيع تدفعها في اتجاه شمال شرقي
 يمكن السفن من العودة إلى قواعدها في مساحل شبه جزيرة العربية^(٢)، وفي
 خلال فترة الرياح هذه يتم التعامل التجاري، وقد استعد اليهود أيضاً من تلك
 الرياح فوضح انصافهم بالساحل الشرقي لإفريقيا ووجدت لهم تجارات كثيرة على
 الساحل، ومن المؤكد أيضاً أن يكونوا قد نقلوا بعض أنواع البزوحات ولا سيما
 زينة البزوح^(٣) وقد حدث الرياح الموسمية تعدد مرات الأسوار التي احتفظ بها
 العرب واليهود لأمنهم، في أن تمكن صلاح إفريقيا (٤٥٠ م) من كشف اتجاه هذه
 الرياح وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتب بالفتحين اليونانية واللاتينية عن

(١) تاريخ العالمين، إفريقيا تحت الحكم القديم، ص ٣١

(٢) Victor Auzan, The Arab Diwani Trade Journal of the Middle East, October 1964, ص ٢١

Coupland, East Africa and its Inhabitants, p. 16 ff. ص ٤٣١

محيط، يهدي وموانئه وحركته لتجاره فيه^(١١) ومن ملاحظ أيضا أن العرب لم يقتصرُوا بشواطئهم على ساحل الشرقى لأفريقيا وإنما اندفعوا بفصل كوث برناب إلى الشرق الأقصى حيث وجدت بعض مستوطنات عبرية في سواحل الهند والصين وجزر الشرق الأقصى، وكان بهم فصل شر للإسلام بعد ظهوره (في ذلك المقام)^(١٢)

ولا توجد لدينا حقائق ثابتة يمكن الاعتماد عليها وخاصة ساحل شرق إفريقيا في الفترة السابقة لظهور الإسلام، ولا ما يتنقل من روايات محلية عن حركة التجارة وصادات الناس ومعيشتهم في المنطقة، ومن المحتمل أن تصبح بعض هذه الحقائق على أثر محام بحثت الكتب والتقى، التي بدأت تمارس لشواطئها في سواحل الأخيرة، ومن المؤكد أن طراده سحاون معدونة كبيرة على كتف جوانب الجبلية عن تاريخ الشرق الإفريقي القديم

ولن أقدم المصدر التي تحدث عن حالة العرب في ساحل شرق إفريقيا كتابا وضعه أحد الملاحين الإفرقي وقد عرف باسم الدليل الملاحى للبحر لأفريقيا *Periplus Maris Erythraei*^(١٣) والبحر الأثري كان يطلق على جزء إفريقيا من محيط الهدي وعلى وجه التحديد الجزء الملاصق لساحل شرق إفريقيا^(١٤)، ولهذه الكتب ترجمة بالجمهورية شرق Schuff بعنوان *The Periplus of the Erythraean sea* والكتاب من المصدر يهده في موضوعه الضريد وقد كتب منذ أكثر من تسعة عشر قرنا، وإن كان مؤلفه غير معروف ليد غير أنه من المحتمل أنه يكون أحد الأعدوة يدين بمسوا على الإسكندرية في القرن الأول الميلادي (١٦٠) ويتضح من لاد إلى جمعت في هذا كتاب أن واضعها لم يكن مجرد مجمع بحقائق من من أثبت أنه سافر وأرجل وشاهد بنفسه تلك المناطق التي تحدث وكتب عنها وكتب يقع في نحو ٧٥ كلمة تناول شتى التعبيرات بدلاحية التي كانت سائدة أدت وأسماء الموانئ البحرية التي احتفت لكثير من مغلها، ولا تزال أجزاء كثيرة

(١١) Zde March, East Africa Through Contemporary Records London. 96 p. 3

Sony Kye The Pre History of East Africa. New York 962 (١٢)

see also, Schuff, The Periplus of the Erythraean Sea p. 92

(١٣) رجعت إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب وهي الترجمة التي شرها Schuff

Periplus of the Erythraean Sea.

London. Oliver, pp. 99, p. 45 (١٤)

من الكتاب بكتفها العموس فضلا عن أن الأصاكن التي ذكرت في هذا الدبيب لا نستطيع تبيان مواقعها في الوقت الحاضرة غير أنه من المنتظر بعد تقدم عمليات الاستكشافات، لاثريّة في المطلق أن تحل الكثير من رموزه^(١) ونحصل الواردة في هذا الكتاب جمل قصيره تجمع بين وصف الموانئ وتاريخها، ويبدو أن صاحب الكتاب كان تاجرا أو ربان سفينة فيما يرجع لأنظر اهتمامه بالغ بالتجارة وأحوالها في كل صيد يعرض له وقد حفل الكتاب بوصف الساحل الشرقي لإفريقيا وهو الأمر الذي يعجب، وخاصة أنه يصف حالة العرب وتجارتهم في منطقة^(٢) فهو مثلا يعجب في فقرات كثيرة بكثرة عدد السفن العربية وعن اختلاط العرب وتواجدهم من القبائل لإفريقية، كما يعرض لتسديد المعاصر على الساحل وتطلعها إلى التعرف على لغة العرب ومحاولة التفهيم بها ما تبصحه لهم من آفاق واسعة على التجاوزه والتعامل^(٣)

وأهمية هذا الكتاب أنه أول مصدر أكد العلاقات التي كانت قائمة بين العرب من جوب الجزيرة العربية والساحل الشرقي لإفريقيا، فذكر أن بعض زعماء ساحل كئو بلينوب بالولاء لأمره حمير في جنوب الجزيرة، وأن السفن العربية كانت تأتي من جوب الجزيرة العربية ومن بعض مناطق المحيط الهندي حيث تبادل التجارة بينها وبين الساحل^(٤) وخلاصة القول أن هذا الكتاب قد أعطى معلومات عن التجارة وعن حالة شرق إفريقيا والجزيرة العربية عموما كما تعرض بحركة تبادل التجاري التي كان يشترك فيها للهند بتعبير وفي^(٥)

ولذلك أيضا ما ذكره ابن خلدون في الروائع بليبوس (٧٧) من أن التجارة ملوك اليمن عرفوا مناطق كثيرة من الساحل الشرقي لإفريقيا وجزرها وكنت لهم عليها شيء من السلطة إذ كانوا يتاجرون فيها وقد حرموا العامة من الاتجار ببعض هذه الأصناف كالطيوب والأغذية لكي يبقى احتكار لهم^(٦)

Chabuck, Neville, Kilwa & The Arab Settlements of the African Coast. Journal of the African History vol IV, 2, 1963 p. 79 ff.

Ingram, Arabia and the Isles, p. 3. (٧)

Perrot, Zanzibar. The Island Metropolis of Eastern Africa, London 1920, p. 34. (٨)

Chabuck, Neville, Kilwa and The Arab Settlements of the East African Coast. Journal of the African History vol IV

Zoe Much, op. cit., p. 5 ff. (٩)

(١٠) الزباد - من مجلة المنطقة، ص ٨٩

ويجدر بالذكر أن العرب اكتفوا في فترة البداية بظهور الإسلام بالاستقرار المؤقت على الساحل ولم يحاولوا التوسع في الداخل مكتفين بإنشاء المراكز التجارية بتصدير تراب الذهب والعاج والبريق الذي كان يحمل إلى الدول القديمة التي كانت تلج في طلبه وهي الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية، وتعددت القبائل الإفريقية مع العرب في هذه التجارة حيث كان الرعاة وزعماء القبائل يأتون إلى الساحل بالذهب والعاج والبريق فيقايضونه بسلع العرب المتعاطين معهم بما يحفرونه، وكانت البضائع الإفريقية غالب ما تستقى في المراكز التجارية التي أقامها العرب على الساحل إلى أن يحين موسم الرياح حيث يتم نقلها إلى خليج العرب وسواحل بحريرة العربية في رحلة العودة، وكان العرب يقايضون على ما يأخذونه بالخمر الذي كانوا يحصلون عليه من الهند، ويؤكد ذلك كشف نبعث الأثرية عن كنز كبير من بعض أطلال زيمباري (كيبا)^(١)

وقد أطررر نشاط حركة لتعمد من التجاري فوصلت تجارة الذهب إلى درجة كبيرة من الانتعاش، كما يؤخذ ذلك من تاريخ الحبس لسلطنة كلوة، وشهدت الجزيرة العربية أحداثاً مهمة من الولوج النديس جليلهم العرب من شرق إفريقيا واستحدثهم في حراسة قوافلهم، كما تزوجوا من بناتهم وشأ نتيجة ذلك نقل حرف تشجاعتهم وسواد بشرته.

ولست لندك معلومات وافية عن حالة العرب في ساحل شرق إفريقيا في العشرة الثانية لرحلة صاحب الريمس وما ذكره بيبوس في القرن الأول الميلادي حتى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الصلات كانت قائمة لا تنقطع إلى أن بدأ الإسلام يحدث انقلاباً خطيراً في حالة العرب بوجه عام وتاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا بوجه خاص، فقد لاحظك أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق إفريقيا وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمديات لتبادل التجاري وما يتبع ذلك في بعض الأحيان من استقرار مؤقت في المراكز التجارية التي أقامها العرب بعرص التجارة، على أن الأمور قد تغيرت تغييراً تاماً بظهور الإسلام إذ ظهر عامل آخر في التعامل التجاري مع عه محاولة العرب الاستمرار بصدفهم وقمة كيانات ميامية عربية إسلامية، ولذلك شهد

Pearce, Zanzibar "The Island Metropolis of Eastern Africa, London 1920, p. 34. (١)

الساحل الشرقي لإفريقيا قديماً الكثير من الإمارات وتندى لغزوة الإسلامية وكثرة عدد العرب المهاجرين إلى الساحل واستقرارهم الدائم فيه^(١)، ورغم ارتفاع درجة حرارة برصاف كبير على الساحل فإن العرب لم يتأثروا بهذا حتى لأنهم كانوا يأتون عادة من مناطق أشد حرارة وهي جنوب جزيرة العرب وموسم فصل الصيف، وبذلك لم يستطع الأوربيون بحلول محلهم في مشطى الساحل المهم إلا في المنطقة الجنوبية البعيدة عن خط الاستواء، بيد في موزمبيق، أو عند استطاع الإنجليز ولأول مرة في القرن العشرين، اتوسع في جبال كيب ونجانيقا الحانية^(٢).

وقد حدث امتيطان العرب في ساحل شرق إفريقيا نتيجة ارتفاع متعددة لعل أبرزها المناوعات الدينية وسياسية التي أخذ ينخرس لها مسلمون وخاصة في عهد المونين الأموية والمصاحبة مع دفع العرب للهجرة إلى موانئ شرق إفريقيا حيث كانوا قد ألقوا من قبل التبادل لتجاري معها^(٣)، ولجذب بعض الروايات بتريفة أن كثيراً من أهالي عمان هاجروا إلى شرق إفريقيا هرباً من الجحاح بن يوسف الثقفي، وفي القرن العاشر ميلادي كانت سفن سيرف وعمان في تجارة منتظمة مع شرق إفريقيا وعلى أي حال فقد كانت الجماعات العربية المهاجرة من سواحل جزيرة العرب في الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت ويسمى تنقل دعها صوباً من الحضرة العربية إلى إفريقيا وهي إنشاء لنار والمدينة^(٤)، ومع ذلك فإن الساحل لم يستطيع منطفاها تماماً بالصيغة العربية ويرجع ذلك نتيجة لاختلاف السكان وتبين أجسادهم وتعدد عنصرهم، وإن كان قد ترقى على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق إفريقيا لتشار الدين الإسلامي ويسمى أن يشير إلى أنه كان للأحداث السياسية الخطيرة التي مر بها العالم الإسلامي تأثيرها البالغ في هجرة المسلمين إلى شرق إفريقيا ومن ذلك سقوط المولة السياسية على أيدي لمول أو فرو تيمور لنك لغزى، و أدت هذه الأحداث إلى زيادة موجات الهجرة

(١) جليلي وكريفا قاسم - فتوحات العرب في ساحل شرق إفريقيا - بحث منشور في جولييت كلية الآداب -

جامعة عين شمس - بالقاهرة ١٩٦٩

(٢) صلاح المنجد ونجله ذكرى قاسم، وتيار هو، ٥، القاهرة ١٩٦٦

(٣) Zâs March, op. cit., p. 6 ff.

(٤) عبد الرحمن ركي والسعود في شرق إفريقيا، ٧

العربية والإسلامية حتى أصبح ساحل شرق إفريقيا منطقة الملوحة بألسنة
لحمها حزين لمسلمين اندس عروداً أو أجبروا على الهجرة من موطنهم تبسحة
الأزمات الدينية أو السياسية التي تعرضوا لها^(١)

وعلى أي حال فقد أحدث الإسلام أثره في ساحل شرق إفريقيا وأثرت
التجارة العربية وما تلاها من مستيطان عربي إسلامي على الساحل تأثيراً كبيراً
فكثرت أسراب العرب من الجزيرة العربية ومن الخليج العربي، ولعبت الحروب
الأسرية والدينية في الدولة الإسلامية دور كبير في الإصباح بهذا الأثر، وتحولت
لمراكز التجارية إلى إمارات عربية إسلامية يملكها مهاجرون العرب، على أن من
يلاحظ أن الثقافة وبنية بني انشرفت على أيدي هؤلاء ثم تعدد الساحل وحرر
لغربية منه إذ كان التجارة للعرب الوافدين من الخليج وسواحل الجزيرة العربية
فصل كبير في نشر الإسلام في جزر القمر وجزر المحيط الهندي على الساحل
الإفريقي كمدغشقر والجزر المجاورة لها وإنشأ عرفت فيما بعد باسم ديونيو
وموريس وسيشل، بينما بقي الداخل إفريقيا صراعاً كما كان قبل قدوم تلك
الهجرات، ومن المعروف أن رؤساء القبائل الإفريقية هم الذين كانوا يقومون
بالمواسطة التجارية ولم يحدث توغل العرب في الداخل إلا بعد إنشاء سلطنة
نهرية في زنجبار في عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦) وفي عهد
خلفائه من بعده، حيث أنشأت طرق القوافل وأصبحت المراكز والمحطات التجارية
على طولها، وعلى ذلك استطاع أن يقرر هذا التجديف أن الدماء والحصانة العربية
الإسلامية إلى ما قبل قيام سلطنة زنجبار لم تثبت إلى أبعد من الساحل كثيراً وقد
نتج عن امتزاج العرب بالإفريقيين ظهور ثقافة مميزة انعكست من الشعوب
نصيب حيث استقرت السواحلية لغة فصيحة يدانها من بجا من الذي أتى به العرب
وسبق كان ملكاً مخالفاً للإفريقيين، وتكلمة معها تدل على ذلك فهي تنمي اللغة
بلسان وإن كان هذا لا يعني وجود اللغة العربية كنز فائقة ملاتها بأصنافها
لغة الاستغرافية الحاكمة وحاصلة بعد أن استكملت السلطنة العربية مقومات
وجودها في زنجبار ولغة السواحلية لغة موطنة تعتمد في معظم مفرداتها على
لغات البانتو وإن كانت أسهل منها من حيث التركيب وتداخلها الكثير من
المفردات العربية ولا سيما الألفاظ المستعارة في الشئون التجارية، ويقدر

Pearce, op. cit., pp. 34. (١)

رويش Roush وهو أحد المتخصصين في اللغة المرواحية وتاريخها نسبة لفردات العريسة من الريح إلى الجسمين، وتكتب المرواحية بحروف عربية وأدبها متأثر بالأنواع الأدبية عند العرب، ولكن لم تنتج بهذه اللغة فرصة لتطور والعمول بالغة العربية ظلت هي اللغة الرسمية لإمارات الساحل، وقد بين أن دولة لوزج اتخذت المرواحية لغة خاصة بها

ولم يجدوا أن عرب عمان هم ليس أسهمو سبب كبير في الاتصال بالشرق الإفريقي عقب ظهور الإسلام فالعراق لم يهتم بعمله لا يشارك مشاركة ملحوظة في حركة التوسع والمستوطنات الإسلامية الكبرى التي اشتملت الشام ومصر والعراق وقارس، هذا فضلا عن انصراف العرب في معارك داخلية بين القبائل الجنوبية والشمالية ففي عام ٦٩٥م قام العثمانيون بزعامة سبعمس وسعيد الحننسيين بثورة ضد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٤ - ٧٠٧م)، حيث أن عبد الملك اتبع سياسة قلة في شبه الجزيرة العربية فاستعان ببعض القبائل على بعض الآخر فاضطرت بعض القبائل المنهزمة إلى الهجرة خارج بلاد العرب ومن بينها قسم من قبيلة الأزد العمانية هاجر إلى ساحل شرق إفريقيا وحدث عقب ذلك ثورة لأعويين ونعسي ولآه الحجاز من قبل الأمويين لهم ولا يعرف على وجه الدقة المكاد متى استقر فيه مع أتباعهم وإذ كان من المحتمل أن يكونوا قد استقروا في جزيرة مافيا وتبع هذه الهجرة الرائدة هجرات أخرى واستقر العرب في أماكن متفرقة على الساحل^(١) ولعب اختصار دور بارز في عمليات الاتصال بساحل زنج اقتصر نشاطهم على التجارة التجارية^(٢)، ولم يصع حدث عدد كبير منهم من استيطان الساحل حيث ارتبطت مصالحهم بالمنطقة، وبشكل ذلك نضمة خاصة بان قيام مدن زنجبار إذ كان عرب سواحل يشكلون عنصرا أساسيا من العناصر التي انقسم إليها السكان العرب في ساحل شرق إفريقيا^(٣).

(١) لويس. أرنولد ، *المنيرة إلى الإسلام* (ترجم) ص ٢٢٨

Subject. The Portuguese off the south Atlantic Coast p. 10 (4)

Steing, *The History of Kikuli*, p. 98 see Rightly Report on Zanzibar Dogonism: (r)

ثم تعاقبت الهجرات العربية على شرف إفرنج في عام ٧٤١م وحدث هجرة
ريشية من اليمن، وفي عام ٩٢٤م وجبت هجرة عربية أخرى من الأحساء حيث
احتلها بسكان الأحساء، وكانت هذه الهجرة من قبيلة اخارث العبرية التي
منظهر في حوادث الشرق الإفريقي فيما بعد، ويسو أن هذه القبيلة جعلت منذ
ذات الوقت على تدعيم سيطرتها فاجتحت في تأسيس عدا من في شرق إفريقيا
كمقدشيو وبراوة (١)

ولست لبي مادة متوافرة عن تأسيس هذه المدن يمس الاعتراف عليها
باعتناء ما تناقلته الروايات البرتغالية عن أصل تأسيس مدينة مقدشيو اعتمادا على
روايات محققين، تقول الروايات البرتغالية أن جماعة كبيرة انمست من العرب أصلا
من مدينة محاذرة بالأحساء على الساحل العربي لدمشق على مقربة من البحرين
رب في ثلاث مهن يغصد الهجرة برعاية مسعة إحيوه فراراً من جور حاكم
الأحساء، وهبطت تلك الجماعة الساحل الشرقي لإفريقي وكانت مقدشيو أول
مدينة عربية تأسست في هذا الساحل ثم تلتها براوة. وعندما وفد البرتغاليون إلى
مقدشيو في النصف الأول من القرن السادس عشر كان يحكمها اثنا عشر شيخ
يفدو أنهم من سلالة السعة إحيوه الذين أسوها ولخير بالذكر أن العرب من
سكان مقدشيو، الذين كانوا قد أقاموا في المنطقة قبل مجيء تلك الهجرة أبو
الخصوع بهم، ويسدو أن ذلك كان بسبب اختلاف المذهب بين السكان العرب في
مقدشيو وكانو من الزيديين، وبين الوالدين الجدد وكانو من الشافعيين، ولما صجر
لزيديو عن مقاومة خصومهم في المذهب تركو المدينة وتوعدو من الساحل إلى
الداخل وعلى مر السنين تم تروجهم مع القبائل الإفريقية الخالصة ومرجوا دمهم
بمائلهم ونكود من هذا المديح أمة حبيطة من العرب والزنوج، وقد عرف هؤلاء
باسم لامورينديج، ويسدو أن هذه الكلمة تحريف سواحلي لكلمة الرندية
واعتنافنا أن هؤلاء المحيطين هم من هدم الرحالة البرتغاليون بدورس Moros أو
لمسلمين، وذلك غيراً عن تزويج الخصص، على أن لا يصرف تاريخاً لهذه الهجرة
التي ترتب عليها تأسيس كل من مقدشيو وبراوة، وإن كان من المحتمل فيما يرويه

(١) حسب إبراهيم حسن قسار الإسلام والهرنة بما إلى الصحراء الكبرى هي الفترة الإفريقية وشرقيها

حيث نقلنا عن عبد المتعال العارسي، في كتابه تقويم البلدان، أن مقديشيو تأسست في أوائل عهد الفاطميين بمصر الذين بدأوا حكمهم في عام ٣٦٩هـ.

ويعد تاريخ مدينة بات وتأسيسها من أقصى ما حفظته لسلسلة الروايات المحلية للسواحلية^(١) ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن تاريخ المدينة قد تعرض له الكثير من الباحثين، يخصص منهم وادور A. Warner في بحثه عن تاريخ السواحلية لمدينة بات^(٢) A Swahili History of Pate، كما توفّر على جمع مادة هذا التاريخ التي استقيمت من روايات محلية كل من A. H. Prins, C. H. Stigand، وقد قام برصد دراسة الروايات السواحلية للمختلة التي حصل عليها واسمعة بتاريخ المدينة وحاوي أن يعرضها في دراسة مقارنة، وكان ثمره جهد مثقبة نشرها بعنوان On Swahili Historiography^(٣)، أما Stigand فتقدّم وجميع بحثها بعنوان في لوائح الزنج In the land of Zanj.

ودراسة متجانسة يمكن لاعتماد عليها إلى حد كبير لأنه لم ينقل حرفاً من مورد إليه من روايات محلية إذ على بتحليلها ودراسة ما علق بها من تخيل حقيقة أن المرجع الأساسي الذي عتمد عليه متجانسة كما عتمد عليه غيره، هو أحد المعمرين من أعضاء الأسرة البهادية، لكن متجانسة لم يأخذ الروايات عن عائلته وخصه أن هذا المعمر ويدهي بوانا كيتيني Bwanan Kitini قد تخصص في بيع الروايات الخاصة بالأسرة البهادية ويستعاد من التاريخ الذي ذكر عن مدينة بات أن لأصل في تأسيسها يرجع إلى حكم عبد الحك بن مرون الذي شهد عهده تأسيس العرب لعدة مدن على الساحل الشرقي لإفريقيا كعمبيد ورحمير وشبنة ولامو وكيرة وبت، وهدم سقطت الدولة الأموية ودامت الدولة العباسية اعتمد الخليفة هارون الرشيد على ما كان للدولة الأموية من ممتلكات في شرق إفريقيا فحزم على تدعيمها ومن أجل ذلك شجع الكثير من العناصر وخاصة من فارس على الإقامة في تلك المراكز الإسلامية، على أنه في عام ٦٠١ هـ قادت هجرة

(١) Journal of the African Society vol. 19, 1 (1919)

(٢) A. Warner, A Swahili History of Pate, Journal of The African Society London (1919) 3 See also Prins, The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast (Arab, Shiraz, and Swahili) London, 1961

عربية كثيرة من إقليم عمان قرعهم ملوك البهائيون بعد انهيار دولتهم فنادروهم
عبدان إلى جزيرة بات سني وجنلوا فيها جميعاً من العرب والعجم أسبي كانوا قد
سقوطهم إلى الإقامة في الجزيرة وسطر لمحمية نني كناد شتت بها امسبه
النهائي الذي كان ملك على عمان فقد استقبله المريب، وكان معظمهم من إقليم
عبدان، متقبلاً طيباً، وكان أول ما فعله الملك البهائي أن يزوج من ابنة حاكم
الجزيرة السواحلي اندعو ومحاق الذي ثار لابنته ولصهره عن حكم الجزيرة
وبذلك تبدأ الأسيرة البهية في جزيرة بات^(١) ومن السهولة أن يحدد مدتها بأنها
كانت في السواحل القبيلة التي تلت سقوط الأسرة البهائية في عمان، وقد
يعرف أن هذه الأسيرة سقطت في عمان سنة ٦٠١ هـ فمن المحتمل كثير أن تكون
الأسيرة البهائية كانت في بات بعد ذلك به أو يستين على الأكثر، وعسى أن
هذه الأسيرة خلقت إلى ساحل شرق إفريقيا لتبدأ دور ثلثها من حكمها لطويل الذي
هو مراحل متدنية من لقوة والضعف حتى انتهت بحضوعها لسلطة العربية في
ونجر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي

وعلى الرغم مما تعرضت له الأسيرة البهائية من صراع أسرى حروب السلطة
ولا أنها استطاعت أن تحقق امتياز كبير في مدخل الشرقي الإفريقي وأصبحت
جزيرة بات مركزاً لسلطة إقليمية التي امتدت للإساقاة إلى الجزيرة على هذه
موالي هامة على ساحل الإفريقي، وتلقب الملوك سيديبور بتلقب ابوناو عادي
وهو لقب سواحلي تقليدي قيد يندو^(٢) وقد سقطت السلطة النهائية شال كثير في
بعض فترات من تاريخها، ففي القرن الثالث عشر هلاهي كانت تضم بينها قسدير
وبراوة ومقدشيوه وكان ذلك على عهد الملك محمد شينجا، كحدث امتدت في
عهد أسالة إلى مائيتة وكلوة وميمه، وهكذا استندعت هذه الأسيرة العربية أن
محض معضم الساحل الشرقي تحت بوائها

وفي عهد زدهار سلطة بات شطت الحركة التجارية في الشرق الإفريقي
وتوافد على الساحل التجار العرب واليهود، كما أدخلت لوراغة من بفتح كثير

١ - ورد بيان تفصيلي لهذه التهجرات لمعاقبة وما كان يلحقها من تأسيس المدن في ساحل شرق إفريقيا ويمكن
الرجوع إليها إلى

Lydenau, Swahili Poetry p. 50.

وكذلك

Freeman - Grenville, Select documents on the East Africa p. 34 ff

Freeman - Grenville, op. cit., pp. 241 - 242 ٢٢١

وترتب على وجود البرتغاليين في شرق إفريقيا أن وجدت علاقة بينهم وبين بعض الموانئ الخاصة بلباسيين. وقد اتحد البرتغاليون في أساليب إثارة الخلافات واعتدوا على حكام الساحل وسبوا لخصم الساحل إليهم، وبحسب البرتغاليين في تشيد قلعة عسكرية في ميناء عملة عتبرت من أشهر وأقوى قلاعهم وعرفت باسم قلعة المسيح لا تزال أحاطها مائية في بحيرة حتى يومنا هذا. وكان البرتغاليون يعيشون على هذه القلعة الخكام الموانئ إليهم، وقد مضى في ثورة الرابع بين مختلف حكام الموانئ حتى وصل الأمر إلى أنهم كانوا يعيشون بحكم من السواحلية والعرب الموالين وعزل الحكام السودانيين بهم. ولعمرت جزيرة باب كفا تعرضت بقية الموانئ والإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا لخطر البرتغاليين بولدها كذا من الطبيعي أن تساعد ذات حركة المقاومة التي قادتها الإمامة اليعروبية في عمدة لشخصي الشرق الإفريقي من أمدي البرتغاليين، وبهذا يذكره الإخباري السواحلي بون كيني أن سلطان ذات محمد الرابع بحث في شيوخ حضرموت بشيعة بهم ضد البرتغاليين وكان ذلك في عام ١٥٧٤، ويمكن التثبت لهذا أن استجد سلطان ذات كذا بالأئمة السعدية وليس بشيوخ حضرموت، وأن الاستجداد حدث في فترة متأخرة جدا يذكره المؤرخ السواحلي كذا منشير إلى ذلك فيما بعد.

وبهذا روايت أخرى عن هجرة شيرازية فارسية وصلت إلى ساحل شرق إفريقيا حول منتصف الثاني من القرن السادس الميلادي. أمكن استخلاصها من مخطوطة عربية معصرة للمرو البرتغالي لشرق إفريقيا ولكنها فقدت ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتب في عام ١٨٧٧ وتقدمها السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار هدية إلى السير جون كيرك John Kirk. نقصص البريطاني ابعاد في زنجبار وهذه المخطوطة تشتمل على سبعة عشر ورقة فقط مكتوبة بخط منق وضح وإن كان بها الكثير من الأخطاء اللغوية، وقد أهدى كيرك سورة هذه المخطوطة التي تعتبر فريدة في نوعها إلى المتحف البريطاني باسم حيث قدمت رقم ٢٦٦٦، وتشتمل على حوادث من وصول فارس شيراز إلى ساحل شرق إفريقيا في القرن السادس الميلادي حتى المرو البرتغالي بكنوة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وقد نسخت هذه المخطوطة نقلا عن أورنيك الشيخ محيي الدين الزنجباري

قاضي رنجبار هو عام ١٨٦٢^(١) ، وربما يكون هو نفس القاضي الذي نقابل معه الرحالة بيرتوي Burton والذي حدثنا عنه في كتابه عن رنجبار^(٢) وقد ذكر كثيرًا من هذه المخطوطات أنها مأخوذة عن كتاب سنة الكلاوية، أما المخطوطات منها التي تحمل اسم السلوة في أخبار كنوة، وهي هذا الأساس على محض الندي الزنجاري لا يكون هو مؤلف المخطوطة وإنما مجموعها، وخاصة أن المخطوطة كما ذكرنا مبنية بأخطاء لغوية لا تطابق ما ذهب إليه بيرتوي من فصاحة المسيح نحى النديين الرنجباري وبلاغته، وكتاب السلوة على نكت لى إلا تجيئة حديث على حد ما ذكره السير أوتو Strong عند بشره لكتاب السلوة وتقديمه به بقلا عن الملاحظات التي أبدتها جون كير^(٣) .

وبما كنا نبحث على السجل القديم سنة الكلاوية من جرميل فريمان Freeman ، وهو أحد المصنفين بدراسة تاريخ شرق إفريقيا يتوقع العثور على ذلك سجل، ويؤكد أنه عدد ريارته ساحل شرق إفريقيا رايته وجود كثير من المخطوطات العربية والسواحلية في أيدي عرب بمس ورنجبار كما نطم في عام ١٩٥٥ مصر في المكتبة الخطية عرضت فيه كثير من المخطوطات الخاصة بشرق إفريقيا، ولكن لم تتوافر الظروف لتصويرها^(٤) وقد أكد رنجبار في كتابه عن رنجبار وجود كثير من المخطوطات في حوزة الأهالي ولكنهم يحجبون عن تقديمها للباحثين، ومن المؤكد أن تكشف هذه المخطوطات جواب لا تزال عامضة من تاريخ شرق إفريقيا، وذلك إذا ما أتيح تصديق أصواء التيحت عليها^(٥)

وعلى الرغم من أنه لا نعرف اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية إلا أنه قد ورد في الجزء المأخوذ من قسمة الكتاب بعض إشارات عن التاريخ ندى فرع فيه من تأليفه، فهي الفصل الرابع من السلوة نجد ما يشير إلى أن المؤلف ولد في ٢ شوال

(١) أورد السير ستروينج بعض هذه المخطوطات في دراسة له عن تاريخ كلوة الطور

Strong, A., History of Kalen. Journal of the Royal Asiatic Society 1885

Richard Burton Zanzibar City, Island and Coast 2 Vols London. 1872, ٢٧

Freeman - (Strover to, The medieval History of Tanganyika Coast p. ٩7 ٥٥)

Ingraham, Arabia and the Isles (٤١)

سنة ٩٤٤ هـ (١٣ مايو ١٤٤٩م) وأنه عاصر عهد السلطان قاضي ولا مير إبراهيم،
وبكى الشيخ محيي الدين الرحبيري قد اعمل جمعا يبدو عند نسخة الكتاب اسم
المؤلف ولا يدري عما رد كان ذلك من إعتقال منه أو عدم معرفته اسم المؤلف

وطبقا لتاريخ الذي ذكر في كتاب السيرة يكون المؤلف قد بلغ الرابعة
والعشرين من عمره عند حصار البرتغاليين لقلعة كلوة في عام ١٥١٢، ومن المؤكد
أن يكون مؤلف هذه التكملة من لأسرة احتياكية أو من كبار الأعيان فيها فقد
تحدث عن بعثة لمفاوضة البرتغاليين ضمنها اثنين من أقاربه.

وكتاب السيرة تألف من مقدمة وعشرة فصول، وقد نشر السير آرثر ستوروج
هذه المخطوطة في عام ١٨٩٥ بعنوان تاريخ كنوة Kilwa^(١)، بأجلها
«نعمى وبرجنتها الإنجليزية»، وظهر أن صاحب هذه المخطوطة هو الشيخ عبد الله من
مضيق، أحد العاملين في ملاط سيد برغش سلطان الرحبيري، وقد ذكر في مقدمته
للمخطوطة أنه وقعت في يده أوراق الشيخ محيي الدين الرحبيري ووجد ضمنها
هذا التاريخ فحرص على أن يعيده لمسهذين أن يكتب معه نسخة منها^(٢)

أما مقدمة المخطوطة فهي تناول بعض أمور فلسفية ودينية منها فطش
لإسناد بني المعرفة وأسباب دواب، وأن الله يبر بين نعمته وإحسانه ونعمته
الأول يتناول تأسيس مدينة كنوة وأول من وفد إليها، وهو يندأ سواحى فمضمية بها
أشياء كثيرة من الخرافة عن هجرة قامت من شيرير على ساحل الشرقى من
الخليج، نعمى إلى كنوة - وهي جزيرة صغيرة تقع على مغربة من مياه دار السلام
لخالى - ثم إلى أماكن كثيرة أخرى على ساحل شرق إفريقيا، ولحق على من
الحسن الشيرازى الذى تشب إليه هذه الهجرة في تأسيس دولة بلريج طعلت الفترة
من ٩٧٥ إلى ١٥١٢م، وهى السنة التى وصل فيها البرتغاليون إلى كنوة، وفى
خلال هذه الفترة تعاقب على حكم دولة الريح جماعة لعلى بن الحسن^(٣) ويعمل
المخطوطة أسباب هجرة على بن الحسن بأن مفيد شيراز كاتب تحت حكم الملك
الحسن، وبعد وفاته خلفه سبعة من أناله وكان أحدهم لمعى بنى محقرا مردولا

History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, April 1895. (١)

Zak Murch. East Africa through Contemporary Records p. 214. (٢)

Ibid., p. 6. (٣)

من بقية إخوانه لأنه كان من أمة حيثة: غيره، رحوته بوصافة أجدادهم فأراد بشلال من تخيير وكراهية إخوانه واسطهادهم به فعمل على معدرة شيراز والاسطادان بأرض جديدة بغيره به يعيش فيها، فعاد هو وأهله ودروه شيراز متجها إلى شوشن ربحار ولكنه وجد بها من العرف من كان مذهبهم يحالف معصب الشيعة الذي ينتمى إليه، ولم كان همي بن الحسن يهدف إلى تأسيس ملك جديد فقد واصل مسيره بهرن ساحل حتى وصل إلى أرض كلوة، ولم وجد أن حصونة أرضها واكتشاف المياه بها ما بقية شر صافية جيرانه، فقد شترى الجزيرة من أهلها الخمين بهم مقابل بضعة أقمشة كانت معه، على شرط أن يصعدوا الجزيرة وينسحبوا إلى الداخل، وأخذ بعد ذلك يشيد القلاع لصدع عن جريته ضد حركات الرواح الذين كانوا يقطعون على مفرقة عنها على أن المحطولة تؤكد أنه كان يكنوة جماعة من المسلمين رحبوا إلى كنوة قبل القرن العاشر الميلادي وفي فترة مية أسبق من الفترة التي وصل فيها العرب لشيرازيون التي يحلفها صاحب كتاب السلوة بأنها وقعت في منتصف القرن الثالث الهجري (٩٧٥م)، على أن تحليل معجزة العرب إلى مدينة كنوة بهذا السبب الواهي لا يرقى إلى منطق ولا يرجع أن تكون معجزة فارس تشير إلى شيراز إلى شيراز إرفيقا ضد حدثت بين هامي ١٠٥٥ ر ١١م على أثر فرار الشيعة لشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقي الذي عبر شيراز سنة ١٠٥٥ م، وهذا الرواي تأخفه عن هتشر وهو ادعى إلى الاقتح مع التليم بوجود فاصل رمي بين ما ذكره صاحب تاريخ كنوة وبين هذه الهجرة المشار إليها

وأما حكم علي بن الحسن شيرازي أنه لمج من تأسيس سيطرة على ساحل شرق إفريقيا لم تقتصر على جزيرة كنوة وإنما امتدت إلى عدة مواهي وجزر أخرى تقع بين حروب من دولة لربح التي كانت كنوة عاصمة بها وتمتد من محيا في شمال إلى ميناء معالة في الجنوب، ولكن هذه لم تكن كنوة عاصمة الأراضي بمعنى أنها لم تكن دولة متماسكة قسلا عن أنها تعرضت للمنازعات التقليدية، وتحولت إلى مدن مستقلة تدور كل مدينة منها لأخرى وقد كثرت عمليات التفتيش في السواحل الأخيرة عن كثير من آثار دولة الربيع من بينها عيالات محلية استخضت في عصورها، وقد احتلت هذه الدولة مكانة بارزة بين إمارات الساحل الشرقي لإفريقيا فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الميلادي

وتشتمل مخطوطة السلوة على مقدمة وسعة فصول؛ بينما سقطت الفصول الثلاثة من الثامن إلى العاشر التي ذكر في المقدمة أن المخطوطة سوف تثنى عليها، والفصل الأول يعمد لتأسيس السطنة، أما الفصل الثاني فيتعرض إلى اضطراب الأمور في السلطة وحكومة إحدى القبائل التي اجتاحت كلوة، والفصل الثالث يتناول فيه كاتب المخطوطة عهد أبي المراهب (وهو السلطان بني زاو) من بطوطة)، والفصل الرابع عهد المثلث العبد، والفصل الخامس عودة أسرة أبي المراهب، والفصل السادس حكم الحسن بن وريو، والسابع عهد لسلطان فاضل بن سلطان. وتتناول هذه الفصول النزاعات حول العرش، وحج معظم السلاطين إلى مكة، والفصول الثلاثة التي لم تذكر في المخطوطة يبدو أنها كانت مستنارة تاريخ كلوة بعد سيطرة الإسرتانيين عليها في أوائل القرن السادس عشر والسنوات التالية، حيث جاء في مقدمة المخطوطة أن الفصل الثامن سوف يتناول عهد حاج محمد بن ركن الدين، والثامن عهد السلطان محمد مكنت، وبعشر عهد الملك سلطان بن سلطان، وقد حكم هؤلاء السلاطين في عهد سيطرة البرتغالية، ومن المؤكد أن يكون مؤلف السلوة قد تعمد إسقاط هذه الفصول فإن آخر عبارة وردت في الفصل السابع أولم أجده بعد ذلك شيئاً، وقد ذكرت هذه العبارة بعد حديث المؤلف عن البعثة التي ذهبت خصومة فاسكو دي جام في ٨ جمادى الأولى ٩٤٤ هـ (الموافق لسنة ١٤٩٤م)، ثم يذكر التاسع أن هذه المخطوطة نسخت في ٢ مايو ١٨٧٧ في عهد السيد يرغش بن سعيد وكتبت بيد عبد الله بن مصبح الصواقي.

أما عن إسقاط مؤلف المخطوطة للفصول الثلاثة المذكورة فيرجع إلى مسبب واضح إما من المؤلف أو يكون مؤلف قد اقتصر في تاريخه لكلوة على السنوات الأولى من القرن السادس عشر، لأن ما حدث بعد ذلك كان فيه الكثير من الإهتمام بالنسبة لكلوة بعد إحكام السيطرة البرتغالية على ساحل شرق إفريقيا.

والهم أنه لا يزل يراود كثير من الباحثين الأمل في العثور على سجل كلوة، وكذلك المخطوطة التي نقلها الشيخ محيي الدين الرنجبوري، وبدون يمكن إضافتهما إلى المخطوطة الثالثة، وهي الوحيدة التي لديها النسبة إلى الشيخ عبد الله بن مصبح الصواقي.

وقد يكون من الجدير وقوع سجل كنوة في أيدي البرتغاليين، وخاصة أن
المؤرخ البرتغالي جواو دي باروس Joao de Barros قد حتر على مجموعته صيغة
من المخطوطات لشربها تاريخا لكلوة مزارا Chronica dos Reis de Quilua.
ويكن باروس لم يذكر بـ مصدر الذي نقل عنه، وقد كان من السهل علينا القول
بأن باروس نقل عن نسخة الكلاوية بولا معطى بتقنيات الواضحة بين م أورده
باروس وبين النسخة التي سبق أن أشرنا إليها من تاريخ كلوة؛ هذا مع التسليم
بوجود تشابه في أورده كثيرة بين نسخة البرتغالية وبين نسخة العربية.

وقد عني كل من جرمهيل فريمان وبرنر بمطابقة نسوة في أخبار كلوة عني
تاريخ كنوة الذي نشره باروس^(١١)، ويميز فريمان إلى الاعتقاد بأن أصل المصدرين
وحد، إلا أن باروس أصناف معلومات من مصادر أخرى، وكذا أن أصل أشياء
اعتبرها غير هامة، وبما يعزز وجهة رأي فريمان في أن يكون مصدر المسح
مصدرا واحدا، هو انتهاء باروس في تاريخه لكنوة في عام ١٥١٢، وهو نفس العام
الذي انتهى فيه كتاب السلوة في تاريخ كلوة.

ويبدأ الفصل السابع من تاريخ النسوة بصفة خاصة؛ لأن هذا الفصل يعرض
في نهايته لأخبار وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا، وبما جاء بعده ذلك
أن رجلا أثر من بلاد السراج بصحبة ثلاث سفن وأن اسم قائمهم ميراني (ومنه
يقصد فاسكو دي جاما)، فتقدموا إلى عادية فوجدوا ترحيبا من الأهالي، ولكن لم
يلتزم أن عرف الأهالي أنهم أتوا للتجسس على المدينة بهدف الاستيلاء عليها فتدرو
عليهم فتقدموا إلى ماليندا ومنها أحلوا مؤبدا ومياها وحبوا مرشدا إلى الهند، وهي
عام ٩٦ هـ قدم يساريوس (ولعله يقصد القائد البرتغالي بيدرو ألفاريز)، وطلب
من أهالي كلوة ماء ورفوداء كما طلب أيضا مقابلة السلطان أو ابنه، فأرسل
سلطان وقدا خصوصتهم، أرفقهم رفض الوعد إصعاجهم ما طلبوا فذهبوا لعدة الله
عليهم إلى ماليندا وأخذوا كل م كانوا يحتاجونه، ولكنهم عادوا إلى كلوة، ولما
أدرك أهالي كلوة أنهم لا يستطيعون لهم دفعا تقدم وعد لاستقبال الميراني وكان قد
عاد من الهند وكان من هذا الوفد بعض من أقاربهم، ثم يقول صاحب التاريخ أنه
لم يجد بعد ذلك شئ، ويدو أنه وقف عند مقدم البرتغاليين، ويتضح ذلك من

Prosser - Grenville, pp. 24, p. 60 ff see also

(١١)

Frank A. H. The Swahili Speaking Peoples of Zanzibar and the East African Coast
Arabic Shiraz and Swahili International Institute, London, 1951

تسمية الكتاب «السوة» أى أنه كتب تأريخاً للقراء فى تاريخ كلوة وهم يشاء بعبية
 الخس أن يكتب عب صارت به كلوة بعد السيطرة البرتغالية وعلى برعم من أن
 كتاب السوة ليس هو نسخة لأصلية من تاريخ كلوة، إلا أنه يعطينا تاريخاً متصلاً
 لسلطة كلوة من القرون العاشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وقد
 عثرت هذه السلطة - أو ما عرفت باسم دولة الريح - أول دولة إسلامية قامت فى
 شرق إفريقيا، ومن المؤكد أن سلطنة زنجبار الحديثة (١٨٣٢ - ١٩٦٤) كانت تستند
 إلى أصولها التاريخية إلى هذه الدولة التى اتخذت من كلوة عاصمة لها^(١)، مع
 تسبب بوجود فسارق كبير وهو أن سلطنة زنجبار كانت سلطنة عربية إفريقية يبعث
 كانت دولة «زنج» تعود بأصولها الأولى إلى فارس شيرا، أى أنها كانت أصلاً دولة
 فارسية إسلامية، ومن هنا يمكن أن نلاحظ تلك التسمية التى أطلقت على الساحل
 الذى كانت تشغله هذه الدولة وهو زنجبار أى ساحل الريح من لغوية بار بمعنى
 لساحل ونكن السؤال الذى ينبثق إلى الذهن هو إلى أى مدى أثر الفرس
 الشيرازيون فى الساحل الشرقى الإفريقى فى عهد دولة «زنج»؟ أو بمعنى آخر هل
 كان التمزق فى عصر تلك الدولة «العربية أم الفرس» حقيقة أنه لا يمكن أن
 نكر ما تركه الفرس الشيرازيون من تأثير كبير فى الفن المعماري وفى الأدب
 السواحلى وفى طريقة الملوك والمأكول أو مظاهر الحضارة المختلفة، بل يستمر ذلك
 التأثير قائماً حتى عهد سلطنة زنجبار الحديثة، ويستمر بالتدريج وفرد جماعات من
 الفرس للإقامة فى ساحل شرق إفريقيا، بل لقد جرح من السيد سعيد بن سلطان
 مؤسس سلطنة زنجبار الحديثة، أن يتزوج من أميرة فارسية ويأبى بها لتقيم معه فى
 زنجبار، واعتقد أنه قصد بهذه الزيجة توطيد مركزه أمام رعاياه الفرس الذين كانت
 تشكّلهم الدولة العربية الجديدة. وإن كنا يؤكد إسهام الفرس مع العرب فى
 الاستمرار على الساحل فإنهم مع ذلك لم يسهموا بالقدر الذى ساهم به العرب
 الذين كانوا أسبق إلى الانصب كما رأينا، ونكن يلاحظ أن بعض الكتاب وحده
 من الإنجليز كانوا يحدون التركيز على بهجرات الفارسية بهدف إضعاف مقومات
 سلطة العربية وإعطائها مسحة فارسية، وقد استعنت السلطات البريطانية خلال

Arthur Strong, History of Kilwa, and Report on Zanzibar Dominions, p. 399 (١).

سوات حمايتها على ونجارتها الى الاساس التاريخي لقانونه معاصر العربية في السلطة فتجعت قيام الحرب لأفروئيباى شاهقة المعاصر العربية والاكيد بتحتد الملمين من فارس وليس من جزيرة العربية، وكان خرب الأفروئيباى يتجد تأييدا من السلطات الاستعمارية بريطانية، والهدم من حدث واضح وهو التقصيد على المقومات العربية حيث كانت ذهنية الحرب تلبس إلى دعوى الإفريقيين إلى الرجوع بمسهم إلى لغرس الشيرازيين وليس إلى العرب وعلى أى حال فستطيع أن يذهب إلى تأكيد ما سبق أن ذكرناه وهو أنه إذا كانت هناك بعض السمات العنصرية إلا أنها بطبيعة الحال لم تتبع القدر الذي تبته السمات العربية في ساحل شرق إفريقيا، بل لا معنى إذا قلنا إن تلك السمات بغرضه لم تلبث أن صاعدت في غمار حياة العرب أو السواحلية على الساحل الشرقى لإفريقيا. وقد بدأت سمات الأمة السواحلية تظهر بجلالة في عهد دولة الريح، وإن كان السواحليون قد انقسموا إلى السواحليين الشماليين، وبعدهم إلى الجنوبيين، وبذلك على ويصحبون بأصنام العرب، والسواحليين الجنوبيين الذين يدعون الانتماء إلى على بين الحسن شيرازى ويصحبون بملصق تلك الدولة لتحتد

وكان لدولة الريح الفصل في قيام عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقى لإفريقيا، وانطلق أن تلك المدن تجمعت نجاحا كبيرا، ووصلت إلى درجة كبيرة من التحضر والازدهار، ولكن يسعى أن نلاحظ أن تلك المدن انتقلت إلى النفوذ العسكرية، وروى يجمع السبب في ذلك إلى أنها لم تعدم تسجعة بفتح أو توسع عسكري وإنما أسسها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون من مياميون أو ديبون، وهؤلاء جميعا كانوا مضطرين بحكم ذلك أن تكون علاقاتهم سفينة إلى حد كبير مع الأهالي الذين استقروا في أوطانهم، وبكاد القرون العشرة الميلادية يولى حتى كانت هذه المدن قد متكملت مقوماتها ومخاتها للعربية إذ صاعدت الهجرات العربية لتتوايه على طعن مغالها الفارسية، وتحوّلت إلى مدن عربية صرفة، وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هي مقبشيو - براوة - سيوة - بات - لامو - نجيار - قاب - كنبو - سعنة. وفي خلال القرون العشرة الميلادية كان للإسلام قد نشر في تلك المراكز وأصبح لكل مدينة مجدها الخاص بها، وثمة ملاحظة هامة وهي أن العرب فضلوا المعيشة في الجبل لسهولة الدفاع عنها وبعد موقعها على القنطرة، لأهالي

السكان في البحر لإفريقي إذ كان عليهم إذ أرادوا الهجوم أن يخصوصوا الماء العاصل بين الساحل والبحيرة، وإذ ذلك يستطيع العرب وهم من أهل البحر أن يردوهم على أعقابهم، على أن أهم ما يلاحظ أن العرب الذين استوطنوا تلك المراكز الإسلامية قد نقلوا معهم خلاقاتهم وممارعاتهم، ولذلك ظهر العبداء مفر بين هذه المدن بعضها والبعض الآخر حتى أصبح من المستحيل قيام وحدة تجمع بينها طوارعية، وهي بعض الأحيان كانت تقوم هذه وحدات سياسية تستند إلى الشوق أو توسع، إحدى هذه المدن على حساب غيرها، كما نجحت ميسرة في سيطرته على مدب الساحل خلال بضع سنوات من القرن الثاني عشر الميلادي، أو كما فعلت بات في سيطرتها على معظم مدب الساحل من مالتيند شمالا إلى كلوة جنوبا فيما عدا زنجبار حتى عام ١٣٣٠م، وكذلك حاول كل من مقديشيو وعب وزنجبار في أوقات متفرقة أن تعرضي قيام وحدات من ذلك النوع

أب دولة المريج فعلى الرغم من أن الساحل كان يشعها إلا أن هذه الشعبة لم تمتد أكثر من كونها قمية اسمية، وعلى أي حال فقدم وفد البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقية، حول نهاية القرن الخامس عشر اديلاي، كانت كلوة تسيطر على القسم الجنوبي من الساحل، لحبيب أرمي لاسكودي جاب قلاص في موزمبيق وجد أن حاكم المياه يتبع سلطان كلوة، وكان مخولا له جميع الضرائب المروضة على السفن التجارية وتسلمها إلى سلطان كلوة، وإن كان هذا لم يمنع من قيام المنازعات بين هذه المبدأ^(١٦)، وتحدث الروايات عن ذلك النزاع المشهور الذي كان قائما بين ماليدة وميسرة والذي استند منه البرتغاليون فائمة كبيرة في سيطرتهم على الساحل. وعلى الرغم من ذلك فإن أهمية دولة المريج ترجع إلى أنها وجدت معظم المراكز الإسلامية في ساحل شرق إفريقية، وبلغت ذروة قوتها في عهد سيمب بن علي ثاني حكامها فلم تستعص عليه من مدب ساحل موي مديته مقديشيو لتي كانت تحكمها أرمسترواطية عربية نجارية، وجمعت دولة المريج كذلك جريوتي ميا وزنجبار، وإن كان هناك ما يؤكد أن دولة المريج استعصت بأكبر من زنجبار^(١٧)، هذا

Rupfl, *Travels, Research and Missionary Labours*, London 400 p. 52A. (١٦)

Roland Oliver "editor" *The Dawn of The African History Six Chapaur VII. The (١٧) Land of Zanj* by Mathew p.p. 46-47

فصلا عن الصلات التجارية الواسعة مع جزيرة مدغشقر وجزر القمر، ومواصلة
دوية الريح دخل الإسلام هذه الجزر فأصبح دين الغالبية في زنجبار، كما اعتنقت
بعض قبائل مدغشقر، وهي قبيلة لانتيمبرود في الطرف الجنوبي الشرقي من
نصف الجزيرة، كذلك تجمع العرب في تأسيس مملكة عربية في شمال جزيرة
مدغشقر، وقد أورد لنا جيان بعض التواريخ المتعلقة بمدغشقر وجزر القمر مقالا
عن بعض المخطوطات العربية التي ذكر أنه عثر عليها في مايو، إحدى جزر
القمر، وكذلك تحدث جريان عن عدة مخطوطات عربية قديمة ذكر أنه عثر
عليها في مدغشقر وأعادها إلى المكتبة الوطنية بباريس، ويستدل من هذه
المخطوطات على أن شعب اللانتيمبرود كان ثمة اختلاط بين العرب وقبيلة الأكار،
التي ينحصر لها من الحاجة التنظيمية، وقد عرفت قبيلة اللانتيمبرود الكتابة العربية
بعد الإسلام. يتناهي شعب الهوى، أكبر شعوب مدغشقر لا يعرف الكتابة إلى
فترة متأخرة

وقد ذكر فيرب أن اللانتيمبرود يحتفظون بكتب عربية قديمة يرجعون
فيها نسبهم إلى مكة، ولكن يجب أن تأخذ هذه الروايات بحذر شديد لأن دعوى
النسب إلى مكة واليبس، بها شيء نكاذب تكون ظهيرة متعشبة في تلك المناطق،
وقد أسلمت قبيلة اللانتيمبرود بعد وصول العرب إلى جزيرتهم، وإن كان إسلام تلك
القبيلة إسلاما صعبا، إذ لم تثن أن عادت إلى عقائدها من جديد وما تخلعت
الوثنية بالإسلام، ويلاحظ أن الأوروبيين اصطدموا أيضا بالديانات المحلية حينما
حاولوا التبشير بالمسيحية^(١)

والظاهرة التي ميزت تاريخ دولة الريح منذ نشأتها حتى سقوطها على أيدي
برتغاليين عام ١٥١٢ هي ذلك الصراع الدائم بين حكومة الموكمة في كلوة وبين
حكام ملوانى الذين حاولوا الاستقلال بمذهبهم وإنشاء مملكة صغيرة على طول
الساحل، وفي الفترة الأخيرة التي سبقت مجيء البرتغاليين أضعف إلى هذا النوع
من الصراع صراع آخر بين أعضاء الأسرة الشيرازية الحاكمة من جهة وبين أنصار

(١) يرجع إلى بورتوب مشرف دار - ضمير العالم الإسلامي - ملاحظات الأبي شيك أرسلان على مخطوطات
جوان ليون جيا من ١٩٦٦ م بعد.

الوزير سليمان الذين استطاعوا اجتصاب الحكم في فترات منقطعة من جهة أخرى، وسيستفيد البرنيسليون من ذلك المزايدات فيسطرون منقطعهم على الساحل بسهولة^(١). على أن هذه القلائل التي سادت دولة الزنج لم تجمع من ازدهار الحضارة المادية في يومها^(٢) ويمكن تحليل هذه الازدهار يعاملين :

أولاً : اشتغال المسلمين لدهاجرين بنقل التجارة بين البلدان الواقعة على ساحل المحيط الهندي، وأهم السلع التي عتمدت عليها هذه التجارة هي للعاج والرفيق، وأحياناً الفخير، وكان المسلمون يحصلون على هذه السلع من رؤساء القبائل الإفريقية في نظير المنسوجات وبقيّة لأتوات الحضارية الأخرى التي كانوا يجلبونها معهم. وقد عرف برقيق الذي كان يتجر فيه العرب في بلاد الصين وجزر الهند الشرقية، ولكن لأسواق الرئيسية له كانت في بلاد فارس والعراق ومن المعروف أنه منذ القرن الثالث الهجري استحلهم هؤلاء الزنوج بكثرة في مزارع العراق، وأنهم قاموا بثورة اجتماعية وسياسية في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي.

وثانياً : استغلال مناجم الذهب التي ما تزال موجودة حتى الآن في بعض أقاليم أوسط إفريقيا، فكثافت كميات كبيرة من الذهب تد إلى قلب العالم الإسلامي من سفالة، حتى سميت بسفالة الذهب.

يتضح مما سبق زيادة الروابط بين العرب وشرق إفريقيا خلال الفترة التي تلت ظهور الإسلام، ولا معنى أن هذه الروابط اقتصر على اتصال العرب بشرق إفريقيا بل واتصال الشرق لإفريقي أيضاً بالبلاد العربية فأخذت الموارد الإفريقية تظهر في الأسواق العربية، على أنه لا ينبغي أن تنفق مع ما ورد ذكره خطأ في بعض المصادر التي تناولتها هي أن مدن شرق إفريقيا الإسلامية قام اقتصادها على أساس تجارة الرقيق، وإنما كان كذلك المدن تشاهد اقتصادي آخر لم يقتصر فقط

(١) Coupland, East Africa and its Invasors p.p. 23 - 24

(٢) وصف ابن بطوطة كيف أن الخاتم كانت تزد بكثرة على سلطان كلوة، وأنه كان يورعها حسب الفهرس. وكتاب الأشرف بالله يأتون إليه من بعض أئمة العالم الإسلامي ليأخذوا حبيب ذوي القربى، انظر ابن بطوطة حجة ص ١١٣.



على هذه التجارة، ويمكن أن يؤكد أن العوامر التي ساعدت على ازدهار العلاقات الاقتصادية أن العرب كانوا سادة المحيط الهندي إلى أن انتزع منهم البرتغاليون هذه الضووق في أوائل القرن السادس عشر الميلادي^(١١) ومن معروف أن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين أوروبا والشرق كانت ضعيفة على مساحة العرب لتجارية الذين كانوا يحيطون بضمائع الهند والشرق لأفريقيا إلى خليج العربي والبحر الأحمر ومنها إلى بحر المتوسط. وقد ساهم ساحل شرق إفريقيا في تجارة الذهب والساحل، وفي اقرب ما نرى الميلادي كان هناك ما يؤكد بأن بيوت سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي كانت تبني من الأخشاب مأخوذة من زنجبار^(١٢) أما تجارة الرقيق فالواقع أنها لم تصل إلى درجة كبيرة من الانتعاش إلا منذ القرن السادس عشر الميلادي أي في نفس الوقت الذي شهدت فيه إفريقيا طلائع الاستعمار الأوروبي. واعتقدنا أنه منقول لأوروبية هي التي شجعت على استعمال تلك تجارة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. حقيقة أنه لا ننكر أن تجارة الرقيق كانت معروفة لدى العرب منذ أقدم العصور، ولكنها كانت تسير في نطاق ضيق، ثم أخذت هذه التجارة تزداد عندما عرفت أوروبا الدورة الإفريقية وبدأت عمدياً الاستيلاء على الرقيق من ساحل غرب إفريقيا ونقله عبر مياه الأطلنطي لرواية لتطلق الصناعة في الأمريكتين. وبعد يبدو أن مناطق غرب إفريقيا لم تشهد عائلة الأوربيين على الرغم من أنها صيرت خلال القرون الثلاثة من السادس عشر حتى الثامن عشر ما يقرب من مائة مليون إفريقي بدأت تظهر المراكز والمحطات التجارية في شرق إفريقيا وخاصة على ساحل موزمبيق لاستخدام الرقيق شرق إفريقيا أيضاً. ونحشد بعض المصادر أنه كثيراً من رقيق شرق إفريقيا كان يصل بدوره إلى المزارع الأمريكية^(١٣).

وما نريد لإثباته إليه أن كوبلاند وغيره من الكتاب لأوروبيين حاولوا تحميل العرب دور تجارة الرقيق في شرق إفريقيا باعتبارهم الوسطاء الذين كانوا

(١١) راجع في تلك فصلو جوداني العرب والملاح في سبيد الهندي، وكذلك آدمز في عصره الإسلام (مترجم) ج ٧ ص ١٤٧٩-١٤٨٠

(١٢) Coupland, op. cit. p.p. 18-20

(١٣) راجع تجارة الرقيق في غرب إفريقيا ابتداء من السنوات الأولى من القرن التاسع عشر على أثر الحركة المناهضة لتجارة الرقيق التي أوصفتها بويغتي. انظر مصدر ذلك

Coupland, R. The British Anti-Slavery Movement. London, 1978.

يعدون المراكز التجارية، لبرعالية بالعدد الفلارم من الرقيق، ولكن هذا التقدير يسي على أسس غير سليمة، فلو طبقنا نفس تلك النظرية على مؤسسة الرقيق في غرب إفريقيا، وكما يعترف كوبلاندي بأن هذه التجارة أقدمت لقارة عشرات الملايين، نعبرنا لتجارة الرقيق الأوروبيين أعينهم وقلنا إن القاتل الإفريقية هي مسئولة عن تلك التجارة في سواحل غرب القارة لأنها كانت تقدم الأسرى من الإفريقيين للناجس الأوروبيين؟ ويستمر كوبلاندي في عقد المقارنات الخاطئة فيذكر أن تجارة الرقيق بدأت في غرب إفريقيا في القرن السادس عشر وسميت في أوائل القرن التاسع عشر، أما ساحل شرق إفريقيا فقد بدأت تجارة الرقيق في مد أوتة قديمة ولم تته إلا منذ سنوات قليلة، وهذه المقارنة لا يثبت في أنها قد تدفع البعض ولذلك كما نأمل مثلا أن تكون هناك إحصائيات ولو تقريبية - وهذا ما لم يتوفر لسوء الحظ - من عدد الرقيق الذي استعمله الأوروبيون خلال ثلاثة قرون، وعدد الرقيق الذي تعامل به التجار العرب خلال قرون عديدة - حيث يمكن أن يتضح ل سوء هذا التقدير.

وهنا ناحية أخرى نفتت نذهب في بعض المصادر الأوروبية التي تعرضت للعرب في شرق إفريقيا، فقد حرص الكثيرون على التهوين من دور العرب وتأثيرهم الحضاري في المنطقة، فهم مثلا لم يهتموا بإدخال لزراعة إلا بالقدر الذي يكفي استهلاكهم وكلاهما انصرفوا إليه هو إشباع شهتهم في تجارة الذهب والبهارات والرقيق، ولكن هذا الحكم قد يشير التنازل، إذ إن هذه المصادر لم تحدد فترة زمنية معينة يمكن دراستها وحكم عليها حكما سليما - بل إن كل ما نستطيع أن نقرر به أن العرب حقيقة قد اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالزراعة وهذه طبيعة العرب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه عندما سطر العرب في الساحل واضطروا لهم الانتماء بالزراعة توجهوا إلى الاكتفاء الذاتي، فمقلقل كانت كثيرة حدوث والمراكز والإمارات كانت متناثرة ومتجهة دوما للتنازل والتنازع، وتستمر الأوضاع على هذه الصورة حتى نفرض الظروف لدولة عربية أن نحن محل هذه الإمارات والمراكز وتظهر في شكل سلطة كبيرة وحيث تلك الحكومات الصغيرة تحت لوائها، وبعضهم بعد دولة البرمسيدي - وخاصة في عهد أعظم حكامها سعيد بن سلطان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فانجذبت هذه الدولة إلى الاهتمام بالزراعة

فصلا عن اهتمامها بالتجارة، وهو أمر لا يسيل إلى إنكاره، بل إن السيد سعيد أدخل رعاياه جليلة وخاصة زراعة القطن حتى أصبحت جزيرتا إي وريجاد تمتد لمعالم بالنصيب الأوفى من احتياجه من ذلك المحصول (٩/١) حتى وقعا الخاضعين^(١) أما ما تضمنه بعض مصادر الأوربية من وضع القدرات الخدمية عند فعله الأوروبيون وما لم يفعله العرب فلا ينبغي اتخاذها أساسا للحكم السليم؛ فرب الأوروبي أنفسهم لم يدخلوا الزراعة إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بعد استطاعتهم استغلال المرتفعة الصالحة ولصحتهم الخاصة. أما البعوض الثلاثة التي تلت معرفتهم بالقارة الإفريقية فقد كان كل ما يهمهم هو الإثراء والاشتغال بتجارة الرقيق والذهب فصلا عن تفويض حضارة الإسلام التي شهدنا ساحل شرق إفريقيا، والتي ساهم العرب مساهمة كبيرة في بنائها. وقد تعمقت بعض المصادر الأوروبية التفتيش من دور العرب في شرق إفريقيا فذكرت أن لتجارة كانت دافعهم الوحيد أما الدواعي الأخرى الإنسانية أو الدينية أو الحضارية التي حركت لأوروبيين فلم يهتم بها العرب^(٢) والحقيقة هي لا مرأى فيها، وهو أمر قد نجده الحاضر، أن التجارة بل الاستغلال هو لدى كل معنى الأوروبيين، وقد ستمر لأوروبيون على الاستغلال البشري أجمع خلال القرون الخمسة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر حسم فكر الأوروبيون على (تهدئة) القدرة الإفريقية بدعوى إدخال الحضارة إليها - والحقيقة بهدف استعمارها - اعتمدوا على جهود العرب في المراكز التي أنشوها لربط الساحل بالمحيط، وكانت هذه المراكز عونا كبيرا لمستكشفين الأوروبيين، بل إن المناطق التي كشفت كانت معروفة لدى العرب، وأكثر من ذلك فقد امتد كثير من الرواد الأوروبيين بالتجارة العرب في عمقها، فكشف هذه التي لم تكن في حقيقتها كشفا وإنما كانت مجرد تسجيل عمى للمناطق كانت معروفة لدى العرب من قبل^(٣)

(١) جمال زكريا - نسيم - دول وسعود في عمان وشرق إفريقيا من ١١٣ - ٢١٦ القامرة ١٩٦٧

(٢) رجع دراسة عن استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا - جزيئات كلية الآداب جامعة عين شمس للعدد العشر من ٢٥٩/٢٩٧

(٣) جمال زكريا - نسيم - دور العرب في كشف إفريقيا من قبله عالم الفكر - العدد الثاني من المجلد الأول مارس ١٩٧١

أحدث انتشار الإسلام انتعاش كبيراً في الساحل شرق إفريقيا وتوطعت
 أوروبا التي توثقت هراها بين الساحل الشرقي والجزيرة العربية، يدل على ذلك
 كثرة الزيجات في البلاد العربية، وهناك حوادث وقع في ابتداء حكم الخليفة
 أبو العباس منصور لمقت بالساح، وبهذا الحادث يدل دلالة واضحة على وجود
 صلات في ذلك العهد بين العرب وسواحل شرق إفريقيا، قلت أنه لما ثار أهالي
 الموصل على العباسيين أمر الخليفة أحد إحيوته بقمع الثورة قتل من ساءلهم
 ورجالهم بمئة ألف، وكان في جنه أربعة آلاف رجل من رعيار وحدث
 بعد ذلك قيام ثورة الزنج في العراق. بعد مرور ما يقرب من قرن على مقتل
 أبي العباس تزوج في جيش الإسلامي، فقد قامت لدولة العباسية كما هو
 معروف لداهي التاريخ الإسلامي على عدم التمسك بطرية العرب مددة
 لإسلام، ولما قامت هذه الدولة على إفساح المجال لشعوب لأخرى تشرك في
 الدولة الإسلامية، وترتب على حركة الزنج وقوع ثورة بين عامي ٨٦٩ و ٨٧١م،
 وهي الثورة الأخيرة سطر تزوج على البصرة ومصب العرب، وأصبحت هذه
 المناطق شبه مفصلة عن الدولة ووقعة تحت حكم وعيم السود حولي أربعة عشر
 عاماً^(١)، وقد ذكر أبو العباس عن هذه الثورة بأن عصابه من زواج رعيار أغارب على
 أخيه أخوي من العراق واستولت على مدينة البصرة.

إذا كان لدينا الكثير من المعلومات عن الزيج في البلاد العربية فلا زالت
 معلوماتنا ضاربة عن حالة العرب في سواحل شرق إفريقيا لجير أنه من المؤكد أن
 العرب كثر عددهم خلال القرون الثلاثة التي تلت ظهور الإسلام، ففي القرن
 العاشر الميلادي امتد العرب على طول الساحل من القرن الإفريقي المواجه لجنوب
 الجزيرة العربية حتى سفالة وهي أقصى بلاد البرج، كما توجد لدى بعض الشواهد
 أيضاً على اتصال الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا بالممالك الإسلامية بالحشة،
 وقد انضمت تلك الممالك نتيجة زدهار حركة التجارة في الساحل الشرقي
 لإفريقيا^(٢)، وسيترتب على انتشار الإسلام لإحاطة بالإمارات المسيحية بالحشة

Coupland, East Africa and its Invasions p. 31. (١)
 Roland Oliver, The Dawn of African History, p. 48. (٢)

حتى أنها سجدت نالها بين البرتغاليين والأحباش لمواجهة قوة المسلمين . كما سمرص
بالملك تفصيلًا في الفصل القادم

وعلى الرغم من أن حقائق لم تتضح تمامًا عن العرب في شرق إفريقيا
لأمر الذي لا شك فيه هو أن القرون الحادي عشر الميلادي شهد عددًا هائلاً من
الوحدات الإسلامية على طول الساحل الشرقي من إفريقيا من شبة الجزيرة
عربية ، وهذه الوحدات أصبحت تطوّر من مجرد مراكز تجارية إلى مدن يحكمها
عرب مسلمون أو سواحليون أو جماعات متفرقة من السواحلية ، ويعيش فيها مزيج
من هؤلاء جميعاً ، وكانت بعض هذه الوحدات ، وخاصة تلك التي قامت في جزر
شرق إفريقيا عربية لطابع إسلامية المتخلى ، بينما لم تتحد مدن الساحل مثل مانيبند
وإراوة إلا صبة سطحية من الثقافة العربية الإسلامية

ويمكننا أن نقسم مراحل الرئيسية التي مر بها تاريخ العرب في ساحل شرق
إفريقيا حتى قيام سلطنة زنجبار الحديثة إلى المراحل الآتية :

المرحلة الأولى : وتتميز بظهور المراكز التجارية .

المرحلة الثانية : وتبدأ من القرن السابع الميلادي إلى نهاية القرن الخامس
عشر ، وتتميز هذه المرحلة بسيطرة المسلمين على تجارة المحيط الهندي ، كما شهدت
هذه المرحلة أيضاً استقرار العرب والمسلمين من الجزيرة العربية والخليج العربي
وفارس والهند في ساحل شرق إفريقيا ، ومعلومات عن هذه الفترة هي قزير
مستمرة مع ملاحظة أنه تبع عمليات الاستيطان ظهور كثير من الوحدات الأساسية
منذ القرن العاشر الميلادي ، ووصلت إلى أوج ازدهارها في الفترة التي سبقت
مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا

المرحلة الثالثة : وصول البرتغاليين إلى الساحل وسيطرتهم على تجارة المحيط
الهندي والتراجعهم عنه ، لسيطرة من العرب والهنود .

المرحلة الرابعة : وتتميز بالثورات والحروب المتتالية التي قامت ضد البرتغاليين
حتى حلّص الساحل الشرقي لعرب عمان ، وبذلك تم وضع الأساس لتكوين
سلطنة زنجبار الحديثة^(١)

Olivier, op. cit., p. 414 (.)

لقد تبع ظهور الإسلام وانتشاره خوارق حريرة العربية في القرون السابع
الميلادي اندفاع جماعات من العرب من سواحل الجزيرة العربية إلى ساحل شرق
إفريقيا لا متجانسة بل بالاقامة الدائمة، وبدأ هؤلاء يقيمون المدن والإمبراطوريات
الإسلامية على الساحل، وقد صدقوا جماعات من العرب سبقتهم إلى هناك منذ
أزمنة بعيدة، كما لقوا شعباً موافقياً أصهت العناصر الوافدة على الساحل في
تكوين سماته. وهالك، جماع بين المؤرخين على أنه نكث، هنة من المسلمين
أقامت سدورها الجديدة دون كبير مشقة أو عناء، جنو عبي الناس ونزوحو منهم
وامترجسوا بهم، كما فعل غيرهم من قبل، وأخذت شعوب الساحل عنهم سيم
الحديد والثقافة العربية التي قامت عنده، كما أخذت عنهم الكثير من وسائل
عيشهم ولما دمج حياتهم، وثمة ملاحظة حذيرة بالذكر وهي أن معظم المهاجرين كانوا
من إقليم عماد في جنوب الشرق من جزيرة العربية. وواقع أن موقع عماد
التي تحده الصحراء من الغرب والمحيط من الجنوب والشرق كان له أثر في توجيه
سكانها إلى الملاحة والتجارة البحرية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لحياتهم، وقد
ظهرت مهارة العمانيين في صناعة السفن والملاحة الشرعية، ولعب العمانيون دور
كبيراً في تنمية التجارة العربية في المحيط الهندي خلال القرنين السابع عشر والثامن
عشر، أي في بعض الوقت الذي شهد تنهؤ قوة البرتغاليين البحرية تقوياً^(١)
ويؤكد كثير من الباحثين أن تاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا أقرب إلى أنهم
درس على أنه تاريخ مبار إسلامية أتى أهلها من الخليج وجزيرة العربية، وعصى
الزمن تحولت ثقافة الساحل إلى ثقافة إسلامية لا اقتصار في خصائصها وتشرب
الثقافة العربية ثورياً كبيراً.

ويعد السير ويجنالد كويلاند Coupland^(٢)، من أبرز الباحثين في تاريخ
شرق إفريقيا، وعلى الرغم من تهوئه لمركز العرب، كما سبق أن أوضحنا، إلا أنه
لم يجد صاحب من الاعتراف بأن المستوطنات التي وجدت على الساحل كانت

(١) Coupland, op. cit., p. 21.

(٢) له مؤلفات مهمات في شرق إفريقيا وما

- East Africa and its Invaders Oxford, 1938.
The Exploitation of East Africa, London 1933.



منوعات عربية، ولكنه أشير في أحيد كثيره إلى أثر العرب، بعد توكيد الدلائل
عربية لمدن التي وجدت على ساحل في خصائصها وفي أساليب عيشها وقد
أبرز ذلك الرحالة البرتغالي باربوسا Duarte Barbosa حين كتب عن حيوية مدن
الساحل شرقي وتجزئتها، وأكد أن شعب الخصبة التي صادفها البرتغاليون كانت
حياء عذبة اشترك فيها اليهود والعرب، وظاهر مجتمع حبيب من هؤلاء جميعا،
ولكن اسمه العربية كانت عالية والجملة العربية ساجدة كانت أقوى^(١١) وقد وضع
باربوسا كتابه في عام ١٥١٨ م، ولم يكن يهدف من كتابه التأكيد لساحل،
ولكن بصرف إلى وصف السكان وأحوال التجارة والتعامل، وسجل إعجاب
البرتغاليين بما وجدوه من مدن ومجتمعات متحضرة على ساحل شرق إفريقيا،
وتجاره مردهة مع الشرق الأقصى والهند، كما سجل إعجابهم بما لاحظوه من
التنافس الشاسع بين الساحل الغربي والساحل الشرقي من إفريقيا الذي كان يعرج
بالحالة وقد يكون من المناسب أن نعرض بصدق ذلك ما ذكره باربوسا في وصفه
عصارة ساحل الشرق الإفريقي إذ كتب يقول: «من وصف المراكب الصبيرة
التي كان يقودها فاسكو دي جاما إلى سفالة في شرق إفريقيا حتى فوجئت مدجاة
لم تكن تتوقعها فقد لقي البحارة ما لم يكن في حسابهم حينما حرقوا
يعربون في البحر وسحبوا زراعي تطن كملايا الحمل ومدن ساحلية عسرة
بناس - وفرحوا حين وجدوا بين البحارة العرب واليهود رجالا عبروا المحيط
الهندي مرات عديدة ويعرفون من أهل ذلك دقاتي مرافقه وسجلوا هذه المدن في
خريطة متقنة لا تقل فائده عما كانوا يعملونه من خرائط في أوروبا رأى
البرتغاليون على هذا الساحل مدنا آمنة يسكنها لا تقل نشاطا عن مدنهم في
البرتغال، كما رأوا عمارة بحرية نافعة في الذهب والبخيد والعاج والحرير وجلود
السمكة والأقمشة القطنية والرفيق وجدوا هذه تجاريا أوسع من عالمهم الذي
كانوا منه وأكثر ثروة من بلادهم، وحتى السفن التي وجدوها البرتغاليون كانت أكبر
من سفنهم فقد كانت عبارة المحيط الهندي آنذاك أكبر من سفن دي جاما
وأضخم حجما حتى لقد عجب سكان ساحل من أين أتى البرتغاليون وكل
البلاد عندهم معروفة^(١٢)»

The Book of Duarte Barbosa 2 vols. (١١)

The Book of Duarte Barbosa Edited by M. L. Dames ١٩١٨. An account of the East Coast ١٥١٧ - ١٥١٨. Hakluyt Society p.p. ١٤ - ٢١

نظر أيضا: بارل دايديسود - إفريقيا تحت ضوء جديد من ٢٦٨ / ٢٦٩

ولقد عاصر ملثم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا ومان عويى يدعى شهاب الدين أحمد بن محمد السعدى أو لنجدى، عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر، وحلف برأى خالدا فى فترة نيجار والملاحة الهندية، يشتمل على ما يقرب من تسعة عشر مؤلفا، صحت فى مخطوط كبير تم الكشف عنه فى أوائل القرن الحالى، ويرجع بعض فى ذلك للمستشرق لفرانسى جبريل فيران الذى اكتشف هذا المخطوط فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية فى باريس، وكانت المكتبة قد حصلت على هذا المخطوط من أستاذ جزائرى يدعى سليمان تولى للتدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى عام ١٨٦١، وظل المخطوط يكاد يكون مهملًا فى هارفرد مكتبة تحت رقم ٢٢٩٢ باستثناء بعض الإشارات السريعة العابرة عنه إلى أن قام فيران بالتحقق من قبضته العلمية وشراء بين عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٣، وذلك بعد أن عكف على دراسته و يقرت من عشرة أعوام لم يزيد^(١).

وتحضر أهمية هذا المخطوط فى أنه أقدم وثيقة عربية دوت من الملاحة ومون البحار فى بحر الحسوبة بين الساحل الشرقى لإفريقيا والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين العربى وأندونيسيا وإلايو وبلاد الصين وفى عام ١٩١٩ عثر فى دمشق على نسخة أخرى من هذا المخطوط وقد سحت بمكة فى عام ١٥٩٢ تولى فيرن مطابقتها على النسخة التى وجدت فى المكتبة الفرنسية، وأخيرا عثر المستشرق الرومى كراتشكوفسكى فى المتحف الآسيوى على ثلاث أرخير تسمى أولاها بالإبحار من طريق البحر الأحمر، والثانية بالإبحار من طريق المحيط الهندى، والثالثة وصف الطريق من المحيط الهندى إلى إفريقيا الشرقية^(٢)، وقد نشرت هذه الأراجير الثلاث فى عام ١٩٥٧ من قبل معهد الامتشاف السوفيتى بمدينة ليسجرااد بعد أن عكف فيودور شوموفسكى - أحد طلابه كراتشكوفسكى -

(١) ألور عبد الحليم أحمد بن محمد ص ٦

نظر إليها مجلة شهاب للنشر أحمد بن محمد فى دائرة المعارف الإسلامية

(٢) تلك مؤلفات أحمد بن ماجه عنابة حاصبه من المستشرق الفرنسى المعروف مظهر دى سيمى Simey

في عام ١٨٩٥، وتوجد نسخة منقوغة فى دار الكتب المصرية خلا من المكتبة الاحلية بباريس

لكل من مؤلفات أحمد بن ماجه ومبداين المهدي

على دراسته والتعليق عليها، وقد نشرها باسم ثلاث رعايات للجمعية^(١)، كما
عثر على مخطوطة أخرى لأحمد بن ماجد بالموصل لا تراث تحتاج إلى تحقيق^(٢)

وعلى الرغم من أن يكتاد يتفق عليه الكثير من الباحثين على أن أحمد بن ماجد
هو بني أوشم فسكودي حاشا في رجائه إلى العهد إلا أن المطبع على مؤلفات
أحمد بن ماجد لا يجد فيها إشارة إلى ذلك، وإذا كان أحمد بن ماجد قد وضع
بعض المؤلفات قبل مقدم البرتغاليين فإن هناك مؤلفات أخرى كتبها بعد وصول
البرتغاليين، وبالشحيد بين عامي ١٥١١ و ١٥١٢ م يتعرض فيها إلى إرثه
البرتغاليين لطريق العهد.

أما المصادر البرتغالية المعاصرة والتي كتب كل من جوير باروس وكامبديا،
فعمد لرسم من أنها تشرب إلى أن ملاح عربي قد سبى فسكودي حاشا، في
العهد، إلا أنها لا تذكر الاسم صراحة وإنما تذكر أسماء غير واضحة لهذا ملاح مثل
معليمو كباتا أو كباتا أو عربي من الكجرات؛ صاحب فسكودي حاشا في عام
١٤٩٨ في رجائه من مدينة إلى قاليقوط^(٣). وقد أثبت غيرنا أن اسم معليمو
ليس إلا تحريفاً صواحياً للكلمة العربية معمم، ويخوعند إلى مؤلفات سليمان
المهري، وهو ملاح عربي عاش بعد ابن ماجد بسبعين سنة لا يجد في كتابه أية
إشارة إلى هذا الحادث.

أما الذي أكد على حديث إرشد أحمد بن ماجد للبرتغاليين فهو جبريل قيران
حاشا عثر على مخطوط باللغة العربية نقلت للدين النهر والى يرجع تاريخه إلى عام
١٥٧٧ يعود إلى سوق البعاني في المفتح العثماني، وقد ذكر ذلك للمخطوط تحت باب
اقتفال السلطنة باليمن من من طاهر إلى الأمير حسين في البتراسة أنه وقع في

(١) نشر هذا الكتاب في عام ٩٥٧ هـ من معهد الأبحاث السورية بدمشق وفي الثلاث مرشيد بأصولها
العربية والترجمة والتعليق عليها باللغة الروسية

(٢) كراتشكوفسكي الأدب الجغرافي عند العرب، القسم الأول، حد ولد حاشا من أحد أجدادنا في الخليج
العربي بوجود مخطوطة أخرى لأحمد بن ماجد في حوزة إحدى الأسر في إمارة رأس الخيمة بدولة
الإمارات العربية

(٣) كراتشكوفسكي : مع المخطوطات العربية من ١٨٠ ١٨٣

أول القرن العاشر الهجري من الحوادث المودج اسودد دخول البرتغال النعمى من طائفة المروج للآعين إلى ديار الهند، وأنهم كانوا يحرصون لأحطار إلى أن دلهم هذا الملاح الذى كان يعب البحر مع أمير البحر البرتغالى، فلما لعت الحمر براس الملاح أرشدهم البحر إلى الطريق، فقتلوا لبرتغاليين لا تقربوا الشدلى، عند هذا الجراء إلى لشاطى، شرقى لإفريقب إلى الشمال من ماليدى بل أديروا سبعة رأى صوب البحر، فلتجرو لشاطى الهيد وتكونوا فى حصى من الامواج، فلما اتبعوا هذه لإرشادات ففى كثير من النعمى البرتغالية من الفرق.

وقد تكون أهمية كليات قطع النعمى أنه عاصر أحمد بن ماجد، فقبلا عن أن بعض المصادر البرتغالية قد أشارت إلى إرشاد بعض الأدلاء لفسابكو دى جاما إلى طريق، وقد حدث ذلك بتكليف من ملك ماليدى الذى خالف البرتغاليين عند وصولهم إلى بلاده ضد منافسه شبح مكة، ولكن المذرج البرتغالى باروس سب قصة لإرشاد إلى ملاح منهم من أهل كنجرات، أم الحكومة البرتغالية فيها قد عتروا أخيرا بعصل أحمد بن ماجد فأقامت له نصبا تذكارية فى مدينة ماليدى (١). ولكن، لشكك فى أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى أرشد لبرتغاليين إلى الهند يعوم على الاعتبارات، الآتية

أولا أن ابن ماجد سم يشر إلى ذلك بل إنه أبى هذه، وأصحا لبرتغاليين فى أشعاره وأراجيزه

ثانيا أن سليمان النهري الذى ظهر بعد ابن ماجد لم يشر هو لأخرى هذه الحادثة، أما مبدى على رلى فى كتابه المحيط الذى كتبه باللغة التركية ورجع فيه إلى أصغر ابن ماجد وسليمان النهري فقد ذكر أن الربانة الأجانب كانوا لا يعرفون كيف يبحرون فى المحيط الهندى دون لاستعانة برى برىهم، ولكنه سم يورد اسم ذلك الربان ويرى لبعض أن مذكر عن ابن ماجد أنه كتب فى حادثة سكر أمر لا يوفى إلى المحيط إذ كيف يترك له فاسكو دى جاما قيادة سميته وهو فى هذه الحالة، هذا فصلا عما يشين من كتاباته وأراجيزه سنة روجه ومخجه إلى مكة وربما تعيد مؤلفات أحمد بن ماجد فى تاريخ شرق إفريقيا فى مدينتي

(١) أنور عبد الغليم أحمد بن ماجد ص ٦٦، المجلد ٦٢ من سلسلة أعلام العرب

الأولى ما جاء بها من إشارات عن وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق

إفريقيا

والثانية : ذكره لبعض المناطق وجزر المرجوة عنى ساحل - ومن أهم مؤلفات أحمد بن ماجد كتاب الفرق في أصول علم البحر والطواعيد وحرارة الاحتصار في أصول علم البحار، وقد ذكر في الثالثة عشرة من كتاب الفوائد وصفا لبعض جزر الكنيرة المشهورة، يعا منها وصفه لجزيرة القمر التي ذكر فيها أنه يحكم عليها سلاطين الإسلام وبها أربعون خطبة، ويقصد بذلك أربعين مسجد.

والى جانب هذه المؤلفات هناك أراجيز لا تخرج في جميعها عن أن تكون مرشحات ملاحية ببيان طرق الملاحة، وبها من علم لأراجيز لأرجوة سبانية. سعة إلى مسألة في جنوب شرق إفريقيا، وهي قصيدة طويلة تقع في أكثر من سبعائة بيت، وأهمية هذه لأرجوة أنها تؤكد تكون لأرجوة الوحيدة التي ورد فيها ذكر البرتغاليين، فبالإضافة إلى مجاء بها من وصف للمعجى والقياسات من ميناء وبت إلى بواحي السواحل والرنج وأرض هناك وجزره، نجد فيها بيانات واضحة عن وصول البرتغاليين إلى جزيرة مدغشقر، من ذلك ما جاء في أحد هذه الأبيات :

ونحسب الأفريج قد جاءوه وملكوها بعد أن عاروها

العرب والبرتغاليون في شرق إفريقيا :

لم يكتشف الأوروبيون سواحل القارة لإفريقية حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وقد يكون خيار المصور الوسطى من الأوروبيين قد عرفوا بعض سواحل إفريقيا خطلة على البحر الأحمر، لا أن أماليك في مصر لم يجدوا أن يعينهم عن هذه السواحل، خوفا من أن يتعرفوا على مصادر التجارة الهندية، وأدى هذا لحريم على الأوروبيين إلى جهودهم التام بالقارة لإفريقية، ولكنهم كانوا يرون الحاج الإتيوبيين يترددون على بيت المقدس بيد أنهم كانوا لا يعرفون لهم

جنباً ولا يعرفون البلاد التي أتوا منها فكيف يعتقدون أنهم هود تارة أو فوس أو
 إحدى تارة أخرى حتى بدأت بينهم قصة عن ملك أسود يحكم بلاداً مسيحية في
 جنوب مصر أطلقوا عليها اسم مملكة القس يوحنا ومن المعروف أنه كان من أبرز
 العوامل التي حركت البرتغاليين لنيكشعب البحر في رغبتهم في الوصول إلى هذه
 المملكة لإحكام تصديق الحقائق على المسلمين، إذ إنه كان من بين العوامل التي
 دفعت لبرتغاليين في المواجهة بدور والو في حركة الاستكشافات البحرية الانتقام
 من المسلمين الذين حكموا شبه جزيرة أيبيريا لفترة طويلة من الزمن، والبحث عن
 مواضع الذهب والاتصال بهذه المملكة المسيحية التي تحدثت عنها أقاصيص رحلته
 في العصور الوسطى، ولم تحدد هذه الأقاصيص موقع مملكة بالفيط، ولكن فهم
 أنها تقع في مكان ما وسط القارة الإفريقية، وقد لم يخطر البرتغاليون في أثناء
 تقدمهم على طول الساحل الغربي لإفريقيا على أثر لذلك للملكة فقد رجحوا أن
 تكون في الجانب الشرقي من القارة ولا شك أنهم كانوا يعتقدون بذلك الممكلة دولة
 مسيحية، وإذا فإن منطقة إفريقيا الشرقية، المواجهة بدجور الجنوب العربي
 من المحيط الهندي كانت تحقق جميع هذه الأهداف بالنسبة لبرتغاليين، حيث
 الإمارات التي تنتشر على سواحلها، عربية كانت أو سواحلية، ومناجم الذهب
 الموجودة خلف هذه الإمارات، وقد ظهر أنه العرب يستخرجون من هذه المناجم، ثم
 إن مملكة القس يوحنا تقع قريبة منها

ونفخ البرتغاليون في سبيل الأمر في اتحاد ساحل شرق إفريقيا بمثابة قاعدة
 ملاحية في الطريق إلى الهند، وتبع ذلك اتجاههم إلى استغلال المنطقة، وأتى ذلك
 الهدف من أجل الهدف الأول الذي أصبح في مواقع هذا السبيل من وراء
 سيطرة البرتغاليين على ساحل شرق إفريقيا

ويمكننا أن نلاحظ أثر البرتغاليين في ساحل شرق إفريقيا في طهرتين
 بارزتين:

الأولى: اتجاه البرتغاليين إلى حثالة الساحل وعزله عن الداخل الذي كان
 ينفذ سلعة التجارة، والتي كانت تصدر بدورها في موانئ الخليج العربي والهند
 والشرق الأقصى

والثانية : انجاء البرتغاليين إلى إثارة الحروب وانتراعات الأسرية بين حكام الساحل، وانهدمه من ذلك إضعاف الزعماء والرؤساء لتوليتهم السيطرة في نهاية الأمر^(١١).

ويعتبر اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الهند بداية الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث، وكان من أبرز نتائج ذلك الكشف أن تحولت التجارة الشرقية من طريق الخليج العربي والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البحرية والبرية التقليدية إلى ذلك الطريق البحري المباشر، وكانت تجارة الشرق يومئذ بين العرب فصارهم البرتغاليون يعصب وعسوة واستطاعوا أن يتزعموا منهم تلك التجارة، وأن يضعفوا ما كان لهم فيها من نشاط ظاهر. واتسم الصراع الذي نشب بين العرب والبرتغاليين بتزعة دينية وتعصب صريح^(١٢)، ويؤكد كوبلاندي أن العرب الذين كانوا يسيطرون على تجارة المحيط الهندي منذ عدة قرون لم يكن يراهم إلى ذمتهم أن تلك السفن القادمة من أوروبا يمكن أن تشكل خطراً على ثروتهم أو على الوساطة التي كانوا يتمتعون بها في تجارة الشرق، ولكن لم يلبث أن انفضح لهم بعد ذلك بقليل أن رحلة فاسكودي جاما نعتها تسلط عسكراً واحتكاكاً اقتصادياً بالغ.

كان أول وصول البرتغاليين إلى ساحل إفريقيا الشرقية في إبريل سنة ١٤٩٨، ولفوا عن العرب والسواحلية ترحيباً في بداية الأمر إلى أن وضح لهؤلاء حقيقة ما يقسمرون، وأدركوا أنهم يريدون الانقضاض على تجارتهم والاستيلاء على بلادهم فتحول الود عداوة وعلى أي حال فقد تمكن البرتغاليون من الساحل ما يقرب من مائتي عام ١٤٩٨ - ١٦٩٨ آلت إليهم تجارتهم وموارده واستغلتوا من مصادر ثرواته في الذهب والعاج والرقيق. وقد بدأ احتكاك البرتغاليين بجنوب الساحل الشرقي في موزمبيق ومفالة حيث اعتقد سكانها في بداية الأمر أن القادمين أتراك مسلمون، ويستدل من المعلومات التي لدينا أن منطقة شرق إفريقيا

(١١) باول فليمنغ : إفريقيا تحت التوراة - جينيف، ص ١١٦.

(١٢) ديفيد ليفينج : لجنة ليفينج في بعض أسواق إفريقيا نشر David Livingstone من ١٨٠٥، ويمكن الرجوع إلى بعض المراسلات المتبادلة بين العثمانيين والبرتغاليين في كتاب بور الفيني السالي : لجنة الأمان بسيرة آل عثمان ص ١١ وما تبعها، وكذلك ملاحظ كتابنا الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، القاهرة ١٩٨٥.

كانت تابعة لسلطان كلوة، وأنه كان يعين من قبيلة ولاء على مفاوضات الساحل وقد نجح فاسكودي جام في الوصول إلى كثير من الموانئ كغفنة وكلوة ولججندو وماليندة، وهناك فوجئ بأن العرب في الهند كان معروف لدى تجار هذه البلاد وأنه يمكن الاعتماد على مرشدين من العرب أو يهود، وفي مورمبيق طلب فاسكو دي جاما بعض التريسة ليرشدوه إلى بهمة ولكن عندما تيسر لأهالي مورمبيق حشبة البرتغاليين برزوا لهم بالعصاة حتى اضطر فاسكو دي جاما إلى مغادرة مورمبيق بحث عن مكان آخر فاتجه إلى ماليندة وهناك وجد حاكمها يدعى «جرج» لم يستطع الخروج إليه من قصره كبير سدا وإنما أوفد إليه أحد ابنائه وجايت لفاسكو دي جاما لإقامته في ماليندة بعض الوقت حيث استجمع من هناك عند آخر من الأدلاء ليرشدوه إلى الهند وطيب حاكم المدينة معه أن يعرج إلى ماليندة عند عودته من الهند لأن في بحث معه وقد يقصد مصادقة ملك البرتغال

وكان نجاح فاسكو دي جاما حافزا لعمادويل، ملك البرتغال، على تجهيز حملة كبيرة ليس بهدف الكشف عنه بلورة وإنما بهدف السيطرة، ووصفت الحملة البرتغالية عملا في مورمبيق وكلوة في يولية ١٥٠٥ وحاول قائدها كيرال أن يعقد معاهدة مع سلطان كلوة، ولكن السلطان رفض مصادقة البرتغاليين أو محالفتهم، ولما أخذ يستعد للدفاع عن بلاده، فافجه كيرال^(١) إلى ماليندة حيث سلم شيخها الهدايا التي كان قد بحث بها إليه الملك عمانوئيل ردا على بعض حاكم ماليندة في لشبونة التي وافقت فاسكو دي جاما عند عودته من الهند^(٢) وقد رأى شيخ ماليندة أن يسمي بالبرتغاليين في القضاء على منافسه شيخ محبة، وكانت بالعداوة لا تكاد تنقطع بين الشيخين، فشيخ ماليندة يحاول أن يؤكد نفسه أصلا يسو به على مشايخ الموانئ لساخية جميعهم مدعي أنه من سلالة حكام حكموا المنطقة الساحلية قبل لقيم، أما شيخ محبة فقد كان من أقوى مشايخ الساحل سلطة ونفوذ.

ولم يقتصر المنافسة على ماليندة ومحبة، وإنما انتقلت حومة التنافس إلى جميع الموانئ الساحلية، إذ القوم تحت رعدة هذه السلطة أو تلك معظم يومى

Knapf: *Travels and Missionary Labours in East Africa* p. 524 (١)

The Voyage of Pedro Alvarez Cabral to Brazil and India, Hakluyt Society, 1938 (p. ٧١)

والبحر في ساحل شرق إفريقيا. ويؤكد جيد حقيقة هامة من وجود صلات بين دولة المماليك في مصر وبعض مناطق ساحل إفريقيا الشرقية، وذكره بصفته ذلك أنه عندما تقدم البرتغاليون من ميناء أوجا، شمال مالابو، اعتدوا حاكم ميناء بأنه لا يستطيع دفع جزية للبرتغاليين لأنه يتبع السلطان الملوكي بالقاهرة. وعلى أي حال، وجد نجد في الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون إلى ساحل شرق إفريقيا أن هذه المدن والموانئ والبحر كانت في مزارعات ومناقصات مستمرة، وكلها يجرى في ذلك الدوافع الاقتصادية والتجارية؛ ففضلاً عن دوافع السيادة والرغبة في السيطرة على الساحل، ومن المؤكد أن هذه المزارعات كانت قائمة قبل مقدم البرتغاليين بوقت طويل.

ويمكن تتبع لامعان العسكرية لأولى التي قدم بها البرتغاليون في ساحل شرق إفريقيا حتى أوجها لأقصى في عام ١٥٠٢ محتولة ماسكو دي جاما إحصاء كنوة حتى تم للبرتغاليين ذلك في عام ١٥١٢، وفيما بين عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٥ لجميع كل من رافاسكو Ravasco ودالميد D'Almeida في تأكيد لسيطرة برتغالية على معظم موانئ الساحل، ويبدو أن لبرتغاليين الصبر في بداية الأمر إلى محاولة اتحاد موانئ شرق إفريقيا محطات محمد سقيم الهدية إلى الهند بالعثاد^١ وقد يكون من المناسب أن نقرر هنا حقيقة هامة وهي أنه صاحب الغزو البرتغالي لمدن ساحل شرق إفريقيا انتشار الإسلام بين القبائل الداخلية، بسبب فرار العرب والمسلمين من الساحل إلى المناطق خوفاً من بطش البرتغاليين بهم، وهذا أمر نكاد نلاحظه أكثر ما يكون وضوح بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية كصقديشو وزيلع وبربره وانجاء المسلمين إلى الداخل حيث انتشر الإسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة.

كان العرب هم الطبقة الأرستقراطية في شرق إفريقيا وإليهم في ذلك العهد، وإن كان هؤلاء لم يتطلعوا إلى مناصب حكم وإنما وجهوا اهتمامهم إلى الواحى الساحرية والاقتصادية؛ وهذه الواحى كانت تشكل طبقة الغنياء في تلك المجتمعات، وقد أصاب انهود قدر كبير من الثراء نتيجة عمليات النقل والتجارة

وف إلى ذلك من المصالحات الأخرى، وقد سبق أن أشرنا إلى أن البرتغاليين أنفسهم
دمشوا دجشة بالغة حينما صادفوا تلك المجتمعات المدهرة اقتصاديا وحضاريا،
وتحدث الكثيرون من مؤرخي البرتغاليين وحالته عن هذا لازدهار الاقتصادي،
واشادوا بصعة حاضرة بني لاتصالات التجارة بين موانئ الشرق لإفريقي والشرق
الأقصى، كما تحدثوا عن العمارة والفن في تلك المدن، كما أكد الكثيرون منهم أنه
كشف طريق رأس الرجاء الصالح كانه يشكل كاتلة كبيرة بالنسبة إلى هذه المدن،
وسلك قوتهم يحدون نهاية القرن الخامس عشر بأنه سيجب بهيار العصر الذهبي
للحضارة الإسلامية على الساحل الشرقي لإفريقيا، حينما أخذ البرتغاليون يعملون
فيها معدون الهند والتغريب^(١٩).

وانواق أن البرتغاليين وول مستغلوا فرصة لروع إلى كاد قائما بين لندن
والوانى الصحية في توليد سيطرتهم على ساحل شرق إفريقيا إلا أنهم لم
يتجهلوا صراحة بصرة طريق على آخر، وفيما يبدو أنهم كانوا مشغولين في ذلك
الوقت بمهمة توصول إلى أسواق الشرق أكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر، ثم لم
تلبث العملاء أن امتدت على الساحل وظهر أثرها في قوة البرتغاليين فلم يجد
شيخ عيسى من مصالحه شيع ماليسه فكتب إليه رسالة يشرح له فيها مقدار ما
أمره البرتغاليون بمحسة من دمار، ويرجو منه أن يتعاون معه ضد البرتغاليين^(٢٠)
ولكن لم يكن لهذا الكتاب أى صدى بسبب الكراهية الشديدة التي امتحكت في
قلوب سكان مابيللة ضد عيسى حتى بلغت كراهية أهالي مابيللة لمحسة أكثر من
كراهيتهم للبرتغاليين. وقد استمدت مابيللة الكثير من المعائن التي يهياها البرتغاليون
من محسة حينما دارت بها المعارك العيفة التي اشتدت فيها الإفريقيون مع
السواحليين والعرب ضد البرتغاليين الذين أعملوا التحريب والتقتيل في المدينة
وسكانها والواقع أن محسة تعرضت لأحداث فاسية من خسوف وأحصاد
والحريق، ويسر أنه لم يوجد مكان مثل محسة تعرض مثل ما تعرضت إليه حتى
قد سميت بمدينة الحرب City of war^(٢١) وقد سرت في الساحل موجة من العداوة

Serjeant, The Portuguese off the South-African Coast (١٩)

Freeman, op. cit., The Sack of Kilwa & Mombasa. (٢٠)

Elliott, East Africa Protectorate p. 9. (٢١)



البائع هذه البرتغاليين، إذ عمل العرب والسواحليون على طردهم من سواحل
التي كانوا أصحاب التصرف فيها، وإن كنهم ذلك عت كبير ونقصيات
جسيمة^(١)، ذلك أن الإمارات ولدت بحرية الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا لم
تد أن سقطت سريعا تحت حمة العزو البرتغالي لأنه كان يقصدهم القوة
العسكرية، إذ أنه من الملاحظ أن هذه المدن لم تقم أمناس على الفتح بل قدمت
على التجارة، وبلست وقعت جريسة مهينة للبرتغاليين، أي كلها مجهود كبيرا
لتنحصر منهم.

ومن المعروف أن العرب في ساحل شرق إفريقيا لم يتعرضوا، وجنهم الخطر
للبرتغاليين ولما تعرضوا لذلك الخطر أبعد كن من قصوة العزوي والشريف بركات
وأبسر عدد وحاكم غرمز ومحمود لأول صاحب كجرات، ومن هنا كان تفكير
بلك القوى الإسلامية في التكنس لمواجهة البرتغاليين، وقد ترعم هذا التكنس قصوة
العزوي سلطان مصر، ول فثلث بوسائل السلمية بدأ عهد من عهد السلام في
بحار الهند انتهى بعزو البرتغاليين^(٢).

وقد انصرف البرتغاليون على أثر استيلاء الأمر لهم إلى استعمال مورد
الشرق لإعريقي والاستحواذ على مصادر الذهب، ومن أجل ذلك أسس دافيد
مركزين برتغاليين في مدائن وكان يضربا الحكم في الساحل الشرقي لإفريقيا
دافع لكثير من الحكام إلى طلب حماية البرتغاليين، وللاحظ أن البرتغاليين
أونكرو على القسم الجنوبي من اممتلكات الإسلامية في شرق إفريقيا بينما اكتصوا
في الشمال بالاعتماد على محالمة حكام ماليدة الذين كانوا ينقون من البرتغاليين
معبوة عسكرية، ويمكن تعديل هذا الاتجاه بأمرين :

أولا : أن اباتخ في الجنوب أكثر اعتدالا نظرا بعد مناطق عشوية عن بعد
الاستواء مسيا.

ثانيا : أن القسم الجنوبي أقرب إلى ساحل البحر وقد ثوائف على هذه
المنطقة بعض التجار البرتغاليين والمستوطنين للذين كونو بوبة مستحصرة موريين
لبرتغالية، بينما توقفت الهجرة المصرية في القسم الجنوبي تبعاً لذلك، بل إن كثيرا
من المسلمين تركوا المنطقة خووية ليستقروا في القسم الشمالي من الساحل

(١) جيلان ١ و٢ في التاريخ والجغرافية وتجارة في شرق إفريقيا من ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) القسم الثاني من ص ٢٢١/٢٢٢

وقد تعرض الناموسون لإمبراطورية البرتغال في الشرق إلى تعيين أهدافهم التي كانت تجمع بين الواحي بدنية والسياسية والاقتصادية، وإن كان لاستغلال والاحتكار التجاري، فيدري، هو الذي صنع هذه الإمبراطورية وأعطى اسمها لعبيرة أما لهدفه الدبي فقد كان البرتغاليون يعملون على إحاطة المسمى وتضييق الخناق عليهم، وذلك بسيطرتهم على سواحل شرق إفريقيا لإحكام حصار شمال وجنوب، وفعلوا بالاحتلال وجود عدة مشروعات برتغالية اصطنع بالكثير منها القائد البرتغالي ألفونسو دي ألبوكرك، استهدف في بعض منها تحرير مدينة السويس باعتبارها مركزا بنعميات البحرية الإسلامية، أو محاربتها بغرض لمحاربة الحبيشة بتحرير النيل عن مجرى بحيث يصب في البحر الأحمر بدلاً من البحر المتوسط، كما خطط لألبوكرك مهاجمة مكة وطن أنه باستيلائه عليها يستطيع أن يصفح المسلمين، ومع ذلك فلم تكن لدى ألبوكرك ولا لعبيره من القيادة البرتغاليين الوسائل الفعيلة لإخراج تلك المشروعات إلى حيز التنفيذ^(١٦)

وتقتصر الأهداف البنية بما قام به البرتغاليون من محاولات للقضاء على مظاهر ومقومات الحضارة الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا، ودخول المسيحية إليها، ظهر ذلك فيما أنشأه الآباء الكاثوليك البرتغاليون من مراكز تبشيرية على الساحل، واشتهر من أولئك المبشرين البرتغاليين سان فرانسوا كزافييه، وسان مونيكا، الذي اتحد من بحيرة مركزا تبشيرية له، وكان هؤلاء المبشرون يتبعون طوائف لتبشير كاثوليكس، التي كان من أهمها طائفة سان أوجسطين، وطائفة الآباء الجوزويت، وقد اتحدت هذه الطوائف من موزمبيق حركت إليها، وعرف عن الجزويت حواسهم ابلانغ لتشر الكاثوليكية ليس في الساحل فحسب وإنما حاربوا التوغل في الداخل أيضا في مملكة موزمبيق، إذ حرص البرتغاليون على التمسك ببعض المقاطعات الداخلية بالنظر إلى غناها بالذهب وغيره من المعادن الثمينة الأخرى^(١٧).

لقد نجح البرتغاليون في السنوات الأولى من القرن السادس عشر في السيطرة على الساحل الشرقي لإفريقيا، وفشلت جهود المسلمين في دحر حطرتهم ويعرى ذلك في رأينا إلى عاملين رئيسيين العامل الأول تكاثرت السلطنات العربية على

(١٦) بيان ' وثائق تاريخية وجغرافية ومجملية عن شرق إفريقيا من ٢٢٩

٤٢٩ للمسلمين، في ٢٦٣

الساحل، وإنشائي وهو لأهم وعدم وجود تعاون بين الدول الإسلامية الكبيرة وأهمي بذلك الدولة العثمانية، التي حلت محل دولة السلافيك في مصر والشام والجزائر، والدولة الصفوية في فارس. ولم يقتصر الأمر على عدم التعاون بين هاتين العوتين فحسب بل المعروف أن نعاء بينهما وصل إلى حد أن طلب شاه العرس معونة البرتغاليين له ضد الدولة العثمانية، فعد له يذكره جيان أوفد شاه العرس إلى أبي بكر كالداه وجوده بهرمز وهذا يحمل إليه لهدايا الفخورة ويدعوه إلى بلاطه أو أن يتسب بذلك أحد وكلائه لأنه كان متأذب من الأتراك ومجاورتهم لبلاطه، وكان يرجو أن يماريه البرتغاليون عندهم ويكونوا عضدا له يركس إليهم في المستقبل. وللملاحظ أن انحصار البرتغاليين في الهند كان أمرا كفيلا يثبت حالة انزعاج بين سكان شرق إفريقيا فحافظوا على ولائهم للبرتغاليين، على أنه عندما ستولى الأتراك العثمانيون على مصر بدءوا يمسون على مواجهة البرتغاليين في بحر الشرق، والخطورة في الصراع العثماني البرتغالي بالنسبة للدولة العثمانية أنه مكس البرتغاليين من أن يستخرجوا قسدا كبيرا من القواعد العثمانية، وحالو سهم وليس لتحقيق مشروعهم التوسعي في أوروبا، حيث أن العثمانيين كما هو معروف، كانوا قد رجعوا إلى أواسط أوروبا وشق الرعب في قلوب سكندرية

على أنه العميات العسكرية بين العثمانيين والبرتغاليين في ساحل شرق إفريقيا بدأت متأخرة بعض الشيء عن الصراع العثماني البرتغالي في بحر الشرق، وليس محاولة الأتراك العثمانيين الصدام مع البرتغاليين في شرق إفريقيا كانت تشكل دورا ثانيا من أدوار ذلك الصراع^(١)

ويرتبط انشغال العثمانيين في ساحل شرق إفريقيا بالضعف الذي طرأ على البرتغال كدولة بانضمامها إلى إسبانيا إذ يجن عام ١٥٨٠ بداية تدهور مركز البرتغاليين وتقيام سلسلة من الثورات العربية في الساحل الشرقي من إفريقيا على أثر ذلك، وقد لقيت تلك الثورات مساعدات من قبل الأتراك العثمانيين مما أخرج إلى ازدياد المنازعات بين العثمانيين والبرتغاليين، ففي عام ١٥٨٦ وصل القائد

(١) عن بعض مظاهر الصراع العثماني البرتغالي في شرق إفريقيا يمكن الرجوع إلى

Vambéry, The Life and Adventures of Sidi Ali Reis p.p. 3 - 4.

البحري التركي على بك إلى مديشيو وتعرف بمشايخه ولم تكن في حوزته سوى سفينة حربية واحدة وثمانين جندياً، ولكنه انتصر حرب ساحل أنه لقي من قبل السلطان العثماني ليحرزهم من البرتغاليين، وأن هناك أسطولاً عثمانياً كبيراً سيأتيه^(١)، وقد استقبل بحفاوة بالغة من ميهاء إلى آخره حيث أعلنت كل من مقديشيو وبراوة وقصديو وفازا وبيت ولامو نحوهم فبعثت من ملك مسيحي يطلب الثاني إلى السلطان ملهم مراد الثالث، وكانت بحسبة أسبق مدن شرق إفريقيا إلى ذلك إذ طلب شيخه من القائد التركي ساء قطعة من روبيه بحافيات عثمانية ولا يسري، بل أي مدى وصل إليه على تلك جنوب في الساحل وذا كان من المعروف أنه هاجم وهم كثير من الأساطيل إذ إنه عاد إلى الأستانة في عام ١٥٨٩ ومعه أكثر من خمسين أسيراً برتغالياً ومجموعة كبيرة من العائين الأمر الذي يدل أنه نصر عثمانيين أكثر من كونه نصر لحمايتهم من سكان الساحل الشرقي لإفريقيا.

على أنه قد تبع رحيل على بيت معظم أسطول كبير إلى شرق إفريقيا، وصريحاً ما تبين أنه لم يكن هو الأسطول الذي وعد به على بك بل جماعة أخرى كان أسطولاً برتغالياً قدام من حو، مستلحاه حاكم ماليندا في عام ١٥٨٧، وقام البرتغاليون بحركة تآبيلية للمروبي ننتى سميت للعثمانيين. وعلى الرغم من أن الانتقام الذي أوقعه البرتغاليون بمدن الساحل كان هوياً فقد حصلت مقديشيو بنفس قوة أسوارها وبسالة رجالها، أما بحسبة فلم تبد كثيراً من المقاومة، ومع ذلك لم يجد البرتغاليون ما يسيرون من المدينة التي رحل عنها سكانها. أما شبيها بات ولامو فقد تدرع أولهما بأن الثورة فرضت عليه من قبل العثمانيين، أما الثاني فقد أقر لمراراً ولم يكن إلا في فترة حيث أعمن البرتغاليون ما شاء بهم من صفوف التعذيب في الأقاليم، كما أحرقوا نديهم ودمجوا شبيها مع مئات من سكانها، وأغرقوا جميع السفن الراسية في ميناء.

وحول نهاية عام ١٥٨٨ عاد على بك إلى ساحل شرق إفريقيا حيث لم يجمع محاصرة البرتغاليين لموانئ الساحل من مراسلات السكان معه في قاعدته في عدد إذ بدشوا إليه يفتخرون أنه أي بوعوده لهم في تخليص مدن شرق إفريقيا من

(١) Foreign Office No 116, The Formation of the Portuguese Colonial Empire (p. 9-١٠)

السيطرة البرتغالية، بن عرصو عليه أن يهاجم في مكيف ضخمة، وجهر بالفعل أسطول عثمانى يتكون من خمسة مئتين، واستقبله سكان الساحل بحماس مانع باسثناء صليبية التي وقف حوقهم المعروف بولاية البرتغاليين حيث أصدفت لتيران على أسطول على سك أثناء مروره بها. وكانت خطة على يد أن يفرض على صليبيه أولاً، وبالفعل تبر مؤامرة رمى من ودائها إلى السيطرة عليه بمساعدة صليبيه التقليدية بحسة، ولكن حياكم صليبيه فوت على على يد هذه الفرصة وبعد يستنجد بالبرتغاليين من جوا سرعة الشيف، وعلى العصور وصل أسطول برتغالي كبير يتكون من عشرين سفينة وتسعدالة جنسى إلى ميناء بحسة، واستعد على بك بتعزيز قواته في ميناء، وفي الوقت الذي كان فيه القائد البرتغالي توماس كوتيهو Cutinho يستعد لمهاجمة ميناء بحرا كانت جحافل كبيرة المند من انقبائل لإفريقية قد تقدمت من الداخل إلى الساحل وعسكرت حول خليج فافس، وكانت من قبائل الريمبا التي تسمى إلى مجموعة الرولو، وكانت في راحها، وهاجمت لمراكز البرتغالية القائمة في موطن استخراج الذهب في متاوتك بينما انطلقت جحافل منها نحو الساحل، وكان من المتوقع أن يتسلل البرتغاليون في صدها في الوقت الذي تساع فيه الفرصة للمند العربية لتعاون مع العثمانيين، ولكن كباتل الريمبا لم تقتصر في هجومها على مناطق الساحل الجنوبي الشرقي في موزمبيق، وإنما استمرت في راحها، في موجة طردة نحو شمال فوصلت إلى كنوا في عام ١٥٨٧ ثم إلى بحسة، حيث وقع على يد بك بين يدين، مما سهل على البرتغاليين القبض عليه وتفريق قواته وأسره، حيث أرسل إلى شبوة وقيل أنه توفي بها بعد اعتناقه المسيحية^(١) ولم يحصل ساحل شرق إفريقيا من عتداءات الريمبا، لا بظهور قبيلة أخرى معادية لها وهي قبيلة سيجوجو Seggo التي تمكنت من حصر اندفاعاتها^(٢).

وكانت هذه الأحداث المتتالية هي التي دعت البرتغاليين إلى لتعكير الجدي في بناء قلعة في ميناء بحسة عرفت بقلعة بلنج^(٣)، إذ أصبح مؤكداً لديهم أن سيطرتهم على ساحل شرق إفريقيا من موزمبيق لم يعد أمراً كافياً، ومن هنا أخذوا يتطلعون إلى بناء قلعة أخرى، وأنشئوا حكومة جديدة موازية لهم تضطلع بأشور القسم

Kruij, L., op. cit., p. 323. (١)

Coupland, op. cit. pp. 60 - 65. (٢)

Ibid (٣)

الشعب من الساحل، وفي عام ١٥٩٣ بيت هذه القلعة وسبهم في شاطئ عمان
من مالينة بالإصافة إلى يائس من الهند، وقامت عند مدخل بيضاء

وبتوطيد السيطرة البرتغالية على محسة تولت طوائف الدومينكان والجرويت
فيوا الكثير من الكنائس في مدن كثيرة على الساحل. وبعد تأسيس قلعة المبح
تركزت السيطرة البرتغالية على الساحل، فقبل بناء القلعة كان البرتغاليون يعمدون
في سيطرتهم على مولاة حكم مانيقة لهم، وبذلك بالاحد أب نجم مالينة أحد
يخو بعد إنشاء تلك القلعة، وانتقل الحامية البرتغالية من مانيقة إليها، ولكن
يك في البرتغاليون حاكم مالينة انزعجت سلطنة محسة من لاسرة الحاكم فيها
وأعطيت حاكم مبدد اخس بن أحمد وانتقل إليها وجعلها مركزاً لحكمه

وتوجد ندياً بعض الشواريح المحلية التي كتبت في فترة متقدمة من عزو
البرتغالي لساحل شرق إفريقيا، فقد بعض تصحيحات خاصة في ملاحظات
العصر البرتغالي في شرق إفريقيا، وقد ذكر أوبيس Owen في رحلته إلى شرق
إفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونة في ٢٨ شعبان ١٢٩٣ هـ (١٨٢٢ م) عند
أحد منكنة محسة وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل اندروعي في محسة^(١)،
وقد هي جيان مقها إليها، وتناول الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق
إفريقيا إلى عام الذي كتبت فيه، وتحدثت هذه المخطوطة بعففة خاصة عن الصراع
الذي كان قائماً بين مالسة ومحسة، وأن حاكم محسة تسلّم عدة رسائل من البرتغاليين
مشأن للمحالة معه، ولكنه تردد في ذلك فانصرف البرتغاليون إلى مالينة ويستبدل
من هذا الصراع أيضاً على مدى التمرد الشريف الذي كان يعاني منه ساحل
شرق إفريقيا، فعالينة في صراع ضد محسة، وسعدت كدت تابعة لكونه، ولكن
شيخه يوسف، وقد شجعت الاضطرابات الداخلية، أعين انفصاله عن صاحب
كلوة، وسمح للبرتغاليين ببناء قلعة في بلاده، وهكذا وقعت إمرات ساحل
مواقف مختلفة بالنسبة لعلاقاتها مع البرتغاليين^(٢) ويضم من تاريخ آل المروعي

Owen, W. P., Narrative of Voyages to explore the Shores of Africa, Arabia and (1)
Mughalpur 2 Vols London 1833 See Vol I pp. 415-4 7

Chronicles of Mombasa, Translated from the Arabic Texts by Graham Dorrance (٢)
Sur l'Histoire, la Géographie et le Commerce de l'Afrique Orientale Tome I Ex-
puse antiquité des diversions navales acquises sur l'Afrique Orientale p.p. 6 4 - 622

أيضا كيف عمق لبرتديون خلافات التي كانت قائمة بين مائيسه ومجسه. وكيف تمكنوا من السيطرة عليها. ويذكر المحفوظه بهذا ذلك أن مجسه كانت تابعة لبرتديون ثم انفصلت عنها وترى حكمها شاروموف (شاهو من مشيم) مند انفصالها، ويبدو أن هذا الاسم سم سواحني فارسي، مما قد يثبت منه على أنه كان ح. الفارجه الأسرة الشيرازية التي تأسست في كلوة

وترى المحفوظة العربية أن شاهز هذا كان آخر أمراء الأسرة الشيرازية التي حكمت عليه مجسة مند انفصالها عن رتديون، وأن حاكم مائيسه هو الذي حلف شاهز على مجسة وكان يدعى الحسن بن أحمد، وترتب على وصوله إلى الحكم جماعة البرتغاليين به أن عقد معهم محالفة تمكنوا بواسطتها من إبقاء حامية عسكرية برتغالية في قلعة مجسة، ولكن ثغرى المحفوظة العربية فتذكر أن الحسن بن أحمد صاحب مجسة لم يكن له ولد يدعى شجولاب أو يوسف، كما ورد في مصدور أخرى، فلما مات الحسن بن أحمد بعده الأهلالي بولاية عنهم في يوم السبت ٧ محرم ١٠٤٠ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٦٣١ م، ولم يرد في التاريخ شيء عن مدة الواقعة بين تاريخ وفاته إليه في عام ١٦٢٧ وبين وصوله إلى الحكم في عام ١٦٣١، ولأرجح كيف نقرر بعض المصادر البرتغالية المعاصرة^١ أن البرتغاليين بعثوا به إلى جواز، وكان يسع السابعة عشرة أو ثمانية عشرة من عمره عند وفاة أبيه، وهناك عهدوا بتربيته إلى طائفة سان أوغستين، ويقال إنه تنصر وتسمى باسم فردي جبرويو، ولما عاد إلى مجسة وتسلم الحكم في عام ١٦٣١ صار بين الناس بانجور إذ كان يكرههم على شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وكان على جماعة رجل سوء وشر، وعلى الرغم من تخاضع المحفوظة العربية عليه فإنها تسجل مع ذلك كمساحة في مقاتلة البرتغاليين^٢ لأمر الذي يهم به أنه كان يتصرف تلك التصرفات بهدف خدعة البرتغاليين إذ ما لبثت مجسة بقيادة شجولاب أن عادت مرة ثانية لتتزعزع حركة الضم حسب البرتغاليين، وعندما علم شجولاب بأن أسطولاً برتغالياً يتقدم إلى مجسة أسرع بتحويله إلى مدينة وهجر هو وقومه إلى ايمس، وبذلك نهيا المسرح لظهور صمدان لتزعزع حركة المقاومة ضد البرتغاليين في ساحل شرق إفريقيا.

Furiya-Savut, Azai Piranghem Vol. VI, p.p. 402-403 (١)

١٤٠٠ هـ من جواز * وكان تاريخه * بعد الف * قبله * عز شرق إفريقيا من ٢٧٩

تدخل عرب عمان في ساحل شرق إفريقيا :

في عام ١٦٥٠ تم طرد البرتغاليين من مسقط على أيدي عرب عمان وشجع ذلك الانتصار سكان شرق إفريقيا على أن يطلبوا مساعدة من دهم وفعلوا بحث حكام كل من زنجبار ومبأ وغيرها إلى إخوانهم عرب عمان يطيبون دهم المجاورة، وهكذا بدأ تدخل عمان في الصراع العربي البرتغالي في شرق إفريقيا، واستطاعت دولة البحارة أن تقضي على سيطرة البرتغاليين في شرق إفريقيا، كما قضت على هذه سيطرة في كل من عمان والخليج العربي^(١)

ويشترن نجاح عرب عمان في إنهاء السيطرة البرتغالية بالصيف الذي طرأ على الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، وقد انضمت يرجع إلى عدة عوامل وإن كان المؤرخون البرتغاليون يعرفون السبب الأكبر في انهيار الإمبراطورية البرتغالية إلى الحكم الإسباني للبرتغال ١٥٨٠ - ١٦٤٠ مما أدى إلى أخوة لمحيتها منذ أوائل القرن السابع عشر، وقد شجع ذلك فارس على عهد إنشاء عيسى الكبير على طرد البرتغاليين من هرمز، أقوى الملقن البرتغالية في الخليج العربي في عام ١٦٢٢ أما سبب خضوع البرتغال إلى الحكم الإسباني فيرجع إلى عوامل كثيرة أبرزها الضعف الداخلي الذي انتاب البرتغال نفسها كدولة عندما انقرض الديكور من أفرد البيت المالكة البرتغالية، حقيقة أن البرتغال لم تستطع أن عادت إلى استقلالها في عام ١٦٤٠ بفعل جهود يوحد الرابع دوق بورجاس، ولكن ذلك لم يحد للإمبراطورية البرتغالية انتمائها، لأن إنجلترا وهولندا كانت قد اقتطعتا لأنفسهما الكثير من ممتلكات البرتغال مشهريتين فرصة خضوعها للحكم الإسباني، فهولندا أخذت لمحيتها بعد أن انتزعت استقلالها من إسبانيا وأعلنت تطوع إلى التجارة والاستعمار في الخارج، واتصل بهولنديون مباشرة بالهند وساعد على سرح أقسامهم في بحر الشرق الكراهية الشديدة التي قويت في نفوس أهالي الهند والصين ضد البرتغاليين، ولم يكن الهولنديون وحدهم خصوم البرتغاليين، وإنما ظهر في الهند منافسون جدد إنجلترا وفرنسا،

Kampf, op. cit., p. 522. (١)

أم إنجلترا عند ظهورت إلى مجدها الخاصة عقب تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية في عام ١٦٠٠، وقد تم تأسيس تلك الشركة عقب رحلات متعددة قام بها كل من فرسيس دريك Drake وكابتن ستيفن وكامدينش ١٥٨٧ وغيرهم^(١) وفي عام ١٥٩١ أبحر سير جيمس لنكستر بالسفينة Edward Bonaventure إلى جزر الكومور وجزيرة زنجبار ووصل إلى الهند، وعلى أثر التقرير الذي قدمه عن هذه الرحلة تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية وبدأت المنافسة في البحار الشرقية بين الإنجليز والفرنسيين بعد أن نجح الأخيرين في الوصول بنورهم إلى الهند حيث أسسوا لهم شركة في عام ١٦٠٠، وكان ذلك على عهد الوزير الفرنسي اللامع انصيت كورنييه^(٢) ولن يكون لبحال هت الشعصر أثر هذه المنافسات التي قامت في بحار الشرق بين هذه القوى العنانية الجديدة (برتغال - هولندا - إنجلترا - فرنسا) وإنما كل ما يعين أن يحصر نطاق هذه المنافسة في ساحل شرق إفريقيا^(٣) إذ وقع الصراع فجلا في هذه الساحل بين البرتغاليين والهولنديين، وكانت موزمبيق مسرح هذه الصراع الذي بدأ في عام ١٥٩٧ وب لم تستطع مخطوخته، إلا في عام ١٦٠٧ احتلها استعمار الهولنديون على البرتغاليين، ونزعت على ذلك لانتصار أن نفس البرتغاليون مؤقتا مركز حكمهم في شرق إفريقيا من موزمبيق إلى

وإذ كان هنالك إجماع بين المؤرخين على أن المنافسة العنانية التي تعرضت لها البرتغال في بحار الشرق كانت مستوفاة عن انحلال الإمبراطورية البرتغالية، فإننا نود أن نضيف سببا آخر، يرى أنه كان من بين العوامل الهامة لانهيار الإمبراطورية البرتغالية، وعلى ما ماسة نيرتغال التي اتسمت بالامتثال والاحتكار، وفشل هذه السياسة تبع لذلك في الحصول على تأييد السكان في قانتجارو إلى غيرها والخلاسة أن صمم البرتغال على إسبانيا، وأنشمال البرتغاليين في تحقيق استقلالهم عائلهم عن تحرير قواتهم كما سهل على شعوب

(١) هو الجيود التي يملكها الإنجليز للوصول إلى أسواق الشرق للظفر

Forster, England's Quest for Eastern Trade, p. 79 ff

Ingrams, Arabia and the East, p. 7 (٢)

(٣) جيل - شعصر بين ذكره من هو ٢٩٣ - ٢٩٤

الأخرى أن تخشى من تقطيع أوصال الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، هذا فضلا عن المعاملة السيئة التي تميز بها البرتغاليون وتقسيمهم الخلق على غيرهم في المعجزات العجوى، هي آثار موجة شديدة من الكراهية صفعهم^(١)، ولا كانت الإمبراطورية البرتغالية إمبراطورية مسخية طويلة تمتد آلاف الأميال من لشبونة إلى كليكوث فقد كانت قواعدها في حاجة ماسة إلى خاضعات تعززية لم يتجعب البرتغاليون في إمدادها بها، وهكذا تضاعف الظروف على الإطاحة بتلك الإمبراطورية. وكما سبق الإشارة شجع ذلك الانهيار فارس على طرد البرتغاليين من هرمز، وكانت هرمز بمثابة معنك للخليج العربي، خرض البرتغاليون عليها غاية الحرص، ولذلك نتج عن سقوطها تلاشي السيطرة البرتغالية على الخليج العربي، في مهد سيطرة أئمة عمان البحارية على الماعقل البرتغالية وتقوية أركان دولتهم الناشئة^(٢). وصادف في ذلك الوقت أن اتجهت بحمة بني كاثت تعانى من ضغط البرتغاليين إلى طلب العود من عمان، مما شجع العمانيين على مواصلة كفاحهم ضد البرتغاليين وعلى الرغم من أننا قد أشرب إلى عوامل كثيرة كان لها أثرها في اضمحلال القوة البرتغالية فلا يسعنا مع ذلك أن نقول أهمية الدور الذي قامت به عمان في طرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرق إفريقيا. وقد بدأ الإمام باهر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة (١٦٢٤ - ١٧٤١) حركة مقاومة كبيرة تبعه فيها خليفته سلطان بن سبعت ١٦٤٩ - ١٦٦٨ الذي لم يكتف بالقتضاء على البرتغاليين في مسقط ومطرح، وإنما تبعهم إلى مستعمراتهم بالهند وشرق إفريقيا، والثابت أنه وصل بأسطوله إلى بومباي وحاصر بعض مراكز البرتغالية في سواحل مبر، ولم يثبت أن اعتنم فرجة استجد أهدى بحمة عمان، فقام بحاصرة تلك المدينة حصارا طويلا مستغرق أكثر من خمس سنوات (١٦٦٠ - ١٦٦٥) عاود

(١) من أعمار وانوير الإمبراطورية البرتغالية يمكن الرجوع إلى

Boxer, C. R., Four Centuries of Portuguese Expansion London 1961

(٢) انظر إلى الكتيبات بين البرتغاليين والعمانيين في

Dr. Louis Duvauchelle Sur L'Histoire, la Géographie et le Commerce de l'Afrique Orientale. Tome I p. 520 ff.

وكذلك الثاني : تحت الأمان ميرة آل عمان، المجلد الثاني من ١١ وما يندى



البرتغاليون بعدد استيلائهم عليها حيث متبدو بالأمر يشتد في صغامة
الأهلين^(١)

وقد انجح سلطان بن سيف بعد حصاره بنينة إلى جريرتي عما وإثنيار ونجس
من تحليصهما من أيدي البرتغاليين الذين أمسك بهم العصب، قدم القائد البرتغالي
كأبرير بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين لمساعدتهم العثمانيين، ولكنه لم يستطع
مواجهة العثمانيين أنفسهم الذين استطاعوا خلال النصف الثاني من القرن السابع
عشر إقصاء البرتغاليين عن محمراتهم في شرق إفريقيا والتي كانت تحت من جزيرة
مقطرة شمالاً إلى خليج دلمندو جنوباً^(٢).

وليس من شك في أن نجاح العثمانيين كان يرتبط بعدة عوامل منها قوة عرب
صمان وتوكلهم في الملاحة بالإضافة إلى حالة الضعف والظروف المصليمة التي
جاءت البرتغاليين أنفسهم، هذا إلى جانب عامل آخر كان من أبرز العوامل التي
أدت إلى سرعة انهيار نفوذ البرتغالي من تلك المداخلات الإفريقية وغيرها، وهو
أن العوص الأساسي للبرتغاليين لم يكن الاستعمار في حد ذاته، وإنما كان التثبيث
بأسلوب الاستعمار وإنشاء قواعد بحرية لضمان سلامة الطريق الموصلي بين لشبونة
والهند^(٣)، وفي محاولة البرتغاليين التمسك بأسلوبهم الاحتكاري انتهجوا أساليب
جديدة اتسعت بالاستيلاء والمخز فأنارت الأهالي عيهم

وكان أعظم شتبار أحرار العمانيون على البرتغاليين في شرق إفريقيا هو
نجاحهم في إخضاع مكة في ١٤ ديسمبر ١٦٩٨^(٤) بعد حصار عنت دم ثلاثة

(١) لا يتبر جيل، هذا السنو هو سنو الحصار الذي وقع على مكة ويرى أن حصار تلك للمكة وقع بين
سنة ١٦٥٨، وهي سنة سقوط سقطه سنة ١٦٦٣، وهي للريح رحط الأب ماثول جود بهر للبرتغالي
الذي ذكر في رحته شيئاً عن حصار مكة وحصل أن الإمام سلطان بن سيف في حراجه ضد البرتغاليين
في شرق إفريقيا والهند.

Quil sin, Exposé Critique de diverses notions acquises sur L'Afrique Orientale p.
38.

Hofer, L'Univert, Histoire et Description des tous les Peuples, L'Afrique Orientale (١٧)
p. 163.

Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa p. 116. (٢)

Guillain, op. cit., p.p. 520-521. (٣)

ويذكر جيل أن المقتير حاولوا إسقاط جزيرتين بعد نجاحهم في الاستيلاء على مكة ولكنهم لم يوفقوا والراجع
بعد أن صد البرتغاليون إلى لأهلهم عن طريق طجور أنهم كبر وشعروا هناك

وثلاثين شهرا، ويقول كوبلاند أنه يسقط محصن ملح في محسه تم وضع نهاية
للتعوق البرتغالي في شرق إفريقيا^(١) ويعقب بعض الساحس على نجاح العماسين
على انتزع محسة بأنه كان من الممكن أن يقوم سيف بن سلطان، وهو ندى حفا
أباه سلطان بن سيف في عام ١٦٦٩، بتأسيس إمبراطورية عربية عمسية على
أنقاض الإمبراطورية البرتغالية، ويبدو أن تلك الفكرة قد دعت خياله في يوم من
الأيام، ولكن ضعف مركزه في الداخل جعله يهمل تنفيذ ذلك مشروع، وبدت
تأخر تأسيس الإمبراطورية العمسية في شرق إفريقيا إلى نيف ومائة هم حيث قام
بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦)^(٢).

وكان لسقوط محسة على يد دولة الجارية في عمان أثره الكبير في زعماء
البرتغاليين على الجلاء من جميع الساحل الذي يقع شمال خليج دجلادو^(٣)،
وفشلت محاولاتهم في إعادة سيطرتهم، وكان من أبرز تلك المحاولات محاولة قام
بها البرتغاليون في عام ١٧٣٨^(٤)، حين تقسموا بأسطولهم صوب محسة جتشرين
فرصة الاضطرابات التي وقعت بها نتيجة لمضارعات التي قامت بينها وبين
وإيجار^(٥)، بالإضافة إلى ما تودت فيه دولة الجارية في عمان من حروب وفتن
داخلية وغروب فدرسية متكررة. وقد نجح القائد البرتغالي نوس سامبيو Sampaio
في إعادة سيطرة البرتغاليين على بعض مدن الساحل وجنوب كيات وكلوة^(٦)، ولكن
لم تستمر سيطرة البرتغاليين كثيرا إذ قام أهالي تلك المدن بطلب المساعدة من عمان
التي كانوا ينظرون إليها باعتبارها الدولة الأم، وتمكن سيف بن سلطان، على
الرقم من المشكلات العديدة التي كان يواجهها في بلاده، من طرد البرتغاليين من
تلك السواحل، ولعل قسوة البرتغاليين في حكمهم هي التي دفعت الأهالي للثورة

Coupland, op. cit., p.p. 67 - 68. (١)

Ruiz, R., Said Bin Sulaim p. 47 (٢)

في قلة البرتغاليين في عية يمكن الرجوع إلى

Boat C. R. Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593 - 1729 London 1961

Coupland, op. cit., p. 69. (٣)

Elimi, East Africa Protectorate p. 49. (٤)

Ruiz, op. cit., p. 47 (٥)



عليهم ونقويهم مراكزهم في شرق إفريقيا حيث تعمل سكان ساحل شرق إفريقيا
لديهم والتفتين في أفق الخلافة البرتغالية في محبة، كما خلعت حدود خمسة كتير
من المدن، وبعد طبعات الساحل.

وترتبط ثورة محبة على البرتغاليين بالعلاقات التي قامت بينها وبين دولة
البحرية في عمان فقد أدرك أهالي محبة أنه من الأفضل أن يعموا أنفسهم من
البرتغاليين وذلك بالتجلبهم إلى قوة كبيرة يعتمدون عليها ومن ثم كان من الطبيعي
أن يلتجئوا إلى عمان نظرا للعلاقات الوثيقة التي قامت بينهم وأن يظلوا من إيمانها
وضع بلادهم تحت حمايته وكانت هذه خير فرصة لتنهض لإمام سيف بن سلطان
فبعث بأحد رجلائه وساهى محمد بن سعيد المعمرى في عام ١٧٢٨ ليكون نائب عنه
في حكم محبة، ونجح ذلك الرجل في إخضاع رنجس وصهره من مدح وجرح
الساحل فأصبحت من بوايع عمان إذ كانت تقوم برفع الزكاة السوية إليهم، ولم
تلبث أن ظهرت السيطرة العمانية بصورة واضحة على الساحل شرقي إفريقيا
حيث امتدت من مقديشو شمالا إلى خليج دلفانو جنوبا

وقد ترقب على إحلال السيادة العمانية بدلا من السيطرة البرتغالية انطلاقا
جديدة للإسلام، مما يجعلك تؤكد حقيقة هامة وهي أنه تدخل عرب عمان في شرق
إفريقيا لم يكن عاملا هاما في القضاء على السيطرة البرتغالية في ساحل شرق
إفريقيا فحسب بل إن أهمية هذا التدخل تكمن في أنه أتاح لبلدين إسلامي المذبح
الصالح للالتقاء دون عصب^(١١)، فلعرف أن البرتغاليين قد تمكنوا في خلال
الماضي عام لنفي قصوها في تسخير العقيدة الكاثوليكية، ولذلك يعتبر الكثيرون
سقوط قلعة لبرتغاليين في محبة في عام ١٦٩٨ م عندما هزمها لا من حيث القضاء
على السيطرة البرتغالية وإنما في إتاحة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام في شرق
إفريقيا^(١٢).

(١١) عبد الرحمن بندي، إفريقيا والخلافة العربية - العدد ٤٨ من مجله مجلة إفريقيا السنة الرابعة

أكتوبر ١٩٦٢

(١٢) لوتورود ستورارد، حاكم العالم الإسلامي، تعليق شكيب أرسلان، ج ١ ص ٢٥٦

على أن سيطرة عمال على ساحل شرق إفريقيا في أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية لم تكن سيطرة فعلية، حقيقة الأمر أن أئمة عمان لم يكن لهم إلا آثار طفيفة في ممارسة الحكم في تلك جهات، والواقع أن المشكلات الداخلية التي تردت فيها دولة اليعاربة من تنازع حول الحكم ومحاولة أئمة تلك الدولة توطيد مركزهم في الحرية العربية والخليج العربي؛ وحملاتهم ضد البرتغاليين كانت من أهم العوامل التي جعلت السيادة العمانية على ساحل شرق إفريقيا سيادة اسمية أكثر من كونها سيادة فعلية، ومع ذلك فقد استطاعت دولة اليعاربة في عمان أن تراث البرتغاليين وتؤسس لها سيادة عريضة امتدت على جزء كبير من ساحل شرق إفريقيا. وفي تقديرنا أن ضعف السيادة العمانية يرجع إلى أن دولة اليعاربة استنفدت معظم جهودها في الصراع ضد البرتغاليين بحيث لم يعد لديها القدرة بعد طرد البرتغاليين أن تمارس سيطرتها على الشرق الإفريقي؛ وإذا قمنا بتفتيح وتركب الأيام تثبت ما قامت به من فتوح^١، أصف من ذلك ما سبق أن اشرنا إليه وهو أن دولة اليعاربة تعرفت لصراعات وحملات داخلية بسبب الثورات الأهلية والصراعات العارسة، وهذه المشكلات جميعها لم تترك الفرصة للحكام القوية أن يوجهوا اهتماماتهم لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعي أن ينتهز الحكام الذين تولوا الحكم في مقاطعات الشرق الإفريقي هذه الفرصة وذلك الحادة عن العوضى ولتمكث التي تردت فيها دولة اليعاربة، وخاصة في نهاية حكمها الذي اتصف بالانهلال. لفظ، مما كان له أثر كبير في سقوطها وقيام دولة جديدة جمعت عهد أئمة الحكم وهي دولة اليوسعيد.

ركان الانتقال الحكم من دولة اليعاربة إلى دولة اليوسعيد له رد فعل قوي في شرق إفريقيا؛ فإذ كان حكام شرق إفريقيا قد تولوا الحكم من قبل دولة اليعاربة فعلى يستعجبهم بعد أن سقطت تلك الدولة وإن حكمها أن يشقوا بما كانوا عليه من مقاطعات^٢.

وقد حدث ذلك فعلا عندما تزعمت حركة الحركات الانفصالية التي ظهرت في ذلك الوقت في كثير من المقاطعات الإفريقية؛ ولا عجب في ذلك فالتاريخ حمة

Kampf, op. cit., p. 329. (١)



يوضح لنا أن تلك المدينة الفريدة انقسم سكانها بالعنف وشدة نواحي^(١١) وقد تزعم حركة الانفصالية في عتبة محمد بن عثمان المزروعى الذى أسس الأسرة المزروعية في عام ١٧٢٩ بعد وصوله إلى عتبة وانتزاعه الحكم من أحمد بن سعيد العمورى^(١٢). وكانت لأسرة العمورية إحدى الأسرات التى أمانتها عهد من حكم الساحل الشرقى من إفريقيا. وكان سقوط دولة اليغارية في عام ١٧٤١ فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى لى يعلن استقلال عتبة عن التبعية العثمانية، ورفض ذلك حبيب رفض الاعتراف بولائه للدولة الجديدة التى خلعت دولة اليغارية وعلى دولة اليوسعيد، وكان عدم اعترافه بالإمام أحمد بن سعيد ١٧٤١ / ١٧٨٣ الذى أسس تلك الدولة حجة نزوية فيما سادت عليه العلاقات بينهما^(١٣) لبقاء كانت هالك عهد سررانه بر بها محمد بن عثمان المزروعى استقلاله من عمان؛ فهو قد ظل باقيا على ولائه لدولة اليغارية حتى سقطت وتم تكن تبعيته لعمان مجتاهيا أن يشرع على ولائه لها حتى بعد سقوط أسرتها الحاكمة، فضلا عن أن مؤسس الدولة الجديدة وهو الإمام أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أهل بسوجب احترامه ولم لا يعدو كونه رجلا عاديا توصل إلى الحكم بطروحه الشخصية، وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو إلى التمسك بالولاء له، يعنى أنه إذا كان الإمام أحمد بن سعيد حاكم صحار (إحدى مقاطعات عمان) قد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم فى بلاده فعادا بجمع المزروعى، وهو حاكم عتبة من الاندلس بما فعله حاكم صحار، أو ماذا يحصلون دون امتلاكه بمقاطعة التى يحكمها والاستقلال بها مستقلا تماما؟.

وأدرك الإمام أحمد بن سعيد ما يرمى إليه المزروعى من سياسة انفصالية قد يكون لها أثر كبير فى مستقبل العلاقات بين عتبة وعمان بن بين عمان ومقاطعات الشرق الإفريقى بصفة خاصة، ومن هنا كان تفكيره الجلى فى إخضاع عتبة وتأكيد

Gallatin, *Exposé critique de diverses notions acquises sur l'Afrique Orientale* p.p. (١) 542-543.

(٢) Rawd, op. cit. p. 47.

(٣) Lyon, *Zanzibar in Contemporary Times* p. 10 See Gallatin, op. cit., p. 543.

سيطرته على تلك الممتلكات التي ورثها عن أسلافه البعارة وهكذا احتضت دولة
اليوسعيد منذ أن قامت سيادة إفريقية فتم تكن المشكلات التي وجدها أحمد بن
سعيد سواء في داخل بلاده أو في الخليج العربي أو صرعه ضد فارس أو جهوده
لتوحيد نفوذه وترسيخ دعائم بيته لشعبه عن تمسك دولته في شرق إفريقيا
وبعل الإمام أحمد بن سعيد قد أدرك، كما أدرك الكثيرون غيره من الحكام مستوى
حدوث انفصال بين بلاده وبين الساحل بشرقي إفريقيا ل بين الإقليمين من
روابط اقتصادية وصلات وثيقة ولكن دولة اليوسعيد في عمان في عهد حكامها
الأول لم تستطع أن تقص على الثروات الانفصالية التي تزعمها المرروعيون في
عمية، واليهانويون في جزيرة سقطرى، فمما هو جدير بالذكر أنه قد وقع قيام
حركات انفصالية في عمية لقيام حركات انفصالية أخرى تزعمها «سنيانويون» في
جزيرة سقطرى وأصبحت من النجاح ما أصبحت ثورة عمية^(١)

وهكذا رجعت دولة اليوسعيد في مستهل عهدها بالحكم تلك حركات
للاستقلالية لانفصالية التي ظهرت في ممتلكاتها الإفريقية، وإذا كانت عمان قد
بقيت شديد لغاؤه وانعاده في كل من عمية وبلات فيها كتابات على أنه حاك أكثر
بوقيف ومجدا في المقاطعات الإفريقية التي لم تدب فيها ثورة كما دبت في هاتين
المقاطعتين إذ أقيمت ولاء من بعضهما وخضوعا اسميا من بعضهما الآخر، فمرحبا
ظلت على ولائها لعمان وأصرحت بالولاء الجديدة وتولى زمام الحكم فيها قائد القوات
التي بعث بها الإمام أحمد بن سعيد لتأكيد سيطرة دولته على تلك الجزيرة، كذلك
تعلمت مركة حبيب أعلنت طاعنها للإمام الحاكم، أما كلوة فقد أعلنت ولاءها لدولة
الحديثة وإن كان ذلك ولاء اسميا ولكن عمية وفقت تزعم حركة المعارضة
ومجاهد في سبيل تكوين تحالف من المقاطعات الثائرة وتوجيه الشعور في شرق
إفريقي لشوكة ضد عمان ونجحت عمية في إثارة المدد التابعة لها كمغديشو
وزوا وبقية المدد الواقعة في الجنوب حتى كسوها فطرح ذلك يد تبعيتها عن
عمان، وجب عقب نجاح عمية بن عثمان المرروعي في تأكيد سيطرته عليها وهي
تقديرا أن الأمر لم يكن رعة تلك المقاطعات في الانفصال عن عمان الذي كان

Pearce, op. cit., p. 109. (١)

يؤدي الاتصال بها بطبيعته الحار إلى ازدهار وتقدم كبير من ناحية العلاقات التجارية
قدر ما يرجع ذلك إلى جنوح ذلك المقاطعات للثورة والتمرد نتيجة لتحرير عمدة
وامتجابه ما يقوم به حاكمها على بن عثمان المزروعى في الثورة على عماد،
وخاصة عندما لمجوع في أد يضم تلك المقاطعات إلى حكمه

والحقيقة أن ثورات المزروعيين لم تقب عند حد، إذ حاولوا تأليب مقاطعات
شرق إفريقيا بالاتصال عن عماد، ظهر ذلك في إفريقيا على ولجبار والقرص
من أبى عماد، وقد حدث ذلك في الوقت الذي كانت فيه عماد مغمصة في
مشاكلها الداخلية والخارجية، إذ انشغل الإمام أحمد بن سعد بتوطيد دعائم حكمه
فقد لا عن علاقات العدائية التي قامت بينه وبين كريم حاك العارص وما أدى إليه
ذلك من النجوى إلى القوة العسكرية في كثير من الأحيان، هذا بالإضافة إلى وقوع
بلاد في حمة الصراع الإنجليزى العربى لأمر الذى جمعه بتفرغ لمعالجة تلك
المشكلات تفرعا تم، ولذلك اضطر الإمام أحمد بن سعيد إلى الاكتفاء بتلك
تقدر من الجهد الذى بذله في الشرق الإفريقى وأدى حثونه فيه لاحتفاظه بما كان
لأسلافه من ممتلكات في تلك الجهات^(١) على أن يوح أحمد بن سعيد لم يكن
مجاهدا تاما، لم يكن له سوى سيطرة وأمية على المقاطعات الصحبية في شرق
إفريقيا، على أنه عندما يقال عن ضعف تلك السيطرة فإن الأمر الذى لا شك فيه
أن لجاء أحمد بن سعيد إلى الشرق الإفريقى كاد بالقصر الذى سمحت به ظروفه
ومعناية تأكيد لمطالب عماد في تلك الجهات، ولذلك كان ما قام به الإمام أحمد بن
سعيد، بصعته المؤسس لدولة لبوسعيد، هو الدعامة التى يرتكز عليها خلفاءه من
بعده في تمسكهم وإصرارهم على ضم مقاطعات الشرق الإفريقى حتى لمجوع سعيد
ابن سلطان في تأسيس إمبراطورية عربية في شرق إفريقيا

على أن أكثر ما اهتم به الإمام أحمد بن سعيد هو بعاش العلاقات لتجارية
بين عماد وشرق إفريقيا، ولا شك أنه اعتمد ذلك الرجل إلى أسرة من التجار
واستماله بالتجارة لسوابك كثيرة قبل وصوله إلى الحكم في عماد كان له تأثير كبير
في اهتمامه بالناحية الاقتصادية، ولا على في بقول أن دولة البوسعيد انحصرت

(١) Guddini, op. cit., pp. 549 - 550

حكمها بحرصهم البنح على ترويح التجارة، ويذكر جيان بصلد ديث أن الإمام أحمد بن سعيد أكنى بالعمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين عمان وشرق إفريقيا فكان يرسل في كل عام مجموعة من سفنه لتأني له بالموارد الإفريقية من المقاطعات التي كانت تعترف بسيادته، أما المقاطعات التي لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يقر من سيادته عليها بالقوة خوفاً من انقطاع تعاملات التجارة معها وبين بلاده^(١).

وكان للأحداث التي وقعت في عمان بعد وفاة الإمام أحمد بن سعيد في عام ١٧٧٥ أو ١٧٨٣ أثر كبير في مقاطعات شرق إفريقيا، إذ كان للمعارعات لأسرية التي قامت في عمان جوارها بالنسبة لاحتكاك تدوية في تلك الجهات، ولك أن الأمور لم تستتب لسعيد بن أحمد ١٧٨٣ - ١٨٢٠، وهو الذي خلف أباه في الحكم، إذ بن نه أخوه سيف موف، ولكي سيف لم يلبث أن أدرك أن عمان قد خرجت كلية من يده بعدد اليعة لأخيه بالإمامة فأثر أن يقوم بشاهد فعال في شرق إفريقيا، وكان هدفه من ذلك فصل تلك المقاطعات عن عمان والاستقلال بحكمها حتى إذا ما واثته الفرصة يتمكن بها من الوصول إلى قلب الإمامة في عمان، وكان ذلك ثالث سعيد بن أحمد إلى إرسال قوات كبيرة إلى شرق إفريقيا ليس بقصد القضاء على محاولات سيف ضحى وإثما بهدف تأكيد السيطرة العمانية على الشرق الإفريقي. وكللت جهود عمان بالنجاح حينما أعلنت بمسبة تبعيتها لعمان في عام ١٧٨٥، وأعطى ذلك توالى المقاطعات الإفريقية في تقديم ولائها، وبذلك تأكدت السيطرة العمانية على شرق إفريقيا بعد أن كانت تلك السيطرة على وشك الانهيار^(٢).

ومع ذلك فيجد أن يلاحظ أنه على الرغم من انجلاء عمان إلى الشرق الإفريقي فلم يشيت وجود سيطرة عمانية قوية في تلك الجهات، وإن عرفنا أن الشرق الإفريقي كان يصول بحيراته وموارده إقنيص عمان لعمدنا أن يتصرف حكام عمان عنه أو بالأحرى يقيم بظل مامت من نفوذ فيه، بد أنك تستطيع أن تجد نمبراً لذلك، وهو في تقديرنا، أن حرص حكام اليومعيد الأول، الذين لم تطع

(١) جمال ذكرها قسم دولة بر سعيد في عمان وشرق إفريقيا ص ٢٥

(٢) Lyne, Zurcher, see also Rucka, Said bin Sultan, p. 48. (٢)

ساحية نوميية على سياستهم لعدم، إلى توجيه اهتمامهم إلى لعب الإمامة في عمان كان له أثر كبير في تمسكهم بمصالحهم المادية في الرستاق وعدم تفكيرهم في الابتعاد عنها أو الانصرف إلى مناطق أخرى، وبذلك لم يتجهوا إلى الشرق الإفريقي إلا انجذابا انحصار في محاولة سيطر السيد العماني على تلك الجهات واستدامة العلاقات التجارية معها. وبذلك أدى الوجود العماني نتيجة للاعتبارات التي أشرنا إليها لم يصل إلى درجة من القوة تمهده بصمد للأحداث والاضطرابات التي كانت لا تكاد تقطع في المقاطعات الإفريقية، فكان انصراف تلك المقاطعات واحدة تلو الأخرى في عهد الإمام أحمد بن سعيد ثم في عهد خلفه سعيد بن الإمام حتى إذا ما تولى سلطان بن أحمد الحكم انجذبت دولة سيدي محمد إليها إلى الساحة الزممية، وكان من استطر نتيجة لذلك أن يتجه الحاكم الجديد إلى ممارسة سيطرته على الشرق الإفريقي بطريقة فعالة بيد أن الظروف التي واجهها سلطان بن أحمد في معالجة المشكلات التي نشأت عن الطبع الجسد الذي تحوت إليه الدولة لم تترك له الوقت الكافي للتعرج تعرضا تاما لشرق إفريقيا، وإنما كان انصرافه للعلاقات الخارجية وسياسية لدوره أكثر وضوحا، حتى إذا ما تولى سعيد بن سلطان الحكم (١٨٠٦ / ١٨٠٦)، واشتد التحور من الساحة المدينية إلى الساحة الزممية بدأ يحتل سياسة إفريقية واضحة. وعلى الرغم من ذلك ذهب إليه بعض المؤرخين على أن انجذاب سعيد بن سلطان إلى شرق إفريقيا كان محاولة منه لحلحلة من المشكلات العديدة التي كانت تواجهه في عمان، إلا أن لا يمكن تماما مع هذا الرأي إذ إن اتحاد سعيد بن سلطان مع سياسة إفريقية لم تكن لتبعده عن المشكلات العمانية التي كان يفرج لها حروبا كبيرا من جهده، وإنما كان انجذابه إلى شرق إفريقيا يكس في حروبه البائع على هذا الحرة من دولته لكثرة موارده ووفرة خيراته وزيادة فرص استغلاله^(١٦)، فضلا عن أن الظروف التي آلت إليها الدولة في عهده، وازدياد تحولها من الساحة المدينية إلى ساحة الزممية لم تكن تضطره كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة على القاء في إقليم عمان في الصدام التقديري، ووضح ذلك في إقامته على نقل عاصمة مملكته من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٢٢، وتفرعه لتكوين مبراطورية عربية في شرق إفريقيا وهو ما سوف نتناوله تفصيلا فيما بعد^(١٧).

(١٦) Pearson, Zanzibar The Island Metropolis of East Africa, p 17

(١٧) انظر الفصل السادس

11



الفصل الثالث

التوغل العربي في املاك المسيحية
في الحبشة والنوبة

كانت هجرات عرب سواحل الجزيرة العربية إلى سواحل البحر الأحمر
للتجارة لهم هجرات مستمرة في عصور مختلفة من التاريخ؛ حيث كان العرب
يحدون في السواحل الأفريقية لبحر الأحمر ملاحين يعبرون إليها من طرقات الحياة
القسية التي تشعب بها طبيعة بلادهم وأساليب معيشتها؛ إذ كانوا يجلبون في
مخزاتهم البضاعة لفرص كثيرة لكسب الرزق بدخول التجار وماتر المهن البحرية
المختلفة. وقد استمرت هذه الهجرات قائمة حتى عهد قريب؛ من ذلك ما يحدنا
به ليشان من أن قبيلة الرشييدة هاجرت من جزيرة عربية إلى ساحل العرب
للبحر الأحمر وأحدثت فائز بالطابع الأفريقي وتكلم لغة النيجري إلى جانب لغتها
العربية^(١)

ولم يبق عليه تاريخيا أن العرب كانوا أو من توعدوا في هضاب الحبشة
لمسافات بعيدة؛ وقد اتحدوا من مجاري بعض الأنهار وسيلتهم إلى ذلك، غير أن
ما يؤسف له أن معظم سجلات العرب قد مستها يد القبيح أو على الأقل لم تصل
إلى أيدينا باستثناء بعض النسخات العامة والخاصة التي تعرضت للمصالح المصلحة في
الحبشة وتدمر تلك الإسلامية التي أوجدها العرب فيها^(٢) على أنه ينبغي أن نقرر
أن العموض كان يكتب الحبشة لقرون عديدة؛ إذ لا نكاد نطالع أحدا من الرحالة
العرب أو المسلمين من توعدوا في هذه البلاد؛ ولعل هذا هو السبب في أن جغرافيا
العرب لم يتعرضوا يذكر شيء له قوة من بلاد الحبشة^(٣) على أنه يتقدم الزمن
لنجد بعض المصنفات تشير إلى أقاليم الحبشة ومنها وإن كانت تعثر في أحيان كثيرة
إلى المبالغة والصحة، حتى إذا وصف إلى الفرس الكاث عشر والرابع عشر

(١) A. Levtchenko, Encyclopedia of Religions and Ethics (١)

(٢) يوتروب مشوردر - حاضرات العالم الإسلامي - ترجمة عجاج بن يحيى ومباين شكيبة أرسلان، المجلد الأول
من ١٣٨ / ١٣٩

(٣) لورد المسعودي ذكر بعض مدن الحبشة - ومع ذلك فإنه لم يجعل حديثه إلا من مدينة كبر التي عدها
للمناصب؛ انظر مروج الذهب ومباين مشوردر ج ٢ من ٢٤

(الميلاني) يرى ذكرا لأسماء بعض القبائل والأقاليم الحبشية مثل أمهرة (أمهرة) وسمرته (سمرت) وفاموت وغيرها .

وبعد لمقريري أول من كتب كتابا دقيقا عن الحبشة في القرن الخامس عشر الميلاني، وذلك في رسائله الشهيرة التي أسماها لإلغام عما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، وقد كتب هذه الرسالة بين عامي ١٤٣٤ / ١٤٣٥ م وأورد فيها ذكر لاثني عشر إقليما من أقاليم الحبشة^(١). وما لا شك فيه أن انتشار الإسلام في الحبشة كان دافعا لتصنيف الكتب والرسائل الخاصة لبعض الأشخاص وألادهم على الدين الإسلامي، وقد شتهر من هؤلاء لعلامة السيوطي لدى وضع ثلاثة رسائل خاصة في هذا الموضوع^(٢) ومن أضاف عليه أنه كان لمسلمي في الحبشة سبع عمالك مدهرة سميت بدو الطراد لأنها كانت كالطراد لشيء يحجب بهضبة الإثيوبية وهي بحكة ومات - توارر - أرايبي - ثورحنا - هدايا - يائي - دارة^(٣).

وقد اشرت كثير من المصنفات العربية إلى هذه الممالك؛ إذ أورد القفطسي في كتابه صيغ لأعلى بعض المعلومات عن الحبشة بقصص الإسلامى والمسيحي؛ فتحدث عن ممالك الإسلاميه ووصف بعضها منها وتكلم عن تنظيماتها الاقتصادية والعسكرية ماقلما تذكره عن ممالك الأنصار مشهدا وليس من العجزي. وقد ركز القفطسي بصفة خاصة على أقدم هذه الممالك الإسلامية وهي بحكة وقت؛ ذكر أن العامة تسميها أوقات ويقال لها أيضا جبرت مة إلى جبرتي وهي أكبر مدن الحبشة.

وي نجر لإشاره إليه أن ملوك الحبشة كانوا ينظرون إلى الولايات الإسلامية في بلادهم بعين الحسد لاوتقالها مديا واقتصاديا^(٤)؛ إلا أنه ينبغي أن يؤكد هب أن هذه الممالك على الرغم من تفوقها الاقتصادي والحضارى ولا أنها كانت تعاني عوامل كثيرة من الضعف وتفكك بسبب المنازعات التي كانت تقوم

(١) لوفروب سوادود - حاكم العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٦١

(٢) ميد المجيد هادين - بين حبشة والعرب ص ٨١ - ٩٧

(٣) يوسف أحمد - الإسلام في الحبشة ص ٢٤

(٤) التوجع الثاني ص ٣١



من بعضها والبعض الآخر كما ساعد علون الحشة في التوسط على هذه المعالكة
وتنصرها من بعضها حتى لا تجتمع كلها على القام في وجههم

وقد يكون من فطيد أن يوضح هذا أن نجاح العرب في تكوين تلك الإسلامية
في الحبيشة كان حصيلة علاقات طويلة قامت بينهم وبين حبيشة^(١)، فاشفق عليه
فأرعى أن العرب الأول الذين هاجروا إلى الحبيشة هم الذين يرجع إليهم فضل
تأسيس دولة إسكسوم، ثم كانت بعد ذلك أولى الاتصالات العربية الإسلامية التي
حدثت في عهد النبي حينما أثار على أتباعه بالهجرة إلى حبيشة بعد أن شاهد
لأخي الشديد الذي ينحني بهم، وطلب منهم الهجرة بقرله^(٢) أو خرجتم إلى
أرض الحبيشة فإن بها ملكا لا يظلم عند أحد، وهي أرض صالحة حتى يجمع الله
لكم فرجا بما أنتم فيه، ولم تكن الحبيشة حينما خرج المسلمون لأول إليها تشجع
بالحكومة المركزية وإنما كان نظام الحكم فيها في أيدي حكام الولايات أو الأقاليم،
وكان كل منهم يظن على نفسه محاشي المجاشية أي ملكة الملوك^(٣) وكان
المجاشي الذي جاء بالمسلمون في عهده هو صاحب الولاية على أحد الأقاليم
الواقعة في شمال حبيشة ويستدل من كتاب عرب قبته (صنوح حبيشة) أنه
المجاشي أحمد، وتبين هذه الرواية كما يشير اسمه أيضا تكهنات عديدة في أحسن
اعتناقه للمفهوم الإسلامي، أو قد يكون المسلمون قد أشعروا به ذلك تجيدا لموقفه
في مقاومة المسلمين، وإن كانت بعض الروايات تؤكد أنه أسلم بالفعل على يد
جعفر بن أبي طالب أحد المهاجرين الأولين، وكان ذلك على أثر مطاردته قريش
بالمسلمين في الحبيشة، إذ رفض المجاشي أن يستجيب للبيعة التي أوفتها قريش إليه
حتى يعظم طبيعة الدين الذي أتى به المهاجرون، فاتفق به وأسلم على أيديهم ورد
بيعة خاضعة.

وقد أخذت حملة العرب تتوطد بالحبيشة على أثر الهجرات التي تشابت بعد
ذلك خاصة بعد أن تمكن العرب من الاستقرار في بعض سواحل البحر الأحمر

(١) من العلاقات الحبيشية العربية تنظر عبد المجيد عيسى بين الحبيشة والعرب، للقدرة، ١٩٤٧

(٢) الشاطر يصفى عبد الجليل تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع
عشر قبل الميلاد ص ١٢٦

وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية التي أصبحت وسيلة لتوغل كثير من الجماعات الإسلامية داخل الهضبة الأثيوبية، وعندما اشتدت الهجرات العربية على سواحل البحر الأحمر أثيوبية الغربية بدأت تظهر إمارات ساحلية إسلامية كإمارة عدن أو ربيع وإمارة عفتيشير، ولأرجح أن يكون حكم هاتين الإمارتين عرباً نازحين من البيئة الصومالية لا أن يكونوا صوماليين نازحوا من البيئة العربية، وبعد أسهمت هذه الإمارات الساحلية بنشاط تجاري ملحوظ وصل إلى حد حكاية التجارة بين داخلية بلاد الحبشة من ناحية وسواحل البحر الأحمر من ناحية أخرى.

وبحسب ما نذكر أن بلاد الحبشة لم تكن في عتار عشرين أرض جهاد وذلك باعتبارها من البلاد التي هاجرت إليها قوى الجماعات الإسلامية ووجدت فيها حيزاً رعيه من الجبال، وبهذا السبب تأثر ملك المسلمين فيها إذ اتخذ طابعاً سياسياً متعصباً الانتماءات التي انتهى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية في الحبشة، ولكن بتصوي الرمز أحد شأهد العربي الإسلامي في الأرياد حتى تم للمسلمين حرلة الحبشة عرباً يكاد يكون تاماً عن العالم الخارجي وحاصلة بعد استيلاء المسلمين على رولا نغر أكسوم ومخرج الحبشة على البحر الأحمر.

وسمى أن شئنا أن ظهور الإسلام وانتشاره في الجزيرة العربية وما أعقب ذلك من فتوحات إسلامية قد حقق الحبشة من التوسع في المناطق المحاذرة لها، ويرجع ذلك إلى أن الإسلام وحده الجزيرة العربية وأقر فيها الأوضاع السياسية والدينية، ولهذا لم تعد الجزيرة العربية صالحة لتوسع الحبشة، هذا بالإضافة إلى أن انتشار الإسلام في مصر والجزء الشمالي من السودان وساحل إفريقيا الشرقية أوجد حالة خطيرة بالنسبة للحبشة التي أصبحت محاطة ببلاد إسلامية، بل أحاط الإسلام يترب إلى بلاد الحبشة نفسها، حيث قامت سلسلة من الإمارات الإسلامية امتدت من الحبشة حتى منطقة البحيرات لاشواتية، كما تعددت المراكز العربية والإسلامية على طول سواحل الصومال، ومن ناحية أخرى أن قبضة المسلمين على الأمير طرويتين الفارسية ولرومانية قد ترتب عليه حرمان الحبشة من التعامل الاقتصادي مع هاتين الدولتين فلا هراة إذن إن بدد الضعف يدب في كيانه الحبشة، كما أخذت سعة ميوكتها في الانكماش وخصوصاً على السواحل المجاورة لها التي

أحدثت استقرار فيها جماعات من العرب، وعلى يد هؤلاء ومن احتلظ بهم من
الأحباش أحدثت موانئ البحر الأحمر فتتبع نشاطها الملاحي والتجاري إذ وقعت
التجارة والسيطرة البحرية في أيدي العرب الأمر الذي جعل موارد الخشبة على
وعلاقتها الخارجية مع غيرها من البلاد تقع في أيدي المسلمين^(١) وقد حلقه
هذه المشاكل، لتتعاين الحكام حبشة الذين رأوا العمل على أخذ من نشاط العرب
لاقتصادهم ومن سيطرتهم على موانئ التجارة وطرق القوافل مما كان يسبب تنامي
حروب ومعاركات داخلية بين المسلمين وبعض الماهضة لهم، وقد منعت هذه
الحروب والمعاركات حتى انقضاء الثاني من القرون الخامس عشر، ثم أحدثت تحول
بعد ذلك إلى مراح على يد دخول أطراف جديدة في ذلك النزاع كالمماليك
والبرتغاليين ثم الأتراك العثمانيين.

وينضمح لى التعاون الوثيق بين الأحباش والبرتغاليين خلال القرنين
الثاني عشر والقرن السادس عشر عند انطلاق الجيوش لبحر الأحمر في السنوات
الآخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الأولى من القرن السادس عشر
الميلادي. وتؤكد بعض المصادر وجود مشروعات تألف بين البرتغاليين والأحباش،
كما وجدت هيئة مشروعات حبشية برتغالية مشتركة كمشروع لغوسودى
البوركينا لتحويل مجرى نهر النيل بحيث يصب في البحر الأحمر بدلاً من البحر
المتوسط بهدف منع انوار المياه على مصر، أو محاولة البرتغاليين بالتعاون مع
الأحباش تنفذ إلى البحر الأحمر والوصول إلى بيع مياه المدينة ومن ثم التوغل
في الأماكن المقدسة إيمان في إدلائه لمسلمين وذلك بالبحث في مقدماتهم
وتطالعا بصد ذلك بعض الوفود الحبشية التي أرسلت من قبل حكمة هيلانة إلى
أفلك عمانويل ملك البرتغال وكان من هدف إرسال هذه الوفود تحقيق التعاون
بين الحبشة والبرتغال لدفع الاخطار التي كانت تتعرض لها الحبشة وخديجه بعد أن
أصبح البرتغاليون هم القوة المسيطرة على محار الشرق بعد تخطيطهم للاستيلاء
المصري في موقعة ديو البحرية المشهورة في عام ١٥٠٩، كما تطالعت أيضا وفود
حبشية أخرى أرسلت إلى البابا كلمنت الرابع ١٥٢٣، يستعداد حبشة للدخول

(١) من العلاقات المصرية الحبشية انظر سعيد هاشم، بعض أمراء حبشة على العلاقات بين مصر والحبشة
الفترة الرابع عشر من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وكذلك الشاعر اليمني عبد الجليل
تاريخ وسفاريات السرايا الشرقية والأوسط من ١٢٠٠ وما بعدها

في الكنيسة الكاثوليكية وفي الوقت الذي أخذت فيه الفري الإسلامية في الحبشة
تعرض لضغط شديد وصل لآثرات العثمانيين إلى بعض المناطق على سواحل
الشرق الإفريقي، وعلى الرغم من أنهم وصلوا إلى هذه المناطق متأخرين، إلا
أنهم مع ذلك قاموا بمجهودات كثيرة وخاصة بعد أن تحقق لهم شيء من النجاح
باحتسابهم لبعض الموانئ الأسيرية والإفريقية للبحر الأحمر، كجدة وسواكن
ومصوع وزيلع وبربرة وعدن، وبدأت الفري الإسلامية في الحبشة تصنع إلى
الآثرات العثمانيين الذين رعبوا بدورهم في السيطرة على الحبشة نظريتهم أنهم إذا
تمكنوا من إقامة دولة إسلامية في الحبشة فسيؤدي ذلك إلى تأكيد سيطرتهم على
الجزء الجنوبي العربي من المحيط الهندي، وتحققا لذلك لهذا اتهم الأتراك
العثمانيون بمسعى الحبشة الذين رحلت القضية الدينية بينهم، ووجدوا في الإمام
أحمد بن إبراهيم الملقب بجوانيا أي لأشوب، القوة المحركة التي ستطيعون من
ورائها تحقيق أهدافهم، فأمدروا بالمال والمخيرة كما اتحدوا من قديته وتفرده
وسيلة لإظهاره أمام مسلمي تلك الجهات عظم القائد الديني الذي يجمع كلمة
المسلمين ويوجهها ضد الأحباش واستطاع أحمد بن إبراهيم أن يجمع كلمة
المسلمين ويتولى أمورهم حتى لقوه بالإمام العدي وصاحب الفتح، وحدث بعد أن
جعل على الحبشة حملات عبقة بمؤازرة لآثراته له، وتوغل في لأفريقي الحبشة
حتى وصل إلى الأقاليم الشمالية من تيجري، وبلغت حروبه في الحبشة أقصى
درجة من الحماسة والإقدام وخاصة أن المسلمين اعتبروها جهادا، وأحدثوا يحاربون
فيها حرب الشفقت للدفاع عن الدين.

ومن حسن حظ أن غزوات الإمام أحمد في داخل الحبشة سجدت مؤرج
عربي من جيران يدعى أحمد بن عبد القادر شهاب الدين الملقب بهرب فقيه، أورد
فيها تاريخ غزوات الإمام، وقد يكرر من أهمية هذا السجل أنه عرفنا بمناطق كثيرة
في قلب الهضبة الحبشية، ويكاد يكون هو المصدر الوحيد الذي عندك لك أماكن
كثيرة في داخل الهضبة الإثيوبية، وقد نشر في المشرق العربي في سنة ١٩٠١ ميل أنه
الأول من هذا الكتاب بنصه للعربي مع مقدمة فرنسية له في عام ١٩٠١ ميل أنه
لم يتعرف على الجزء الثاني من هذا الكتاب ويوجد الجزء الأول من كتاب عرب
فقيه، المسمى مفتوح الحبشة، تعود الذي وصل إليه الإمام أحمد بن إبراهيم

وتفصح أن ذلك التمرد وصل إلى بحيرة نانا على النيل الأزرق، وقد أورد المؤلف
لمسائل التي كانت تسير فيها جيوش الإمام وفتوحاته في بلاد دواو - نالي - هدي
خير - ووج - طهار - وفات، وكذلك استيلاءه على بلاد التيجري^(١)

وفي بوقت متى دارت فيه عروام الإمام كان أتباعه قد مشروا بمودهم
في بحر شرقاً فكانت الخبيثة هي المسرح الذي التقت فيه الفوتاه العثمانية
والبرتغالية بطريق غير مباشر^(٢)، وخاصة بعد أن استنجد بالأحمش بالبرتغاليين
واستنجدت القوى الإسلامية بمدورها بالعثمانيين، وبفضل المساعدة العثمانية للإمام
أحمد ستمر في شن حروبه لتواصلة ضد الإمبراطور لبنا دمل وتنف حوله كثير
من الصوماليين، وأخذت برقعة التي يحكمها المسلمون في الأرخبيل حتى نجح
الإمام أحمد بفصل سجدات الركبة، التي كانت تصل إليه من الفواعد التركية في
بمس، من هزيمة الإمبراطور لب دمل الذي اضطر بقرار أمم وجه فوت الإمام
من بند إلى بلد يتخاضه الخوف والخزع، وأصبحت سلطة الإمبراطور حثيئة بمعاية
وحصنة بعد أن أصبح الإمام أحمد يتصرف في الخبيثة كمنه تصرف الملك المستقل
صاحب الأمر ونهيه، كما أرسل من قبله الرولة إلى جميع أقاليم الخبيثة
بفتحها، وإحضار أهلها وجمع الأموال أو الاتفاق على طريقة لقائهم، واستمر في
بلدة دمييا التي اتخذها عاصمة لمملكته في عام ١٥٤١

وقد استمرت غزوات الإمام أحمد بن إبراهيم ما يقرب من خمسة عشر عاماً
١٥٢٨ - ١٥٤٣، وقدر عدد رجاله بأكثر من عشرة آلاف مقاتل وكان لهذه
الغزوات أثر كبير في نشر الإسلام في الخبيثة، وقد أخذت قوته تتعاظم وخاصة
بعد انضمام لأتراك وشريف مكة إليه، الأمر الذي مكّنه من عرو قبائل الجبال
وسائر القبائل الأخرى في شوا وقتدار وإكسوم

وبعد ذلك ما جهر للإمبراطور كلاوديوس، الذي حلف لناديق في حكم
١٥٤ - ١٥٥٨، إلى إرسال وفد من لشوية حيث قابض معك البرتغاليين ووجع
به حرج مركز الإمبراطور، وعلى أثر ذلك وجه الملك البرتغالي تعييناته إلى نائبه

(١) بوشروب ستوراد - حاضر العالم الإسلامي ج ١ من ج ١/١٦٣ - ٢٦٤

(٢) عن العلاقات الخبيثة البرتغالية - التور

Kurmanar. Le Mor Rouge. Tome II p. 250-17.



في الهند بإرسال أسطول برتغالي لمقاتلة المسلمين ومساندة إمبراطور الحيشة وكذا وصول الإمدادات البرتغالية مفاجئة لمسلمي الحيشة لم يستعدوا لها، كما أن أحبار وصوص هذه الإمدادات أوقعت الحماس لدى لأحياس الذين استعمرت عزيمتهم، ولذلك أسرع الإمام أحمد فأرسل بدوره مستنجداً بمشاة التركي في ربيع ١٥٤٢ طلباً منه بمعدة من الجود والأسلحة، فأرسل إليه ألونى التركي تسعة مائة من حمدة البندق، وحنة مدافع مكنة من حرار مصر سريع على البرتغاليين وقتل قائدهم كريسوفور دى غاما، على أنه في عام ١٥٤٣ وصلت نجدة برتغالية أخرى مكونة من أربع مائة وخمسين جندياً برتغالي وفي فبراير ١٥٤٣ هاجمت هذه القوة جيوش الإمام، وبخترقت فصيلة منها بقيادة بدرو ليونى الصوف إلى حيث كان يوجد الإمام وأطلقت عليه الرصاص فخرج جرحاً بلياً، وما أيقن من بهزيمة أسل بي شنة وحيد، وهو يقطر دماً، فتبعه القائد البرتغالي حتى راه يستخذ بيتاً فيقطع أليه ويدعبل بها إلى إمبراطور كلالديوس، على نحو ما يروى له صاحب كتاب فتوح الحيشة.

وهكذا قضى على ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم بفضل المساندة البرتغالية التي تلقت على الحيشة من مراكز البرتغاليين في سواحل شرق إفريقيا الذين أمدوا الأحياس بمدافع وجود مدربين على استخدامها، وخرج العثمانيون من هذه المحاولة مدحورين، فاكتمر بعد ذلك بالإشراف على سواحل البحر الأحمر من سلسلة أنوانى التي استولوا عليها. حقيقة حاول العثمانيون بعيد سيطرتهم على مصروع العودة لتدنحس وذلك يشد أثر المسلمين في المنطقة التي صارت تعرف فيما بعد باسم أريتريا، مما أثار لأحياس وادي دنك إلى حروب بينهم وبين لعثمانيين ١٥٧٨، كان الظفر فيها للحيشة بقيادة المجاشي ملاكاً صاحباً الذي نجح في القضاء على النشاط العثماني في بلاد.

أما عن مسمى الحيشة فقد تزعهم بعد وفاة الإمام أحمد بن إبراهيم قريب له يدعى الأمير نور بن مجاهد، وهو الذي قتل سجنشى كلالديوس ١٥٨٨، في إحدى المعارك التي شبت بينهما، وقد أسماء لمسلمون بصاحب الفتح الثاني، على أنه قد انتهى بحرب الأمير نور بن مجاهد مجد سلطنة مرر الإسلامية، وأحد المسلمين يدعون من شنة ضحط الأحياس عليهم.

على أن الظروف التي مرت بها الخيثة كانت مساعدة إلى حد كبير على عودة الأرمن لاعتناق الإسلام؛ ذلك أن البرتغال لم تلبث أن أحدثت تطالب الخيثة بتمن مساعدتها لها ضد المسلمين بأن تعين انضمامها إلى الكنيسة الكاثوليكية بعد أن تقطع صلتها بالكنيسة المصرية الأرثوذكسية التي عجزت عن حمايتها بل عن حماية نفسها، ولكن تحول الأحياء من مذهب إلى آخر كان أمر بعيد المساءلة وخاصة أن الخيثة عريضة في أرثوذكسيته، حقيقة حاول البرتغاليون تشيختر بمذهب الكاثوليك، وذلك بنشر وترجمة هذه كتب توضح تعاليم الكاثوليكية بالدعوة لامهرية، وبالفقرة بين الكاثوليكية ولأرثوذكسية، لا مستمر الأحياء، وعلى رأسهم كهنتهم، ولم يكن من بلد من مقاسة هذا السحى بتقديدهم إلا بالدعوة إلى الكنة المصرية التي آمنهم بالعود الأدنى وبانكس لدية التي يستطيعون ترجمتها إلى العتيم

ومع ذلك فلم يلبث الإمبراطور موصيوس أنه أدرك أن بلاده أصبحت محاطة بدول تعرب عن العالم، فهي تركيا تقف على الساحل وتسد عليها المنافذ إلى العالم الخارجى، كما أن مصر رغم العلاقات الودية التقليدية بينها وبين الخيثة لا تستطيع لها بعدا بعد أن فقدت مركزها وتحولت إلى إحدى الولايات العثمانية، وبما هم البرتغاليون قد أفلحو إلى حد كبير فى كسر الخطر التركى الإسلامى، ويستطيعوا أن يكونوا قوى متعنة عسكرية واقتصادية، فاعتنق موصيوس الكاثوليكية سرا، ثم لم يلبث خلفه أن أعلن صراحة اعتناقه بذلك المذهب، كما أعلن عن تصميمه على قضم الروابط الدينية بين الخيثة والكنيسة المصرية.

وهكذا عدى مولى الإمبراطور فاسيلادس الحكم كانت الخيثة متفهمة على صفا انقسام مذهب حادا وقد عمل الإمبراطور فاسيلادس على التحصن من البرتغاليين، كما حاول فك العزلة التي فرضت على الخيثة، ومن الطريف أن تكون اليمن هى ومبته إلى ذلك، إذ لم يتطع أن يتجأ إلى البرتغاليين الذى أصبح بشر مذهبهم الكاثوليكى هو حلقهم الأول، من بهم لم يترددوا فى تأيد أعلانه بقصد الإطاحة به، كما أن الأثر الذى أعلنوا مراكزهم على ساحل بهدف منع الخيثة من الاتصال بالبحر المتوسط الخارجى، أم مصر فقد حصصت للمحكم التركى.

ولم يعد يربطها بحبشة سوى علاقة دمية وإهبة ولذلك لم يكن أمام الحبشة سوى جاراتها الصغيرة اليمن، ومع أنها صغيرة إلا أنها كانت أقرب الدول إلى حبشة، فضلاً عن العلاقات القديمة التي كانت تربط بينهما. وبالإضافة إلى ذلك كانت اليمن، على الرغم من صغر مساحتها وقلة إمكاناتها، قد تمكنت من طرد القوات التركية في عام ١٦٣٥، وأصبحت مستقلة عن سيطرة الدولة العثمانية القوية في ذلك الحين. ولم يكن هناك تدخل بلحبشة إلى صداقة اليمن، إلا مدخل «عين» ولذلك أرسل الإمبراطور فاسيلادس إلى «إمام اليمن» يطلبه رغبته في تعهد الدين الإسلامي لعل الله يهديه إلى اعتناقه، وأجاب «إمام اليمن» على طلب الإمبراطور فاسيلادس، فأرسل إليه بعثة لتعقيبه في شتون الدين. وقد سبق أن أشرنا إلى أن علاقة حبشة باليمن علاقة قديمة، ولا غرابة في ذلك فهما تو جهان بعضهما البعض، ولا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر الذي يضيق كمن اتجهما جنوباً حتى يكاد شاطئاه يتقيان، وكان ذلك يسهل الاتصال بين الحبشة واليمن، حتى أصبحت حجرات اليمنيين إلى الحبشة أو لأحيائها إلى اليمن ظاهرة طبيعية. وقد سجل لنا الخيمي في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، الرحلة التي قام بها إلى حبشة في مخطوطة تقع في اثنتين وأربعين ورقة. وجدت عدة نسخ منها في مكتبة الجمهورية بالقاهرة (١) إلى جانب نسخين آخرين، أحدهما في اليمن والثاني في مكتبة يدرن. وقد نشر الدكتور مراد كاس رحلة جسمي إلى حبشة نقلاً عن المخطوطة اليمنية التي رجعها عن نسخة مكتبة ليلن.

ويذكر الخيمي أن السبب في قيامه بهذه الرحلة هو رجاء متكرر من الإمبراطور فاسيلادس، إمبراطور الحبشة إلى «إمام اليمن» المؤبد بالله، ومن بعده المتوكل على الله، في أن يرسل إليه أحفادهم يتق به الإمام ليخضع إليه سره. ثم بعث الخيمي الرحلة التي رافق فيها، البعثة اليمنية إلى الإمبراطور فاسيلادس، وقد سجل الخيمي أخبار هذه الرحلة في كتاب له أسماء وحديقة. ينظر وبهجة العكر في «عجائب السفر»^(١)، ولما تأكد للخيمي وللبعثة المرافقة له أن إمبراطور الحبشة لم يكن مستجيباً لما أظهره في رسائله إلى «إمام اليمن» من الرغبة في اعتناق الإسلام، وأن كل ما كان يريد هو إصلاح الطريق من جانب بلوك، أسرع ومن معه بمغادرة

(١) راجع مقدمته الدكتور مراد كاس. رحلة الخيمي. سيرة الحبشة في ص ٥ - ١٧.

الخشة في طريقهم إلى بلادهم وقد وصف جميع لشرق من ملكوها،
والمواضع التي مروا بها في رحلتهم ذهاباً وإياباً والتي استقرت ما يقرب من
ثمانين، عداوا بعدد عن طريق مصوغ، التي كانت حاصلة في ذلك الوقت للمحكّم
التركي

وقد يكون من أهمية رحلة الخيمي أنها أمثال بكثير من المعومات التفصيلية
عن الخشة وخاصة أن الخيمي سجل جميع المناطق التي وصل إليها، فقد مر أولاً
بمدينة البوت التي كان يحكمها أمير هناك من قبل جده أي صاحب خط، وكان في
استقباله سمعة بعض فقهاء هذه المدينة ويسمى آل كبرى صالح، وهو نائب
تعظيمي فيما يرجع، ثم اجتازت البشة بلاد السحرة واتصلت ببلاد الفلاشة ومنها
إلى أمجرة حيث قابل أعضاء البشة بالإمر طور فاميلانس، ويرى في مكان من
أمجرة كذا يمكنه مسلمو هذه المدينة، ولكن لم يثبت أن أحد يمس يدك في
عروس الخيمي وأصحابه ولا سيما بعد أن وجدوا من الإمبراطور بمظلة وتسويده
حتى رأت البشة أن يقادها في هذه بلاد قد تعرضت للحظر فرحت إلى اليمن بعد
أن ميت بالمش في تحقيق أهدافها، وإن كانت قد نجحت في ثمرتها بأجره كثيره
من الخشة، ولذلك يعتبره كثير من الباحثين رحلة استكشافية ناجحة، وخاصة أن
الخيمي كتب حريصاً على تسجيل كل ما شاهدته وصادفه في رحلته فسوك وصفه
جغرافياً شيقاً من ذلك وصفه يهودي وأجلاً وقبائل الفلاشة اليهودية وعلة
بالبشة عنها، كما تحدث عن مسائل الأمهرة ووصف الإمبراطور فاميلانس،
والمناطق التي يحكمها وأسلوب حكمه

وقد يكون من المناسب أن تعرض هنا لبعض مقتطفات من هذه الرحلة
وخاصة أن الخيمي قد عني بوصف الشعوب والنقبائل التي صادفها، من دث
وصفه لشعوب الجبال بأنهم «أمة شديدة البأس مينة أمر من كثيرة العدد»، كما
حدثوا الخيمي أن تعرض لوصف البلاد التي مر بها، من ذلك قوله: «انتهيا إلى
جانب جبل عظيم أبلغ ما يكون من الأعظم في الاتساع والارتفاع ووجدنا هناك
بحيرة يتصل ماؤها بذلك الجبل ومنجبال آخر في أطرافها ماؤه صالح وعذب وطولها
وعرضها مستويان في التفسير وقياسها بأماحة نحو يربد كدلي أو يربد عليه قبلا
فيما يغلب به الطين». كذلك وصف الخيمي بلاد السحرة وبلاد أبرجلا فذكر أنها

ببلاد وعره وجبال عالية وأرصاد منخفضة، ووجدنا بين هذه الجبال نهرا عظيما
من آيات الله الباهرة تدفق حركته بين مصر وسينجوت وجيجوت وفيه حيوانات
لبحر العظيم . وهذا النهر لا يتمكن بناء من قطعه إلا من أماكن مخصوصة
متبعة في عرضها بسيط فيها ماء ثم تكون مستوية لا يتغير فيها الماء . ومقدار
العرص في قياسه مائة ذراع وهذا النهر يصب ماءه في بيل مصر على ما حركه لنا
بعض أهل الحبشة .

وجاء في وصف لحيمي لبلاد الفلاشة أن «أرضها واد عظيم تحت جبل عال
في نهاية أسمر وغاية علوه اسم الوادي أرضه واسم الجبل اسمين : مصفرا وهو
أعظم جبال الحبشة، وهو أقرب أعظم جبال لأرض لم يكن يعرف لأنه يوجد في
كل طريق من طرق الحبشة، وهو شديد البرد لا يعرف مثله في شدة برده لا يبرح
أداء جامدا فيه شتاء وصيفا، كما ذكر عن بلاد الأمهرة وشعبها أنهم عشيرة بلات
وكروسي عنكنة وأهل بصرتة، أما عن قبيلة الفلاشة فقد رصفها بأنها أقلية كثيرة
العدد من أعظم قبائل الحبشة وهم على دين اليهودية وهم أهل شوكة وما ران
ملك يفرزهم ويحاربهم حتى غلبهم» (١).

وبما نحمد الإشارة إليه أن الإسلام في الحبشة أحد يشهد به عتقته كثير
من شعوب الجبال الوثنية، وحوالي عام ١٧٨٠ منولت قبيلة عالا ونو ويجو على
بعمبر . وعلى قسم من أمهرة حتى أصبح رئيس يجو المسلم يعني إردته على
تجاشي الحبشة، ثم بلغ انتدش لإسلام عطلوة كبيرة خلال الفتح لمصرى لزيلع
وهرر بين عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٤ وقد أشار كثير من الرحالة الأوروبيين أن الإسلام
يتقدم بسهولة بين قبائل انصومال، كما أكد المنجور هشر في عام ١٨٨٤ أنه من
المحسن إسلام جميع القبائل إذا استمر الحكم لمصرى بضع سنوات أخرى .
وهكذا كان من أثر التوسع لمصرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
وامتداد الحكم لمصرى إلى السودان ومصرع وهضبة برتريا الشمالية الضعطة على
الحبشة غربا مما كان من شأنه إزدهار القرى الإسلامية في الحبشة . على أنه قد
ترتب على فشل الحملات المصرية التي قامت بها مصر ضد الحبشة، هجرة كثير من
ومسلمين وخاصة حبيم غولى التجاشي منبث لحكم وآل على نفسه بنصرع جميع

(١) سير الحبشة، ص ١٧٩ و ١٨٠

أعمالك الإسلامية المتاخمة للعبثية، فبدأ بامتلاك أرواح الواقعة في السهول المنخفضة
للبهجة الشرقية من الهضبة الحبشية التي كان قد اتخدها المسلمون مقراً لهم بعد
ذهاب أمجرة عنهم، ثم أحضر عليك بالإنابة إلى حيث بلاد «حالا» وأوحادين

علي أنه بقيت على الرغم من تلك منطقة إسلامية استمرت محتضنة
بمشاطها وأرجعها، وهي سمعة جما الإسلامية، وكانت أمست معاطمة رئيسة
أسم أهلها في النصف لأرب من القرن التاسع عشر بفصل بعض التجار المسلمين
الذين وفدوا إليها، فاعتنق للإسلام الكثير من قبائلها خاصة بعد أن حصر إليها
عائلة من علماء الإرشاد أهلها إلى الدين الصحيح، وقد نوى حكمها بعد عام
١٨٧٨ السبعين مسعود بن داود الذي هرب بأبي جدار، ولكن على الرغم من
الانتعاش الذي حلّدت أن تحتفظ به هذه سلطة إلا أن مجده أخذ يخبو بعد أن
أدخلاه النجاشي ميك تحت حمايته في عام ١٨٨١ مارك لي استقلالها انداخت
كيفية العلاقات المسيحية في أعشقه، وقد أبرم عليك معاهدة مع سلطانها نفس
فيها على أن نقل السلطة وراثية في سلالة أبي جدار وعليها أن تؤدى جوية سوية
إلى حكومة أديس أبابا^(١)، وكانت حكومة الحبشة تزيد في مقدار هذه الجوية شيئاً
شيئاً بهدف إضعاف تلك السلطة الإسلامية، وفي جانب سلطة جما الإسلامية
تعمل المسلمون في كثير من أقسام الحبشة على الجيوب والشرقي استقرت مهم
طوائف كبيرة في هرو وأوحادين، كما تعدت جماعات إسلامية في أعرب في
جهاز عابة وجدار، كما استقرت جماعات أخرى إلى القرب من أديس أبابا
وكذلك في شرا وأمجرة وعري، ولقد رتب نسبة المسلمين في الحبشة في بداية القرن
«حالي» ثلاث السكان، وقد عرف المسلمون في حبشه بأسماء مختلفة كإسلام، وهم
المسلمون من أصل حبشي، ونقادى وهم النصارى وجبرتي، وهم المسلمون لأرب
الدين أسود، مملكة وفات، وهي أولى الممالك الإسلامية في الحبشة، أما مسلمو
الصومانية فيسمون بناده أو إسلام بحري، وهم المسلمون الذين جاءوا من نيجر
لاحر.

(١) عن سلطة جما النظر

H. Darlay, Slaves and Ivory, London, 1916.

١ كذلك جمال زكريا قاسم - الممالك الإسلامية في الحبشة - مجلة العربي، يوليو ١٩٧٣



وتسود اللغة العربية خاليةً من المسلمين في الحبشة. وقد حافظوا عليها محافظة شديدة باعتبارها لغة القرآن، وقد شهد كثير من الرواد الذين جابوا بلاد الحبشة بأن المسلمين فيها ذور نشاط بالغ وعلى جانب كبير من لذكاء ولهم التفوق على غيرهم من السكان، وقد سبق أنه أشرنا أن معظمهم اشتغل بالتجارة وقد وجد أصحاب الدعوة الإسلامية في الحبشة مرتعا خصيبا في الشعوب الوثنية، كما بعث بطرق الصوفية دورا كبير في نشر الإسلام وكان من أبرز تلك الطرق الشاذلية والمقادرية والحنفية.

وقد استطاع المسلمون إلى حبشة أن يجمعوا بينهم وبين المسالك الإسلامية المجتورة لهم روابط ثقافية وثيقة كمصر التي فيها جامع لأزهر الذي أمه طلاب كثيرين لأحد العدم وكان لهم فيه رواق شهير، وواق الحبشية، الذي يقع فيه كثير من العلماء كالشيخ الإمام اليربوعي قنبر الدين عثمان بن علي شارح التكميل المسمى ١٣٤٢م، وبلغت لرئيس جمال الدين بن عبد الله بن يوسف المسمى ١٣٦١م. كما أننا نعرف من التاريخ المصري المعروف الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أن خلد الساج الشيخ عبد الرحمن رحل من الحبشة إلى مصر في أوائل القرن التاسع للهجري وحاور بالأزهر وتولى مشيخة وواق الحبشية. ومن الواضح أن كثير من لأحاش الذين تلقوا العلم في الأزهر هادوا إلى بلادهم حيث نظر إليهم إخوانهم نظرة إجلال واحترام فاشغوا المناصب الدينية كالتصنيف والقضاء والإفتاء وغيرها. كذلك ارتبط مسلمو الحبشة بالسودان بروابط ثقافية واقتصادية وثيقة نشأت عن طريق الترحيل، وكثير من المسلمين هاجروا من حبشة إلى السودان، كما ارتبط مسلمو حبشة باليمن بروابط وثيقة منذ أزمنة قديمة بسبب عو من الجوار والتجارة والمعاملات، وقد أدخل اليعانيون إلى الحبشة زراعة البن، كما نشأت علاقة بين مسلمي الحبشة والأماكن المقدسة في الحجاز، إذ كان كثير من الأحباش المسلمين يلحجون إلى مكة لأداء فريضة الحج في كل عام^(١).

وقد ازدهرت القوى الإسلامية في الحبشة بفضل الدعوة التي ترعيتها سلطة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ / ١٩٠٥، وتعميد بها دعوة

(١) يوسف أحمد - الإسلام في حبشة ص ٧٤. انظر أيضا

Trimingham, Islam in Ethiopia. Oxford, 1962.

الجماعة الإسلامية، إذ حدث اتصال عثمانى بمسمى الخشنة في عهد الإمبراطور
 مئث، حين أرسل لسلطان عبد الحميد بعثة إلى الخشنة للتصرف على حوال
 المسلمين فيها، وقد تحدث عن هذه البعثة صادق باش العظم في كتابه حلة
 خشنة، حيث كان موقفه من الإمبراطور مئث من قبل السلطان عبد الحميد،
 وقد ذكر في كتابه أنه عظم أنه وجوده في أديس أبابا أنه لا يوجد بها مسجد وأن
 المسلمين يرددون الصلاة في العصفاء وذكر أنه طلب من الإمبراطور أن يأذن
 للمسلمين ببناء جامع ومقبرة قادن وفرح المسلمون بذلك، وأشرح عليهم صادق
 معظم أن يسمى جامع حميدية تيمناً باسم السلطان عبد الحميد، ولكن لم
 يثبت الجاشي أن سكت بعده بعد سمر بوفد العثماني على أن لاتعاشي سم
 يثبت أن لمحقق مرث أخرى للمسلمين في الخشنة بعد وفاة مئث في عام ١٩١٣، إذ
 تخلفه في الحكم ليدج ياسو، وقد عرف الجاشي الجديد بتخلفه مع المسلمين،
 حتى ظن الكثيرون أنه أسلم لما كان يظهره من المعجزة للمسلمين وتأكد ذلك عبد
 شوب الحرب العالمية الأولى حيث شجع السكان والترك ليدج ياسو، وحاول
 له تأسيس إمبراطورية إسلامية في شرق إفريقيا، ولكنه لم يثبت أن خلع من
 العرش في سبتمبر ١٩١٦ حيث نودي بالأميرة رونيوتو ابنة مئث إمبراطورة على
 الجاشية، على أن يتخلفها للرأس تعري ابن الرأس مأكومين، وفي عام ١٩٣٠
 توفيت الإمبراطورة رونيوتو وبني بالرأس تعري ليكون إمبراطور على الخشنة
 باسم الإمبراطور هيلاسلاسي الذي استمر حكمه من عام ١٩٣٠ حتى الإطاحة به
 من الحكم في عام ١٩٧٤ وفي عهد الإمبراطور هيلاسلاسي اشتدت سطوة
 الحكومة المركزية، واتحدت تعدي من إدياد تلك السطوة مسعنة جما الإسلامية،
 خاصة بعد وفاة أبي جمار في عام ١٩٣٤، إذ حنمه حكاهم ضعفاء، وفي ذلك
 الوقت أخذ الجاشي هيلاسلاسي يضيئ الخناق على استقلال حكام ساسي حتى
 أهل حراحة ضمها إلى حكمه، وسقوط سلطنة جما سم يبقى في الخشنة سلطنة
 إسلامية مستقلة بعد أن كان فيها سبع ممالك إسلامية بكل منها قوة عسكرية وإدارة
 خاصة بها.

التوغل العربي في ممالك النوبة المسيحية .

وكما حدث توغل عربي في ملحشة حدث توغل أيضا في سودان وادي النيل وممالك النوبة المسيحية، وترتب على هذا توغل عبدة الإسلام والثقافة العربية بل وقيام ممالك ومنظمات إسلامية^(١) ومن لتعلق عليه بين كثير من الباحثين أن الهجرات العربية هي التي كوت معظم القبائل السودانية، وقد تواددت هذه نهجرات العروة عن طريق مصر والبحر الأحمر وشمس إفريقيا، وأشهر من القبائل العربية الشافعية والناصرية الذين سكنوا بين الشمال الرابع والى ححد، والفواصة في سار، وانفوج ولعاسلاب الذين أسسوا مملكة سار. وقد احتلف الكثيرون في أصل الفويج فهنا من يعتقد أنهم قد تعرفوا، وإن كان الفويج أنفسهم يذهبون انتسابهم إلى أصول عربية. وإلى جانب هذه القبائل التي أشربا إليها توجد قبائل الجعليين، وهم أشهر المجموعات العربية في السودان، ويجدير بالذكر أن التزاوج الذي حدث بين نهجرتين العرب و قبائل النوبة، هو الذي كون هذه بالمجموعات الجمعية التي تميزت في حصالها العربية وثقافتها لإسلامة

أما في الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر فقد احتلقت القبائل العربية مع قبائل البجة، وبرزت من القبائل العربية التي ستقرت في أرض لبجة قبيلة الرشاية التي هجرت من الخنجر في عام ١٨٧١، وهي دارفور توجد كثير من قبائل العربية كالزيادية والدايرية والتعايشة والمريشدة ومبرها، وي تجدر الإشارة إليه أن بعض هذه القبائل قد احتلظوا بشعب البور، وتأسست سلطنة دارفور التي تميزت بحصانها العربية وسماتها الإفريقية

وعندما التفتل العربي الإسلامي في النوبة عن طريق هجرات عربية تدهقت من مصر بعد الفتح العربي لها، وكان يوجد في نوبة مملكتان مسيحيان إحداهما مملكة مقرة (النوبة السفلى)، وحاصنها قلعة العجوز، وكانت هذه مملكة تمتد من الشمال لأوب حتى الشمال الرابع، ثم مملكة عبوة أو النوبة العليا، وكانت تمتد من الشمال الرابع إلى أهالي جزيرة سار وعاصمتها مدينة سوبا على النيل الأزرق، وقد أشاب كثير من الجفرايين العرب إلى بلاد النوبة فبعد ذكر التقريرى أنها بلاد واسعة تقع في حوب مصر وأهلها نصارى عن مذهب الميعاقبة

(١) محبوب (بلاد - الإسلام في السودان من ص ١٦ - ١٣)

وكان من الطبيعي بعد انتشار الإسلام في مصر أن تتحدد العلاقة بين مصر وبين المحدث المسيحية الواقعة إلى الجنوب منها، إذ كان لا بد للمسلمين أن يؤمروا طرق تجارتهم إلى الجنوب مما أدى إلى صدم متكرر بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية في دنقلة. وتحدثنا كثير من المصادر عن عقد معاهدة أضيق عهد سم معاهدة البقظ، وقد عقدت هذه المعاهدة على أثر حملات أرسلت من مصر إلى بلاد النوبة، وقد أعطت هذه المعاهدة لمصر شيئاً من النفوذ السياسي وبلدى في بلاد النوبة، وفضلاً عن ذلك ضمنت للمسلمين استمرار المعاملات التجارية، وحرية الجماعات العربية المهاجرة في ممارسة شعائرها الدينية، وفي نفس الوقت ضمنت لمملكة النوبة الاحتفاظ بنظامها الديني، وعلى الجملة ترتب على هذه المعاهدة استقرار السويين في المقاطعات الإسلامية، واستقرار المسلمين في المقاطعات النوبة تسهلاً للعلاقات التجارية المتبادنة فيما بينهما، كما اشترط في هذه المعاهدة الإبقاء على مسجد المسلمين في النوبة السفلى، وهذا يدل على وجود مجموعات إسلامية استقرت في هذه المناطق، وإلى جانب ذلك حدثت المعاهدة الالتزامات لكلا الطرفين، وعمومها كسب النوبيون يتسلمون من السلطات الحاكمة في مصر هدايا سوية من الطيور والملون الفسائمية لأخرى، وإن كانت هذه الهدايا تفل في قيمتها كثيراً مما كانت تقدمه مملكة النوبة لمصر من موارد خاصة بها.

وقد ذكرت معاهدة البقظ في كثير من المصنفات العربية، وعلى الأخص في مروج الذهب للمسعودي، الذي أورد نص المعاهدة (٦٥٢م)، والذي يتضح منه أن الهدف من المعاهدة حرص حكام مصر على تأمين حدودهم الجنوبية أو بمعنى أدق تأمين الحدود الإسلامية، على أن المسلمين لم يهتموا بفتح بلاد النوبة أو إزعاج أهلها على اعتناق الدين الإسلامي، وبعل السبب في ذلك يرجع إلى اهتمام المسلمين بفتح شمال إفريقيا، هذا بالإضافة إلى أن بلاد النوبة لم تكن تعتبر لاهتمام بعشقتها، ولعل ذلك يرجع إلى قلة مواردها وشمولية مواصلاتها، وإن كان ذلك لم يلق حائلاً دون تدفق الهجرات العربية ودخوله كثير من مسيحيي نوبة في الدين الإسلامي. وما تجدد لإشارته إليه أنه على الرغم من أن انتشار الإسلام ظهر بصورة واضحة عقب سقوط ممالك النوبة المسيحية، إلا أن وجود هذه الممالك لم يحل دون دخول الإسلام وانتشار المؤثرات العربية إلى السودان، لأن هجرات



القبائل العربية كانت تأتي من الشمال متجنبة منطقة النوبة بمساحتها وجماديتها وتدخل في منطقة الأقاليم الجنوبية، كما كانت تغد أيضا من جهات البحر الأحمر أو شمال إفريقيا ولكن سقوط هذه الممالك كان بمثابة فتح باب جديد تشهدت من خلاله التأثيرات العربية الإسلامية، وتحول النوبيون إلى الدين الإسلامي وتشعروا بانتماءة عربية. وقد ساعد على قوة التغلغل العربي الظروف التي تعرضت لها مصر بخاصة ولعالم للإسلامي بعمامة، إذ بحلول لنا النصف الثاني من القرن التاسع ميلادي أكبر موجة من المهاجرين العرب الذين اندفعوا من مصر إلى بلاد النوبة، وذلك بعد أن عقدت القبائل العربية نفوذها في مصر حيث بدأ لحكم منذ عهد بشوكل ٨٤٧ / ٨٦٦م يختارون من الأثراك، وكان الصعق السياسي والاقتصادي الذي أحدثت تعرضه له القبائل العربية له أسوأ الأثر في شعوب العرب، فلم يكن أمامهم إلا عرضة الأسباب جنوب وغربا بعيدا عن الضغوط المختلفة التي أحسوا يتعرضون لها، ولا شك أنهم وجدوا في بلاد النوبة وسهول السودان القسيحة مجالا حيوية وروحية أمامهم

وفي النصف الثاني من القرن التاسع ميلادي أو على وجه التحديد في عام ٨٦٨م قامت من مصر حملة عسكرية إلى بلاد النوبة وأراضي البجة فهدم عبد الله ابن عبد المجيد العمري، ويظهر من رواية المقرئزي أن هدف هذه الحملة لم يكن تأديب النوبة أو البجة، حيث كان المسلمون قد عقدوا معهم معاهدة تشبه من وجوه كثيرة معاهدة القبط التي عقدت مع مملكة نوبة مسيحية إذ كانت تنص على استمرار تبادل التجارة وبأن يجتاز المسلمون أراضي البجة وأن يختار البجة أراضي المسلمين، كما قررت معاهدة الخراج السنوي الذي يدفعه البجة إلى ولاية مصر، كما يسمحون برسالة ركافة من أسلم منهم إلى مصر، وإنما كان الغرض من الحملة العسكرية الكشف عن مناطق جديدة لمعدين الذهب والبحث عن مهاجر جديدة للقبائل العربية. وفيما يبدو أن عمري كان يطمح في إقامة إمارة إسلامية في منطقة راندي الحليقات، وكانت هذه المنطقة تجذب إليها أنظار العرب الذين هاجروا إليها واستقروا حول منجم الذهب فيها، ويرى من قبل القبائل العربية عرب جهينة ورسعة، وكان لهذه السفينة أثر كبير في النفوذ الذي بلغه العرب في بلاد النوبة

ولا شك أن استقرار بعض الجماعات العربية وسعلاهم حاجم لدهم في
العلاقى قد أدى إلى بحث نوع من النشاط التجارى في هذه المنطقة^(١) وقد أشار
بعض جغرافى العرب فى القرن العاشر الميلادى، ومنهم ابن حوقل، إلى أن
عقبات كانت مباءة هاماً لتصدير الذهب، كما ذكر القرطبي فى القرن الخامس عشر
ميلادى أن حجاج من مصر والغرب كانوا لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء
عبداب حيث كانوا يركبون الإبل من ساحل مصر إلى لسطاط إلى قوص، ثم
يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عبداب ومنها يركبون البحر إلى
جدة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تركت على الانتعاش التجارى الذى حدث بين
حكاه مصر وبين الدول الأوروبية وخاصة فى عهد المماليك زيادة الاهتمام بالمنتجات
الأفريقية وما استتبع ذلك من ضرورة تأمين طرق القوافل والموانئ الواقعة على
البحر الأحمر كالتصير وعبداب، والسلا التى تصل إليها موانئ التجارة خاصة فى
صعيد مصر كقنط وقوص وأبريم. كما أبدى المماليك عاهة خاصة بسواكن
ومصوح، وبهذه لأسباب أرسلوا عدة حملات إلى ميناء عبداب وسواكن، كما
اهتموا بإخضاع قبائل البجة تأميناً لسلامة هذه الموانئ، وتأميناً للقوافل التجارية
التي تسير فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر حيث كانت كثير ما تتعرض
لخطر السلب، من بالإضافة إلى تأمين مناجم الذهب التى كانت منتشرة فى
صحراء مصر الشرقية فى بلاد البجة أو بلاد المعدن، كما كان يعيها العرب، بكل
هذه الأسباب أرسل المماليك حملات متتالية أخضعت قبائل البجة ومهدت
لدهولهم فى الدين الإسلامى وخاصة أنهم كانوا معرضين لصعوط تبشيرية مسيحية
من قس لحنة من ناحية، والمماليك المسيحية فى لنوبة من ناحية أخرى^(٢)

وفى عهد المماليك أيضاً تم إخضاع ملكى لنوبة الأعلى والعلية، فعلى
الرغم من أن معاهدة البقط كانت تنظم العلاقة بين سلسلتي مصر وملك لنوبة
الأعلى - وقد استمرت هذه المعاهدة أكثر من مئة قرون تحتفظة بوضعها خاصة

(١) مصطفى محمد سيد الإسلام والنوبة فى المصور الوسطى من ١٢٤٨ للقرن ١٩٦٠

(٢) من تاريخ قبائل البجة لخير

Paul, A., A History of the Barga in the Sudan (Cairo 1964).



لنوبة باعتبارها ذو معاهدة بمعنى أنها ليست بدو حرب ولا دار سلام - إلا أنه قد ترتب على سقوط بغداد على أيدي المغول في عام ١٢٥٨ م سائق موجة شديدة من الهجرات العربية أخذت تروح إلى النوبة، وغيرها من المناطق البعيدة عن قلب العالم الإسلامي. ولم تبق هذه الهجرات منعزلة عن المناطق التي هاجرت إليها من احتلالته سكانها وتواجبت معهم في ترتب على ذلك استعراش كثير من قبائل السودان الشمالي. وقد نتج عن قوة المؤثرات العربية ثمر العلاقات بين مملكة النوبة وبين القوى الإسلامية، وساعد على زيادة حدة هذه التأثيرات تحريض لأحباش للقوى المسيحية في النوبة أو شعور هذه القوى بضرورة التخلص من التصحود العربية والإسلامية. وهما يبدو أن الويس كنمو يعتمدون في مناسبات كثيرة عدم الوفاء بالتزاماتهم في مصر ببعثات كثيرة كانت ترسل من مصر إلى علوة للنوبة تذكرهم بتعهداتهم وتبرر من بين هذه بعثات في دواش عهد الدولة الفاطمية بمصر بعثة أحمد بن سليم الأسواني إلى ملك النوبة جورج بطالبي بأن يدفع ما عليه للدولة الإسلامية القائمة في مصر.

وقد سجل لك ابن سلكم الأسواني أخبار كثيرة عن مملكة نوبة وبها كان من لأسف أن مدوناته فقدت ولم تبق من كتابه ما يستند من أسطحة لقريري نقلا عن كتابه المسمى أخبار النوبة ومقره وعلوه والسجة والنبل^(١)

ويقيم بما أورده لقريري نقلا عن ذلك المصدر أن المسلمين في بلاد النوبة كانوا في حاد من الاستقلال والاستقرار إذ كانت لهم أملاك يستعملونها بصاحبهم كما روى أن كثير من أهالي النوبة اعتنقوا الدين الإسلامي، وأن المسلمين توغلوا داخل الأراضي السودانية حتى إقليم علوة وذلك لمرص التجارة حتى أصبح لهم روابط جاحس بهم في مدينة سودانية تابعة لمملكة علوة^(٢)

وليس من شك في أن الاستعداد بحروب انصبغية أدى إلى تطور كبير في العلاقات بين مصر والنوبة. وقد عاصم دولة المماليك في مصر اشتداد خطر

(١) مصطفى محمد حسن الإسلام والنوبة في المصدر الوسطى من ٧٦ للظهور ١٩٩

(٢) ذكر الرحلة لوس موركلوت في كتابه «رحلات في بلاد النوبة والسودان» أن أفضل مر كبد عن النوبة من مؤرخي العرب هو ابن سليم الأسواني، وإن كان من مصر حتى كتابه في مكنيات التجارة، ولكنه اعتقد على الظاهر الكثيرة التي أوردها لقريري نقلا عن تلك الكتابات قبل

Lowie Burchard, *Travels in Nubia and Sudan*.

النوبيين، ولجح الممالك في التصدي لذلك الخطر في بلاد الشام وأجج بحماس
 «بديس شعور المسلمين الذين تعبوا على مملكة النوبة العليا في عام ١٣١٨ م
 وفي خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي تحدثت أحطار صليبية
 من ناحية النوبة العليا وخيشة خاصة بعد أن دخل البرتغاليون طرفاً في هذا أسرع
 بمساندهم لمحاربة ضد الممالك، وعاد في ذلك الوقت أن حاول مملكة النوبة
 العليا القديم بهجوم على أسوان وهيلاب ما أدى إلى تفكير المسلمين في ضرورة
 انقضاء على مملكتهم. والحقيقة أن مملكة علوة، كما كان يسميها العرب، أو كما
 عرفت في السودان بمملكة الفنج لم تدخل في براع مع مسلمين في مصر في
 الفترة السابقة بسبب بعد المسافة بينها بالإضافة إلى أن مملكة النوبة العليا كانت
 تشكل دولة حاضرة، ولكن انهيار مملكة النوبة العليا أدى إلى ضعف مملكة علوة
 التي استوردت منها مسيحييه ولم تعد عاصمتها سوبا، كما كانت عاصمة
 الأسواني مشاهداته فيها، حيث ذكر أن فيها ابنة حسنا ودور واسعة وكنايس
 كثيرة الذهب، كما أوضح أنها كانت أكثر مالا وأعظم حيث من مملكة نوبة
 العليا ولكن هذه الصورة التي رسمها ابن سليم كانت في طريقها إلى الزوال،
 ففي السنوات الأولى من القرن السادس عشر، وبسبب الظروف العامة التي سبق
 الإشارة إليها تمكن العرب الغاطيون على النيل الأزرق بتقدمهم مع قبيلة الفونج
 التي كانت تغطي جنوب مصر من فتح مملكة نوبة العليا ١٥٥٠ م وتأسيس مملكة
 سار. وهكذا يشهد القرن السادس عشر ميلادي عمق التأثيرات العربية في
 السودان وظهور مزيج مركب من مجتمع إسلامي عربي مع سماته بكثير من
 السمات الإفريقية

ويمزى تأسيس مملكة سار إلى عمارة بنفس دهم الفونج^(١) الذي تحالف مع
 عبد الله جماع من قبيلة الفوسحة العربية وأغار الأتراك بقواتهما على سوبا عاصمة
 مملكة علوة، التي كانت تعاني في ذلك الوقت انشقاقاً داخلياً، وقد اتحد عصابة
 من سار عاصمة حكمه، وأصبحت معظم الأراضي الواقعة بين النيل إلى حدود
 الحبشة والبحيرة تابعة له مباشرة، أما حبيبه عبد الله فقد اتحد من قري عاصمة

(١) من المصادر الهامة التي كتب من تاريخ الفونج يمكن الرجوع إلى

Crawford, O. G. S. - The Fung Kingdom of Senaar, London 1961

شيعته التي حرقت مشيخة العبدلات، ويقى وكيلاً لعصارة تنفس على السودان
الشمالى حتى حدود مصر^(١٦)

وتجمل لنا بعض الروايات التى ذكرها عن تأسيس مملكة السويج، ولعل
أقدم هذه الروايات رحلة داود رويسى من يهود اليمن إلى قيام برحمة إلى السودان
فى أيام عمارة دمشق، كما أورد برحلة الإسكندري جيمس بروس Bruce فى
القرن الثامن عشر معلومات عن هذه المملكة^(١٧)، كما توجد بالاصطفاء إلى ذلك
بعض المصادر لندية أبرزها مخطوطة لطيفات أحمد ود صيف الله بجعلى، وقد
نشرت هذه المخطوطة فى عام ١٩٣١^(١٨)، ثم لندى أيضاً مخطوطة الشيخ أحمد
كاتب مشونة العبدلات بالسفوط^(١٩)، والى تدون فيها تاريخ سلطنة سار من قبايلها إلى
ما بعد قيام الحكم المصرى، وقد عى بشر هذه المخطوطة الأستاذ الشاطر
عيسى^(٢٠)، كما بشر الأستاذ مكي شبيكة نسخة معدلة منه، ويظهر من هذه
مخطوطة أن عبد الله جماع هو الذى أعزى عمارة على محاربة العج، موك
علوة، وخاصة بعد أن أدرك سهولة القضاء على هذه المملكة بعد أن دخل عدد
كبير من سكانها الدين الإسلامى وازداد تفوق الهجرات العربية به.

وعند تحيد الإشارة إليه أنه ورد فى مصادر أخرى أن مؤسس دولة السويج
عاصر التوسع العثمانى بمصر، وأنه جرم على منع العثمانيين من الوصول إلى
الافد، وخاصة بعد أن أصبح نشاطهم فى نبحر الأحمر، يقال أنه أرسل بأناس
قبايل سودان إلى السلطان سليم الأول، ووضح من هذه الاتساب أنها قبايل
عربية تدين بالدين الإسلامى

ويبقى أن نلاحظ أن القرن السادس عشر كان عصر تأسيس السلطنات
الإسلامية فى السودان، سلطنة يعوج، مشيخة العبدلات، ثم سلطنة دارفور
التي أسسها سليمان سولويج^(٢١)، وكان ظهور هذه السلطنات للإسلامة أثره تكبير

(١٦) مكي شبيكة - مملكة السويج الإسلامى - ص ٢١ وما بعدها، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٤
Huf, op. cit., p. 20. (١٧)

(١٨) ود صيف الله - لطيفات، القاهرة ١٩٣٠

(١٩) انظر كاتب مشونة - مخطوطة سفر، تحقيق الشاطر عيسى عبد يعين - القاهرة ١٩٦١

(٢٠) فى سلطنة دارفور انظر - دعوى شعير - تاريخ السودان - المجلد ٣ - ١٩٦٤، وكذلك للشاعر مصطفى عبد
يعين - تاريخ وحضارة السودان الشرقى والأوسط - ص ٣٧٠ وما بعدها - القاهرة ١٩٦٧

في إتاحة الفرصة للعلماء وأصحاب الدعوة الإسلامية بنواك عندهم إذ كانت هناك
 زيارات متكررة كان يقوم بها علماء من مصر وبنقاد والمغرب، كما تواجد كثير من
 سودانيين على الأهر لامتكمال تعليمهم، كما أسهمت بطرق الصوفية بشاط
 كبير في تهيئة دعائم الإسلام في تلك الجهات (١)، وقد برز من هذه الفطرت
 الخوانية والقادرية والشيذنية والميرضية، وقد طبعت الطريقة لأخيرة شاراً كبير في
 بلاد السودان، ويرجع تأسيسها إلى عثمان ليرغى ١٧٩٣ / ١٨٥٣ الهى تلمد
 على أحمد بن إدريس العيسى، ونظم اتبعه في طريقة الخاتمية أو الميرضية كما
 عرفت باسمه

ونجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من أن القوسح المصري في السودا
 على عهدى محمد عى وسماعين خلال القرن التاسع عشر أزال هذه الممالك
 الإسلامية، إلا أنه قد ترك عى لحكم المصري دفعة قوة أدت إلى انتشار الثقافة
 للعربية والدين الإسلامى في مناطق كثيرة امتد إليها الحكم المصري، كما كان حركة
 البعثة واستجديد فى العدم العربى خلال القرن التاسع عشر انعكاساتها الواقعية
 فى السودان، ولكن لخطورة أنه حركة لإحياء هذه وأكب تقدم الموجة الإمبريالية
 ما أدى إلى حدوث صراع بين لفوى الإسلامية والاستعمار الأوربى، كان من
 نتيجة إجبار مصر على الانسحاب من السودان ولخاصة الإمبريقية الأخرى التى
 امتد إليها حكم المصري، وكان ذلك شهيد للتسط الاستعمارى عليها (٢)

(١) Elot, A Modern History of the Sudan, p.p. 29 - 30.

(٢) انظر عائلة الكتاب.





الفصل الرابع

العرب وممالك السودان العربي

لم يكن رتياب العرب معرب القدرة الإفريقية يغن حوة من دناسطهم بشرق
بقارة ووسطها، فكيف لاتصل لشرق ووسط بسواحل ختوى الحيرة العربية
والخليج العربي، اتصل عرب القدرة بالشمال الإفريقى وتم لاتصال من هذه الخاتمة
عن طريق الصحراء الكبرى

ونؤكد حقائق التاريخية بما لا يدع مجالا للشك أن الصحراء الكبرى كانت
وسيلة للتربط ولم تكن وسيلة للاتصال من كثير من عصور لتاريخه وتعمل بما
يستطعت لانتشاء أن معظم الدراسات التاريخية - بما فى ذلك الدراسات الأجنبية - قد
أكدت على وحدة القارة الإفريقية وذلك قبل أن يظهر فكرة تقسمها إلى أعقاب
الحرب العالمية الثانية، فقد عني مستجدات فى عشرينيات القرن الحادى بتتبع الصلات
الحضارية بين مصر العربية وإفريق جنوب الصحراء، وتبعه كثير من الدارسين
أنفسهم اهتمامهم بإبراز تأثير الحضارة المصرية القديمة فى الحضارات التى ظهرت فى
غرب إفريقيا كما دلت بوغين بالحقائق التاريخية وجغرافية على أن الصحراء
لكبرى كانت عاملا من عوامل الاتصال ولم تكن عذرا من عوامل الاتصال،
وسمى فى ذلك على ما يتجلىها من مسالك ومقارن وحروب استخدمت قوافل
بندرة لغربية التى منطقت من لكرات من الشمال الإفريقى إلى ما وراء الصحراء
الكبرى

على أن هذه النظرة التى وثقت الصلات بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا جنوب
الصحراء لم تلبث أن تصدلت بعد الحرب العالمية الثانية وبجهد الجاهل معاكسا
وكان ذلك رد فعل لما حدث من تلاحم بين حركات التحرر الوطنى والاستقلال فى
العالمين العربى والإفريقى، فعلى سبيل مثال، قضت جامعة السودان فى أوائل
الخمسينيات رسالة علمية تقدم بها أسعد سغالى رئيس إندوبيو للحصون على
درجة الدكتوراه ذهب فيها إلى أن حضارة مصر القديمة إنما هى حضارة إفريقية
صيفة وجاء فى رسالته أن لغة الولوف فى الشمال لغة وثيقة الصلة باللغة المصرية

القديمة، كما ظهرت انتقادات شديدة لما ذهب إليه قس مسجيري يدعى لوكاس من وجود ألفاظ مصرية قديمة في حياة شعب النورون، وذلك على الرغم من ذهب إليه في التبدل على صحة رأيه بإيراد معجم للألفاظ المصرية التي لا تزال متداولة بين شعب النورون إلى يومنا هذا.

وإذا كان هناك جدل كبير حول الاتصالات القديمة بين شمال الصحراء والمناطق التي تليها جنوبا فإن ذلك الجدل سوف يهادر حتما بعد تأسيس مدينة القيسروان في منتصف القرن الأول الهجري لما سيطرت على مظهرها من تصديق الصلات الاقتصادية والثقافية بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء. وعن الرغم من ذلك فإن دعاء التقسيم يتجاهلون عن عمد تلك الحقائق التاريخية بل إنهم قد يفتخرون في شاقص صاوح حين يدعون أنه إفريقيا المتوسطية أو إفريقيا البحر المتوسط لم تقم بمور يذكر في تاريخ القدرة الإفريقية باستثناء اليهود التي قامت بها بعض شعوب البحر المتوسط في حركة الاستكشافات البحرية الكبرى وراصح أن تلك المغولة قد تجاهلت عن عمد أيضا الدور الذي كبد تقوم به الشمال الإفريقي في نقل المؤثرات العربية والإسلامية عبر الصحراء إلى غرب انقاره الإفريقية ودراخلها.

ونجبر الإشارة إلى أن هناك العديد من الدراسات التي حرصت على إيجاد انطلاق في ذهن قارئها عن سببية الاتصالات بين العرب والأمازيغ، ومن ثم بالعت في ترويج ما أمست بالتجارة الصامتة *Silent Trade* التي كسب تقوم بين شمال انصحراء وما وراءها حيث خصصت لدعم تلك النظرية دراسات كثيرة.

وعلى الرغم من ضرورة التصدي بشك الدعوى بالاتصال ولا أنه ينبغي أن نؤكد هنا أن انهج الموضوع لا يعترض بطسعة سبون أن تعالج إفريقيا كوحدة تاريخية على إطلاقها كما لا يعترض في نفس الوقت على تقسيمها ولكن مشروط أن يستفاد من ذلك لتقسيم في استخراج الأنماط الخصارية أو التاريخية أو الاقتصادية وبشرط ألا يكون من وراءه هدف يرمى إلى تمزيق القدرة أو إضعاف الروابط بين أجزائها أو محاولات متعمدة لفصل العرب عن بقية الأمازيغ.

ومن ثم يستلزم الالتباه أن فكرة تقسيم القارة وإن كانت قد ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلا أنه لم يبدح أن عدد التركيز عليها خلال حقبة الستينات، وكان ذلك رد فعل لسقوط الدعاوى الانفصالية على المستويات المرحمة والجغرافية والسياسية بعد أن أصبحت دول القارة الإفريقية على التعامل فيما بينها على مستوى وحدة القارة، وظهر ذلك واضحا في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية في عام ١٩٦٣م، كما برز أيضا على المستوى الأكاديمي الدولي حين تمت هيئة اليونسكو في عام ١٩٦٤ مشروعا لإعادة كتابة تاريخ إفريقيا ركز في حقله على ضرورة النظر إلى إفريقيا ككل ونجنب التمييز بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء.

وبما هو جدير بالذكر أن حرب أكتوبر ١٩٧٣م كان لها أثر كبير فيما يتعلق بتوثيق الروابط العربية الإفريقية حيث عبرت إفريقيا الصحراء نحو الشمال لتتدخل وتلاحم معبر مع العرب، وبالتالي انخسعت الصحراء كعازل أو كعازل سياسي بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء، ولذلك حين مر التعاون العربي الإفريقي وانضمت في أعقاب تلك الحرب وخلال حقبة السبعينات كتاب من الطبعي أن يشتمل أحداث ذلك التعاون الدعاوى الانفصالية للشكيت في الروابط العربية الإفريقية والتذرع بالصحراء الكبرى باعتبارها فاصلا بين ما أسماه إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء، حيث شاعت في كثير من الدراسات سميات تدور حول ذلك التقسيم كالتفوق بإفريقيا البيضاء أو إفريقيا العربية أو التوسعية مقابل إفريقيا السوداء أو إفريقيا الزنجية وقد استخدم الفرنسيون بصفة خاصة تلك التسميات بينما شاعت في كتابات الإنجليز سميات أخرى تهدف إلى التركيز على أن المقصود بإفريقيا هي إفريقيا جنوب الصحراء.

وقد يكون من المفيد أن نتعرف على الصلاب التي وجدت بين العرب وبين الشعوب الإفريقية التي تقطن فيما وراء الصحراء؛ حيث يتضح من المصنفات المتوافرة لدينا أن العرب عرفوا أقاليم غرب السودان وهي لاقديم التي تقع جنوب الصحراء وتمتد من المحيط الأطلسي في الغرب حتى السودان وادي النيل في الشرق، وتقع بين المناطق الصحراوية في الشمال وبين لطاق الغابات الاستوائية في الجنوب، غير أن هذه المناطق لم تكن هدف التوغل العربي في بداية الأمر وإنما



كانت صلة العرب به متقطعة لا تطول وفيما يسدو أن العرب لم يلقوا هذه المناطق سكننا لهم وقت تعاقب قوتهم التي وجهوها ضد القوى المسيحية في الجرحى الشمالي ببحر المتوسط، ومع ذلك فقد أخذ الإسلام يتسرب إلى هذه المناطق بعد انتشاره في بلاد المغرب إذ حثرت العرب مراكز لهم بعيدة عن الساحل لكي يحموا أنفسهم من الأسطول البيزنطي، وهي قلب المغرب نحو مدينة القيروان التي أصبحت قاعدة لهم للتوسع نحو الجنوب^(١).

وقد ذكرت رويات كثيرة عن بدء انتشار العرب والإسلام في هذه المنطقة من ذلك ما قيل بأن كثير من سكان البربر أصلموا ثم ارتدوا عن الإسلام واحتج الأمر إلى حملات كثيرة لتأديبهم، ويعوم من هذه الرويات أن دخول الإسلام جاء عن طريق المغرب والواقع أن كتلة المغرب الإسلامي كانت تعمل على توحيد الإسلام الإفريقي والإسلام الأوروبي (الأندلسي) في وحدة سياسية تكون من القوة بحيث يمكنها مواجهة المسيحية الأوروبية في شمال واثوثة لبرقية في الجنوب

ومثل انتشار الإسلام في شمال إفريقيا أحدث نقائل العربية تتوغل نحو جنوب، وكان توجهها يتم في حركات متتمة. والخصم بالذكر أن العرب هاقوا غيرهم من الشعوب من حيث قدرتهم على الاتسياب في بلادهم فالرومان مثلاً لم يتمكنوا من التوغل إلى أبعد من السهل ساحلي وأدبروا خطاً من الثغور Limes يحمي حدود منطقة نفوذهم من عدوان القبائل الساحلية على حين توغل العرب وهم من ليلوا في صميم الداخل وأخضعوا قبائل البربر وتزوج لسلطانهم وهذه القبائل العربية كما أصبحت في تقدمها جود كانت أكثر حكاكاً بهذه القبائل وأرغمت الكثير منها على الهجرة، وقد استمرت غارات العرب قائمة حتى دخلت بعض القبائل العربية إلى مشارف البحر والسعال. وقد ذكرت بعض الروايات المحلية بصلد ذلك أن عقبة بن نافع استطاع أن يندك بلاد السودان العربي ويصل إلى منجى النيجر وسحب بعده، وقد بقيت ذكرى هذا لغات تسمت حر لأجيال متتلة في بعض بعض القبائل في غرب إفريقيا

Bovill, The Golden Trade of the Moors: p. 58, (١)

لائساب إليه^(١)، وقد لاحظ ذلك الرحالة هيريك بارت Hart في أثناء رحلته الشهيرة في غرب إفريقيا.

ولاشك أن لهجرات العربية الأولى إلى جنوب الصحراء الكبرى فتحت الطريق أمام لشجار العرب الذين سددوا إلى هذه الجهات بواسطة القوافل التجارية التي أصبحت أكثر جرأة على برزخ هذه المناطق، كما وسحت المؤثرات العربية الإسلامية بسبب العرب أو التجارة أو نتيجة هجرة جماعات كبيرة للدعوة إلى الإسلام قام بها العلماء والمفتهاء والمتصوفة ومبداة.

وبخبر ما ذكر أنه قبل وصول العرب إلى غرب إفريقيا لم يكن يعرف قديم أو لا يكاد يعرف شيء على الإطلاق من إفريقيا جنوب الصحراء، ولعلنا نسير إلى حد كبير بمحضات العربية التي أمضت بأشياء الكثير من عمليات الهجرة والاستيطان الأولى في السودان العربي، كما أمضت بمحضات ونفحة من غرب إفريقيا وأقاليمها الداخلية^(٢)، والتثبت أنه التوسع الإسلامي ثم في مداية الأمر عن طريق البربر وأشهرهم الطورق والمنشموون ويفهم من ذلك أنه البربر هم الذين دأبوا بشر الإسلام في غرب إفريقيا، إلى أن جاءت هجرات عربية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين عدت عن التوسع المصري وأقامت شيئاً من التوازن بين العرب والبربر في شمال إفريقيا، ويمكن الإشارة بصدق ذلك إلى هجرة بني سليم وبني هلال، وكان للهجرة الثانية أثر كبير في دفع البربر إلى اتجايم السودان^(٣)، فاستقروا فيها بحيث لم يصع الأمر مجرد تبادل تجاري وإنما وصل الأمر إلى استقرار جماعات من العرب والبربر في غرب السودان، وبهذه الطريقة دخل الإسلام في هذه المناطق حيث أسلم بكثيرة من شعوبها، كما نتج عن اختلاط البربر بالزنج ظهور عناصر جديدة تدين بالإسلام وقد ظلت تحمل في أعماقها الكثير من رواسب الماضي.

(١) حسن أحمد محمود: انتشار الإسلام والملاحة البحرية في إفريقيا من ص ٢٢٧-٢٢٩

(٢) يلزم التمييز بين إفريقيا التي تمت الحدود الحديثة من ص ١٠٧/١٠٨

(٣) Bovill, The Golden Tents of the Moors, p. 63, (٢)

وقد يكون من المفيد أن تشير فيما يلي إلى أهم الممالك المتوحيمة التي ظهرت في السودان الغربي، عطفًا بما تذكره المصادر المحلية عن عرسه إفريقيا أنه عندما وصل المسلمون إلى أقاليم غرب السودان كانت هناك دولة رنجة وثنية هي دولة غانا، وهذه الدولة كانت تستمر على جميع الشاطئ الممتدة بين البحر والسفوح وفيما يبدو أن الإسلام أخذ يتوغل في دولة غانا عن طريق الاحتياط والتجارة، إنما كان المسلمون فيلبس إلى أن حدثت تلك الهجرات الكبيرة وما تبعها من انتشار قوات الرابطين على دولة غانا، فاكسر بذلك المهاجر بونني، وأخذ الإسلام يتدفق بسهولة إلى أقاليم السودان الغربي وما استتبع ذلك من نشوء مدن إسلامية بلغت درجة كبيرة من الأهمية والأردار بحيث غدت بعض هذه المدن مراكز تجارية وثقافية هامة، وأصبحت قبلة للعمماء والطلاب كما تعاقبت الدول الإسلامية واحدة بعد أخرى، وإن كانت أوروبا لم تعرف من شأنها شيئًا إلا في وقت متأخر من القرن الخامس عشر الميلادي، حين كان بعض هذه الدول قد مضى على إنشائها بضع مئات من السنين

وقد ظل الدفع الإسلامي يتقدم جنوباً ولم يحقه إلا تحالف شعوب صوك العلي الوثنية فوقعوا دون انتشار الإسلام وكانوا حائلًا دون تقدمه في ساحل الذهب انتهى شأنه وتوجس ودهومي، فلم ينتشر في هذه البلاد إلا في عصر متأخر، وذلك بعض بعض تساجر ليس بدنو، يأتون من مختلف البلاد الإسلامية لاستيراد الحاج ومئات متجاني البلاد حتى أسس مدينة كوج في ساحل الحاج التي أصبحت مركزاً لانتشار الإسلام، ومن ناحية أخرى عاد كثير من المسلمين الذين هاجروا إلى إسرائيل بعد أن حملو عبيد، يبيعهم ثم تحرروا وبدأ نشاطهم في نشر الإسلام، حيث قامت جاليات إسلامية كبيرة في بورنو ووهو بدهومي وهي جامبيه وغينيا^(١)، انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً بعض قبيلة المولا وقبيلتي الالامية وبولا، ثم عمان الحاج عمر فأصبحت الأعلى لمناطقة في هذين البلدين مسلمة وكان إقليم النيجر نقطة التلاقى بين لتأثيرات الإسلامية الواردة من الشرق ومن الغرب، فقامت قبيلة المومجو تأسس دولة إسلامية كبيرة منذ القرن الحادي عشر الميلادي

(١) عبد الرحمن جويي الثقافة العربية في إفريقيا، مطبعة بونيه إفريقيا العدد ٤٨

على أن ظهور الدول الإسلامية في السودان العربي كان يدين إلى حد كبير ميلاد المذهب العربي التي كانت بمثابة كنه عربية إسلامية أثرت تأثيراً كبيراً في متصرف التي تليها جنوباً من أرض السودان، ولتلى كان معظمها يعرف في خلال عهد الاستعمار الأوروبي باسم إفريقيا الفرنسية العربية (L'Afrique Occidentale Française) وهي المناطق الممتدة فيما بين الصحراء الكبرى إلى ساحل المحيط الأطلنسي، وهي جهات سيحور والسفوح. وما يستندت النظر أن الصحراء الكبرى لم تكن مألوفة بأي حال من الأحوال من قدام الارتباط بين المناطق الواقعة إلى شمالها من أرض المغرب والمناطق الواقعة إلى جنوبها من أرض غرب السودان؛ إنما كانت تحتلها طرق ومعارز مستخدمة قوافل التجارة؛ حيث قدمت إلى أراضي السودان العربي جماعات من الزنوج اشتمل بعضهم بالرعي وبعضهم بالزراعة، وكانت محتاجة إلى أشياء كثيرة مما تنتجه أرض المغرب وحصولها مع الطعام الذي كان سلعة عزيزة في الجنوب.

وهناك من الدراسات الموصفة بربط متعلقة التي رعت بالمداد الشمال الإفريقي بأقاليم غرب إفريقيا، وهي أهمها هاتان الدراسات القيسان نبتان بشرف بوفيل Bovil موالد قوافل الصحراء القديمة - والتجارة الذهبية للمطارية

- The Caravans of the Old Sahara.

The Golden Trade of the Moors.

حيث تتبع بوفيل طرق القوافل ومراكزها عبر الصحراء الكبرى، وأكد أن صحراء بما يشتمل من طرق ودروب ومعارز كانت عاملاً هاماً من عوامل الربط بين شمال إفريقيا من ناحية، وغربها من ناحية أخرى؛ مما يذهب إلى القول بأن الوحدة الإفريقية، بمعنى ذلك الارتباط بين إفريقيا شمال الصحراء وإفريقيا جنوب الصحراء كانت قائمة، ولا شك أن لشواهد التاريخية في حد ذاتها، بما لهدم الرأي الذي كان ينادى به الاستعمارون والذي كان يستهدف تحريق فكرة الوحدة الإفريقية، بالقبول إلى شمال إفريقيا لا تربطه روابط وثقة بعربها وأن الصحراء الكبرى تشكل فصلاً كبيراً، يحجب جون قديم هذه الروابط (١).

(١) عبد العزيز كامل - بحر محيط عربي للدراسات الإفريقية - معاصر، في الجمعية تعريبه لجمعية القاهرة

والجدير بالذكر أن المسمين في شمال إفريقيا ظلوا وسطاء بين أقاليم غرب إفريقيا من ناحية وأوروبا من ناحية أخرى، واستطاعوا بفضل هذه الوساطة التي كانوا يقومون بها حماية مناطق غرب إفريقيا من لسقوط في أيدي الدول الأوروبية إذ لم يسمحوا لهذه الدول أن تتعامل مع الساحل حيث كانوا وحدهم صلة الوصل بين محالّ السودان العربي وأوروبا. وقد ازدهرت التجارة بين مسمى شمال إفريقيا وتجار البندلة وبخوة وبعض المدن العربية الذين كانوا يبادون تجارتهم بتجارة السودان العربي عن طريق وسطاء المسمى الفاطميين في الحوض الجنوبي للبحر المتوسط وقد ظهرت في مدن لشعك الإفريقي كثير من المقتنيات والمراكز التجارية في أرجاءها الأوروبيون تسهلاً لعملياتهم التجارية، وحظبت موانئ البحر المتوسط من صرابلس إلى أغادير كثير من السفن الأوروبية والتجار المسيحيين، وسول يترتب على ذلك توسع لأوروبيين في الداخل مما سبب لامتصاص منطقة غرب إفريقيا وتعبير لتأرجح الحياة فيها، كما أدى ذلك إلى التأثير على تجمهر القوافل تأثراً كبيراً بعد أن عمده المستعمرون إلى إنشاء الطرق الحديثة والسكك الحديدية وفتح محارج جديدة على ساحل غرب إفريقيا لبحث في امتصاص شمارة الصحراء، وتحطيم طرق القوافل التي كانت بمثابة الشرايين القوية للتعامل، ونقل المؤثرات الثقافية والخصارية من شمال إفريقيا إلى غربها، ولكن ذلك حدث في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر، أما القرون التي سبقت ذلك فقد كان العرب هم أول من استطاعوا التوغل في الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى حيث أقاموا صلات تجارية وثقافية عميقة ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي.

وكانت القوافل العربية تخرج من مدن شمال إفريقيا، كفاس ومراكش وتلمسان وقنطية وأغبروان، تحمل لتجارة إلى أقاليم غرب إفريقيا حيث يتم التبادل التجاري مع دول تلك ومالي وجن وبار ونيكتسو، وكانت هذه القوافل تعود محملة بالموارد الإفريقية من عاج وذهب ورقائق وكناد هناك كثير من الطرق التي تعادنها حوامل التجارة من أهمها لطريق الذي يتجه من مراكش إلى بلنحى الشمال من البينجر وإلى الإقليم الشمالي الذي يصد غره صوب المحيط، وهناك طريق وسط يبدأ عند تونس ويتجه صوب الإقليم الكبير الواقع

حول بحيرة تشاد، هذا بالإضافة إلى الطريق الذي كانت تجتذره قوافل الحج، وهو طريق الدرب لصحراوي المعروف بطريق غاب حتى كان يمتد من مالي وينتهي عند أهرام الحيرة بمصر^(١)، ومن طرق القوافل الأخرى التي كانت تربط شحات بالصحرى الإفريقية الكبرى بجوبها يمكن الإشارة إلى طريق ملتجج خاصة - ولأنه - وهو الطريق الذي كان يؤدي إلى مناجم الذهب في سمات وأغبي السيجر، وطريق غدامس - غات، وجرانيس - فرائ - بحيرة تشاد، وطريق برقة - كفرة - إلى بعض أقاليم وسط إفريقيا، كذلك لجذر الإشارة إلى الطريق الذي كانت تملكه القوافل بين الشمال والجنوب، واستخدم منذ أقدم العصور لمقاول من أسبوط إلى دارفور، ويصل بحوض سن في منطقة دنقة، وقد بقي هذا الطريق من بين الكثير من أساليب التجارة التي كانت تسير عبر الصحراء العربية، بعد أن اعتكفت هذه الطرق بسبب أو ماحرها من ذلك ساقط الريح التي كانت تزدحم بالقوافل بكمياتها وكليها^(٢) ورغم قسوة بعض الظروف الطبيعية فقد بقيت هذه الطرق دورا هام في نقل إحصاءه إلى قلب القارة الإفريقية وبقيت أقاليم العربية، كما كانت أيضا الطرق التي سلكتها الهجرات المتتالية من شمال الصحراء إلى جنوبها حيث دفعت للتطبيقات الأساسية في الشمل شعوب وقبائل مختلفة بدروج عبر الصحراء وباتساع نطاق التجارة والهجرة والأساطير قوى أثر العرب في حياة البروج، كما وضعت المؤثرات العربية التي تمثلت في اعتناق نسبة كبيرة من شعوب البروج للإسلام، كما تمثلت الدنيا لا يشهد بها باللغة العربية وأصبحت هذه اللغة هي لغة ثقافة والعلم، وقد شهد عرب إفريقيا قديم كثير من الدول الرعيية الوثنية والإسلامية، وليس من شك في أن كثير من العرب والمغاربة والبروج من فقهاء ومؤرخين ورحالة كتبوا عن هذه الدول قبل أن تبدأ أوروبا معرفتها بعرب إفريقيا وقد يكون من المفيد الإشارة بصفة خاصة إلى العلماء والمؤرخين الذين عاشوا في المنطقة والذين كتبوا عن الأحداث التي وقعت في أوطانهم.

Holt, op. cit., p. 14 (١)

(٢) المناظر بديلة - ملكة موريتانيا المصنوعة - مجلة الجغرافية المصرية للدراسات التاريخية من ص ١ - ٥ - ١٩٦٨

وقد نورد على مبارك في خططه التوفيقية ج ٧ ص ٣٣٣ بيانات عامة عن طريق الدرب الإفريقي

ويعلل أرقى ما لديها من مصادر خاصة بالسودان العربي الكتاب الذي وضعه عبد الرحمن السعدى، وهو عالم إفريقى مشأ فى تبيكتو حيث ولد بها فى عام ١٥٥٦ وينحدر من سلالة سودانية أرمستقراطية تمت إلى أصول مغربية، فقد فى حياته كثيراً من الوظائف العامة وقد ر له أنه يدرس مهام سياسية فى كثير من بلاد غرب إفريقيا (١٦٥٥) أظنت على الكثير وشجعت ذهنه حينما تولى الصلح بين الأمراء الذين كانوا يتحاربون حينئذ، وأورد فى كتابه تاريخ السودان كثير من تجربته فى هذا السبيل، ونحن ندين بالتعرف على ذلك الكتاب إلى الرحالة هنريك بارت الذى عثر على نسخة مخطوطة منه أخذ منها الكثير الذى ضمنه فى كتابه عن رحلاته فى غرب إفريقيا، ولا شك أنه اتبع بكتاب السعدى فى رحلاته لوسعة التى جاف عنها كثيراً من أقاليم غرب إفريقيا، كما اتبع بذلك الكتاب أيضاً الكثيرون غيره من الرحالة الأوروبيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أمثال لاسر ومنجو بارث وكلايرون. ويعتبر عبد الرحمن سعدى من ألمع مؤرخى إمبراطورية سنغاي أرخ فى كتابه لعاد ومالى، وأفاض كثيراً فى وصف جغرافيتهما وذكر كثير عن قبائل غرب إفريقيا، ثم أفاض فى الحديث عن دولة سنغاي وخاصة فى عهد سلاطينها العظام من أسرة إسكيا، كما اهتم السعدى أيضاً بالإشارة إلى مشاهير الرجال الذين لفهم وتعرف عليهم فى حياته، واهتم بصفة خاصة بوصفت عجائس العلم والثقافة، فقد كتب عن مدينة نجن التى عرفها منذ مطلع شبابه حيث ذكر أنها كانت مدينة مجيدة منحها الله عدداً من رجال العلم والتقوى والصلاح رحلوا إليها من بلاد بعيدة وأقاموا فيها، وإن لم يكونوا من أهلها. وقد وضع السعدى كتابه باللغة العربية، التى كانت كما ذكرنا لغة الثقافة فى غرب إفريقيا، وما نجهل الإشارة إليه أن كاتباً مجهولاً ولد فى تكتو عام ١٧٥١ أتم كتاب السعدى بإضافة أحداث للقارة فى مملكة سنغاي فى كتاب بعنوان تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان، وقد نشر المشرق الفرنسى هوذا هذا الكتاب فى عام ١٨٩٩^(١).

(١) عبد الرحمن رضى المراجع العربية لتاريخ غرب إفريقيا. محاضرات لؤسم الشامي - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٨/٦٧

ولديها أيضا كتاب لتاريخ الفتن في أخبار الخيوش وأخبار الناس الذي ألفه أكثر فصوله محمود كعت التكني، وهذا الكتاب لم يجد طريقه للنشر إلا في عام ١٩١٣، حينما ترجمه المستشرقان هوداس ودي لافوس من الفرنسية ونشره السبعة العربية في نفس ذلك العام، والجدير بالذكر أن أحداث الكتاب انتهت أصلاً في عام ١٥٩٩م، أي بعد وفاة مؤلفه بست سنوات، ويبدو أن أحد أصدقاء هو الذي أضاف السنوات الست التالية لوعائه، ثم سار الكتاب بالإضافة كتاب آخر أنتهى بأحداثه حتى عام ١٦٦٥م.

وقد ألفي كتاب الفتن أصوبة ساطعة على نيكمة معلى وحضرتهما ونظمهما، وركزت بصفحة خاصة على أسمة وسك التي اتحدت حاح قاعدة لها عند تولي السلطان محمد يسكنيا بحكم ١٤٩٣ - ١٥٢٩ حتى السخوة المراكشية لتعالي على هام ١٥٩١، ولعن ذلك عما يعطى الكتاب أهمية خاصة إذ أن مؤلفه الأور التكني كان شاهداً حيّاً لما يروى من أحداث وقعت في تلكه متقبلي، وبالإضافة إلى تاريخ متعدي تناول المشتركين في تأليف المصنوع الأخيرة من ذلك الكتاب تاريخ الدول الإسلامية الأخرى.

ولا شك أن كتابي الكعتي وعبد الرحمن السعدي يعدان لمختصين بتاريخين في تاريخ أقاليم السودان العربي، يريد من قارئيهما أنهما يستفيدا لمختصين وأحداث شهدتها البلدان، وحيرات عاشها، كما حرصا على نفس الوقت، بطبيعة الحالهما بالشفقة والعلم، على تسجيل صورة الحياة الدينية والعلمية وعراكر الثقافة التي كانت متشرة في عهديهما. ويمكن أن نصيف إلى جانب هذين العالمين، أحمد بابا التكني، الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ووضع كثير من المصنفات الدينية والفقهية، وغير بصفة خاصة في فن التراجم حيث وضع موسوعته الضخمة المسماة بـ "لأنهاج بطريرك السليمان" (١).

(١) أحمد بابا السليكي، في الأنبايج بطريرك الديار، قسم ١٣١٧ هـ توجد عدة نسخ مطبوعة من ذلك الكتاب في بعض المكتبات العربية والأجنبية.

ويمكن هؤلاء العلماء الذين أشروا إليهم هم وحبهم الذين كتبوا عن غربي إفريقيا، كما لا شك فيه أن كثيرين قد سبقوهم أو تلوهم في ذلك، وإن كانت كتاباتهم قد صاعت أو عبي لأقل لم يعثر عليها حتى الآن، كما أن هناك من الرحالة العرب من هموا بهذه المسألة من عرب إفريقيا وأميركا بوصف مشرق إفريقيا، كما لاحظنا في الفصل الأول من ذلك الكتاب

وعما يجزم الإشارة إليه أنه نشأت في غربي إفريقيا ممالك إفريقية عريقة ولعل لمملكة غانا كملت من أوائل الدول التي اكتسبت قدرا كبيرا من الشهرة والثراء، وكانت تمتد في شمال النيجر الأعلى، ثم اتسعت رجعته إلى ساحل الأطلسي غربا وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى، وبعضها أصبحت مكانة في تدرجها الطويل، الذي امتد حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. حلال السواد الحثيث التي سجلت عصر المرابطين المدهين

وعبري انتشار الإسلام في غانا إلى إسلام قبائل الفوارق أو الملمين في القرن التاسع الميلادي، وتباعدتهم نشر الدعوة الإسلامية إلى مقاطعات غانا، على أن الحركة التي ساعدت على نشر الإسلام بصورة أوسع من ذلك ترتبط بالصور التي قدم به عند الله بن ياسين، الذي أنشأ رباط على مغربية من مصب نهر السعال اجتمع حوله الأنصار والمواليد، وبعدهم شمر بقوته حتى مدينة أودغنت وانتزعها من ملك غانا، واستمر المرابطون يمارعون هذه المملكة أربعة عشر عاما قبل أن تحصل لهم عاصمتها كنجي (١٠٦٢م). وعلى الرغم من أن حركة المرابطين استطاعت أن توحد الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس وغرب إفريقيا في دولة واحدة إلا أن العوامل الانعصالية كانت تقاوم هذه الوحدة حتى يمكن القول أن تاريخ الإسلام في هذه البلاد لم يكن إلا صراعا بين عكوتين أو اتجاهين، اتجاه نحو الوحدة، على اعتبار أنها ميل إلى القوة، واتجاه مضاد نحو الانكسار والانقسام، نتيجة لتوسع المنطقة وتعبد نزعاتها، مما حجب الكارثة في نهاية الأمر

في أثناء تفكك دولة المرابطين استطاع السونكة، أحد شعوب غانا، أن يستعيدوا استقلالهم، كما استولى المصومو على حاضرة غانا وترقب على ذلك

خروج بعض التجار المسلمين من مصر، حيث أسس مدينة ولانة التي أصبحت من أهم مراكز التجارية (١٢-١٣م)

على أنه قدر مالى، بعد انتشار الإسلام بها، أن تحبب عصبة عان وحده بعد أن استولت على جميع ممتلكاتها، وقد شملت مالى ما يحيط من قوس وبصف قرون ١٢٣٨ - ١٤٨٨، وامتدت ممتلكاتها من المحيط الأطلسى غرب إلى بلاد برنو ونيجيريا شرقا ومن جنوب المغرب الأقصى شمالا إلى ما يقرب من سواحل المحيط الأطلسى جنوب، وكثرت سالف من حصة أقاليم كبيرة هي مالى عان - صوصو - ثكورو - كوكو^١، وقد بقيت هذه المملكة شهرة كبيرة في العدم الإسلامى على أنه منذ نهاية لقرن الحامى عشر ميلادى انتقلت هذه المملكة فى منازعات داهية، وأخذت ثروتها من الاصطحلال نتيجة إصراف حكامها لتأجيرين وعدم كفاءتهم، هذا على الرغم من محاولة البعض منهم السيطرة على المقاطعات التى انفصلت عنهم وإحضار المجموعات السكانية فى جنوب الصحراء بهدف إعادة ازدهار مالى دولتهم.

وكانت أهم مدينة فى المملكة مالى هى مدينة تاكد التى كانت تعتبر بسط الرئيسى لخط القوافل الممتد من المغرب العربى إلى أسواق المصرى، ويبنى أن تشير مالى إلى أنه الصحراء الكبرى تم تكن حائلًا دون انتشار الإسلام وشمال المؤثرات العربية إلى عرب، فريقيا، إذ حوّل كثير من ملوك مالى وغيرهم من الممالك الأخرى أنه يحاكموا، انظارهم للإسلامية فى حياتهم وأنظمة بلادهم ومن أهم ملوك مالى الذين ذاعت شهرتهم فى القرن الرابع عشر ميلادى ذلك مساموسى ١٢٧ / ١٣٣٦، أو كانه كان موسى، كما كان يطلق عليه، وكان أكثر من توسع فى رقعة مالى من الذين ولوا عرشها من قبله أو من بعده حيث عاش عيشة ناهجة فى السياسة والحرب، وجريا على مسالك وعانه سافر إلى الحج، وكانت رحلته هذه لها أثر بعيد إذ أدرك نهائى الإسلامى على الأندلس.

(١) صلاح الدين بن عبد الجبار بن المسلمين - صومر جمعها وعلى عليها وقدم لها الشكر
صلاح الدين بن عبد الجبار بن المسلمين - صومر جمعها وعلى عليها وقدم لها الشكر
١٩٦٣

وبلثوه العريض الذي كان يتمتع به، ويتمتع به المسلمون في محبته لواسعة وقد مر هذا الحدث بالعاهرة في طريقه إلى مكة عام ١٣٢٤م حيث ترك عد اللذين رأوه ورأوا حريمه وخدمه وبنله وحيه وثروته أثر بعيدا ظل في المدينة مائة عام أو يزيد، ويقال أنه ورجع من الهنديا مع أنفل اساس، ويسر أن أثر هذه الريارة حتى حالقا بأذهانهم إلى أن سجل ذلك واحد من كبار مؤلفي الدولة المملوكية بعد حين من اندهر، فهناك فصل كامل كتبه عبد الله المعري في موسوعته للكبرى مذكرات الأيوبيين في مذكرات الأمصار عن دولة ماضي به الكثير من الملاحظات التي أحدها عن ماضوا هذه الريارة أو سمعوا عنها.

عني أنه نتيجة لعوامل الضعف التي دبت في مملكة ماضي استطاعت سعادى أن تحلب هذه المملكة، ويحدث ماضي عن ١٤٦٤ - ١٤٩٢م، مؤسس هذه الدولة التي عرفها العرب بمملكة كوكو، وكانت كوكو أشهر مدن السعدى، قبل تأسيس دولتهم الكبيرة التي امتدت في منطقة واسعة من ميهون غرب إفريقيا وقد مررت فيها أسرة إمبراطور ١٤٩٣ - ١٥٢٨، التي بلغت سعادى في عهده أوج ازدهاره، وقدم كثير من ملوكها بأداء فريضة يخرج في مواكب حياقة لا تقل في مظاهرها وروعيتها عن مواكب ملوك ماضي، وقد استمرت رسميا طوية سعادى قذاعة حتى خضعت بحكم المراكشى في عهد أحمد المنصور الذهبي في عام ١٥٩١ كما تعرضت لذلك فيما بعد^(١).

عني أنه قد يكون من المفيد أن نقف بعض الشيء عند أهم مصدر من المصادر التي تعرضت لممالك السودان العربى، وهو الكتاب الذى وضعه الحسن بن محمد الوران، المعروف بليلى الإفريقى Loo Africenus، إذ يعد من المصنفات الهامة التي ساهمت في التعرف ببعض مناطق إفريقيا والقضاء الضو عليها. وبذلك يتبعى أن نضع هذا العمل الهام في الدور الذى ساهم فيه العرب في كشف

١١. من دولة الأندلس في مراكش يمكن الرجوع إلى مقاله المذكور عبد الكريم خيرم في مجلة الجمعية التاريخية المغربية العدد الخامس ١٩٩٠ - ١٩٩١ بعنوان عناصر الضم من أخبار دولة الملوك الشرف، ص ٢٣٥ وما بعدها، ومن دون غرب السودان قد يكون من المفيد الرجوع إلى كتاب Spencer Tillemingham, A History of Islam in West Africa, Oxford 1962.

إفريقيا وخاصة أن مؤلف الكتاب راحل بنفسه إلى المناطق التي تعرض لها بالوصف والملاحظة في كتابه مشدداً إليه، على أن بعض المصادر الأوربية قد دلت على اعتبار بعض الورد أن ليو الإفريقي، كما تطلق عليه، من مصنفى العربية، وقد يكون ذلك لسبب هم هو أن كتابه لم يصل إلينا باللغة العربية، وإنما وصل إلينا باللغة الإيطالية التي أجادها المؤلف وكتب بها كتابه هذا؛ غير أنه كان لظروف تدوين هذا الكتاب باللغة الإيطالية ملاحظات مختلفة سورده في حياته، ولكنه لميل إلى اعتبار العمل الذي قام به بوزان من الأعمال المهمة التي ساهم بها العرب في تقدم المعرفة بإفريقيا وخاصة بالنسبة معالئك السود العرب التي أبررها المؤلف إلى مجال المعرفة الأوربية، ويخبرنا عن ذلك حواصلي كثيره، أيها أن مؤلف الكتاب عربي الشاه وقد في فوطاولة لإسلامية، وشأ في الشمال الإفريقي، وثانيها أن نفس الورد راحل إلى المناطق الإفريقية التي تحدث عنها في كتابه قبل أن يقيم في روما وفي أثناء وجوده بقامس، بل والثابت أنه وضع كتابه باللغة الإيطالية اعتماداً على مذكرات دولها باللغة العربية عن رحلاته في إفريقيا^(١)، ومن ناحية أخرى فإنه ليس ما يؤكد صحة قاطعة أنه لا توجد سوى النسخة الإيطالية من عمله هذا، فإن بعض المراسل يرون أنه وضع كتابه باللغة الإيطالية ترجمة من نصه من أن وضعه باللغة العربية، ولكن للأسف فقد انصرفت العربية ولم يصل إلينا، وأخيراً أن مؤلف الكتاب عاد إلى تونس في آخر حياته، كما عاد إلى الدين الإسلامي الذي كان قد تركه إلى المسيحية خلال سنوات إقامته في إيطاليا.

وقد ظهر كتاب الحسن بن محمد الوردان حول منتصف القرن السادس عشر في وقت كانت قد غدت فيه اكتشافات جغرافية ذات أهمية بالغة، فقد انصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي وبفضل رحلات البرتغاليين على طول السواحل الإفريقية بتدء من الأمير هنري الملاح حتى تاسكو دي جاما تمت معرفة السواحل الإفريقية أو معظمها على الأقل، ومع ذلك فإنه على الرغم من أن البرتغاليين سيطروا على أجزاء كبيرة من السواحل الإفريقية فقد ظل قلب بقارة

(١) ظهر الكتاب باللغة الإيطالية بعنوان

Descrizione dell'Africa et della Libia Nuxahili che quivi sono.



الإفريقية بعيداً عن مجال المعرفة الأوروبية، ومن هنا فإن كتاب وصف إفريقيا وتاريخها ظهر في الوقت ندى أصبحت فيه الأذهان توافقه إلى التعرف على لأجراء البدائية من غرب إفريقيا التي كانت لا تزال مبهمة حتى ذلك الوقت^(١٦)، وذلك على الرغم من أن المعلومات المستفدة من بيكوي ولادريسي وابن بطوطة وغيرهم كانت تشير إلى وجود إمارات وممالك إسلامية في كل من شرق وغرب بقارة. غير أنه إذا كانت الاستكشافات الجغرافية الساحلية التي قام بها البرتغاليون قد استطاعت التعرف على الإمارات الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا، فقد ظلت أمماتك الإسلامية والوثنية الواقعة في داخل غرب إفريقيا مبهمة عن نطاق الاستكشافات الجغرافية التي قام بها البرتغاليون في تلك الفترة^(١٧)، فملاحظ على الكشوف البرتغالية أنها تركزت على السواحل بامتداد بعض محافظات غلام بها البرتغاليون ملتزمين في التدخل لم يقدر بها النجاح فيما عدا ما وجدت في الجزيرة ومو. ميقو. وعلى ذلك امتدت معظم الأراضي الداخلية في إفريقيا معشيرة في حكم الأراضي المجهولة Terra incognita وقد ملأهم كتاب وصف إفريقيا وتاريخها إسهام كبير في إثراء المعرفة لأوروبية عن هذه المناطق وخاصة أنه كتاب يتخصص تعريف عمدة السواح العرب ووصف هذه الممالك التي كانت تتطلع إليها الأنظار في ذلك الحين. وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أنه على الرغم من أن الكتاب صرف بوصف إفريقيا ولا أن مفهوم المؤلف عن إفريقيا قد اقتصر على التعرف على مناطق التي زارها نفسه والتي توجد إلى الشمال من خط الاستواء.

وقد أتبع لأحد المصنفين الإيطاليين ويدعى جيان باتيستا رامبو - Gian Batista Ramusio الذي كان يعمل مكرماً لمجلس العشرة لملحق أن يتشر هذا الكتاب في مجموعته المعروفة باسم قصص الرحلات والأسفار

Recher. des Navigations, viaggi de giov Battista Ramusio

Schofer Descriptions de l'Afrique écrite par Jean Louis Africain p. V (١٦)

(١٧) من الإمارات العربية الإسلامية في شرق إفريقيا. الظفر جمال وكبير علم، دكتور العرب في ساحل شرق إفريقيا. للمعلم العشر من حومات كتبة الأمان. حاضرة عين مسعى. كذلك تصنف العرب في شرق إفريقيا. المقعد أربع عشر من سلسلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

وقد ظهرت هذه المجموعة المشهورة في ثلاثة مجلدات، وفي مشروبات متعددة، كان أول ظهورها في السدقية في عام ١٥٥٠ وكان ظهور هذا الكتاب وتعريفه وسيره ويؤلفه ميبا لظهور ترجمات أوربية كثيرة فقد تبع ذلك بأربع سنوات الترجمة اللاتينية ١٥٥٤^(١)، ثم نسخت الترجمة العربية ١٥٥٦^(٢) والإنجليزية - ١٦١٦^(٣) وقد اعتمدت في دراسته هذه على الترجمة الإنجليزية التي أصدرها جون بوري Parry في عام ١٦٠٦، وكذلك على المطبعات العجميتين الإنجليزية والعربية، اللتين أصدرهما كل من براون Browne وشيفر Schefer في عامي ١٨٩٦ و ١٨٩٨^(٤).

ولا شك أنه بعد ترجمة كتاب الحسن بن محمد بوران إلى اللاتينية ثم إلى اللغات لأوربية الحديثة صار بحق من أوائل المصنفات التي اعتمد عليها عصر النهضة لأوربية في التعرف على اسماء الإسلامية في غرب إفريقيا، فبعد أن كان الكتاب حين ظهر كاد جديداً ومثراً فتح آفاق واسعة للعلماء والماسحة والتجار^(٥)

(١) نشرت هذه الترجمة في عام ١٥٥٦ وقد اشرف عليها كثير من الرهبان من وجود نسخة كثيرة بها، وقد طبعت في لشبونة في عام ١٥٨٦، ونشر جده الترجمة جون الفوري، وأعيد طبعها في عامي ١٥٩٩ و ١٦٣٦، انظر البومبسي - العلم عند العرب ص ٥٣٧
(٢) نشر جده الترجمة Jean Toppuzi في عام ١٥٥٦
(٣) نشر بوري الترجمة الإنجليزية بعنوان
A Geographical Historie of Africa Written in Arabic and Italian
وفريد نسخة من هذه المطبوعة هناك مكتب بالسنينة
٤ انظر ترجمة شيفر في :
Recueil de Voyages et Documents pour servir a l'Histoire de La Geographie de
puis le XIII^e jusqu'à la fin des XVI^e Siècles, Publié sous La direction du MM Schefer
Membre de L'Institut et Henri Prodier Sec Schefer Descriptions de l'Afrique. Par
M. D. CCCXCVI tome Partie de monde eurasie par Jean Leon.
أما نسخة بوري فتحتل عنوان

The History and description of Africa and notable thing contained therein written by Al
Hassan Mohamed Awemx Affam better known as Leo Africanus.

وتقع في ثلاثة مجلدات مع مقدمة وتحقيقات في ورد في كتاب بيوت إفريقيا، وهناك جهات حيث لكتاب
الوراق صدرت في السواب الأخيرة منها الطبعة العربية التي ظهرت بباريس عام ١٩٥٦ م بقلم Espauzier
كما ظهرت ترجمته إسبانية بالكتاب في عام ١٩٥١، ولأما لم يظهر ترجمة عربية هناك الكتاب إلا في
وقت متأخر لم نعد نذكر من نسخة نشر هناك، وذلك من النسخة الفرنسية التي ترجمها الدكتور
عبد الحامد حيدرة وراجعه الدكتور علي عبد الوهيد والتي كانت جاديه الإمام محمد بن محمد باسلكة
العربية الصحفية بنشرها في عام ١٣٩٩ هـ

(٥) انظر البومبسي العلم عند العرب ص ٥٣٦ وكذلك بارود بنفيسود إفريقيا تحت اسم جديد
في ١٧٨

والكتاب يحتل مكانة وسيطة بين مؤلفات البكري والإدريسي في القرنين
الحادي عشر والثاني عشر، وبين الكتابات الأوربية التي ظهرت بعد ذلك والتي
بدأت بما كتبه مارمول في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، هذا فضلاً عن
أن مؤلف الكتاب له طابع خاص غير، ويمكن أن يعتبره آخر العلماء العرب الذين
بيتوا في ظل الحصار الإسلامية في بلاد الأندلس.

ولعل راسخو كتاب أول من أراح المستدر هي تلك الشخصية التي كتبت هذا
العمل المشهور والتي تحمل أسماء عديدة عرفت في معالم الأروبي باسم جيوفاني
ليونى^(١)، وقد أخذ هذا الاسم عن الباب ليو العاشر، الذي كان يعرف قبل وصوله
إلى البابوية باسم جيوفاني دي ماديتشي، وكان الحسن الوزان في بداية الأمر يخلو
له، ولكنه ما سكت أن أضطره وعدمه بنفسه إلى المسيحية، وكان له الألب الروحي
ووسى بعمته، وعلى ذلك فإن الحسن الوزان بالإضافة إلى الاسم الذي عرف به
وهو ليو الإفريقي كان يسمى في بعض الأحيان باسم جيوفاني نسبة إلى الاسم
الذي كان يعرف به البابا ليو العاشر، ولما كان الحسن الوزان يرجع بأصله إلى
غرناطة فإنه كان عادة ما يلقب بليو لايبيري Eliberitances، كما كان يعرف باسم
ليو الأفريقي^(٢)، غير أنه لما كان قد مشأ في إفريقيا فقد اشتهر باسم ليو الإفريقي
Leo Africains

وهكذا فإن هذه الشخصية العربية التي تعود بأصولها الأولى إلى غرناطة
وهو ليو الإفريقي باسم الحسن بن محمد الوزان القاسي هي بعينها الشخصية التي
عرفها الأوربيون باسم جيوفاني ليو الإفريقي^(٣). وتلقب الوزان بالأفريقي أحياناً
أو بالقاسي أحياناً أخرى يجعلنا يصل إلى حقيقة حاسمة وهي أنه ولد في غرناطة
وشأ في قاس، ولا يوجد شك حول ذلك فهناك ما يستدل منه على سببه هذه^(٤)،
إذ أشار بنفسه بأنه تلقى تربيته بقاس، وقد وضحت بشدة هذه في بعض أجزاء من

Giovanni Leone or Leo (١)

Robert Browne, The History and Description of Africa, See the Introduction p. X. (٢)

Schefer, op. cit., p. XI. (٣)

Schefer, op. cit., p. XII. (٤)

كتابه، كذلك أكد أنه راسيو صحة هذا الأمر وقد حصل راسيو على معلومات
الخاصة بحياته من أحد أصلقاء الزوان برودة، كذلك يؤكد لنا الزوان أصله
العربي في عبارة ذكرها في كتابه يستند منها على أصله هذا، وهي قوله بأنه
الغنى من إحدى المدن الإفريقية بأحد موطنه القرويين، وعلى ذلك فلا يوجد
سبب للشك الذي ظهر في مقدمة جون بوري سكنا، هذا إذا كان الزوان قد
ولد في غرطة في إسبانيا، أو في مكان آخر بإفريقيا^(١)، وفيما يبدو أن تشكك
بوري قد نشأ نتيجة لما جاء في النسخة التي ورد فيها على لسان الزوان أن إفريقيا
هي القليل التي أدين لها موسى وبالجزة الأكبر من تعليمي^(٢)، ولكن لأصل
الإيطالي، وهو بطبيعة الحال أدق من الترجمة بالية، التي أجمع الباحثون على
أنها كثيرة لأخطاء، يذكر أن إفريق هي البلد التي قصبت فيها حدائق^(٣)

وعلى الرغم من تفسير بعض الباحثين الخاصة بسببه فإن هذا مع ذلك
حتمًا غلط فظهر بين بعض المدرسين أنه، فهناك من عثره وحالة من توسكات أو
من اعتبره مراكنسي المولد نشأ مسيحيًا في غرطة، ثم نقل إلى إيطاليا وربما كان
ذلك تأثرًا بالقطاع معين وهو جدته بلغة الإسبانية^(٤) ولكن ليس لدي ما يعزز هذا
لاعتقاد لأن اللغة الإسبانية كانت، كما هو معروف، لغة التجارة في شواطئ البحر
المتوسط، وكان الكثيرون من المغاربة يجيدون تلك اللغة في ذلك الوقت، خاصة
تامة وعلى الرغم من أن راسيو كان معاصرًا لسيو الإفريقي، من كان في روما
لإيجاز بعض المهتم الرسمية التي كان مكلف بها من قبل جمهورية سديقية أثناء إقامة
الزوان في نفس المدينة فلو أنه لم يشرف عليه شخصيًا، ففي
تقديم راسيو لكتاب الزوان يذكر أن المعلومات التي أوردها أحدها عن صديق
عوله الزوان في روما وحاشي معه بعض الوقت هناك

وقد ذهب فريق من الباحثين أن الحسن الزوان ولد في عام ١٤٩١ واستند
مولاه على أن غرطة، آخر المعقل للإسلامية في الأندلس سقطت في ٢ يناير

The edition of John Pory in the book, The History and Description of Africa done (١)
into English by John Pory at the Reader

Bryne, op. cit., the introduction p. 131 (٢)

١٤٩٢، ولد كاس الحس الوزان قد ذهب إلى الشمال الإفريقي وهو طفل صغير فلما بلغ استثنى من ذلك أن يكون قد ولد في غسرة سابقة من سقوط غرناطة^(١) ولكن براون Browne يرى أنه ولد بعد سقوط العاصمة الإسلامية لأن هناك من الأسر الإسلامية من بقيت في إسبانيا حتى بعد سقوط الحكم الإسلامي، ويقترح براون أن «وزان» ولد فيها بين عدى ١٤٩٤ أو ١٤٩٥، وهو التاريخ الذي أصبح مرجحاً بالنسبة للكثيرين. وقد استدل براون على ذلك التاريخ اعتماداً على أنه لا يوجد ما يشير منه على أن أسيرة الوزان قد هاجرت في عام ١٤٩٢، كما أن براون يعتمد في ذلك على بعض ما أورده الحسن من أحداث استثنى منها سنة ميلاده، من ذلك ما ذكره الوزان عن سقوط بعض الفلاح الإسلامية في أيدي البرتغاليين في الشمال الإفريقي حينما كان في سن معينة، مما يؤكد أنه ولد بعد سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس بثلاثة أو أربعة أعوام^(٢).

وقد هاجرت أسرة الوزان، مع غيرها من الأسر الإسلامية، إلى بلاد المغرب. ولم تكن هجرة المسلمين من الأندلس إلى الشمال الإفريقي بظاهرة جديدة في حياة المغرب، فمما أحدث لدون الإسلامية هناك في «الأنكماش» وموجات المهاجرين فقد تبعها ويشتت معظمها في مرسى المتوسط أو المرسى العربية الواقعة على المحيط لأطلسي، وقد صبح هؤلاء المهاجرون الحياة العتية والأديبة في كثير من بلدان المغرب وبخاصة الأندلس المعروفة، لا بدغالي إن قلنا إن آثارها لا تزال تظهر في أحياء اجتماعية وطرائق الحياة ليعومية والعبية بأفكار شمال إفريقيا حتى وقتنا الحاضر. وقد رحل الوزان مع أسرته إلى تونس حيث اضطهاد الإسبان، شأن أسرته في تلك شأن غيرها من الأسر الإسلامية التي انتشرت في بلدان الشمال الإفريقي، وقد استقر الأمر بأمسته في تونس في بادئ الأمر، غير أنها ما لبثت أن تحولت إلى فاس، وفي هذه الفترة شب الوزان عن طوقه وتبقى عذومه في مكائنها ومدارسها، كما قدر له أن يجود المغرب والبلدان بالكثير من أقطار السودان الغربي^(٣)، ولما يرجع أن أسرته استطاعت أن تستعيد على قدر كبير من

١١، انظر كراشكوفسكي الأدب الجغرافي عند العرب - القسم الثاني ص ٢٥ مترجم للقرعة ١٩٥٧

(٢) Browne, History and Description of Africa Vol I p.p. V-VI

(٣) بلان جاليسوت الإفريقي تحت أضواء جديدة مترجم من ١٩٧٨، بيروت ١٩٩٠

التعود المبكر والآتي، يستند على ذلك من الخصائص المهمة التي كان يحتفلها أقرباءه
 سو. في عربة أو في مستقرهم الجليل في الشمام لأفريقي؛ فعنه مثلاً الذي
 رافقه في رحلته، أرسل مهيأ من ملك فاس إلى ملك تينكتو (مسمي) وكان
 معروف بمصاحته وبلاغته ومع ذلك فإن المعلومات التمهيدية عن أسرة الوران
 ليست معروفة لتأ تماماً، أما عن الوران فعنه فإن كل ما نعرفه عنه يقتصر عند حد
 الاستنتاجات التي يمكن أن نتبينها من خلال كتاباته وقد يكون من أورد نصه
 التي أوردت بيانات مهمة عنه تحت السراية التي وضعها لوس جاسينيون معزولة

Le Maroc dans la Première moitié du XIII^e Siècle, Tableau Coogra-
 phuque de après Leon African.

وقد نشر هذا الكتاب بالخرائط في عام ١٩٠٦، وإن كانت حرمته تقتصر
 على القسم الخاص بمراكش. ويمكن استدلالاً من المعلومات التي لديه أن يقرر أنه
 بعد سقوط آخر اندالوس الإسلامية في إسبانيا على أيدي جيوش كريستيانو وبيزانيا
 وصلت حركة الأسرود Reconquesta إلى درونها، وتولت عليها تعاضد الهجرات
 الإسلامية من بلاد الأندلس وقد عبرت أسرة الحسن الوران حصق جبل طارق،
 وبعد استقرارها فترة في تونس تحولت إلى مراكش وبكثيرة لم تلبث أن عازمت
 المدينة التي كانت تعرض في تلك الوقت لأضطرابات ومجاعات شديدة إلى مدينة
 فاس، وهي هذه المدينة مستقرت أسرة الحسن التي بها أحد الوران تأسست الفاسي
 فسمي يرحح، وكانت تحكم فاس في ذلك الوقت أسرة من بني وطاس^(١) وقد
 ارتبط باريخ هذه الأسرة بصراعها ضد نقوى المسيحية الإسبانية والبرتغالية التي
 حاولت عزو مراكش، كما ارتبط تاريخها أيضاً بالأحداث التي انتهت تولد
 الأشرف الموحدين الحكم في مراكش في منتصف القرن السادس عشر الميلادي،
 وقد تمكنت أسرة سي وطاس في عام ١٤٦٥ من إسقاط الأسرة العربية؛ وإن كانت
 لم تتمكن من أن تبسط نفوذها على ممتلكات المرينيين جميعها، وإنما اقتصر حكم
 لأسرة الوطاسية على القسم الشمالي من مراكش حتى صدرت دولتهم تسمى
 بمملكة فاس بينما قامت حكومات أخرى كثيرة في كل من سطلماسة ومراكش
 وغيرها

See Article of Watawside in the Encyclopedia of Islam. (١)



وقد عرفت أسيرة بنى وطاس، على الرغم من لاعداء تكثيرة التي فرضت عليها بتشجيعها الثقة والارتفاع بمستوى الحصار، ويمكن أن نجد عهد هذه الأسيرة فترة انتقال بين تاريخ مراكش الوسيط وبين تاريخها الحديث وقد أمدا لوزن من خلال كتاباته بوضع مفصل لمدينة فاس، كما استطاع أن ينقل إياها بفضل رحلاته لعديدة صوراً دقيقة عن إفريقيا الشمالية والشمالية

ويستدل من التاريخ المعروف لدينا عن مراكش أنها كانت في الفترة التي وصل إليها الحسن النوراني في حالة من هلم التكاس السياسي والموضي الاجتماعية، حيث كانت مملكة فاس في ذلك الوقت يقوم على شتوبها مولاي سعيد، وفي الجنوب كان الأشراف السعديون قد تمكنوا بعض الرمن من السيطرة على مراكش بأكملها، ويبدو هذه الحركة التي ترتب عليها استقلال كل من مراكش والوس وتاثيرت ولم توجد هذه الأجزاء إلا بعد ذلك بقرنين، بعد الجهود الموفقة التي تبذلها مولاي إسماعيل ويعمرى ظهور لأسرة السعدية في مراكش إلى فشل أسره بنى وطاس بعد امتيلائها على فاس وادعاء لسلطة نفسها في بداية القرن الخامس عشر، في الدفاع عن أراضي مراكش حتى آلت جميع الموانئ تقريباً إلى دولتي إسبانيا والبرتغال، في موجد للسعديين الفرصة لظهور حشد أعدوا صبي عاتقهم حركة لجهاد ضد البرتغاليين في الجنوب وأحدث كمتهم ترجع على بنى وطاس بل إن بنى وطاس لم يلبثوا أن اعترفوا بتفودهم في عام ١٥٠٩ على أمل أن يعاوبهم في تخليص البلاد من الحمايات البرتغالية، وقد استطاع لاشراف بالعمل السيطرة على الوس ومراكش في عام ١٥٢٤ ولجأوا بعد ذلك في عام ١٥٢٩ عن دخول فاس وتشتيت الأسيرة الوطاسية^(١).

وقد شهد النوراني هذا الصراع السياسي بين الوطاسيين والسعديين في بعض مرحله، كما شهد الصراع الذي نشب بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحوض الجنوبي من البحر المتوسط، فحول هذه الفترة التي عاشها الحسن النوراني في فاس أي بداية القرن السادس عشر، كان للبرتغاليين أهم المعاقب في مراكش، ولم يقتصر البرتغاليون على المناحية السطحية وإنما أخذوا يعملون على الامتداد بتفودهم في

(١) انظر في ذلك محمد خير عيسى تاريخ الجزائر الحديث، وكذلك الدكتور صلاح الطاهر المغرب في بداية

المعصوم الحديثة، من ص ٢٩ - ٣

الداخل على أمل أن يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه السيطرة على مراكش برمتها وشجع البرتغاليين على ذلك النعوق للملاحى الذى حققوه، واستعمروا عملية التمكث السياسى فى المغرب. وقدر البرتغاليون أخية توسعهم فى المغرب الأقصى الذى اعتبروه بمثابة حبة حامة فى طريق توسعهم فى غرب إفريقيا، وبالفعل شهدت موانئ المغرب غارات متتالية شديدة الوحشة ابتداء من السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، وبدأ الأمازيغ يشاركون البرتغاليين فى هذه الحملات ويقتلون بهم العون حينما يتعرض البرتغاليون لحصار من قبل المسلمين^(١). وقد أقبل الوردان إلى الصراع الإسلامى البرتغالى الإنسانى فى شعاب إفريقيا، وقد يكون يجسد فى ذلك أنه كان شاهدا لهذا الصراع، بل وكما يقرر بعده أنه اشترك فى بعض العمليات العسكرية التى دارت فى تلك الأثناء.

وعلى الرغم من تمكث السياسى والاجتماعى الذى عانته مراكش، فضلا عن اشتعالها بالصراع ضد البرتغاليين والإسبانيين، فإنها كانت عسى أثر سقوط الدولة الإسلامية على الأندلس فى أوج ازدهارها الثقافى، إذ انتقلت العاصمة الثقافية إلى فاس، التى قدمت فى ذلك الوقت كعاصمة العلماء ومركز للثقافة العربية وحتى قبل سقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس استطاعت أمراء بنى ووطاس أن تنقلب إليها العلماء، وبالفعل كان يهاجر الكثيرون منهم من قرطبة وأشبيلية وعمرتة إلى مدينة فاس، حيث كانوا يجدون تشجيعا من سلاطين الدولة المراكشية، من ذلك أن المصنف العربى المعروف بـ رشيد زار مراكش، وكان صديقا ليعقوب المنصور، كما ظهر فى مراكش الكثير من العلماء الذين كان لهم باع كبير فى العلم خلال الفترة من القرن الثانى عشر إلى السنوات الأولى من القرن السادس عشر، ويوضح من ذلك أنه حول بداية القرن السادس عشر أى من سنوات نشأ أحمد الوردان يشب فيها من طوفا، كانت هناك وفرة من العلماء فى

(١) فى تقرير للكثيرين أنه كان من الممكن لبرتغال أن تدمج فى حطتها ما تم لعبه الإسبانى ببرتغالية بصرفه متتالية بدأت بوفاة دون سيباستيان Don Sebastian ثم بالهزيمة التى استلهمت مراكش إذ تعطلت البرتغاليين فى معركة القصير الكبير سنة ١٥٧٨. وكاتب هذه الهزيمة من القديرة بحيث أعطت الخزرات المسيحية التى كانت تامة عند القصف الأول من القرن السادس عشر.



فاس؛ فكانت فرصة له للتزود من الثقافة والعلم ومخاطبة العلماء. وقد درس النحو والشعر والفلسفة والتاريخ، وهناك إشارات كثيرة يذكرها الحسن في كتابه عن لعلماء العرب، ويرى بكونه قد بحث في كتابه بالإشارة إلى من سبقه من المؤرخين والجغرافيين من أمثال السمرقاني وبني يشكول، كما أنه وضع ترجماناً لأشهر من سبغ من العرب في العلم والعسفة. وبما استلقت نظر أن الزوايد تفتد بعض الوظائف وهو لا يزال صغيراً، بدأ حياته ملاحظ في مرسى قاس، كما اشتمل بالقضاء. وفي عام ١٥١١ على ما يرجح قدم برحلاته في الشهد الإفريقي ثم في السودان بعربي. ويبدو أنه كان يراول التجارة خلال أسفاره بما لكي يشغل بها لحسابه الخاص، أو لكي يستعين به التجار في ضبط حساباتهم كما يتضح لدينا من إشاراته المتوالية للبرتغاليين ولإسبانيان والحروب المستمرة التي قامت بينهم وبين المسلمين، ويصحح البرتغاليين المستمر لغزو مراکش أنه اشترك بنفسه في حملات كثيرة جهرها السلطان محمد السادس الذي حكم فاس خلال الفترة من ١٥٠٨ / ١٥٢٧، فهو يذكر في كتابه أنه كان في خمسة السلطان محمد السادس واشترك في الكثير من هذه الحملات، كما أشار بقصة خاصة في أنه كان مشتركاً في رد الهجوم الذي قام به القائد البرتغالي أنطونيو دي نورونا Antonio de Norona في عام ١٥١٥ على مدينة المعفورة. حيث فقد برنيساليون كثيراً من جهودهم على أيدي جيش المسلمين الذي قاده ناصر الوطاس شقيق السلطان محمد السادس.

كما يذكر الوراء أن السلطان محمد السادس أسس إليه عدة بعثات سياسية على عام ١٥٠٩ أو بعد من قبته إلى منطقة مراکش لكي يطلب تعاونه ضد البرتغاليين، وبطبيعة الحال أنه لم تكن لهذه البعثات أهمية سياسية، وهو لا يزال في حياته، ما لم يكن له تأثير يكمده ومهارة ظاهرة سواء في بعثاته إلى مراکش أو إلى عيكنو، وفيما يبدو أنه قام بالسمارة الأخيرة بين عامي ١٥١١ و ١٥١٣ وأتاحت له فرصة التوسع في المعادك السودية بعرب إفريقيا^(١). وقد عاد من هذه الرحلة في عام ١٥١٥، أو على الأقل كان موجوداً بهاس في ذلك العام، الذي

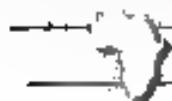
(١) Schofer op cit. p. XI

نظر أيضاً في تشكولكي الأديب الجبرالي عند العرب - القسم الثاني من ٤٥١

سجن في شراكه في رد الهجوم البربري على مدينة المعمره السابق الإشراف (إيه) وبعد عودته من سفارته في ممالك السودان العربي، والتي أسس فيها معمرات خاصة عن حالة منطقة، بدأ رحلته إلى القسطنطينية بين عامي ١٥١٥ و ١٥١٦، ولا تترك بدويع التي حفرته معادرة فاس في هذه المرة غير واضحة المعالم شأنها في ذلك شأن معظم التجهيزات الخاصة بسيرة حياته، وعن الدافع لأساسي كان وغتته في أداء وظيفة الحج أو ربما ساقته إلى ذلك اعتبارات أخرى وقد عرج في أثناء رحلته هذه على مصر في عام ١٥١٧ ومن الطريف أنه يار مصر في نفس السنة التي سقطت فيها الدولة المملوكية على أيدي الأتراك العثمانيين، فهو إذن قد ر مصر في فترة حاسمة من تاريخها وهي سقوط الدولة المملوكية ونحو مصر إلى ولاية عثمانية بعد فتح السلطان سليم الأول لها في ذلك العام، وإن كان مما يبحث على الأسف أنه لا يمثلنا بمعلومات وخبرة عن ذلك، وخاصة أنه ليس لدينا من المؤرخين إلا القليل من الذين عاصروا الفتح العثماني مصر من أمثال ابن نياس وابن رسل بومالك.

و يجدر بالذكر أن رحلات التور لم تقتصر على شمال إفريقيا والسودان العربي ومصر والقسطنطينية وإنما يبدو أنه زار مناطق أخرى في آسيا وفي أوروبا، كما أنه حج إلى مكة والمدينة، وربما كان محجته إلى مصر وهو في طريقه إلى الحج، فهو يحدثنا في القسم الذي وضعه عن مصر، وهو الكتاب الثامن من رحلاته، إنه ركب النيل من القاهرة إلى أسوان ثم عاد إلى قنا حيث اجتاز الصحراء إلى البحر الأحمر ووصل إلى ماء القصر، ومن الساحل المصري للبخر الأحمر وصل إلى سبع ميناء أندلية، حيث زار قبر النبي، ثم إلى جدة مناء مكة، واتخذ طريقه بعد ذلك إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية التي اتخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد العرب الذين بدأت أوطانهم تدور في فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر.

ويشير الزمان أنه زار مناطق كثيرة في آسيا وأوروبا وأنه يود أن يصف جميع المناطق الآسيوية التي أوجل إليها وخاصة صحراء العرب و اليمن ومصر ولومبيا



ريباد فارس وانتشاره وهي جميع البلاد التي أكد أنه زارها وشاهدها أثناء رحلاته، كما يبدو أنه أن تواتره المرحمة يصف رحلته من فارس إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية إلى مصر ومنها إلى إيطاليا^(١). ولكننا لا ندري عما إذا كانت قد واثته المرحمة فعلا للكتابة عن هذه المناطق أم لم يكتب عنها، واعتقاد بعض النصارى من أنه ربما يكون قد كتب بالفعل عن هذه المناطق، ولكن فقدت كتيباته أو لم يتسن العثور عليها، ويبدو أن ذلك لا اعتقاد قد نشأ عن استدلال مما ذكره الوردان في مؤخر كتابه الثامن عن مصر أنه يود أن يصف رحلاته في آسيا وأوروبا، ولكنه لا يرى أن يذكرها في كتابه هذا، الذي خصصه لأسفاره في إفريقيا خوفاً من أن يبعده ذلك عن موضوع الكتاب، ونرى - كما يقول - إذاً وهى الله عمر ليس ماعين على وصف مناطق الآسيوية التي رحلت إليها، وأن وصف الصحراء بحرية وانحرية شعبية ومصر وأرمينية وأجزاء من بلاد التتار كجاء أوجو أن أوصف رحلاتي الأخيرة من فارس إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية إلى مصر ومنها إلى إيطاليا. وقد يكون من المناسب هنا التعرف بمحتويات كتابه الخمس الوزان عن وصف إفريقيا وتاريخها، وهو ينقسم وفقاً للنسق الإيطالي إلى الأقسام التالية التي نورددها استناداً على ترجمة بورى الإنجليزية السابق الإشارة إليها.

حيدر بالدكو أن الوردان أطلق على الأقسام التي قسم إليها كتابه بالك، وهي تبغ تسعة، «كتاب الأول خصصه بوصف إفريقيا بصفة عامة، مع ملاحظة أن مفهومه لإفريقيا يقتصر على إفريقيا شمال خط الاستواء، كما سبق أن أشيرنا إلى ذلك، وقد قسم إفريقيا إلى ثلاثة أقسام رئيسية وفقاً لمفهومه هذا، وهي أراضي البربر - أيا - السودان العربي، كما أشار إلى إثيوبيا، وإن كان قد تعرض لها إلا بإشارات طفيفة^(٢)، كما عرّض في وصفه العمم إلى مسألة السكان الأصليين في إفريقيا والسكان البدو أو الرحل وعن سكنى العرب للسكان الإفريقية، ويقتصر في هذا المبحث على بلد الشمال، لإفريقي قدم يتعرض مثلًا إلى بلدان العربية في ساحل شرق إفريقيا، وإن كان قد أشار إلى هجرات العرب والبربر إلى أقاليم

(١) Brown, op. cit. vol III p.p. 904 - 905

The First book of the Historie of Africa and of the memorable thing Contained therein (٢)
Dessein translated by John Pory, A Géographical Historie of Africa Written in
Arabick and Italie, 1610.

لسودان لغربي كما تعرض في هذا الكتاب أيضا إلى عادات وتقاليد السكان وأسابغ حياتهم في صحراء ليبيا وعن إسماعيل بنى كان يمارسها السكان الأقدمون في إفريقيا أما الكتاب الثاني فقد تعرض فيه بالوصف لتعديلي المدن الشمالية الإمبريقية كما حوى بعض الإشارات عن تاريخ مراكش، والصراع البرتمالي الإسلامي ضد القوى الإسلامية في شمال إفريقيا، كما نجد إشارات عن بعض المعاصرين البحريين مشهورين من أمثال خير الدين بربروس وأبيه عزوج، وإن كان يركز في معظمه على الدخية الجغرافية من حيث وصفه للمدن والحيث مما جعله بعض يعتبره هذا الكتاب المصدر الوحيد في جغرافة مراكش المسمى بالأصالة والترقية الذي ظهر في القرن السادس عشر.

أما القسم الثالث، أو الكتاب الثالث كما أسماه، فقد اختص به مملكة فاس على عهد أسرة بنى وحيد وصراعتها ضد البرتماليين، كما تعرض بالوصف أيضا لمدينة مكناس وغيرها من المدن المراكشية، غير أنه وكر في وصفه على مدينة فاس باعتبارها المدينة الرئيسية لمعاصرة في ذلك الوقت، وعلى ذلك فقد احتسبها بمزيد من الوصف حيث أشار إلى مكاتبها العلمية ومدارسها وعلمائها.

أما الكتاب الرابع فقد خصصه لوصف مملكة تلمسان، والكتاب الخامس لبيجاية وتونس، أما الكتاب السادس فقد اختص به ليبيا حيث نجد فيه وصفاً لكل من برفة، مصراتة وسجلماسة وغريان التي تحدث عن عهد بالعفراة، ومزان وسرت والخليل لأحضر، كما سجل لنا بعض النواحي التي لم يشر إليها ليب كشهرة طرابلس بخرير أو إلى غنى بعض أقاليمها بالفاكهة، وإن كان الورد لم يسطر وصفه من حيث تعرضه لكان جيل نعوسة الذي ذكر عنهم أنهم يسو منيين وأنهم يتبعون شيخ القيروان، ولكن من المعروف أن شيخ القيروان كان شيئا، وقد يكون من المهم أنه أكد اتصال كل من فزان ومصراته بالسودان العربي، وأنهم كانا مركزين هامين من مراكز التجارة وطرق القوافل التي كانت تذهب إلى السودا بحري، كما أكد على أهمية الطريق الصحراوي التجاري الذي كان يفضل بين شقيط ومصر وبواقع أنه نجد في الكتب الستة المشار إليها تعريف دقيقا بمدى

الشمال لإفريقي، وقد تحدث عن الشعوب التي بت هذه المدن المختلفة كأن يقول وهذه من بلاد البربر أو من بلاد الرومان أو من بلاد المسلمين، ولكنه قد جاء إلى اسم المدن وتحريها فإنه يلوم لأصناف في ذلك ولعل هذا كان مأثراً منه بطابع معين.

أما الكتاب السابع فهو من أهم ما كتبه ابوزان نظراً لأنه خصصه لمناطق كانت لا تزال في حكم لأراضي المجهولة بالية لمسحرة الأوروبية، ولذلك يركز كثير من الباحثين اهتمامهم على ذلك الكتاب، وبالإضافة إلى مشاهداته وملاحظاته التي سجلها عن هذه القسم من إفريقية فقد أشار إلى من سبقه من الكتاب والجغرافيين العرب الذين تعرضوا إلى هذه المنطقة ولكن من الإجمال أن نذكر أن الروان يختلف عن سبقه من هؤلاء الكتاب، باستثناء ابن حوقل والبكري وابن بطوطة، في أنه كان يكتب عن المناطق التي زارها بنفسه فون الكثيرين من المؤرخين والجغرافيين العرب قد اقتصر في تحريهم هذه المناطق على الرحلة أو لقائهم الذين ارتحلوا إليها، ولذلك تعتبر المعلومات التي أوردوها بمثابة مادة ثانوية وليست مادة أصيلة، ويمكن أن نذكر من هؤلاء الإفراسي لسي أقصر على جمع ما تورد إلى سمعه من أخبار الرحلات عند تعرضه لكل من شرق وغرب إفريقية، ليس هناك ما يثبت أن الإفراسي قد ارتحل بنفسه إلى المناطق التي تحدث عنها في كتابه المعروف *أثره المشتاق في اختراق الأقاليم* (١).

وعلى الرغم من أهمية كتابات ابوزان عن السودان العربي إلا أنه لم يجتبه الصواب في ذكره أن هذه المنطقة لم يصل إليها العرب قبل السنوات الأخيرة من القرن العاشر الميلادي حيث بدأ تسجار العرب والمغاربة يصلون إليها منذ ذلك الوقت عن طريق الصحراء، ولكن من الشايت أن العرب وصلوا إلى السودان العربي في فترة سابقة من الفترة التي ذكرها ابوزان.

وقد تعرض الروان في حديثه عن ممالك السودان العربي لمعاداة لبروج ومعيشتهم في المنطقة، ويتفق ما أورد مع ابن بطوطة بشأن دوح السودان من

(١) انظر للفصل الأخير من الكتاب.

حيث الصفات التي يتميز بها هؤلاء وحسبهم بتعديل وشدة رغبة سلاطينهم في اقراء
العساة وتوقع أشد العقوبات على المسيئين بالأمن بما يضمن على بلادهم جوار من
الاستقرار والأمان وقد ذكر كثير من صفاتهم السيئة أن سلاطينهم يسهون عرايا إلى
السلاطين، ويكسبوا للخروج سائتة شبه عرياء، وشرن العساة على رؤوسهم رمزا
للاحترام وقد عُدَّ هؤلاء صفاتهم الخسة والسبئية، وأكد أن رنوج مالى يتعوقون
على جميع الرنوج في حصاراتهم وثقافتهم ودكانتهم كما تحدث عن معنفات
الرنوج وأشار إلى أنهم كانوا يتبعون ملك مراکش، كما ذكر عتائقهم الذين
لإسلامي وحملاتهم بالثجار البربر والعرب بما ترتب على ذلك نشر عبودية في
هذه المناطق من إفريقيا. ولا شك أنه عن إصدارات الرنوج عن تبعية أقاليم السودان
بمصر مراکش في دعوى إلى يكون بذلك قد ساهم في إرساء لأسس التاربخة
بني سيرة فكر عليها أنحد المصور الدعوى في حملته المشهورة لإحصاء ممالك
سودان العربي إلى المنطقة المراكشية حول اسوات الأخيرة من القرن السادس
عشر الميلادي

وقد تحدث الرنوج عن ملك تنكتو (سحاي)، وعن ذلك لأنه كان موثقا
إليه، وكان يدعى أبو بكر إسكيا قاله عنه أنه غر ممالك الرنوج وسافر لتحتج إلى
ملكه، كما حدد الرنوج مواقع هذه الممالك وذكر أنها تقع جميعها على نهر النيجر
وغروعه^(١٦)، ومن ملاحظ أنه ذكر النيجر بالاسم على خلاف ابن بطوطة الذي
حسبه نهر النيل^(١٧)، فقد ذكر الرنوج أن النيجر يمر في أواسط بلاد لود ويبدأ
في صحراء تسمى السواحل يخرج من بحيرة كبيرة وفي رأي بعض جغرافيين أن
النيجر فرع من النيل الذي يختفى ويخرج ليكون هذه البحيرة، وبعض الناس
يقولون أن النهر يخرج من الجبال في العرب ويتبعه إلى الشرق ليكون البحيرة وهذا
ليس مضبوذا، ومنهم أنهما أبحرنا في نهر من تنكتو في الشرق إلى ممالك حن
ومالى، وهما يقعان في العرب من تنكتو، والعبارة الأخيرة توضح لك أن نيو
كان يريد أن يدل أن النيجر يتجه إلى الشرق، على أنه يسعى أن يلمس له العنبر
إذ أنه لم يضع كتابه للمصطفى الخراطيط وإنما وضعه أصاب للباحثين في المعرفة
الإفريقية.

Brown, op cit., see The Seventh book of the History of Africa, Vol III p. 820. (١٦)

(١٧) ابن بطوطة - رحلة النظار - ج ٢، مخطوط الترسة القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠

ولهم أن الوران أظن كثير في وصفه للممالك السودانية العربية، إذ أورد وصفه لكن مملكة من ممالك الخمس عشرة التي زارها، ويوضح من وصفه أن تنكبو عاصمة سنغاي كانت في أوج ازدهارها، ومن أهم الممالك التي ذكرها الوران في رحلته من المغرب إلى الشرق وأحبوب هي

جواليثا^(١) - غينيا^(٢) - مالي^(٣) - تمبوكتو^(٤) - جاجو^(٥) - جوير^(٦) - عادي^(٧) -
كانو^(٨) - بكتاميا^(٩) - حرج^(١٠) - راعدا^(١١) - والمجار^(١٢) - بورنس^(١٣) -
جوجو^(١٤) - نوبيا^(١٥).

والجدير بالذكر أن وصفه لهذه الممالك يتميز بالدقة والأمانة، فقد دوى كل نوع شاهده ووقف طويلاً أمام ثراء هذه الممالك وخاصة مملكة أيوالاين فقال إن مقدار التجارة التي تجيء من هذا الإقليم وتصدر منه كل يوم إلى كل صوب مصدر مذهل، ثمن هذه وبضائع فائضة. ثم تعبدى للذهب في أسواق المدينة فلما ذكر أنه أكثر مما تغطي قدرات الناس على شرائه، ولا شك أن العالم الأوروبي حينئذ قد كان يقرأ ما أوردته الوران عن ثراء المنطقة قد تاق شوقاً إليها، ولكن المراكشيين مسقواً أوروبا إلى الإقليم^(١٦) إذ كانوا يعرفون أنه دك، بل وأكثر مما أوردته الوران فقد كانت القوافل مستمرة بين الشمال وممالك السودان حيث تجيء القوافل إلى المدن المراكشية في أقصى الشمال وتخرج منها إلى أقاليم السودان^(١٧)

لقد دوى من حسن حظ الدول السودانية وبالأخص دولة سبقي أن أعمال الوران تعبدى بها ينكب من التوصيح، وليس هناك فيمن يعرف من أعطائنا وصف

Mali Mali (٢١)	Ghinea Djeno (Ginica) (٢)	Guplate (١)
Guber - Gohar (١)	Ogo Ogo (٥)	Tombut Tambutu (١١)
Kassena (٩)	Cano (٨)	Agader (٧)
Wangara (٨٢)	Zamfara (١١)	Zajzeg (٨)
Nubia (١٤)	Gao (١٤)	Burno (١٣)

(١٦) يقول فانيلسوك - إفريقيا تحت أمورها جبهة ص ١٧٨

(١٧) معنى ذلك حملاً للصورة الذهنية إلى أقاليم السودان برعى الحصنة التي لعبت من مراكش في عام ١٥٨٩، وللحرف على الاتصالات التي كانت قائمة بين مراكش وممالك السودان العرب يمكن الرجوع إلى (Hart)

في كل من

The Caravan of the old Sahara and the Golden Trade of Moor.

هنا بهذه المجالات أكثر مما فعل الزوان، قد يكون حقيقة أن هناك من كتب عن هذه
«الأقاليم»، ولكن زوان اختلف من أسلافه في أنه شهد بعضاً من حصة أكثر المناطق
تحت تصدي لها بالتصديق والدراسة حين قامته حياته الفعالة في هذا، وهذا ربما
ليكون خير شاهد وحير من يدونه ويرى ويرقد عن هذه المسألة^(١) ويلاحظ أنه
عنى بصيغة خاصة بالنوعى الثقافية في مناطق التي زارها، إذ قال الزوان يصف
مقاعده المدم والثقافة في مدن النيجر، والتي كان من أبرز مميزات تلك، بأنه
يعيش فيها لأطباء والقضاة والمثقفين وغيرهم من مهنة عدم لا يحشون صفة ولا
مسلحة، يتفق عليهم ملث البلاد ويسمى أمنهم كل نزعته لينضموا بهذه
المحطيات يدرسونها كلما أتتهم من الشجالات الإفريقية

أما الطريق الذي سلكه الزوان زيارته هذه مناطق في المؤكد أن يكون هو
نفسه طريق القوافل المتعارف عليه، غير أنه من محتمل؛ نظر لما يذكره لنا من
وصف مدن أخرى تقع في الطريق لمباشر إلى تمسكتوا أنه كان من طريق آخر،
وقد حارب بعض الدارسين استنتاج الطريق الذي سلكه الزوان وهو في رأيهم خط
المواصل من غرب إلى مغربي شرقاً ثم إلى تمسكتوا وجازوا إلى جوييرو على حدود
شمالية لأرض النوبة ثم غادروا وزجرج وإمبار حتى ونجا في الداخل ومن
الملاحظ أيضاً أن زوان الذي اعتاد حاصد بيروبو وبحيرة تشاد التي عثرها حطاً
متبعاً لنهر النيجر^(٢)

وأهمية هذا القسم من كتابه الذي عرّف فيه لممالك السودان أنه يمكن
التعرف من خلاله على التعريفات العديدة التي حدثت في المنطقة منذ وصف

١- كما كان فافيمون، إفريقيا تحت التوراة جبهة عن حي ١٧٧٠ / ١٧٧١

وقد ذكر البكري في كتابه ممالك وولايات الكثير من مدن شمال إفريقيا وخاصة مدن طرابلس
والغبروان ومكة وفاس وسجلماسة وغملة وفيها، وقد أشر الزوان في الأجزاء الست الأولى من كتابه
إلى هذه المدن التي أوردتها البكري كصفائف هيرجة بدقة أكثر، كما ذكر البكري بعض ممالك السودان
الذين وانضموا بعضهم أكثر مملكة فال التي لمسه. هي ترائيد، كما قدم طرق الاتصال بينها من الغرب
وقد يكون من المفيد الرجوع إلى ما كتبه كل من البكري والزوان لتعرف على التطورات بحفظه التي
حدثت في هذه المناطق

انظر كتاب معروف في ذكر إفريقيا والمعروف، وهو جزء من كتاب «الممالك والولايات» لأبي عبد الله

البكري، الجزائر ١٩٩٦، ص ١٧٧ وما بعدها

Browho, op.cit., p. p. XXXVIII (٢)

الإدريسي لها نفلا من المعلومات التي أحدها عن الدين ارتخلو إلى هذه المناطق، لأنه كما أشرنا ثم يثبت أن الإدريسي كان شاهد عيان ما وضعه من أقاليم السودان وقد يكون حقيقة أن الرحالة العربي بن بطوطة زار هذه المناطق في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ولكن ما ذكره بن بطوطة لا يمكن أن يصحح على مدى المستوي من كثرة نورد، إذ انصف ابن بطوطة بقدر كبير من المساحة والتهويل يعكس الورقة الذي حاول قدر الإمكان أن يكون دقيقا وموضوعيا في كتاباته، فهو في هذه الحالة أثب بالإدريسي مدى الزم الموضوعية في كتاباته أيضا، وعلى هذا أساس يمكن أن نقرب بين الاثنين في وصفهم لأقاليم السودان، ومثلا كدور التي ذكر عنها الإدريسي أنها كانت الدولة المسيطرة توقفت من سيادتها في الرمي الذي ساج فيه الورد وأصبحت هي نفسها تابعة لمملكة سبدي وعاصمتها تمبكتو، كذلك اسفلت وبحيرا ويوربو وكثسند ولم تفصل إلى مجال البده والتعوق، مدى سوف تحققة كل هذا بعد، أما تمبكتو فكما سبق أن ذكرنا احتضنها الورد بوصف معصن، وأمر ملاحظات عن نفرواب نوقه التي كان يقودها محمد بن أبي بكر الحاج إسكيا، وقد استطاعت تلك العروات أن تحققي تمبكتو الرعاية الكاملة على أقاليم السودان حتى أصبحت البلدان مجاورة لها والتي شجعتها تلك العروات تسمع لها قدرا من الضرائب السوية. غنى أنه لا يستبعد النظر أن الورد كرر الخطأ الإدريسي حول تحديد مواقع ممالك البحيرة كذلك أخطأ في وضع التواريخ الحقيقية هذه تعرضه لبعض الأحداث.

أما الكتاب الثامن الذي سماه من مجموعة الورد من وضع إفريقيا وتاريخها، فهو قد يهم المتخصصين في تاريخ مصر السلوكية بصفة خاصة فقد ذكر فيه نهر النيل وبعض المدن المصرية، كما وصف القاهرة وأحياءها المجاورة. وقد كان الورد قد زار القاهرة في عام ١٥١٧، فقد أشار إلى مقتل السلطان المموكي طوماك بنى على أبيه السلطان سليم الكبير سلطان الترك، كما عرض في هذا القسم أيضا إلى عادات المصريين وتقاليدهم، وذكر أن البطانة سبم الكبير ألحق السلطة المموكية وعير ريد في لأنظمة التي كانت منتشرة في عهد الممليك، ومع ذلك فإن قد عرض لأنظمة المموكية وأصل اسماءها، وأهم المنصب بلدية والعسكرية في السلطة مموكية قبل سقوطها. ويعتبر هذا القسم أو هذا الكتاب

أخر من كتبه الوردان عن النباتين الجغرافيا والتاريخية لأن الكتاب التاسع، وهو
نفسه لأخير من كتابه قد احتضنه بأنهدو وحيوانات وطيور وأسماك ونباتات مريقية
ومعدنية، ولدت يعتبر هذا القسم أو الكتاب التاسع، بمثابة القسم المعنى من
كتابات موران. وعلى ذلك فإن ما أورده الوردان في هذا الجزء قد يكون مصدا
بصفة خاصة لجورجي معلوم، إذ يتحدث فيه عن بعض الطواير الحيوانية والنباتية
والطبيعية، ومع ذلك فإنه لم يكن دقيقا إلى الدرجة التي عهدناها فيه في كتاباته
التاريخية أو الجغرافية، إذ حالته منكئة السد في عوام كثيرة، بل إنه يذكر ما عد
قراءات بعض ما كتبه في هذا القسم بما يعرفه عادة عن كتب عجائب السموات
التي تحدث بها المصنفات العربية في العصور الوسطى. على أنه قد يشاعت سطر
بقوله عن بديوس (Plinius)، وقد قام الوردان بتدقيق ذلك في مطلع هذا القسم أنه
سكنهم عما يوجد في إفريقيا من لوجه البشر، كما مع ذلك الكثير من
الأمم التي ذكرها بليرس، الذي كان محقق رجلا ممتازا ذا مهج فذة^(١)، ولكنه
ذكر أن بليوس كثيرا ما وقع في الخطأ عند معالجه الكلام على أمم بسيطة تتعلق
بإفريقيا، غير أنه سرد ذلك يس لعب فيه وإنما نتيجة ما حصل عليه من معلومات
خاطئة وروعه في أن يفتد من كتبوا فيه، وعلى به حال فإن الخطأ في أمر صعب
كما يذكر ادمسي لا يمكن لمحو المصنفات النطية التي من شأنها أن تصحح ورتقا
وبناء على هذا يتصف به المصنف من جمال وقيمة^(٢)

وإذا كان وصفا إشارة الوردان إلى بديوس في الكتاب التاسع من مصنفه،
فإنه قد أشار إلى بعض المصادر العربية عند معالجه البلاطيم الأخرى، ولكن بصفة
جامة كان مقالا في ذكر المصدرة وهو حين يشير إليها يورد في أغلب الظن من
انداكرة، لأنه كما يؤكد أنه لم يطلع أثناء إقامته بإفريقيا على مصنف عربي
واحد، ولكن قد لا حد فيه أنه اطلع على المصنفات العربية أثناء وجوده بغير
قبل ارتحاله إلى روما ومن يسن المؤلفين المعروفين لديه يورد ذكرهم يهودي

(١) عظم روملر ربيع كتابه عن التاريخ الطبيعي Historia Naturalis في القرن الأول ليلام (١٧٧)

(٢) الدارميثي المصنف عند العرب (مترجمة القديمة ١٩٦٦) من ص ٤٣٨-٤٤٨

(٣) كراتشكوفسكي (الدايدوس بول بوفس) الألب جغرافيا عند العرب القسم الثاني من ٤٥٣

والبيروني والإدريسي وابن الخطيب وابن يشكوال، ومن اجبى أن معرفته بالمؤلفين
المعاصرة كانت أقرب إلى هذه، وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى ظروف نشأته في بلاد
المغرب، وقد لاحظ ماسينيون Masignon أنه نقل عن مصنفين من السلفية،
خاصة بالنسبة للأقسام الثلاثة من كتابه من حيث تقسيمه الأصلي للمبائل العربية
والبيرونية في شمال إفريقيا، بل ويقتدر كبير من التعديلات المختلفة وبالطبع لعدم
لمصنف من الناحيتين التاريخية والإثنوجرافية، ومن أهم من نقل عنهم في ذلك
العهد مصنف عربي يدعى ابن الرقيق، إليه يدنس - كما لاحظ ماسينيون - بعض
كبير من حيث إقراره لهذه الأقسام التي أشرد إليها، غير أن من المؤسف أنه هذا
المصنف، كما يقرر كراتشكوفسكي، لم يتم التعرف على وجه اليقين، وإن
كان ماسينيون يقترح أن ابن الرقيق عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر
ميلادي. وعلى أي الأحوال فإن قيمة كتاب الزواج لا تكفي فيما يقفه عن الغير
ولما تتجلى قيمة هذا المصنف في ملاحظات المؤلف الشخصية التي تشكل انقسام
الأساسي منه ومن الطريف أن الزواج على الرغم من أنه كتب مصنفه بأسلوب
الإيهامية إلا أنه احتفظ بروحه العربية الأصلية التي تمثل في التعبير المنحولة
التي كان يسردها بين الحين والآخر يستخرج منها العبرة والموعظة، شأنه في ذلك
شأن مؤلفي المجموعات الأدبية التي اشتهر بها لأدب العرب، أما الأهداف التي
وصفها الزواج مصنف عليه فيمكن استجلاؤها من قائمة مصنفه حيث يقول «هذا
هو وجه ما أبصرت من الأشياء العربية التي عرفت بدعي أن جيوفاني ليون
جميع إفريقيا التي عرفت من أقصاها إلى أقصاها، وقد توسع بجهد واجتهاد، ومن
يوم لأخر تمت الأشياء التي وابتها بعيني رأسي، وقد لي أنها تستحق الذكر، وما
لم أره بنفسه بسبب صيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت في الحصول
عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم» (١).

والواقع أن الزواج في هذه الفقرة المختارة التي ينهي بها مصنفه إنما يحدد لما
النهج الذي اتبعه في إخراج وتأليف ذلك الكتاب، وهو منهج يقرظه جميع من
مؤلفوا على دراسة هذا المصنف ومؤلفه

(١) كراتشكوفسكي، علم بين فكره، القسم الثاني من ١٥٣

بدأت رحلاته من أن بين عامي ١٥١١ و ١٥١٣. وقد يكون من المستحيل تحديد بواضع تحركاته على وجه الدقة، وهي على أية حال قد انتهت نهاية به كادها بهاية محزنة في عام ١٥١٨، والثابت أنه وقع في الأسر في ذلك العام وهو في طريق عودته من القسطنطينية إلى بلاده^(١) ولا بد من أن يكون ذلك من سوء حظه أو من حيل حقه لأنه أتيح له بعد أسره أن يصل إلى معقل هام من معاقل النهضة الأوروبية: ويتردد على المكتبات والأكاديميات وخدمات التي جعلتها عصر النهضة في إيطاليا، وتفصيل ذلك أنه بوردو وقع في شدة انعدام على أسر بعض القراصنة المسيحيين الذين كانوا يحاربون لهم المتوسط عند مدينة بجاية^(٢)، ومن المحصل أن يكونوا من قراصنة البندقية أو من جزيرة صقلية، وكانت مدينة جربة التي وقع فيها في أسر أولئك القراصنة تعتبر معقل رئيسي لقراصنة البحر المتوسط خلال هذه الفترة وما قبلها. وقد يبدو لنا أن أولئك القراصنة كانوا على درجة من الوعي إذ أنكروا أنهم أمام شاة تم تقع أعينهم على شاة قدم معجزة لأنفسهم يبيعها مع غيره من شباب العرب في أسواق البصرة في الموانئ الإيطالية، كما كان الحال متبعاً^(٣)، إذ وجدوا بين أولئك شحج ذا عيى غريب فحملوه إلى بابي ثم إلى روما حيث قدموه إلى الباب يوم العاشر من مايو، وكان الباب يوم العاشر من الباباوات المستترين الذين ظهروا في أسرة ملتشى، Medici وهو ابن لودويكو العظيم أمير فلورنسة، وقد عرفه باعتقاده بالذهب الإنساني المستنير Enlightened Humanism، وعمرته بالهالة الشرقية؛ حتى أنه بحث مع فرسوا لأول ملك عرب في عام ١٥١٥ مشروع لإرسال حملة حملة ضد الأتراك العثمانيين، وكان من جراء ذلك أن زاد الاهتمام بالشرق في إيطاليا بحيث كان من المستحيل ألا يتنوعى العلامة العربى بالأسور نظر الباب يوم العاشر^(٤) الذى لم يلبث أن أدرك أنه

(١) ذكرت بعض المصادر أنه أسر وهو في طريقه إلى القسطنطينية وبني ذلك مؤيد منها، ولكن الأرجح أن أوردناه كذا

(٢) تقع مدينة جربة بين تونس وطرابلس

(٣) كتاب العبيد العربى في تلك الوقت شاة حاليون في البلاد ولدى الأمم الغريبة، وكان الخدم العربى هو الخدم الذى يستعمله فى امره للبلاد، وهو الذى يستعمله الخدم العربى بمرور فيه بعد

(٤) كراستكوفسكى الأوربى الجغرافى عند المرحلة للقسطنطينية ص ٢٥٦

الفرصة لم يحفظوا حين ظنوا هديتهم به هدية لا تعادلها هدية أخرى وخاصة أن
 بابا، وهو سبيل أسرة بلدينشي، التي اكتسبت مجدها وقوتها من التجارة الممثلة
 كان حريصا على التعرف على حالة العالم الإفريقي وره الحاجر الذي أقامه
 المسلمون في وجه أوروبا في الشمال الإفريقي، وفيما يبدو أن لبانا قدر أن هذا
 الشاب سيكون أمه في هذه المعرفة، فأخلق مراحه وأعاد إليه حريته وأجرى عنه
 معاشا طيب حتى لا يوجد لديه الرغبة في تركه وأسمه باسمه، جيوفاني ليوني،
 وقتئذ بعد أن عمده بنفسه إلى المسيحية، ثم اشتهر بعد ذلك في العالم اللاتيني
 باسم ليو الإفريقي Leo Africanus ويعتقد براون أن تحول الزوان إلى المسيحية
 لما حدث من تلقاه معه دون إكراه في ذلك، وبعض نذهب مع براون في اعتقاده
 هذه وخاصة أنه من المحتمل أن يكون قد أحس أثناء وجوده في المجتمع الذي
 انتقل إليه أن من باب الميافة الأدبية أن يعتنق المسيحية^(١)، وبما لا نعلم لماذا
 ذكره براون من أن التحول إلى المسيحية كان أمرا مألوفاً لدى المعاصرة في ذلك
 الوقت حقيقة حدثت تحولات كثيرة إلى المسيحية وخاصة بعد أن أصلحت
 الحكومة الإسبانية في عام ١٤٩٩ قرار بضمير أبناء المسلمين قرر تحت تأثير
 لاسقف أجزمس، وبكى من الثالث أيضا أنه قد ترفت على ذلك هجرة آلاف
 المسلمين إلى الشاطئ الغربي لإفريقيا وهم يحملون معهم روح التعصب والظن
 ضد الدول المسيحية، وقد ساهم هؤلاء بتضييق كبير في نشاط حركة الجهاد في
 البحر، وفي شن الغارات لمهاجمة على سواحل إسبانيا والبرتغال، والاتصال بغدي
 المسلمين هناك وتشجيعهم على الثورة ضد الحكم الإسباني، كما اتم تأريخ البحر
 المتوسط في القرن السادس عشر بفسح قوى بين القوى المسيحية وبين القوى
 الإسلامية وقد جادل كل من الإسبانيون والبرتغاليين تحديف حدة الصراع من
 قبل المسلمين متخذين منهم إلى ذلك الإرسائيات التبشيرية التي أكثروا من
 إبعادها إلى المعازل السطحية التي لججوا في انتزاعها من أيدي المسلمين

وفي يوم عاش الوند أو ليو الإفريقي، كما أصبح يعرف منذ ذلك الحين،
 تحت رعاية لبانا الذي كان معروفا بجمهته للعلماء وتشجيعه للعلوم والآداب فيسر
 به سبيل لتصرع لتساهد العلم، ولم كان لبانا ليو مهتما بدراسات الإفريقية فقد

(١) انظر في ذلك الموسوي، العلم عند العرب من ٢٢٦

شجع ليو على الكتابة باللغة الإيطالية بصف رحلاته في إفريقيا حيث أخرج منها كتابه الذي سبق أن عرضت له^(١٦) والذي عثر من أهم المصنفات التي وجمعت من داخل إفريقيا في القرن السادس عشر^(١٧) وقد ذكر راسيو أنه يقصص إحدى الدعة الإيطالية تمكن من ترجمة كتابه العربي وصف إفريقيا وتاريخها الذي أكد أنه كان يحملها معه أثناء أسره، وذكر راسيو بجلد ذلك أن انه بدأ استنساخه استقبالا لحسن عرف أنه يحمل معه كتابا في الجغرافيا رستد بورى صاحب ترجمة الإنجليزية على ما ذكره راسيو فقال أن الترجمة أهله هو وكتابه إلى انباء وبعد أن أجاد الإيطالية قام بترجمة كتابه الذي كان مكتوبا أصلا باللغة العربية، ويمكن أن نستدل على ذلك مما ذكره بورى عند شرحه لترجمة الإنجليزية، وأكثر من ذلك أن بورى وضع عنوانا للكتاب يتضمن تلك الفكرة

A Geographical Historie of Africa Written in Arabicke and Itale

ويميل المؤرخون إلى الاتفاق مع ما ذكره كل من راسيو وبورى في أنه من المؤكد أن ليو قد ألف كتابه استنادا على ملاحظات فبده في مستهل حياته وعلى أنه أسفاره وربما يكون قد وضعه عن كتاب سبق له أن صنفه باللغة العربية، ويستدل في ذلك على ما ذكره الوران بنفسه في حاشية كتابه الذي جاء فيه أنه هو ذا مجموع ما رأيته من خير ومن حذر باستنساخه أو جرد بوقته من جميع إفريقية التي كتبتها من جانب إلى جانب والأشياء التي يد لي أنها تستحق الذكر كتبها على حسب ما رأيته في جد واجتهاد وما لم أراه بنفسه فإني حصلت عليه بواسطة أخبار حقيقية وصحة من أشخاص جديرين أن يوثق بهم وأوها بأنفسهم ومنه ذلك الوقت كتبت حسب لإمكان مجموعة هذه الأعمال وجمعته كتابا في وقت وجودي بمدينة روما يوم ١٠ من مارس ١٥٢٦ من ميلاد المسيح^(١٨).

(١٦) الشيت أن كتاب ليو الإفريقي قد انتهى من إخراجها بعد وفاة والده بواحدة أو اثنتين من سنوات إقامته ولكن هذا لا يمنع من أن يكون ليو الإفريقي قد حصل على جميع من أحياء مؤلفه في عام ١٥٢٦ من أثناء إقامته للكتاب

(١٧) Hary Johnston, The Colonization of Africa p. 391 (٢)

(١٨) المؤرخون في العلم عند العرب ص ٥٢٦

أما شيفر Schefer صاحب الترجمة العربية المطبعة العلمية لكتاب ليون التي صدرت بين عامي ١٨٩٦ و ١٨٩٨، فعلى الرغم من أنه لا يبيّن أن نسو كتب الكتاب سابق باللغة العربية، إلا أنه يشير في مقدمته أن النسخة العربية من الكتاب قد تكون فقدت منه قس الأسر، واعتقد ليون في تدوين كتابه بلغة الإيطالية على بعض ملاحظات مسجده وليس على الكتاب الأصلي لأنه أضاف في النسخة الإيطالية إضافات كثيرة بعد ما تروى على وجوده في إيطاليا من استحداث جديد في معلوماته والتعاش في التفكير^(١)

أما روبرت براون، صاحب الترجمة الإنجليزية للطبعة العلمية لكتاب ليون التي صدرت في عام ١٨٩٦، فلا يعتقد أن نسو كان يحمل كتابه معه وقت لما أشاعه راسيو، وإن كان لا يستبعد مع ذلك أن يكون قد سجل ملاحظات وحفظ بها لأنه من الصعب طباعة الخيال أن يجمع هذه المعلومات بكثيرة حتى أوردتها قس كتابه اعتماداً على ذاكرته، وإن ما يسجل عليه براون في أن نسو كتب هذا الكتاب في إيطاليا وينسب الإيطالية كان استدلالاً على نقاط ثلاث هي:

أولاً: أنه أشار في كتابه إلى بعض أحداث وقعت بعد وصوله إلى روما

ثانياً: أنه أشار إلى مصادر ومؤلفين لا يمكن أن يصلوا إلى معرفته ما لم تتاح له الفرصة لدراسة لغة اللاتينية والتردد على المكتبات الإيطالية التي أمدها بمعرفة واسعة

وأخيراً: فإن براون يستدل من الحقيقة الواقعة لما ذكره نسو بنفسه في نهاية الكتاب اكتب في روما في عام ١٥٢٦ في ١ مارس أو الثلاث سنوات بعد وفاته لياناً ليون^(٢)

أما كراتشكوفسكي فيرى أن القول أو الجزم بأنه قد وجد نصه كاملاً في يد نسو عند وصوله إلى إيطاليا قول ضعيف، وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع معرفة وتعطيل ذي مدح عام، أما عن ماسينيون فلا يعتقد بوجه عام في وجود

Schefer Description de l'Afrique Par Jean Leon African Tome I p. XV ()

Robert Brownie, History and Description of Africa Vol I p. XIV B (٢)



من مخطوطة عربية للكتاب، ويعسر ثبوت ذلك خطأ، ويرى خلافه لما ذكرناه أن ليو
 الإنجليزية لم يشؤن الكتب باللغة العربية ولما صاح مذكراته وملاحظاتة باللغة
 الإيطالية رأساً، ويستند في ذلك على ما ذكره بيرونا أنه قد دون مصنفه من مذكره
 وذلك بعد مضي عشر سنوات لم تقع فيها عبء على مصنف بل ح عرس وحده
 ويعتق منسوبيون على ذلك أن ذاكرته لم تكن تسعفهم، فعلى الرغم من أنه
 يعطى بطلاص لقرئته بدقة الوصف الجغرافي، لا أن مادته التاريخية وتاريخيته تست
 على المستوى المرجو.

ويمكن أن نرجح ما سبق أن ذكرناه، باستثناء ما يراه منسوبيون، أن الكتاب
 كان أصلاً أو مسودته على الأقل باللغة العربية، وإن كان ما يدعى بالألف أن
 لأصل العربي نكبات ليو لم تصل إلينا، أما النسخة الإيطالية؛ وهي النسخة
 الوحيدة في العالم، فقد احتفظ بها في إحدى المكتبات الإيطالية خلال الفترة من
 ١٥٣٥ إلى ١٦٠٩. أما بعد ذلك التاريخ فلا يعرف من أمرها شيء. أما أقدم
 نسخة يدي من ذلك الكتاب فهي النسخة التي ترجمها بوري إلى الإنجليزية ونشرها
 في لندن سنة ١٦١٦.^(١٦)

أما عن حياة ليو في إيطاليا فقد استمرت من عام ١٥١٨ إلى عام ٥٥ فيما
 يرجح^(١٧)، فعندما نشر راسينو مجموعته في ذلك العام لم يكن هناك ما يستدل منه
 على أن ليو كان مقيماً في روما ولا في إيطاليا بأمرها. والأرجح أنه تمكن من
 الإفلات بطريقة ما إلى تونس حيث عاش بقية حياة لا سفرى من أمرها شيء،
 وللأسف أن لا نعلم مكانه، لعل ليو حينما هاجر إلى تونس أكثر من عودته إلى
 الإسلام، وهيمت يلو أنه لم يعيش طويلاً في تونس إذ إنه قد توفي بعد سنتين
 ويقول الدوميني بصدق ذلك إن إقامة ليو بحرن عن محيطه العربي لأصل كانت
 بلا ريب شغلة على نفسه، وقد رجع إلى تونس ليحضر بالرفاة في أرض الإسلام
 وفي حمى دية الحقيقي. ونعتقد أنارة من ذلك العهد، ويبدو أننا لا نعرف
 تاريخ ومكانه. وإن كان هناك من يرجح أنه توفي في عام ١٥٥٢ في تونس في
 عهد آخر ملوك بني حفص.

(١٦) يرجح سده من هذه الطبيعة بنظر الكتب المصرية.

(١٧) ذكر كراتشكوفسكي أنه عاد إلى تونس في عام ١٥٢٨.

وأهم أن كتاب بوا اعتبر لمدة ثلاثة قرون المصدر الوحيد الجغرافية شمال وغرب إفريقيا . وأهمية كتابه كما يقول بوفيل Bovill في نظر معاصريه من الأوربيين أنه أظنهم على مناطق لم يعرفوها من قبل، ووضع خط فاصلا بين الأسطورة والواقع كما ذكر مستشرق لألماني هيرمان Hartman أن كتاب بوا ذكر من ذهب ولولا وجوده لذهب علينا أشياء كثيرة، أما للمستشرق العربي شيعر Schöfer فقد ذكر في تقديمه لكتاب أن ما أورده لم يتمي بالمدة الشديدة، بل ولقد أثبت لأبحاث الأخيرة صديق قومه حتى في مسك الخواص التي أدرت الشكوك فيما مضى، وإن كان شيعر مع ذلك ينتقد بوا بقوله إنه لم ير كل ما وعده فضلا عن أنه لم يكن دائما شاهد عيان بل كتب عنه

أب. مستشرق لإيطالي أماري Amari ويترضى أن ما لعلاء بوا قد تم جمعه بعد رجوعه إلى إفريقيا، أي أنه لم يستطع تفخيخ لمودة النهاية أثناء وجوده في روما، وهو وإن لم يذهب إليه لحد ظن^(١٢).

ولا شك أن الوراء ومصفه قد حظي بكثير من اهتمام وعناية لأوربيين في حين أنهما لم يحظيا بهذا القدر من المؤرخين أو الجغرافيين العرب، ومن حسن الحظ أنه قد أتت الظروف أخيرا لتشر هذه التراث الإنساني وخبرجه في ترجمة عربية أمينة بعد أن أصبح من المستحيل التعرف على السمحة العربية من ذلك الكتاب وذلك إذا ما افترضنا وجوده بالفعل.

ومن أكبر أهمية لكتاب الوراء هي أنه سجل لنا آخر ما وصلت إليه الأمم السوداء العربية من حضارة وتقدم ولقد غلقت الحضارة قائمة في عهد السودان حتى ظهرت جيوش مراکش في عام ١٥٩١ على عهد أحمد المنصور بقودها قائد من مرتزقة الإسمان يلقي حودر، واستولت على مكنو وجن وأوقفت الحروب النجدية البربر التي كانت تعبر شمال الصحراء إلى جنوبها، يهدف إلى ذلك لتعود الحضارة في الشمال الإفريقي، وخاصة بعد أن سيطر البرتغاليون على تجارة الشرق، وفقدت منذ البحت الشمالي لإفريقيا ذلك الأدهار الذي عرفته من

(١٢) راجع في ذلك كرايسكوفسكي الأدب الجغرافي عند العرب القسم الثاني من ص ٤٥٣ ٤٥٤

قبل، كما قبلت بالتألي قدرتها على جعل الأفكار وحضارة مع تجاريتها الواسعة عبر الصحراء الإفريقية، وكان من أثر ذلك أن عرب السودان العربى عولاً نافعاً عن ديار العرب، التي أصبحت تشتهر وتلى كدلت مصدراً جوهرياً في شتى حضارة وثقافة السودانيين العربى، كما عززت إفريقيا جن أوروبا في بعض النشيط شهاب يد التجارة الأوروبية مراحل مختلفة من التطور، وفي خلال ذلك الوقت لم يعد للسودان العربى صلة بالعالم الخارجى بعد أن حددت الحياة على الشاطئ الإفريقى الذى كان صلة الوصل بينهما، وأحدثت أوروبا فتح عينها تجاه الهند والعالم الجديد، وهى المناطق الجديدة نسي وحصل إليها كل من البرتغاليين والإسبانية قدم تعد ثروات السودن تشتهر بالخمر والتبغ كما كانت شهوةهم من قبل، إذ اتفالك العالم والأملا من هذه بلاد الجديدة وتضاعفت أهميتها ثروة السودن العربى، ومع ذلك فإن ما استتعت النظر أن حضارة عرب السودان عايت عوامل الفناء وبقيت محتفظة بشئ من سماتها وقد تحدث هريث بارت، وهو أحد رواد حركة الكشف الجغرافى في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر، عن بدهر بعض أقاليم غرب السودان كما تعرضت لومضات من حضارته

وبالإضافة إلى التدهور لاقتصادى ونشأفى الذى ألم بمختلفة بحر المتوسط على أثر الانقلاب التجارى الذى حدثت نتيجة تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، عانت المنطقة تدهوراً مياسياً أيضاً حيث فكر أحمد المنصور سبدي مراكش فى فتح أقاليم السودان العربى وصم حالكة إلى حلكه، وهذه الحادثة كان بها سوق تاريخية وهى المحاولات المختلفة التى ظهرت بتوحيد افريقى لإسلامة فى إفريقيا والسودان العربى، وكان أحمد المنصور يأمل فى تحقيق هذه الغاية، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عامل آخر قوى وهو أن المنصور شعر بالحاجة إلى مورد جديد يشعين به لتقوية بوضه وسط لأزمات التى كانت تواجهها، وما كانت هناك عرب السودان تشتهر بثروتها الكبيرة بسمية منجم الذهب الكثيرة فى أراضيها فقد فكر المنصور فى فتحها وجمعها إليه حتى يسمين بالذهب فى تقوية دولته ويقال أنه جمع بعمه والفره وقد حاول هؤلاء أن يشوه عن تحقيق هذه الغاية محاربين له من صوملة الطريق ومهالكه، ولكنه

أجابههم بأن الطريق مأمونة وقد كانت لقوافل تجارهم بانتصهم فهل تعجز جيوشه المنظمة عن جتارها؟ وأكد أن الدول سابقة بولا لشعائهم في جهنم أخرى لوجهت اهتمامهم بحرب غرب السودان، وأن أقاليم السودان العربي أعنى من المغرب وفتحها أجدى من حرب الترك لأن حرب الترك تقتضى جهدا أكبر، وتنتهى لأمر بشير الخليفة المراكشية بفتح ممفكة معادى. وكان أهالى ممفك فى عيما يسو هنى علم بذلك ولكنهم كانوا وثقى بأن حدودهم الصحراوية لا يمكن فتحها، ولكن تمكلى الجيش المجرى من التوغل فى السودان العربى حيث وجد ترحيبا من أهله الثقافة والعلم والسجاد ومعظمهم كانوا من المغرب، وهكذا نجحت حملة البصير ودخلت جيوشه تيبكتو وسقطت تلكه سنداى، وحار لمصور بالعمل كميات كبيرة من الذهب حتى لقب بالمصور المعين. وكان نفع أقاليم السودان الغربى أثر سعى جدا، حتى لقد شبه البعض حكمهم للمغرب للسودان العربى بحكم المشايخين للولايات الغربية من حيث ضعف الثقافة إلى جانب قديم هجيات تشيد بالحكم، وما ساعد على زيادة الاضمحلال تشعل مراكش طيلة القرون السابع عشر والثامن عشر بأحداث أخرى تجرت فى منطقة البحر المتوسط وبدأت مراكش تفهم أمر حاميها العسكرية فى السودان العربى وبركتها دون تجديد، مما أفسح المجال للاضطراب والفوضى، كما تروج أهل المغرب من الرنوج وشأ على ذلك عصر برما وأصبح حاشوات المراكشيون العوبة فى أيديهم، ولا شك أن هذه الأوضاع السيئة بالإضافة إلى الأوضاع البجمة التى عانت منها مصفحة البحر المتوسط، كان لها أثر كبير فى نهيار تجارة السودان، وبذلك أصبحت أقاليم السودان العربى فى عزلة ثقافية وروحية بالقطاع الإمدادات التى كانت تأتى إليها من الكتل الرئيسية الحصارية فى إفريقيا سب القطاع لتجارة وتعطل الطرق واضطراب الأمر، وكان لهذا كله أثر خطير إلى درجة أنه حدا بدأ الاستعمار لأوربي يطرق إفريقيا، كان السودان العربى أشبه ما يكون فى عزلة سياسية وثقافية واقتصادية، وكان عليه أن يعتمد على موارد وعقوماته الذاتية فى مواجهة الضغوط الإمبريالية، وقد حارب الصمود والإحباط، حيث قلعت فى عصور النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر حركات إحصاء إسلامى بدأت فى عام

١٧٧٦ بإعلان الجهاد ضد الباطل الوثني، داعياً الإسلام في السعال ما يقرب من نصف عبد. مكان، وبعض حركات إصلاحية أخرى تشهد حبس الدين الإسلامي من جهة الوثنية ولكن هذه الحركات لم تستطع أن تبرز صيرتها من اصطلاحها بلوحة الإمبريالية التي ظهرت و صحت في إفريقيا منذ النصف الذي مر القرن التاسع عشر. وكان كما ساعد على تقدم الحركة الاستعمارية في غرب إفريقيا عوامل كثيرة من بينها -

أولاً : زيادة العشائر السوية على محال الموداد عربى ومر الشهور قاتل انقولاتى -

ثانياً : سقوط محكمة شغبلى وم مرتبه عليه من إرادة خاجر الذي كان يعتمد الحركات القبلية، ويملك اتبع مذهب وتحويل إلى موحات كبيرة، مستعدت أن تؤسس إماراته خاصة بها

ثالثاً ضعف القوى الإسلامية نتيجة الصراع الذى قام بينها وبين القوى الوثنية، وقد بلغ هذا الصراع ذروته خلال لقرن سابع عشر والثامن عشر بما أنح الفرصة سوية أن ترفع رأسها من جديد، وسيتركب على ذلك رد فعل مضد خلال القرن التاسع عشر الذى شهد عنه حركات إسلامية إصلاحية، ولكنها اصطدمت بالاستعمار الأوربي الذى بدأ يبعد إلى المنطقة خلال هذه الفترة كما ستعرض لذلك فيما بعد^(١).

(١) انظر كتابه



الفصل الخامس

مسألة الرق
وتجارة الرقيق في إفريقيا

بعد موضوع الرق وتجارة الرقيق في إفريقيا من أحد الموضوعات حساسة وأكثرها مدهاة لاختلاف الرأي في الشارع الإفريقي وعلى الرغم من أنه كتب عن تجارة الرق والرقيق لكثير إلا أن معظم ما كتب بحاجة إلى نظرية جسيمة مع تسليم في الوقت نفسه بأن مستخلاص الحقائق وتجردة ووضعها في قالب موضوعي مهمة شاقة وإن لم يكن متعسرة، بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الموضوع لا يزال يشغل حيزاً هاماً خاصة لدى الإفريقيين ويزيد من تعقيد هذه الصورة أن الإفريقيين استغرق بعضهم البعض وأصبحوا بالوساطة في تجارة الرقيق سواء كان ذلك متحيزاً لعربي أو لأوروبي^(١)

وربما تعيب استيفائة حين نجد كثير من المصادر الأحياء تعود صعوبات كثيرة عن تجارة الرقيق العربية وتقبل إلى جانب التسهيل إلى ما تعرضت لها في محاولة لإظهار حروب على أنهم وحدهم هم المسئولون عن هذه التجارة وأن الأوربيين هم المحضرون، ولم تتعد أبحاث التبعية والإكراهات الاستعمارية التي عمت في إفريقيا بعد انفراد الدول الاستعمارية بالسيطرة على مقدرات القارة الإفريقية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي أية فرصة لتزداد إثارة ذكرى متاحة العرب في الرقيق، والتأكيد للإفريقيين بأن العرب هم الأشخاص الذين احتفظوا بأخلاقهم ومبادئهم بالسياسة كما تحول كثير من المصادر فلم العلاقات العربية الإفريقية وذلك بالتركيز على أن علاقات التطويلة بين العرب والأفارقة لم تكن متماثلة، ويعني ذلك أن العرب احترقوا لقارة إفريقيا واستبدوا سكانها وفرضوا دينهم وثقافتهم على الأفارقة^(٢). ومن الأسف أن المثقفين العرب لا يتصورون لتلك بحملات التي أخلت بروجها في السنوات الأخيرة الصحافة ووسائل الإعلام أو الأجهزة التي تعمل لحساب الشركات الاستعمارية إذ لم يظهر دراسات موضوعية تواجه تلك الاتهامات بل أصحاب الحجة من بين المثقفين العرب أو دعاة برهنة من الأفارقة من أصبح يردد تلك المقولات كأن تجارة الرقيق والإفريقيين كانت هي

(١) تلامح ج. وهاب، مع فيست تجارة الرقيق - مترجم من ١٣

(٢) من القديس موسى الإسلام في إفريقيا، من أعمال ندوة العرب والإفريقيين، الأمانة العامة، أبريل ١٩٨٣



جسيمة العرب دون مواعدهم من البشر والامر الذي لا شك فيه أن الشعوب الأوروبية مارست تجارة الرقيق في إفريقيا زهاء أربعة قرون تفرقت القارة الإفريقية من خلالها لعملية استنزاف بشري بالإضافة إلى ما صاحب تلك التجارة من ماسي والحقيقة أنه لم نعلم شعوب بالعدد الذي لحق بشعوب إفريقيا حيث انتزع الملايين من الإفرقيين يسحقون في مزارع العبيد الحديد وإن كانت الحقائق التاريخية تؤكد أن كلا من العرب والأوروبيين عملوا في تجارة الرقيق فلأن التساؤل هنا هو في كيفية معاملة الرقيق وفي مسؤولية بيع تلك الأعداد الضخمة من مواعدها الأصلية وما مرتب على ذلك من استنزاف للقارة الإفريقية وإضعاف قوامها^(١) على أننا لا نغفل أن نقف موقفاً تيسيراً أو اعتذاراً فما يخلق الاسترقاق وتجارة الرقيق العربية، وربما بعض في الدرجة الأولى يندرج الأمور إلى ظواهرها وأصولها الاجتماعية والاقتصادية فضلاً عن ملامساتها التبريرية مع تسمية في الوقت نفسه بأن الاسترقاق هو الاسترقاق سواء صغر أو كبر حجمه وسواء حسنت أم مبدأت أصله، ولذلك فإنه قد يكون من المعيد لتركيز على الآثار التي أحدثتها تجارة الرقيق الأوروبية مقابلة بالتجارة العربية، وقبل أن نعرض لذلك المقدرة ينبغي التأكيد هنا بأن الرق لم يقتصر على إفريقيا وحدها وإنما وجد في جهات كثيرة من العالم وكان مرتبطاً بأسس اقتصادية والاجتماعية في كثير من الحضارات الإسلامية القديمة في كل من الصين ومصر والهند وبلاد الرافدين واليونان والرومان وكان الخطف والقرصنة والحروب العسكرية والعقوبات التي تلحق بالأفراد تعد من أحصى موارد الاسترقاق في العصور القديمة، وبالإضافة إلى هذا التمدد من الاسترقاق الجبري كان هناك نوع آخر من الاسترقاق الطوعي الذي يقوم به الأفراد المسحلقون من سداد ديونهم أو استغفون عن العمل أو المرتقة الذين كانوا يضعون أنفسهم في خدمة الأثرياء كما كان القايون لرومان يجعل اثنين يرتكبون بعض الجرائم عبيداً كما كان يسمح للمسيح قتل عبده إن خرج عن طاعته^(٢) وبمثل ذلك يقودنا إلى التصدي لما ورد في بعض المصادر الأجنبية

(١) عبد الحميد سامي، العبيد والإفريقية، موجهة أو تقاض، بحث منشور في العلاقات العربية الإفريقية، كتاب في تهادنا المختلفة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٩.

(٢) Coupland, R., The British Anti Slavery Movement, Oxford 1958 (٢)

التي نجاهت تلك الحقائق التاريخية وركزت على الرق في الإسلام باعتباره مسلك
عن التشريع القرآني كما هو كذا في الإسلام والرق وجهين لعملة واحدة

وفي تقديرنا إن هذه البظرة قاصرة لأن الإسلام بعد ظهوره واجه أوضاعا
عاجية قائمة، كتب واجه نقابا في الحرب كان معشوق بها وبذلك لم يتمكن
المسلمون أن يقطعوا سرح الأسرى من الأعداء أحرار على حين أن هؤلاء كانوا
بأمروا المسلمين ويستقروهم، ومع ذلك فإن الاسترقاق لم يكن قاعده حمية من
قواعد الأسر في الإسلام، والأهم من ذلك أن الإسلام عمل على التخلص من
الأساق حبي جعل الثوب موفور، من يسعى إلى بحث الرقيق وأوجب إجابة الرقيق
في طلب المكاتبه على حريته ووضع الكثير من القواعد التي من شأنها القضاء على
المشكلة على ميل التدرج بشر أن تحتاج المجتمعات بالقضاء الرق دفعة واحدة وما قد
يسر على ذلك من اهراز عجب قد يصيب المتحررين أنفسهم كما يصيب
غيرهم^(١) ومن المعروف أن الإسلام جسد مصلو الاسترقاق في الحرب فقط
وبشرط أن تكون قتلا ضد المشركين، بل إنه نجد أن المسلمين قد حصوا على بعض
الرقيق من المجتمعات غير مسلمة بطريقة سلمية كما حدث في معاهدة القبط التي
عقدت بين عبد الله بن أبي السرح وملكه النوبة السعل في عام ٦٥٢هـ^(٢) أما
تجارة الرقيق فإنها لا تنطبق عليها القواعد التي أباحها الإسلام فلهذا لم يلبس كلوا
يهدون من الجوارى والعبيد وليسوا أسرى حرب دبية لا تطبق عليهم القاعدة
الإسلامية التي لم تقر بصحة الحلال سرقة ساس من بلادهم أو لإعارة عليهم بها
وعدا^(٣) ومن ناحية نقول أن شير هذا إلى ما حققه الإسلام من حقوق
وأوضاع قانونية واجتماعية حتى أصبح يتختم عينه أنه يميز بين تمتد الرقيق وتجارة
لورق، ولأخيرة حافلة بيشور التي لم يقرها لإسلام وعلى الرغم من ذلك
فإننا نجد كثيرا من المصادر الأجنبية تسوق من النظريات والفرضيات التي تحاول أن
تؤكد بها أن الإسلام كان سببا في تغذية تجارة الرقيق في الفترة الإفريقية وذلك بما

(١) جمال وكريا غلسم مؤلفات مصطفى كامل ٦ غنية الجمعية بالمرية للدراسات التاريخية عن الترميم الوطني
مصطفى كامل - أعجب ما كان في الرق عند الرومان

(٢) ج ج بونيه دليل الخليج - تعليق على تجارة الرقيق في الإسلام، طبعة ١٩١٧، ص ٢٧٥

(٣) كان ملك النوبة يرسل بعثته لطلب الجماعه عندها من الرقيق سواء كان يصل إلى ٣١ عبد، وكبنة بقت
منطقة من اللاتيه Factum يمس أهاليه ونذكر فانه تعارفه الإسلامية أنه لفظ مصري قديم يدل على
المهد

وهر من علاقات حرب مع المجتمعات الإفريقية الوثنية ويؤكد (وايندر) بصدق ذلك أنه على القرون إحدى عشر الميلادي أحكم العرب قبضتهم على بهايه الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى من ناحية البحر المتوسط، وحين انشر الإسلام ووصل إلى مكة غلبا الوثنية على عهد المرعبي ارداد حجم التبادل في تجارة الرقيق الذين كانوا في معظمهم أسرى حرب أو غنما الإغارات التي قدمت بها القوى الإسلامية ضد القوى الوثنية^(١) وبصدق دونه أيضا يؤكد تريمينجهم Timungham أن تجار الرقيق في غرب إفريقيا من مسلمي الغولاني كانوا يغيرون على إمارات الهوسا الوثنية ومن ثم يصل إلى أن الإسلام كان عاملا في تفكيك المجتمعات الإفريقية في اتجاه له سرعة الانتشار بين القبائل الوثنية التي سمعت مقوستها^(٢). وأكثر من ذلك نجد كتابا آخر هو «كلارك» يجد تبريرا لتجارة الرقيق لأوروبية في القرون السابع عشر وبعدها اودعها إلى تخضم امراكشيين للإمبراطورية سنغالي على عهد للتصور الذهني في عام (١٥٩١) ويعتبر تلك لغزوة العربية المعروفة الذي هزم آخر الإمبراطوريات الكبرى في غرب إفريقيا ومنه القوضي التي أعقبتها هي التي أفسحت الطريق لقيام الأوروبيين بتجارة الرقيق في غرب إفريقيا^(٣) ولا شك أن هذه المصادر تقع في مجموعة من التناقضات التي قد يكون من ليسر مواجهتها على أن نحظور الهام الذي تقع فيه هذه المصادر هو تقريرها أن الإسلام انتشر بعد السيف في إفريقيا وأن اخفاء أصحى مرادفا للاسترقاق الذي كان ضروريا للوفاء بالتألمات الاقتصادية بما للعمل في الروعة أو التخليد الرقيق كلمة هامة في تجارة الصحراء أو المحيط الهندي. حيث كان الرقيق يصدر إلى سدان العانم الإسلامي التي كانت تقع في طلبة إذ اجتربت انقارة الإفريقية الموردة الأكبر لهذه السعة البشرية فمن غربها كانت تلك البحر المتوسط الإسلامية تحصل على حاجاتها من الرقيق أما السودان فقد كان يزود مصر وأقطار آسيا الصغرى بما

(١) كلارك وهاروج - مرجع سبق ذكره - انظر مقامه للكتاب لسطفي الشهابي، ص ١٢ -

(٢) Spenser Trimingham, Islam in West Africa, Oxford 1929, p. 29

وايندر تريمينجهم بصدق ذلك قد سلط سبكه على أسسها هشاشا بضموم كانت تعيد في انقضاء القرون من الرقيق الذي كانت معتمدين عليه لإمدادها بالعمالة من شعوب القارة الوثنية، انظر تريمينجهم ص ٤٤ وما بعده

(٣) كلارك وهاروج - مرجع سبق ذكره - ص ٥٤ - ٥٦



كانت أحشية وإفريقيك الشرقية تعبدى مصطفة شبه أجزيرة العربية. ولعل ذلك مما دفع بـ بوكهاردت Barthelme إلى أوائل أقرره التاسع عشر الميلادى إلى القول بأن جهود التى تبذلها أوربا أو إنجلترا بوجه خاص للقصد على النجاسة إلى نأتى فتعدها بـ ديم المسلمون بـ سيطرون على كثير من الشعوب الإفريقية، إذ د المسلمين الإسلامى يدفعهم إلى مقاتلة الزنوج الوثنيين، وأن مطانة العرش عند المسلمين يقتضى سد المتخصص من الخدمة أو الرعاية ولذلك فإنهم يحاولون قتلهم بـ رقيق بوصفه أداة للمعدية يقوم مقام العملة، وأنه ما دام زمام السود بيد السكان المسلمين فلا ميل إلى منح السخاسة فى قلب بقارة الإفريقية ونس يقتضى عبيد نفعه المرم لا إذا تهيأت للزواج العدد لرد عذرات جيرانهم المسلمين ودفع طلبهم^(١)

ونكس خطوة ما ذكره بوكهاردت وغيره من أرحالة وبشرى الأوربيين فى محاولة إيجاد انطباع بأن الإسلام لم ينتشر فى إفريقيك، لا بعد السيف وهو أمر لا يمكن التسليم به إذ من المعروف أن الإسلام انتشر سحيا فى كثير من الشعوب الإفريقية، بل إن حركة الأراطين لم تكن لتأتى ثمارها وتسقط مملكة على الوثنية إلا بعد أن كاب الإسلام قد انتشر به، كما أن الحركة ذاتها اعتبرت على حواس الزنوج المسلمين أنفسهم فى نشر الإسلام وما بحاجة هنا إلى أن يشير إلى انطوق الصوفية التى ازدهرت فى القرون التسع عشر الميلادى وإلى ألت على نفسها أعداد جماعات من الزنوج نشروا الإسلام وكنت كثيرا ما نجا إلى تحرير الرقيق الذين كانوا يهدون إلى الصحراء وتبقيهم أصون ندى والصفحة الإسلامية، ثم إن السومية أوجدت زوايا أو مراكز لتعليم ونشر الإسلام بالإنحج والوهفة الحنة حتى صارت تجمعات التبشيرية نجد إلى الأنتشار الكبير للإسلام خصوصا لها

والحقبة نلى لا شك فيها أن قضية الرق فى إفريقيك لم تكن قضية إسلامية، أو غير إسلامية، كما لم تكن قضية عرب وأدلة وإنما كانت وسيلة ظروف اجتماعية واقتصادية، وليس أدل على ذلك من أن السكان لمحيين فى إفريقيك كانوا يترقون بعضهم بعضا بل إن أعداد كبيرة من المسلمين أنفسهم قد سترقوا نتيجة الاضطرابات والحروب الدينية فى عرب إفريقيك وعلى الرغم من أن الرقيق

(١) مر اللير موسى الإسلام فى إفريقيك من عمل طيرة المغرب وإفريقيك الأردن - عمان - أبريل ١٩٨٣

كانت له استخداماته المتنوعة لدى العرب إلا أن الرق المنزلي كان هو النوع الأكثر شيوعاً في المجتمعات العربية والإسلامية على عكس سوق الجماعي الذي شاع استخدامه لدى الأوروبيين والأمريكيين. وتغير الرق لمزلي بأنه أوجد نظاماً خاصاً من العلاقات الشخصية والاجتماعية بين الرقيق وحالته، ولعل ما يؤكد ذلك أنه على الرغم من إلغاء الاسترقاق في مجتمعات العرب، لا أن كثيراً من الأرقاء رفضوا ترك مالكيهم^(١) وإذا نظرنا إلى الاسترقاق لمزلي باعتباره ظاهرة اجتماعية سادت في مرحلة تاريخية معينة نجد أن حالة الرقيق عند العرب كانت أفضل بكثير من أتباع الأوروبيون في استرقاقهم. وقد يكون من المفيد في هذا المجال أن نذكر ما ذكره الأوروبيون الذين حللوا المجتمعات العربية الإسلامية لأن حكمهم قد يكون أكثر قوة في هذا المجال، إذ لم يستطيعوا دعم قوارعهم إلا أن يشتر على معاملة العرب لوقفتهم. ولعل ما يستوعى شأنا ما كتبه الرحالة البرتغالي دورت باربوسا Barbosa في أوائل القرن السادس عشر الذي عثر باب حالة الرقيق في شرق إفريقيا كانت تدس على مالكيهم من العرب من إنسانية حتى يُعجز أمره أحياناً أن يميز الرقيق عن منك، إذ يسيح هؤلاء لهم أن يقتلوه في المناس ومن غير من شئون العيش^(٢) أب من الرحالة بوركهاردت فقد أكد بأن الرق في بلاد العرب ليس فيه ما يحيف ويعز إلا اسمه، فالقوم في كل مكان يصعدون رقيق كما يمدون أبناءهم من لحمة عندهم أن يبيع الرجل عبده بعد عشرة سنين، وفي أن نجد عبد، خدم أسرة محترمة فتسرة من الرمن وسم يثل حرته، وعالم ما تعتق لأمه إن ولدت لبدها طلقاً إذ مما يشين المسمى ميم إذا كان مولود ذكراً، إلا يقدم بلام وثيقة الزواج ويبرئها عن قدم المساواة مع سائر العرييات ويعبر أبناء منها أبناء شرعيين لا يفرق بينهم وبين أبنائه الآخرين، كما كان يبيع للرقيق حضور محالين الأسرة ويصح بهم بالتجارة أو بالاشتغال بغيرها من الأعمال حسابهم الخالص^(٣) وحول منتصف القرن التاسع عشر أكد همرتون المقيم لبريطاني في

(١) جون كيني - بريطانيا والخليج - ترجمة محمد أمين عبد الله - المجلد الثاني - نشر وزارة التراث القومي والثقافة - دمشق - ١٩٨٤ ص ٣

(٢) Teimungum, S. Op. cit., p. 212

(٣) جون بوس بوركهاردت - وحكام في بلاد النوبة والسودان - ترجمة فؤاد المروان - نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٥٩

إيجيار بأن الرقيق يشبهون طعاماً جيداً ولا يباع معاملة لهم، ومن النادر توقيع «عقابه عليهم»^(١١) وحول تلك الملاحظات أيضاً أورد كيمبل Campbell في تقرير بعث به إلى حكومة الهند في عام ١٨٤٢ أن العديد بعد شرائهم تعتبر حدتهم سلبية، أي لا تحس وأنهم يعيشون عادة في كنف الأسرة التي يعمدون فيها ذوي شعور بضمهم، إذ كان سندهم ياملونهم كمعاملتهم لأفراد أسرهم سواء، وبالتالي فإن هؤلاء العبيد بالمقدس يخلصون ويجدون عتسي الرغبة وخماس وتظهر عبيهم إمارات الرضى والسعادة وفي أوائل القرن الماضي أبدى أرنولد ويلس Wilson ملاحظاته عن وضع الرقيق قبل انتقالهم من موطنهم الأصلية وجانبهم بعد دخولهم في حضرة للعرب، فبعد ظروف مقاسية التي يصاحب عملية نقلهم أو الخصوم عبيهم تتغير حالتهم إلى الأفضل بمجرد انتقالهم أو بيعهم للعرب، ومع تقديره بصحوة الحياة التي يجدها الرقيق في ظل الاسترقاق، لا أنهم كانت بكل تأكيد أقل شقاء من حياة رجاس القيدة لإفريقية، وذكر أن الرقيق بعد «مساقتهم لإسلام من حقهم تحت ظروف متفق عليها أن يملوا حريتهم كاملة». أما عن برغزيم توماس فقد أكد لنا بأن معاملة العرب للرقيق قد عشت على وصمة العار التي لاومت الاسترقاق في المناطق الأخرى^(١٢).

أما عن المصادر العربية المعاصرة لمجتمعات افريق في إفريقيا فقد أكدت لنا بدورها أن العرب حببوا للرقيق الإقاعه فيما بينهم، وأصحى السيد بالنسبة للرقيق بمنزلة الوالد لأبيه أو المعلم لتلميذه والشدة التي كانت تسب للعرب في معاملة رقيقهم مع تلك قاعدة وكثير من الرقيق صاروا شركاء للعرب من جهة ثروة، ومن نجد تلك المصادر بأما في أن تعترف بأن الأرقاع قد يبعرون إذا ما تهيأت لهم فرصة التعليم مرتبة لا تقن عما يتسبب لأبناء مالكيهم بل إنه كثير منهم أصبحوا قدوة لساقتهم في أمور الدين والدنيا^(١٣).

(١١) مارل داليموند إفريقيا تحت الصوء جبهة . Old Africa Rediscovered . مرجع جمال أحمد . القاهرة . ص ٧

(١٢) بروجيهارت . مصدر سبق ذكره ص ٢٩٣ - ٢٩٤

(١٣) جود كوشه . مرجع سبق ذكره ص ١٧ ص ٥ - ٦ انظر أيضاً

Coupland, R., East Africa and its invaders, Oxford 1938, p 347

وعلى الرغم من أن الرق المنزلى كان هو النوع الأكثر شيوعاً في المجتمعات العربية، إلا أن ذلك لم يمنع العرب من استغلال الرقيق في أغراض اقتصادية وعسكرية، وعلى سبيل المثال استعان المسلمون بـ قبيح الدولة الطولونية في مصر^(١) بمقتضى معاهدة البقعة لخدمة هي يلجئ منذ عهد الدولة الطولونية في مصر^(٢) كما لعب الزوج دوراً خطيراً في الحياة السياسية حين استخدموا في الجيش على عهد الدولة العباسية ويكفي أن نشير بصدد ذلك إلى ثورة الزنج التي قاموا بها على مقربة من البصرة في لقرون، ثالث الهجري أو للتاسع الميلادي^(٣). وفي شرق إفريقيا استقر كثير من الزوج في المدن الساحلية وخاصة على عهد السلطنة العربية في زنجبار حيث اشتعلوا في صراخ القصب أو القرنفل أو جنوداً في القوات العسكرية التي تكونت في بعض مقاطعات الشرق لإفريقي^(٤)

ونمة حقيقة نود تركيز عليها وهي أن المجتمعات العربية لم تعرف العنصرية لعنصرية بين الأجناس المختلفة، ومن ثم شأب عممية انصهار سمرعان ما ذات فيها الزوج في المجتمعات العربية أو ذات العرب في المجتمعات الإفريقية^(٥)

وفي شرق إفريقيا بنوع خاص لم يكن أحد يستطيع أن يفرق بين العربي أو الرنجي، كما لم يعرف عن العرب كراهيتهم أو اصطفايتهم للزوج السليم استقروا بأراضيهم، وذلك على خلاف استعماريين البيض الذين استوطنوا جنوب إفريقيا وكبت وزودهم وغيرها ووضعوا تمييزاً عنصرياً، وكونوا مجتمعات متعالية تحقر الإفريقيين وت عزلهم في أماكن محبذة وتحجب عنهم ويسى عداوة حقوقهم بلدية ولاقتصادية وسياسية^(٦) وعلى الرغم من المساواة التي لحقت بشجارة الرقيق العربية إلا أنها لم تكن تعادل بما كانت عليه تجارة الرقيق الأوروبية فقد يكون حقيقة

(١) محمد مصطفى محمد الإسلام في الدولة في المصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠ من ١٣٩ - ١٤٠

(٢) كيلي، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٤ - ٥

(٣) إيمان وريت (سلفاً بنت سعيد) حكايات نبيرا عربية، ص ٢٧٩ وما بعدها، انظر ليف سعيد من ص ١٨٦

الأمري جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان من ص ١٨٦

(٤) محمد أمين، جنود المملكات العربية الإفريقية في المصور الوسطى، بحث منشور في الملتقى العربي الإفريقي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨

(٥) Coupland, R. East Africa and its invaders, Oxford 1938, p. 32. (٥)



أن ثقافة الرقيق كانت تعرض لشعاع كبير، حين كان الرقيق يقسرون على قطع الطريق الطويل من الداخل إلى ساحل البحر ويعربو باعتراث منهم عتق أو غير. إلا أن حش كبر يحدث أيضا لبحر الرقيق موافق بهم، وذلك فضلا بموجب الاعتقاد أن ساحر برقيق العبري كان يتعمد اختلاق شعاع لمرفيق منسب السد وهو أنهم سبغت وتجارت له وأهله هي كل ثروته ويهد هذا من مصلحة الأبناء على لرقيق أحياء سلبى ينسى له يبعهم فى الأسوق وقد أكد الرحالة موركانوم بصفه ذلك أن صحة العميد كانت على الدوام محل عناية الخلافة فالرقيق كان يصيب طعمه بانتظام ويأخذ حظه من به خلال الرحلة ويبقى معدية أقرب إلى برقة مها إلى العف، وحين تصل بقائه إلى أسواق الرقيق يبدأ لعديده بأفراخا وزد كان لا يفتح أن بعض من الخلافة كانوا يتجرون فى مجاورهم تجارة شاة^(١١) وليس حقيقيا ما دعبت به بعض المصادر الأجنبية من أن تجارة العرب بالرقيق كانت هى السمة التى اتصف بها نشاط الاقتصادى العربى فى الفترة التى سبقت علاقات أوروبا بالدولة الإفريقية إذ به لاقتصادى العالم العربى والإسلامى كان اقتصادا غنيا وبالتالى لم تشكل تجارة الرقيق إلا جزءا يسيرا منه. وتفضلا عن ذلك فإن هذه المصادر تركز على الأزمات الاستعمارية عند تعلق اتصال العرب والإفريقية دون تركيز على أن تلك الاتصالات كانت لها حوسبة الإيجابية وحسب السعى الشراعية إلى شرق إفريقيا لم يكن يجلب الجحش لحبس وإن كان يجلب الرخاء لاقتصادى الذى ظهر فى تأسيس العديد من المدن والممالك وسطعات العربية الإفريقية لنى تحدث عنها الرحالة العرب فى العصور الوسطى والتى بحثى لها البرتغاليون أنفسهم حين وفدوا إلى سواحل شرق القارة منذ أوائل القرن السادس عشر ميلادى^(١٢). كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من ممالك واحواضر الإسلامية لرغبة التى لهوقت فى مجالات لاقتصاد والتجارة والثقافة، وبسبب اللجان ما متعا لمناقشة تلك المؤثرات الحصرية التى تلحقها ذهبت به تلك المصادر من أن الإنسان الإفريقى كان هو العملة المتداولة

(١١) صلاح العقاد وجبال ركزا باسم - زعيم، القاهرة ١٩٥٩، ص ٦٤

(١٢) أحمد مويلم العربى - العرب والإفريقية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٩٤ - ٩٦



لدى العرب في التجارة الإفريقية والحقيقة أن هذه المصادر لا تنظر إلى مسألة العرب والرق في إفريقيا من خلال إطارها التاريخي والاجتماعي على عكس ما قصه من تحليلات اقتصادية لتجارة الرقيق الأوروبية عبر الأطلسي ولعل ما يشعرون أن يشير إليه في هذا المجال هو أنه على الرغم من أن تجارة العرب في إفريقيا امتدت لعشرات طويلة إلا أنها اقتضرت على الجهد العرضي وفل أثرها في غرب إفريقيا عند بداية القرن السادس عشر حين تحولت التجارة إلى سواحل المحيط الأطلسي بدلاً من سواحل البحر المتوسط^(١) وفي شرق إفريقيا امتدت تجارة الرقيق العربية تجارة محدودة لأنه لم يحدث توغل عربي منظم في دواخل شرق إفريقيا إلا بعد تأسيس السلطنة العربية في الجزائر عند منتصف القرن التاسع عشر^(٢)، ولا توجد لدينا بطلية الحال إحصائيات عن حجم تجارة الرقيق العربية في الفترة التي سبقت القرن التاسع عشر إلا أن التقديرات التي وصفت عن هذه التجارة في شرق إفريقيا خلال النصف الأول من ذلك القرن لم تكن تتجاوز (٢٠٠٠٠) صوب وذلك استناداً على تفسير الكابتن كوجان من الأسطول الهندي البريطاني في تقرير معث به إلى حكومته أوضح فيه العدد بالنسبة للرقيق الذين يصدرون من الجزائر إلى أقدر سحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية ودارس^(٣) وقد يجمع هذا التقدير بطبيعة الحال إذا أضف إليه عدد الرقيق الذين كانوا يتقلون من الحبشة والسودان إلى مصر والجزيرة العربية، ومع ذلك فلم يكن العرب وحدهم الذين كانوا يقومون بهذه التجارة وحي شاركهم فيها الأوروبيون واليهود الذين كانوا يمولون معظم عملياتهم، وهذا كانت تلك تقديرات الرقيق في السودان وجزائر الحبشة حيث وسيلة النقل سهلة ورحيصة وهي البحر في ظل المناخ الموسمية بالنسبة للرقيق المنصر إلى الجزيرة العربية، فإن لم لا شك أنه أن أعداد الرقيق التي كانت تصل بطريق البر عبر الصحراء إلى مصر وليبيا والعرب كانت أقل من ذلك بكثير، وذلك على الرغم من تميزه بعض المصادر الأجنبية من إيراد القطاع

(١) بورتغاليس، رحلات في بلاد النوبة والسودان من ١٦٦١ - ١٦٦٢

(٢) شارون جران - وثائق تاريخية وجغرافية وخرائطية عن شرق إفريقيا تعريب يوسف كمال، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٦

Bavili E. W. 'The Golden Trade of the Moors, London, 1968, p. 13. (٣)

البحر في من عدم التنبؤ وكأنه موقوف كبير يحتاج إلى أعداد ضخمة من الرقيق، ومن الواضح أنه هذه المصادر لم تفرق بين الرق في عدم العربي والعالم العربي، وعلى حين اتحد الأوروبيون من الرق عندما تم تصديدها فإنه كان يشكل عند العرب نظاما اقتصاديا بالدرجة الأولى، وبالتالي لم تكن حاجة العرب إلى الرقيق نفس الدرجة التي كانت عليها، حاجة عدم لأوروبي أو لأميركي، ومن ثم فإن النظرة الثقافية تؤكد لهذا أن الأوروبيين هم الذين اتخذوا من الرق وسيلة لجمع الإفرقيين من سواحل القارة وعصبها وأدغالها للعمل كأرقاء مسخرة في مزارع بعالم الجديد وكان لا يهتمهم أن يقع الإفرقيون صرعى نتيجة لأرض أو الأمراض أو العمل الشاق ما دام سبل هذه التجارة يتدفق على مزارعهم^(١)

وعلى ما يشير الذهب أن تجارة الرقيق الأوربي وجدت من يدافع عنها من الأوروبيين لدى أكدوا على أن استرقاق الأوروبيين للإفرقيين غير لهم وأنه مدمرة فعلة لاسترقاق حيث جلبت بين الإفرقيين أنفسهم ولا بأس أن يقوم بها الأوروبيون الذين هم أكثر عدالة في معاملة الإفرقيين من ملاكهم الوثنيين^(٢) وقويت هذه المفولات حين وجد الأوروبيون في تجارة الرقيق تجارة مربحة وحقيقة التي لا مرء فيها هي أنه إذا كان الإفرقيون قد تعرضوا خلال الاسترقاق في أوطانهم نتيجة ظروف اقتصادية أو اقتصادية معينة فإن حالات الاسترقاق هذه لا يمكن مقارنتها بما صدر عليه الرق ولجأته لدى الأوروبيين، ولعل ما لا سبيل إلى إنكاره ذهب أن حروب الداخلية في إفريقيا كان للأوربيين الدور الكبير في إثارتها حين عقدوا الاتفاقيات مع الزعماء وأمدوهم بالأسلحة، وساعدوا أنفسهم للإفرقيين هي تلك التجارة قبل الحروب فيما بينهم وهي حروب لم تعد مرتبطة بالعرف أو التعاليد الدينية كما كانت في الماضي وبما تحولت إلى حملات عزز واستحوذ حجرة أدب إلى نشر الفوضى وتشريد المجتمعات وتحطيم القبائل، وأصبح هدف الإفرقيين الدفاع عن أنفسهم ضد المدحجين أو الاشتراك في ذلك الحروب لصالح الشحر الأوروبي^(٣)، وعلى عكس ما أوردته كثير من المصادر الأجنبية من أن الأوربيين جندوا إلى إفريقيا لشرب الحاضرة يوجد أن أغلب خصومات التي كانت

(١) رومالد برايسنر، إفريقيا جنوب الصحراء من ١٥٦

(٢) جيران كيلر، بريطانيا وبلجيكا ج ٢ ص ١٦٠

(٣) أحمد سويلم المصري، العرب والإفريقيون ص ٩٣ - ٩٤

قائمة في إفريقيا قد انهارت بعد قدوم الأوروبيين، ولعلنا لا نجانب للصواب إذا ما ذكرنا أن تجارة العرب في الرقيق سم تآثر على نحو المجتمعات الإفريقية لأنها كانت تجارة معملية وسم ينضج حجمها مسيا إلا بعد وصول الأوروبيين إلى سواحل القارة الإفريقية^(١)

ومن يلتحق عليه أن البرتغاليين كانوا أول شعوب الأوربة التي اشتغلت في تجارة الرقيق في العصر الحديث، ثم جاء في ركبهم الإسبان والإنجليز واليهود والبرتغاليون والديماركيون. وكذا ما شجع الأوروبيين على التحمس قديما في هذه التجارة انطباعه لهادي على برقيق، وبذلك لم تلم تجارة الرقيق لأوربة على جهود فردية وإنما تأسست من أجلها الشركات التي عقدت الاتفاقيات وأنشأت الأساطيل وأقامت الحصون ومراكز التجارة على سواحل القارة الإفريقية ولا سيما في غربها، وكانت تلك المراكز طليعة الاستعمار الأوروبي، فضلا عن أنها ضيقت الخناق على القارة وفرضت على سكانها الرق والسخاسة وكانت تدفع التجارة بها في الثراء الذي حدث في أوروبا وازدهار بلدانها وأوانى أوربة وعلى رأسها بريطانيا والفرنسا والمغرب التي وصفت بأنها بقاء الرقبة للاسترقاق في كل أوروبا^(٢).

ولمن ما يسرعى الانتباه في هذا الشأن أن التطورات الاقتصادية التي حدثت في أوروبا والعالم الجديد والتي استلهمت نقل الرقيق الإفريقي تتكاثرت الكميات الكبيرة من تواجدها تطورات اقتصادية في العالم العربي، ومن ثم تغيرت تجارة العرب في الرقيق كما أثرنا بالطابع العربي، ومن حاجة أخرى كان أقصى ما تصل إليه تجارة الرقيق العربية هو الشمال الإفريقي بالسبب لتجارة الصحراء أو الجزيرة العربية، وبلدان العربية المجاورة لها بالسبب لتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي، من إن هذا كبير، من الرقيق كان يتوقف في البحار حيث يعملون في مزارع القصب وقرصن، وبذلك على عكس تجارة الرقيق الأوروبية التي كانت

(١) ويلفرد. إيرلاند جنوب الصحراء من ١٤٨٢، ص ٧٠ - ٧٧

(٢) أحمد زهران، جدد - تجارة الرقيق وأثرها في استعمار غرب إفريقيا، العدد ٢ من مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخ، القاهرة ١٩٧٣

نصل إلى أمريكا الوسطى والبرازيل وأمريكا الشمالية وبعض أسواق الأوروبية
ومستعمراتها

وهي مقاربة بين تجارة الرقيق لأوروبية والعربية يذكر دافيدسون Dav-
dson، أن تجارة العرب في الرقيق لم تكن إلا نكسة عابثة على أطراف لقدره
ودوامها، ولكنها اتخذت شكلا جديدا حين شرعت السفن الأوروبية تتولى عبث
الكواف من الداخل إلى الساحل، وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بملوك
الأسود الذي اجتاحت أوروبا في القرن الرابع عشر ففرض على ما يغرب من ثلث
سكانها من كانت هذه التجارة أسوأ لأن نتائجها الاجتماعية والنفسية كانت أقسى
من ذلك الزلاء الذي تفشى وانتشرت معه آثاره^(١) ومع ذلك فقد يكون من
بعضوية تحديد ما فقدته القدرة الإفريقية جيلة القرون الأربعة التي عرفت فيها أوروبا
بتجارة الرقيق إذ إن أية محاولة لوضع تقسيم دقيق لحجم وسعة تلك التجارة مقضي
عجزها بالمثل من البداية لعدم توفر إحصائيات أو أرقام صحيحة على أنه يمكن
الوصول إلى تصور عام لحجم هذه التجارة إذ أن أغلب في اعتقاد صوف الإفريقيين
في العميات العسكرية وهلاك الكثيرين منهم خلال أسيرة لشدة من الداخل إلى
الساحل حيث لمراكز التي كانوا يكدسون فيها قبل إرسالهم أو الذين يموتون في
السفن نتيجة لأمطار أو الاحتراق أو الإلقاء بهم في البحر أو أثناء تطويعهم
واقدمتهم للعمل ومن تلك الظروف يمكننا إدراك مدى سعة هذه التجارة وآثارها
على مجرى الحضارة القبلية الاجتماعية مما مهل على الحركة الأمريكية اجتياح
بفارة الإفريقية دون أن تجد مواجهة لها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
والعصور التي اقترنت بالحصول على الرقيق والاتجار فيهم أصبحت قصة معروفة
حتى أن مناقشتها تعتبر من الأحداث المعاصرة، ولكن بهم أن يشير إلى أنه قد توجب
على المجتمع الأوروبي في تجارة الرقيق أن أصبح ما لا يقل عن ١٠٪ من سكان
الولايات المتحدة الأمريكية من الزنوج، أما سكان أمريكا الوسطى والبرازيل فإن
كثيرا من سكانها يرجعون بأصولهم إلى الزنوج من ناحية ريفية هي التي تشكل
عناصر سكان في كل من هاتين وسائر دولهما. وعنى عكس ذلك لا نجد سوى

(١) كلارك ومارتنج كتابا الرق والرق، ص ١٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩

جعبعات قليلة من البروج في العالم العربي وحتى هذه المجموعات التي وجدت في الماضي لم تلبث أن انصهرت وسط المجموعات العربية، ومع تأكيد على تلك الحقيقة التاريخية، إلا أن بعض المصادر الأجنبية تعطي انطباعاً لدى قارئها بأن قوة بروج في العالم العربي لا ترجع إلى قلة ما كان يصدر منهم وإنما ترجع في الدرجة الأولى إلى خصي الذكور مما أدى إلى وقف تزايدهم^(٦١)، والحقيقة أن كل ما قيل من ذلك فيه الكثير من المبالغة، وربما تكون تلك المصادر قد خلطت بين عسيتي الخصي والختن. وطبقاً ما يذكره بوركهارت أنه إذ افترض العربى علام اخته وأصدق عليه اسماً عربياً وأدخله لإسلام، ويؤكد أنه لم يكن هناك سوى إقليم واحد من أقانيم السودان العربى وهو إقليم بربو الذى كانت تجرى فيه عملية الخصي والتي كانت تتم فى أغلب تزويد تركيا بالمخزاس الفاتمين على خدمة لحريم حتى أن محمد على فى عام ١٨١٥ أمر بخصي مائتى غلام من دارفور وأهلاًهم إلى الباب العالى، وبعد العملية كما يقرر بوركهارت صراجه كان يرتديه العرب ويمتدونها^(٦٢)

ومن ناحية أخرى نحاول بعض المصادر الأجنبية أن تقلل الفترة التي مارست فيها أوروبا تجارة الرقيق من ذلك ما ذكره جون جنتر Hunter أن الاسواق سم تجارسة أوروبا بشكل مكثف، إلا لمدة قرنين ونصف قرن وحلى وجه التحديد بين عامى ١٥٦٢ و ١٨١٨^(٦٣)، كما يذكر رولاند وايسر أن عدد الأرقاء الأفريقيين الذين وصلوا إلى الاسواق الأجنبية بين عامى ١٤٤١ و ١٨٨٨ ثم يتجاوز ستة ملايين^(٦٤)، ولعل من الجدير الإشارة إليه أن الوعي الإفريقى أدى إلى نشوء فكرة الزنجية من أوائل القرن الحادى التى شاعت فى غرب إفريقيا وانتقلت إلى شرقها، إلا أن ما يلاحظ على دعاة الزنجية أنهم وقعوا تحت تأثير مراهم بعض كتاب الغرب الذين اتهموا العرب ببلد تجارة الرقيق الإفريقية، ودبت تهم من المسئولية التاريخية

Coupland R. the British anti-slavery Movement, p.p. 36 - 38. See Also Burns, (١١) History of Nigeria, London, ١958, p. 67

(٦٢) بوركهارت ج. رحلاته في بلاد النوبة والسودان، ص ٢٩١ - ٢٩٢

(٦٣) Ghenet, John, Guide Africa Vol. II, London, ١959, p. ١١

(٦٤) دابنتر: إفريقيا جنوب الصحراء، ص ١ - ٤

مدول العرب في هذه التجارة، مثالة حتى أنه نجد بعض المنفيين الإفرقيين أصبحوا يرددون ذلك المرحوم مشهعين تجارة العرب في إفريقيا بأهد كالت أعمال إحدى هدم إفريقيا السوداء، بل ربما نجد هذه الانتقادات تكون للعرب بأكثر مما تعرض له الأوروبيون ودورهم في التنمية والاستعمار. والأمر الذي لا شك فيه أن فكرة التجارة كانت في بدايتها ردة فعل إفريقية ضد تجارة الرقيق الأطلسية والاستعمار العربي ولم تكن كما أراد بها بعض معكريها أن تكون ردة فعل ضد التجارة الرقيق العربية عبر الصحراء أو المحيط الهندي أو الرخود العربي في إفريقيا^(١١).

وبعد من تجدد الإشاعة بيه أن تجارة العرب في إفريقيا رغم أنها امتدت عبر قرون عديدة، إلا أنها لم تنته، إلا في القرون التاسع عشر أما قبل ذلك، افترق فمن المؤكد أنها كانت تجارة محدودة، فهي شرق إفريقيا اقتصر على أطراف القارة وسواحلها، ولم تكن طرق القوافل قد انتظمت في الساحل. وفي غرب إفريقيا، انهارت قوافل الصحراء القسيمة التي كانت تربط شمال إفريقيا بمناطق جنوب الصحراء كما خيم الركود الاقتصادي على موانئ البحر المتوسط بما فيه ذلك مصر، وشهدت الفترة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ميلادي اضطرابات وقلاقل قسبية أثرت على حركة التجارة عبر الصحراء التي تحولت إلى سواحل الأطلنطي، أصبح تجارة الرقيق لأوروبية، وبطل ما شير لاكتياد أيضا أن نمو تجارة الرقيق العربية في القرن التاسع عشر لم يكن لصالح الاقتصاد العربي بعد، كما كان مصدرة تجار الرقيق الأوروبي أنفسهم، وحيثما تقرير رجبي الفصل البرياني في البحار في عام ١٨٤٠ نجد أن تجارة الرقيق العرنة قد في اندحارها تجارة الرقيق العربية حيث كانت الشركات التجارية العرنة ومن أبرزها شركة فيندال تقوم بهذه التجارة تحت مسمى شركة بحار لأحرار الذي لم يكن لا تحديلا قنوب على الاسترقاق^(١٢) ومن ناحية أخرى انهارت مصانع التجارة العرب من نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأخذ النفوذ الاستعماري يحل بدلا من نفوذ

(١١) حامد ربيع، المرجعة في الفكر السياسي، مجلة العلوم الإنسانية والاقتصادية - العدد الثاني لسنة ١٩٩٠ -
 رتبة ١٩٧٣، ص ٣١ - ٣٥

(١٢) Crupland, R., East Africa and its Invaders, p. 315, 323



تاجر الرقيق العربي، ولكن من جرّاء ذلك أن شهدت كثير من المناطق الإفريقية صراعات مسلحة قاده تجار الرقيق العرب أو المولودون ضد المستعمر الأوروبي ومن بين هذه الثورات التي ظهرت في بعض المناطق الإفريقية ثورة الهدي في السودان وثورة بوشيري والمنجي مدجي في بعض مناطق الاستعمار الألماني في شرق إفريقيا وثورة تيوتيب في مناطق الاستعمار البلجيكي في الكونغو وشمبان دانهوديو في مناطق الاستعمار الإنجليزي في تيجيريا.

وبما نحرص لإشارة به أن الدول الاستعمارية، وعلى الأخص بريطانيا قد امتلعت حركة إلغاء تجارة الرقيق في النصف الاستعماري في إفريقيا مدعوى القضاة على تلك الناحية في مصادره الساحية ومن ثم أحد الرحالة الأوروبيون من رواد حركة الكشف الجغرافية يبررون التدخل الاستعماري بما جعلوا إليه من تهويل في تجارة الرقيق العربية ومبالغتهم في الإحصائيات الخدمية بنتلك التجارة بهدف إثارة الرأي العام الأوروبي، ومن بين هؤلاء السير هملين ويكر الذي تحدث في كتابه أليوب يندرا عن القوافل العربية التي كانت تنجس بدويين من المناطق الامتوائية إلى موانئ التصدير في سواكن ومصنوع وهور وريبع وبربره كما كانت مكثافات وتقدير عجبتون أثره الكبير في تهيج الرأي العام الأوروبي واحد بصور مغلقة لبحيرات الامتوائية على أنها وكر كبير من أوكاز تجارة الرقيق واحد يرسل لبلاده المعلومات الكثيرة عن أنشطة للعرب في تجارة الرقيق كما وصف رحلة الرقيق من الداخل إلى موانئ شرق إفريقياهم يحمدون العلاج على رؤوسهم وأنهم يوثقون بعضهم بالحق الأخر ويستقروا بالسياط حتى أن كثير منهم كانوا يعذبون في الطريق، أما عن الرحيل فقد تحدث الكاتب هير ١٨٣٤/١٨٣٦ عن سوق الرقيق بها مؤكدا أنه رأى بعض سيمالة فتاة وهي معرضات بمحضر غير إنساني مقسوز من قبل المشتريين، أما عن بوفيل BOVILL فقد ذكر أن الظروف كانت أشد قسوة في رحلة الرقيق عبر الصحراء الكبرى وقيل منهم كان يصل سائلا إلى أسواق الرقيق بينداري وطرابلس وتلمسان وغيرها، وأن كل مسافر في الصحراء كان يقرر مدى المصاعب الذي يتناهب حين يجد آلافا من الهيكل الأجمة من الرقيق تتكاثف حول الأبار مظهرة لأمن الأخير بلوهول إلى انه ثم موت نتيجة الإجهاد والإعياء^(١)

Bowl: The Golden Trade of the Moors, London, 1958, p. 243 (

وقد بدأت بريطانيا تسعد إلى سلطنة بحار في حركتها ضد إلغاء تجارة الرقيق
العربية منذ عام ١٨٢٢ حينما عقدت معاهدة مرسى اثنى كانت ترضى حظر
جزئي على تجارة الرقيق، ثم معاهدة ١٨٤٥ متى كانت أكثر تحفظا لسبب التجارة
وقد أجارت هاتان المعاهدتان لبريطانيا حق تعيش العرب ومساكنها بتوحيه اشتد
بمجره الرقيق^(١) على أنه مما يلفت النظر أن معاهدات وقرارات الإلغاء اثنى
الترمت بها السلطنة العربية في زحوا لم تكن موجهة ضد التجار العرب فحسب
ولم كانت موجهة أيضا ضد تجارة الأوربيين للرقيق في شرق إفريقيا حيث أحت
بريطانيا على حاكم السلطنة تسميم العرب البريطانيين المتوطنين في تلك التجارة
ولعل الأمر الذي أصدرها السيد سعيد سلطانة زحوا إلى ولاته في شرق
إفريقيا بمنع بيع الرقيق إلى شعوب سيحية يوضح ب مدى تورط هؤلاء في تجارة
الرقيق في شرق إفريقيا^(٢) على أن المحورة لأكثر حسد في إلغاء تجارة الرقيق في
شرق إفريقيا حدثت بعد وفاة السيد سعيد في عام ١٨٥٦ حينما حدثت بريطانيا إلى
فصل سلطنة زحوا عن سقط على أساس أن التقسيم يهيئ لها الفرصة للقضاء
على تجارة الرقيق على اعتبار أن المجتمع العماني بني نظامه الاقتصادي على الرق
واستمرار حضور زحوا معناه الاستمرار في ممارسة تلك التجارة، وعلى
عهد خديوة السيد سعيد تجمعت بريطانيا بمقتضى معاهدة ١٨٧٣ في إيجاد حظر
شامل لتجارة الرقيق، كما أقيمت على إلغاء نظام لاسترقاق في زحوا في عام
١٨٩٧. ولعل من الأمور الملفتة للنظر أن الحكام العرب الذين نهضوا مع حركة
إلغاء تجارة الرقيق سواء كان ذلك تنويرهم الإنسانية أو للقضاء الاستعمارية التي
تعرضو لها قد عانوا نتيجة لذلك كثير من المتاعب الاقتصادية فضلا عن أنهم لم
يأخذوا من بريطانيا تعويضا عن إلغاء تلك التجارة على الرغم من أن بريطانيا دعت
إسبانيا في عام ١٨١٧ على ميل المثال ٤٠٠ جسد استرلى لموافقتها على
إلغاء الرقيق^(٣)، ومن ناحية أخرى فانه على حين تطلبت الضرورات الاقتصادية في
أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلغاء الرق قرب تلك الضرورات الاقتصادية لم

(١) Hunter, J., op. cit., Vol. II, p. 349.

(٢) Ibid.

(٣) حماد، ذكره القسم دون يوسيد في عمان وشرق إفريقيا، ١٩٦٧ من ٢٤٧ - ٢٤٩



تتمشى مع تزايدان العربية أو الإفريقية، وعلى العكس من ذلك فإن إلغاء لرق في إفريقيا أحدث آثار اقتصادية سيئة لأن المجتمعات العربية الإفريقية مع تواكب التطورات الاقتصادية أو الصناعية في أوروبا، وكانت تلك المجتمعات لا تزال في أشد الحاجة إلى الأيدي العاملة من الرقيق حيث كان يعهد إليهم بمعالجة لأرض، كما تعرض الحكام العرب لتفقد مراكزهم أمام رعايهم حيث كان يشكل الرق للعملة الذهبية في تجارتهم أو القوى العاملة في مزارعهم، يضاف إلى ذلك أن إلغاء عبادة الرقيق أحدثت انتكاسة في تجارة نسيج حيث أصبح من الصعوبة حمل النسيج من الداخل إلى مراكز التصدير على الساحل في الوقت الذي لم تكن قد آمنت فيه ومماثل المواضلات الحديثة والأهم من ذلك فقد أدى إلغاء الرق في زنجبار إلى إثارة العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، إذ كان كثير من هؤلاء يمتلكون ثروات من العبيد الذين يشغلهم في إدارة مزارعهم ويعنى تربيهم أو تحريرهم فجاء أن يتوقف العمل وتتقطع انوار. وبغضاً عن ذلك فقد كان من نتيجة قرارات التحريم المتعاقبة ظهور مشكلات كثيرة فيما يتعلق بإدارة العوصى والاضطراب^(١٦) وقد ذكرت بعض المصادر المعاصرة أن زنجبار امتلأت فجأة بالآلاف من المعطلين عن العمل حيث وجد رقيق أنفسهم ولأول مرة بلا موارد ولا مأوى بعد أن نحى عنهم الجميع وعلى رأسهم الإسانيون من رسل مكافحة الرقيق الذين طلبوا أنهم أدور، أدورهم وأنجروا رسالتهم^(١٧) ذوب أن يقدروا النتائج التي ترتبت على هذا الإلغاء من جرائم وتشرد حتى ذكر أحد أعضاء لجنة تقصى الأحوال برقيق في سلطنة زنجبار أنه تلقى من العبيد الطليقة من ودوا لو عادوا إلى الرق ثانية حيث فقدوا الرياء لإقصاء القديم الذي كان يربطهم ببعض انوارع وملاكهم العرب وكانت مزارع الحرب في زنجبار تدار على طراز الأنظمة الإقطاعية التي عرفت المجتمعات الآسيوية حيث كان يقدم للرقيق مساحة من الأرض تقرب من أربعة فدانين يعمل في زراعتها ثلاثة أيام في الأسبوع ويقوم بدلا من دفع لإيجار بالعمل في مزرعة المالك العربي في الأيام المتبقية^(١٨). بينما أكدت كثير من

(١٦) جون كيني: بريطانيا والخروج، ج ٢، ص ٢٤.

(١٧) محمد بن علي المقرئ: جبهة الاشراف في تاريخ زنجبار، ص ٢١٨ - ٢٢٠.

(١٨) صالة بيت سعيد (في زنجبار)، مذكرات أميرة هزبة، ص ٢٤٨.

المصدر بأن الإمبريى أصبح يغشى لاسترقاق حتى بعد تحريره من الأوروبيين الذين كانوا يكلّمونه بما هو فوق طاقتهم، وندبت كتب من نصيبهم أن يفصل الرقيق ملكية العبريين على المستعمر لأجبي الذي وغم تحريره به إلا أنه أحد بمامله معاملة لشخصى آدمى مربية وأكثر استغلالاً^(١)

أما فيما يتعلق بمصر فمن المعروف أن من بين ذرائع محمد على مفتوح السودان في عام ١٨٢٠ حاجته إلى أعداد كبيرة من الرقيق لتجديدهم في الجيش المصري أو مستخدمهم في بعض مشروعاته الصناعية، كتب إرداد استخدام الأسر التركية التي وقبت على مصر للرقيق في حياتهم المصرية وهي عام ١٨٣٧ كانت محمد على بعثة إنجليزية برئاسة الكونتيسة كمن وسكتور موريج وقترحت هذه البعثة أن يمنع كاشا عن دفع رواتب الموظفين ونصاحد والجنود في السودان بالرقيق، وتجمع لدى محمد على من الأسباب التي جعلته يوافق مع البعثة الإنجليزية في وضع حد لتجارة الرقيق بعد أن فشلت محاولاته في إيجاد جيش من الرقيق وحين رار محمد على السودان في عام ١٨٣٨ أصدر أوامره بمنع حملات جلب الرقيق، ومع ذلك فقد استعبر الحكام الأوروبيون الذين يبعث بهم محمد على إلى السودان يذكرون التجارة لأنفسهم، ولعل ذلك مما دفع محمد باشا في عام ١٨٥٦ إلى إصدار أوامره بمصر كل مؤلف في السودان ينهم بممارسة تلك التجارة ومع ذلك فقد مسألة الرق كانت من المسائل التي أخفق النظام المصري بحلها في علاجها، إذ به انهيار نظام الاحتكار في عام ١٨٤١ ونجح اليس لايض للملاحة والتجارة أدى إلى نه فهد التجار الأوروبيين وتجار السفات للعمل في تجارة الرقيق وبرزت من بينهم أسماء كثيرة من أمثال كاسملى وعلاك وديوللى ولابارج، وإن كان قد حدث في عام ١٨٦٠ أن باع هؤلاء وكالاتهم إلى التجار العرب والأتراك حيث ظهرت في الخرطوم بيوت العفاد والبصلى وود إبراهيم وخورشيد من الأتراك وشودة وغطاس من الأقباط المصريين^(٢) وقد باع هؤلاء

(١) هولنجورث، ص ١٠٠ و١٠١ تحت الحداثة، ترجمة حسن حسنى، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٧٧

(٢) محمد فؤاد شكري، مصر والسودان، تاريخ وسنة رابى القيل في القرن التاسع عشر ١٩٨٧ - ١٩٨٩، ص ٩٦ - ٩٥

شأوا كبيرا، حتى أنه أقالها بأسرها خرجت من عبود حكومة الخرطوم وحصلت للسكان المتصاهد لأولئك التجار، وكان من جراء ذلك تلك العقدة التي برست في نفوس الجنوبيين ضد الشماليين على الرغم من أن الحقائق التاريخية تؤكد ما أن كثير من الأوروبيين قد أسهموا في فتح التجارة وحين وصل الخديو إسماعيل إلى الحكم في عام ١٨٦٣ قطعت حركة الإلغاء شوط كبير سواء كان ذلك بسا تجاوبه مع تلك الحركة في حد ذاتها أو كان يهدف من وراءها تقوية عبوده، وإن كان استخدام الخديو إسماعيل لموظفين أوروبيين يؤكد لنا رغبته في القضاء على الرق وليس فقط دعم عبوده في مناطق أصنى النيل، وبعل الصب الذي تقدم به الخديو إسماعيل إلى قناصل بعض الدول الأجنبية في الخرطوم برفع حمايتهم عن تجار الرقيق سواء من العرب أو الأوروبيين يؤكد لنا الدور الذي لعبه الأوروبيون في تنشيط هذه التجارة وعلى الرغم من أن الخديو إسماعيل كان يدرك جيداً أنه من المتعذر تحديد وقت معين لإلغاء تجارة الرقيق إلجاء ثمة إلا أنه حضع بضغط الحكومة الإنجليزية وعقد معها معاهدة ١٨٧٧ التي كانت تنص على أن يتم الإلغاء في مصر خلال سبع سنوات وفي السودان خلال اثنتى عشرة سنة، ونصت المعاهدة على تعهد الحكومة المصرية من الآن فصاعداً على عدم إدخال الرقيق بأراضى القطر المصري ومنحقاته سواء بطريق البر أو البحر، وبأن يعاقب بأشد الجراء حسب مقتضى القوانين المصرية المتارى العمل بها أو بما تحدده المعاهدة كل من وجد متاعيا بيع الرقيق مباشرة أو بواسطة غيره، ولعل مما يلفت نظر في هذه المعاهدة أنها تقر صراحة على أن هناك تجارا من طير التابعين للحكومة المصرية يمارسون تلك التجارة حيث أنها قصرت سلطة الحكومة المصرية في محاكمة من يتعاضى هذه التجارة على من كانوا من يوابها فقط^(١).

ويعتقد كثير من المؤرخين أن معاهدة ١٨٧٧ كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى اندلاع الثورة لمهية في السودان التي وصفها بير كوينس Crapner بأنها كانت وليدة المعوانين الاقتصادية أكثر من التعصب العائلي ولم كان مردود على

(١) مزيد من التصيلات في معاهدة ١٨٧٧ انظر إسماعيل سرهنگ حقائق الأعداء في دور البحار، ص ٧ القاهرة ١٩٩٣، ص ٣٤٧، ٣٤٨.

عنه إسماعيل حكمدار معصوم لسودان قد مازر معول فوخلص نصريين
و سودانيين واستبدل بهم جماعة من الأوروبيين في المناصب الرئيسية فقد صور
هذا لبعض مدعيه بعضا من النصراية ضد الإسلام، وكذا يذكر ويعود بسبب أنه
كان من الأجدين لإلغاء تجارة الرقيق تشجيع الإصلاح الذي هو مصدر القوى
الشرعية التي تكمل انقضاء على تلك التجارة، دون مجرد فتوى بمصدرها شيخ
الإسلام بتحريم تجارة بريق كانت تعد في رأيه أجبي من جيش بأكماله يرس من
أجل تحقيق تلك العناية

بقي أن نشير أخير إلى أن معظم المصادر الاحتية تحدثت عن صدور
إحصاري الذي قامت به أوروبا لإلغاء الرق وتجارته دون تركيز على ما حققته من
براءة ذلك من سيطرة ونفوذ، ولعل ما يوضح ذلك أن مؤتمر برلين ١٨٨٤ -
١٨٨٥ لتقسيم القارة الإفريقية بين الدول الاستعمارية قد أشار في ميثاقه إلى
مسؤوليات الدول الأوروبية في حمل رسالة حضارة إلى إفريقيا، كما أثنى على
جهود البعثات التبشيرية وجمعيات إلغاء الرق^(١). وقد يكون حقيقة أن المستعمرين
أبطلوا الرق انفرادي، لا أنهم استبدلوا به الرق الجماعي، إذ إن استغلال الإفريقيين
في المصانع والمناجم والمخيمات تحت وطأة العمل الإجباري كان هو الاستمرار بعنه
أو الرق الحديث كما أطلق عليه بعض الباحثين، وذلك لم تكن الأساليب
الاستعمارية تختلف عن الرق التقليدي، إلا في الوسيلة بحكم ما فرضته من سخرة
على الشعوب الإفريقية في فترة فاقة من تاريخها^(٢).

(١) Posen, *The Arab and the African*, London, ١٨٩١, P. 241-242.

(٢) أحمد سويدان الغنوي الإفريقيون والعرب، المجلد ١٩٦٧ من ٩ - ٩٧.





الفصل السادس

سلطنة زنجبار واستقلالها

إلى الكونغو وهضبة بيجيرات

أشهر في الفصل الثاني من ذلك الكتاب كيف استطاع عرب الخليج والحريره
لعرية تأسيس عدة مدن ومراكز إسلامية على الساحل الشرقي لإفريقي وقد
شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر نجاح مملكة عمان في ضم المقاطعات
الساحلية في شرق إفريقيا تحت رعايتها، وفي عام ١٨٣٢ قلد سلطان عمان أهمية
القسم الإفريقي من المنطقة فعزل سيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦/١٨٠٦ عاصمته
حكمه من مقعد في زنجبار. ولأنك أن هناك دوافع كثيرة دفعت به إلى أحداث
ذلك الانتقال، ومن ذلك أهمية جزيرة زنجبار باعتباره مركزاً وسيطاً للتجارة
وعمليات الشحن التجاري لمقاطعات الشرق الإفريقي، هذا فضلاً عما تتمتع به
جزيرة زنجبار وغيرها من جزر ومقاطعات شرق إفريقي من موارد كثيرة^(١)

وستطع أن نقرر أنه بذلك الخطوة التي أقدام عليها السيد سعيد تبدأ المؤثرات
الداخلية في ترويج زنجبار والشرق الإفريقي بصفة عامة، وقد دعت عند انتقاله إلى
زنجبار عنات من عرب عمان والجزيرة العربية، فازدهرت التجارة وانتعشت معدتهم
إلى درجة لم تكن موجودة من قبل، كذلك ازداد عدد اليهود في شرق إفريقيا،
وبينما كان نشاط اليهود يقتصر على الساحل في المملاكات التجارية وأعمال النقل
البحري، نجد أن الصحاري العرب يتوجهون في المناطق الداخلية التي لم يرتدأ أحد
من قبل، واستقر الكثيرون منهم في بداخل وأنشأوا مراكز تجارية لدى جهود
في تقويتها، ومن ثم أصبحت تلك المراكز تبضع بصفة من السيطرة والغزو لسلطان
في الداخل، حتى لقد اشتهر مثل الواحسي «مقاتل» حينما نصب أحد جلي لومرو
في زنجبار يوقص الناس طريقاً عن البحيرات (٢).

When One pipes on Zanzibar, They dance on the Lakes.

ويبدو أن حلم تأسيس إمبراطورية عربية إفريقية قد تراءى لسيد سعيد بعد
بضع سنوات من تدمر عرب عمان إلى الشرق الإفريقي، وكان يأمل أن يعمد

Younghusband, Glimpses of East Africa and Zanzibar p. 238 See also F.O. Zanzibar (١)
ibid p. 40
Pearce, op. cit., p. 113 (٢)

ينموه إلى داخل القارة الإفريقية بعد أن تأكلت له السيطرة على الساحل من رأس
 جردفون شمالاً إلى خليج دجنادو جنوباً. وليس من شك في أن تلك السيطرة
 الداخلية كانت ترتبط بالناحية التجارية إذ شطبت القوافل التجارية في تحركاتها
 الدائبة وأصبحت تصل إلى جهات بعلة في قلب القارة الإفريقية كبحيرات باس
 وتنجانيقا وفيكتوريا نياسا بالإضافة إلى أن المغامرين من التجار كانوا يسكنون في
 صحرائهم بحثاً وراء المعاج أو الرقيق إلى الأجزاء العليا من نهري الكونغو والنيل،
 وسط انخربات الكثيفة وفي ظروف مناخية وطبيعة شاقة، وإذا ما عرف أن الواحدة
 من تلك الرحلات أو بالأحرى تلك المغامرات كانت تستغرق ربما طويلاً كان من
 اللازم أن يقوم هؤلاء التجار بتأسيس المحطات ومراكز للتجارة التي يعتصمون عليها
 في أسفارهم، وعلى هذا النهج قامت عدة مستوطنات عربية على طول تلك
 الخطوط التجارية التي كانت تعبرها قوافل التجارة العربية (١)

وهي يكون مجملها دراسة تلك المستوطنات بقدر ما يمكن أن يؤكد أنها كانت
 تعد ولا شك امتداداً لتعود وسيطرة سلطنة الحجاز في تلك الأثناء، ونشأ
 شهرتهم في أجزاء كثيرة من القارة الإفريقية، وكانت تنمي تلك السيطرة وتدعمها
 حركة مرور القوافل التي كانت تصل بين هذه المراكز في طريقها إلى الساحل كما
 كان يؤكد تلك السيطرة أيضاً أن الطرق التجارية عبر القارة الإفريقية كانت تقع في
 أيدي عرب عمان الذين وفدوا مع السيد سعيد للإفاحة للسلطنة في الحجاز (٢) غير
 أنه من الصعب علينا تحديد ممتلكات السلطنة العربية في داخلية شرق إفريقيا أو في
 أوساط القارة بصحة عامة لأن السمة التجارية التي طبعت حكام هذه المنطقة حالت
 دون قيام قواصل قاطعة لحسد مدى اتساع السلطنة في الداخل (٣) إذ إن سلطنة
 زنجبار قامت على أسس اقتصادية بحيث كانت لا تعترف بالقوافل مادامت عمليات
 التدفق التجارية قائمة والقوافل تشط في تحركاتها من مكان إلى آخر ولم تكن
 تسمى تلك الطرق ولا محطات أو مراكز تجارية أنشئت خصيصاً لتسهيل عمليات

Coupland, Exploration of East Africa, p. 5 (1)

France, op. cit., p. 128 (2)

Coupland, East Africa and its Invaders, p. 229 (3)

البلاد التجارية، ومقابل نشاط التجارى امتد شعور الانتماء الى سلطنة الى مناطق بعيدة عن الكنتون والبحيرات الامتوائية^(١).

وعند تجدد الإشارة بانه ان الأنظمة الخاصة التي وضعتها سلطنة ونجار كالت تنمى مع بعض أنشطة اقتصادية، إذ كان توجهها إلى تشجيع حركة التجارة في الساحل والساحل من طريق فرض أقل للكنوس البحرية بالنسبة لتجارة الخارجية بصلة خاصة، ويرجع للسلطنة العربية في ونجار فصل تشجيع برارعه، وخاصة القرض وعقد السكر، وذلك باستغلال خصوصية بعض جزر إفريقيا، وعلى لأخص جزيرتا ميا ونجار حتى أن هاتين الجزيرتين لاتزالان تقومان حتى يوم يومنا هذا العالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القروش، إذ يبلغ مقدار ما ينتجانه ما يقرب من ٩٠٪ من الإنتاج العربى^(٢).

وقد حرصت سلطنة ونجار في إدراهم مستلكهم في شرق إفريقيا على تعيين حكام محبين من أهالى البلاد يدهون لهم بالتبعية والولاء، وعلى بعض الأحيان كانه السلاطين يمشون بحكم من العرب أو السواحلية إلى تلك المناطق الداخلية مع إمدادهم بمعدات من الحديد تكون بمثابة أداة بحرين الحكام المعينون على تميمتها بأنفسهم، بشكل يحفظ لهم نفوذهم وللسلطان فيه غير أنه من الملاحظ بصورة عامة أن السلاطين لم يهتموا بوضع حاميات عسكرية قوية في مقاطعات الشرق لإفريقيا، ولعل لتحقيق الأهداف الاقتصادية التي كانوا يستهدفون من وراء امتداد ممتلكاتهم هو الذى حال دون قيام برعنة اقتصادية في تلك الممتلكات، إذ كانت مصالح الاقتصادية والرغبة في تقليم الحدة وأرددها تستلحق استئصال الأمن والمحافظة على تنمية المقاطعات الإفريقية إلى السلطة العربية.

(١) Colomb, Slave Catching in the Indian Ocean P. 363

Coupland, Exploitation of East Africa P.4 (٢)

See Also Pearson, op. cit., P. 122

وذكر أن العرب قد نقلوا هذه الزواجر من جزر موريس وكان الفرنسيون من أدخلوها إلى تلك الجزر عام ١٧٧٠ للهجر

Ruys, Said bin Sultan, p.p. 73- 74



وقد تزايد عدده السكان العرب تزايداً مطرداً خلال عهد السلطنة العثمانية، وكان هذا التزايد يرتبط ارتباطاً شديداً بموسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصبح جزيرة زنجبار ملائياً بالشجار العرب الذين كانوا يهدون من سواحل الخليج وجزيرة العربية، وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية إذ تصبح كثير من مقاطعات الشرق الإفريقي في موسم رائج من الحياة والمعاملات.

وكان عرب زنجبار يشكلون لطيفة الأرستقراطية يد كسائت تقع في أيديهم ملكية أكثر الأراضي. ويبدو أن السيد سعيد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز إذ تصمد أن يأخذ معه عند انتقاله إلى زنجبار أهليه العرب وأثرياء التجار^(١٦).

ويجئنا أب يقسم العرب في شرق إفريقيا في عهد السلطنة العثمانية إلى عرب الصحيرة الذين وفدوا من الساحل الجنوبي لجزيرة العربية، وكانوا يعيشون في مناطق حاصة بهم، وكانوا قسماً متميزاً دائماً من السكان العرب، ومنهم من جاء إلى زنجبار بفرض الإقامة الدائمة؛ وإن كانت أكثرهم قد وفدت بفرض الكسب والتجارة، وكان كثير منهم يشتغلون في عمليات النقل البحري في موانئ الشرق الإفريقي، وكان هناك أيضاً عرب جزر القمر وإن كان عددهم قليلاً بعض الشرق، ولا يعرف على وجه الدقة أصل أولئك العرب؛ وإن كان من المحتمل أنهم أتوا من سواحل البحر الأحمر واستقروا في جزر القمر، ومن المحتمل أيضاً تسرب الدماء العثمانية إليهم ثم هتلك بالإحفاة إلى ضفة عرب الساحل الشرقي الإفريقي، وهم أولئك العرب الذين استقروا في سواحل شرق إفريقيا قبل عهد السلطنة العثمانية؛ ثم أخيراً عرب عمان، وهم العرب الذين ازدهرت بهم السلطنة العثمانية في زنجبار بعد نفوذهم إليها^(١٧).

ومما يجدر الإشارة إليه أن سيطرة سلاطين زنجبار على ممتلكاتهم في شرق إفريقيا لم تكن سيطرة مباشرة، ولا شك أن ذلك هو الذي شجع الدول الاستعمارية لكي تنبذ إليها، وقد حاول كثير من سلاطين زنجبار الاعتماد بنفوذهم

(١٦) جمال زكريا، «الملك سعيد في حكمه وشرقه إفريقيا من ١٨١٨»

Source, op. cit., p.p. 215-218 (١٧)

إلى أبعد مما وصل إليه العرب، هي ذلك محاولة السيد سعيد في عام ١٨٣٢ الزحف من مكة مدحشقر ولكنه اضطر بالعودة العرسى الذي كان عائقاً له عن التوسع جنوباً^(١). على أنه وإن كان قد أنفق في مد سيطرته نحو الجنوب فلاشك في أنه كان أكثر توجهاً ومحاحاً في مد سيطرته نحو الشمال، وإن حل بقوده مرسلًا إلى حد كبير بالذوايع الاقتصادية؛ إذ نجح السيد سعيد في ربط حوض الشمال في صومال بنظامه الاقتصادي، وفي سماع أن الهدف الاقتصادي كان هو الهدف الرئيسى لدى سعى إليه ملاحقة رغباته وتحت إم يونكره في تهيؤهم على احتلال عسكري أو سيطرة مباشرة وعلى الرغم من أنه قد وقعت على عهد السيد سعيد وفي عهد حماه من بعده، كثير من ثورات انتحائية، لا أنهم لم ينجحوا، في فتح تلك الثورات بالقوة حوقاً مما قد يؤدي إليه ذلك من اضطراب العلاقات بشكل قد يحوق التجارة التي كانوا يحرمون من تشطه صابه الخرجى، ومن ثم كانت صعبة السلاطير بشكلاهم لأمر بقبلة تم غبال بالطرق السخمية؛ وذلك بهدف ضمان استقرار الحياة الاقتصادية وإزدهارها، وتأكيد سيادتهم الاقتصادية فيما يختص بمرعى الصرائب المفروضة على التجارة، وكل ذلك بطبيعة الحال لا يمكن أن يتم إلا عن طريق السلم وليس عن طريق لقوة أو العنف، الأمر الذى يجعل ميل إلى الاعتقاد بأن سيادة ونجبار على كثير من المقاطعات لأفريقية كانت سيادة اقتصادية أكثر من كونه سيطرة سياسية أو عسكرية

وكان مما يمرر هذه السادة الاقتصادية حركة مرور القوافل التجارية من الساحل إلى الداخل والعكس. وقد يكون من سعيد أن تشير هذا إلى أنه حينما نفس البعد عاصمة حكمه إلى ونجبار انتظمت طرق القوافل التجارية إلى الداخل، وأصبحت ونجبار بمثابة المركز الرئيسى للتجارة. وكانت أهم طرق القوافل الطريق لى سدا من عجميو أو بالعماني على ساحل شرق إفريقي في مواجهة جزيرة ونجبار حيث يمتد على سهل الساحلى صوب الداخل إلى طابرة التي كانت هي الداخل من مأكات عليه ونجبار للساحل بمثابة المركز الرئيسى للتجارة وانتشرت آل طابرة

قد أسسها تجار من المغرب في عام ١٨٣٠، وقد أشار المستكشفان سيبيك وجونست
عندما زارا طابورة إلى أنه كان يوجد فيها جلبة عربية وبعض اليهود ومن طابورة
كان هناك طريق يمتد في اتجاه المغرب حتى بحيرة تنجانيقا، بالإضافة إلى طريق آخر
يتجه إلى الشمال وكانت بعض الطرق التجارية تنتهي عند أوجيجي حيث تبدأ منها
مجموعة من الطرق الأخرى تصل إلى بونديرو وبوعندا^(١)، ومنذ عام ١٨٥٢
ظهرت سيطرة التاجر العربي مساي بن عامر على الطريق الممتد من طابورة إلى
كمبالا.

وبالإضافة إلى الطرق التي كانت تبدأ من ساحل في مواجهة جزيرة زنجبار،
كانت هناك طرق أخرى تبدأ من الساحل المواجه لجزيرة كلوة حتى بحيرة بياسا
وكان حجم السقافة يختلف تبعاً لطبيعة الطريق الذي تسلكه، إذ كان عند
أفرادهم لا يعتمد على الماشية وحدها وذلك في الطرق القصيرة المألوفة، أما في
الرحلات البعيدة في الساحل فقد كنت القوافل تتصل ببعضها البعض لآخر حيث
يبلغ عدد أفرادها أكثر من ألف رجل يتقدمها أدلاء وطيور يحملون ربهات حمراء
ومزا لحماية السلطة العربية في زنجبار.

وكانت الرحلة من طابورة إلى أوجيجي تستغرق ثلاثة أسابيع، ولكنها قد
تتخذ في عدة أشهر في مناطق البعيدة، كما اعتادت قوافل التجارة أن تبدأ مسيرتها
خلال فترات الجفاف إذ كانت الأمطار تسبب عقبات كبيرة في حركة مرور القوافل
وبالإضافة إلى حرص سلطة زنجبار على مدش التجارة الداخلية فقد حرص
سلطنة زنجبار، خاصة في عهد السيد سعيد، على وصل المقاطعات الإفريقية التي
كانت يحكمونها بالاقتصاد العالمي، وذلك عن طريق مجموعة من المعاهدات
والاتفاقيات التي عقدها أولئك السلاطين مع كل من إنجلترا وفرنسا والولايات
المتحدة الأمريكية وبعض الولايات الألمانية التي كانت مشتركة في اتحاد الهانزا^(٢)
ولم يقتصر اهتمام لأوربيين على التجارة أو السواحى الاقتصادية وحدها بل

(١) R. H. Shide, King Leopold's Congo. London, 1962 p. 84 ff.

See Also Contemman, la Question Arabe et Congo, Brussels, 1959. P 31

Lyne, Zanzibar P. 34 see also F. O. Zanzibar P. 41 (٢)



وإن برحلات لاسكوتشاية وبعثات التبشيرية قد بدأت نشاطها في أخرى في
 بقارة الإفريقية، وتتلخص المشروعات الأورسيون في مقدمات الشرق الإفريقي منذ
 منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وعجوز في تأسيس عدة مراكز تبشيرية في
 الداخل^(١) وفي أوبشت ختوبين يمكن أن يذكر كرايف Krapf وRebmann^(٢)
 اللذين استقروا في بعض المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار بشراب بنسبة. ومن
 أهم أن يذكر أن كثيراً من المبشرين والمستكشفين لاقتوا كثيراً من عدية ووعاية حكيم
 السلطنة المعروفة. فقد ذكر كرايف في الكتاب الذي وضعه عن شرق إفريقيا مصدر
 مأمونه له السيد سعيد من تشييلات ومعلومات، وكيف كان يستعين بعوده في
 التوغل في مقدمات الشرق الإفريقي، وعلى مباشرة شاطئ التبشيري حيث أمه
 السيد سعيد بحفلات ترحيبية للوفاء التابعين له يقف مبهج متفهم أن يطامرو
 كرايف أحسن معاملة لأنه رجل يعمل على تحويل الوثنيين إلى معرفة الله، وعلى
 ذلك يبقى أن يقدموا به كل ما يحتاج إليه من مساعدة^(٣). وقد أقام كرايف عدة
 أشهر في زنجبار، ثم قام بعد ذلك بحركة ارتداد إلى لامو وبلاد محالا حيث أنشأ
 هناك مركزاً تبشيريّاً استقر فيه بعض الوقت وفي دعوته آمال كثيرة^(٤) ولكنه، كميرد
 من مبشرين، وجد أن طبيعة كانت أقسى عليه من القبائل الإفريقية المعادية له،
 ففي خلال بضعة أشهر من إقامته في بلاد محالا فقد زوجته وابنته وكان هو نفسه
 يعذب من جراء إصابته بالحمى^(٥)، كذلك قام انغريمو بدور كبير في النشاط
 التبشيري في المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار إذ نجحت إحدى البعثات الفرنسية
 الكاثوليكية في تأسيس مستشفى ومدرستين لتعليم أبناء الزنوج، كما حث الإنجليز
 حذر الفرنسيين في ممارسة بعض أنواع من النشاط التبشيري

Mon Macmillan, *Introducing East Africa*, p. 167 (٦)

(٧) يرجع إلى ديمان فضل الكتابين كيمسجلو - انظر المصدر السابق من الصفحة ١٦٦ وجمع كرايف
 كتاباً كان في بعثة التبشيرية في شرق إفريقيا بعنوان

Travels and Missionary Labours in East Africa, London 1858

١ Krapf Travels, Researches and Missionary Labours during an eighteen Years
 residence in Eastern Africa, London 1868 p. 127

ibid. p. 19 (٢)

Coupland, *East Africa and its Frontiers* p. 39 (٣)

وكم نفى المبشرون عديدة سلاطة ونجبار وتشجيعهم فقد نفى نفس هذه
الدعابة المستكشفون والرواد لأوربيون الذين قدموا بجمعاتهم الكشفية في ميجال
القارة الإفريقية مبشرين بما أوجده التجار العرب من مراكز ومحطات تجارية في
قلب القارة الإفريقية، وقد لود ويتشارد بيرتون Burton، وهو واحد من أولئك
المستكشفين، إلى أنه بعض عداية السيد سعيد ورعايته له نجحت بعثته الاستكشافية
في شرق إفريقيا (٢١).

وبحق إذا ما عرضنا لتلك البعثات لأوربية التي اتحدت شكل عربى تشيى
واستكشافية وما كان قد سبق ذلك من نشاطات اقتصادية قامت به لدول
الاجتية، ومن وراء ذلك تقع ممتلكات السلطنة العربية، استطاع أن تدرك جيداً
مقدار الخطر الذى كان يترصد بتلك الممتلكات التى حاول السيد سعيد أن يقيم
منها إمبراطورية عربية في الشرق الإفريقى، إذ من المؤكد أن تلك الأحلام التى
ترادت به لم تصادف ما كانت تستهدف من نجاح، هذا على الرغم من وضوح رغبته
الأكيدة في وضع دعائم ثابتة لتلك الإمبراطورية وأنشعاله بها نشعلاً كبيراً لدرجة
إهماله لشئون ممتلكاته في الجزيرة العربية والخليج العربى حتى كادت تخرج في
جعبتها من بين يديه. ويبدو أن السيد سعيد لم يروعه تلك الحقيقة الواقعة بالنسبة
للقسم الأمريكى من ممتلكاته الذى ألف إدارات والثورات في الوقت الذى كان
يقتر الحكم بعد بضعة آلاف من الأميال منه. ومن المؤكد أن السيد سعيد قد لئس
إلى القسم الإفريقى من ممتلكاته فأخذ يحرص على تنمية موارده واستغلال
إمكانياته، بيد أن آمن ذلك الرجل في تأسيس إمبراطورية عربية في شرق إفريقيا
كان من الصعب تحقيقها وخاصة في غضون القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذى
شهد تفوق قوة أوروبا العسكرية والصناعية، وشهد هذا التزل بطوبى من
للمستكشفين والرواد والمبشرين ولتجار الأوربيين الذين انتهوا إلى تلك الحقيقة
وهي أن هناك أمكنة في إفريقيا صالحة للاستغلال وأنها قارة جديدة بالامتلاك
والسيطرة، وهكذا شاعت الظروف أن تصادم رغبة السيد سعيد في تأسيس
إمبراطورية عربية في إفريقيا مع رغبة دول لأوربية في السيطرة على تلك القارة

Burton, Zanzibar, City, Island and Coast Vol 1 p.34



واستثمارها واقتصادها فيما بينها. ويمكننا أن نشعر هنا بالذكر بيرس Pearce في تعليقه على إمبراطورية السيد سعيد أنه ولد ملاحاً وفي وقت غير ملائم لتحقيق تلك الأمل التي كانت يحوس عليها^(١).

عنى أنه مهد قبل عز فشل السيد سعيد في المحافظة على ممتلكاته في الجزيرة العربية، أو حتى فشله أيضاً في الإبقاء على إمبراطوريته في شرق إفريقيا، لا أننا نستطيع أن نؤكد حقيقة هامة وهي أنه في حلالة السواب التي قصها سيد سعيد في شرق إفريقيا وضع تأثيره في تلك البلاد تأثيراً ملحوظاً ومعروف أن شهرة سيد سعيد في العالم الخارجى إنما ترجع إلى حكمه في زنجبار أكثر مما ترجع إلى حكمه في عمان. ولأنك أن لرواى لاكتصادية وما يتبعها من حركة مرور القوافل بين الداخل والداخل كانت من أبرز مآثره به سلطة زنجبار، وقد أثر على السيد سعيد قوله: «إننى تاجر قبل أن أكون مستظلاً، كما كانت سلطنة زنجبار في عهده، وفى عهد حمادته من بعده، عاملاً هاماً في إدخال المؤنرات الاقتصادية إلى مجاهل القارة الإفريقية ومن المعروف أن توسع المنطقة ظهر ونمت في مقاطعات الداخل إلى منطقة لمحررت الاستوائية وحوض نهر الكونغو، وقد حدثت ذلك بصفة خاصة في عهد خلفاء سيد سعيد وأخيراً بالذكر أن توسع المنطقة في الداخل ظل متصلاً بالناحية الاقتصادية، وقد صدر هذا التوسع صوب الداخل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التوسع مصرى في بلاد السودان وسواحل البحر الأحمر، وامتدته إلى سواحل الصومال، ولأنك أن التوسع المصرى في شرق إفريقيا في عهد الخديوي إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ وتوسع منطقة زنجبار في عهد خلفاء السيد سعيد ماجد وبرغش، تربت عليه ظهور دولتين عربيتين إفريقيتين، وكان من المنتظر بهاتين الدولتين أن تحملاً على عاتقهما مهمة نشر الحضارة في ربوع القارة الإفريقية، كما كان من المتوقع أيضاً أن تجمع هاتين القوتين في نقاد القوة الإفريقية من ترويض الحركة الإمبريالية هذه. وبذلك كان الأمر في عتبات مساقا بين الدول الاستعمارية وبين الدول الإفريقية المحلية بحوز السيطرة على ما تستطيع كس منها أن تصل إليه حتى مضطرب إفريقيا ولم يكن للاستعمار الأوروبى لحظى على الجهد التي كانت تقوم بها كل من مصر وزنجبار،

Pearce, op. cit. P. 211 ١)

ومن ثم كانت الخطوة الاستعمارية تتجه إلى ناحيتين الأولى هي مع هاتين
القوتين من الاتحاد أو التعاون ليس بينهما إذ لو حدث ذلك لأمكن تكوين قوة
إفريقية كبيرة قد تستطيع أن تستقطب إليها القوى الإفريقية المحلية وبالتالي تكوين
جبهة إفريقية قوية يمكن أن تقف أمام الاطماع الإمبريالية التي بدأت تظهر واضحة
وتتهدد السيطرة على أقصى ما تستطيع أن تحصل به من أحواء القارة الإفريقية،
أما الناحية الثانية فهي العمل على إضعاف هاتين القوتين، وقد حدث ذلك أولاً
بالسبة لسلطنة زنجبار حيث اتجهت الحكومة البريطانية إلى فصل ممتلكات
الأسيرة للسلطنة عن ممتلكاتها الإفريقية، إذ انتهت فرصة وفاة السيد سعيد بكي
تشتد على صدارته في إحدى وسائله التي كان قد بعث بها إلى اللورد أبردين وزير
الخارجة البريطانية في عام ١٨٥٢ من أنه يوصي بتقسيم السلطنة في عمان وزنجبار
بين أكبر أبنائه^(١) وحقيقة الأمر أن سيد سعيد لم يكن يقصد فصل الممتلكات
الأسيرة عن الإفريقية فصلاً ميسبباً تماماً وإنما كان كل ما يبتغيه إليه هو وضع إدارة
خاصة لكل من الإقليمين، نظراً لبعدهما الشاسع بينهما، ولكن الحكومة البريطانية
في الهند عملت على تحقيق الفصل النهائي بين الإقليمين إذ كالتت ترى في وجود
سلطنة كبيرة في جزء الجنوبي العربي من المحيط الهندي خطراً يهدد مصالحها
الحوية على طرق مواصلاتها الإمبرطورية إلى الهند، ولذلك حرصت على تأكيد
الفصل السياسي بين ممتلكات السلطنة، وتنفيذاً لذلك أوعيت في عام ١٨٦١ لجنة
للتحقيق إلى كل من عمان وزنجبار التي أوصت بضرورة فصل الإقليمين، وساء
على تقرير اللجنة أصدر اللورد كساننج Canning، نائب الملك في الهند، قراره
لشهور بتقسيم سلطنة زنجبار إلى قسمين، على أنه نظراً للعرق الواضح في موارد
زنجبار وموارد إقليم عمان، فقد جاء في قرار التحكيم أن يدفع سلطان زنجبار مبلغاً
مالياً من المال لأخيه سلطان عمان تعويضاً عن انفراق الكبير بين موارد
الإقليمين^(٢). وفي عام ١٨٧٣ عقدت بريطانيا مع السيد برغش بن سعيد سلطان
زنجبار معاهدة خاصة بالإلحاح النهائي لتجاذرة الرقيق من معاقلها الشرق

(١) يذكر معروف، القنصل البريطاني في زنجبار، أن السيد سعيد كتب من الرمال إلى برغش بن سعيد
على أن يورثه بعد وفاته في جنوب خطه في تقسيم السلطنة، نقل

Coupland, *Exploitation of East Africa* p. 26.

(٢) راجع كتابها نزل يوم سعيد في عمان، وشرق إفريقيا القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٦٤ وما بعدها

الإفريقي، ولما كانت هذه لتجارة تدر مسدداً كبيراً من الأموال، فقد تعهدت بريطانيا أن تمنح سلطان زنجبار من مهنة دفع لإعانة السنوية لقرية سلطنة عمان حيث تولت هذه المهمة منه، وهكذا استطاعت بريطانيا السيطرة على كل من سلطنتين، سلطنة عمان التي أصبحت تعتمد عليها في مواردها المالية، وسلطنة زنجبار بعد أن أصبح سلطانها يتوجه دائماً إلى طلب مساعدتها ليشخص من المحاولات المتكررة التي كان يبذلها صلاحية عمان لإعادة توحيد السلطنة تحت سيطرتهم.

ولم يقف الأمر عند حد فصل القسم الإفريقي عن القسم الآسيوي وإنما أحدثت بريطانيا وغيره من الدول الاستعمارية دعوى على التدخل في القسم الأفريقي الذي أصبح منطقة قائمة بذاتها، وقامت الدول بطور كبير في هذه الصدد وخاصة بعد أن تقدم جماعة من تجار الدول على تأسيس شركة شرق إفريقيا للأدلة التي عهد برؤاستها، إير كارل بيترز Karl Peters الذي تمكن من مراعة سيطرة سلطان زنجبار في دخليه شرق الإفريقي، ونجح بالفعل في عقد ماقرب من اثني عشرة معاهدة مع زعماء القبائل الأفريقية هدف بها إلى بسط نفوذ الشركة الألمانية على المناطق الداخلية من سلطنة زنجبار متتبعاً فكرة ضعف السلطنة وعدم تحكمها من تأكيد نفوذها على أجزائها الداخلية، وتبعية للشباط الأثني لتزيد في المناطق الداخلية في السلطنة، حيث برطانيا على عودها فاضفت الدولتان، ألمانيا وزنجبار، في عام ١٨٨٦ على تشكيل لجنة لتقسيم المقاطعات الداخلية من سلطنة زنجبار بينهما. وقد أصدرت اللجنة قرارها الذي كان ينص على أن حدود سلطنة زنجبار تقتصر فقط على جزيرتي ميا وزنجبار وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لهما، بالإضافة إلى شريط ساحلي يمتد عشرة أميال على طول للساحل، ويوجه ولا يتجاوز مئة ميل في الداخل أكثر من ثلاثمائة ميل، ومعنى ذلك أن ما بين هذا التحديد يعتبر غير تابع للسلطة العربية، وهذه المناطق قسمت إلى منطقتين تعود بين زنجبار وألمانيا، كسما مكتب إنجلترا الإيطالية السيطرة على بعض سواحل الصومال، التي كانت تتبع كلاً من مصر وزنجبار.

كذلك نجحت بريطانيا في هدم الإمبراطورية المصرية في سواحل البحر

الأحمر والسودان ومنطقة أعالي النيل، وذلك تمكينا للحركة الاستعمارية في إفريقيا، ويطلق إلى سيطرتها على هذه المناطق والجدير بالذكر أن الإمبراطورية المصرية كانت قد وصلت إلى أقصى حد لها من الاتساع في عهد الخديو إسماعيل، على أن هذه الأمور لم تثبت أن بدأت تظهر فيها عوامل الانهيار نتيجة للأزمة المالية التي تعرضت لها مصر مما أتاح الظروف لحدوث الأوربة وعلى رأسها إنجلترا لتعكك هذه الأمور ثم نصبتها مدينا عقب قيام الثورة العراقية بمصر ١٨٨١، والثورة الأهلية بالسودان ١٨٨٥، وبعد ترتيبه على هاتين الثورتين من احتلال إنجلترا مصر، وتطلبها بعد ذلك إلى مسح القواب المصرية من السودان ومن غيره من المناطق التي وصل إليها الحكم المصري حتى تصبح هذه مناطق أرضا لأصحابها No Man's Land ومن ثم تستطيع أن تسيطر عليها.

وهكذا كانت الدول لأوربية وبخاصة إنجلترا تترك حظيرة وحود هاتين القوتين العربيتين الإفريقيتين، مصر وإنجلترا، وما يمكن أن يشكله من عقبات أمامها في سبل تحقيق مشروعاتها الاستعمارية في إفريقيا، وما لا شك فيه أن هاتين الدولتين الإفريقيتين قد أدركتا ما يمكن أن يترتب على اتحادهما من قوة تمكنهما من مواجهة النهوض الاستعماري الذي أخذت تتعرض له القارة الإفريقية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى أننا نلاحظ اتجاها للتعاون بالعمل بين هاتين القوتين الإفريقيتين، ثم اتجاها آخر للعداء أو على الأقل التوتر الذي حدث بينهما بفعل السياسة البريطانية إذ جرحمت بريطانيا أن توقع بينهما حتى تتمكن من السيطرة على ممتلكات كل منهما بعد تقسيمها وتجزئتها مما يسهل عليها عملية السيطرة

هذه

ولقد من الوثائق المصرية ما توصلح له العلاقات التي قامت بين مصر وإنجلترا، وكيف بدأت العلاقات ودية فيما بينهما بهدف تحقيق التعاون والاتحاد بين هاتين القوتين الإفريقيتين، ثم كيف توترت العلاقات فيما بينهما بفعل السياسة البريطانية، هناك رسالة بعث بها السلطان محمد بن عبد العزيز سلطان رنجهار في شهر محرم ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦) إلى الخديو إسماعيل وسلمها إلى قائد السفينتين لمصريتين

[الإبراهيمية ومسعود] خمسة مروجع برنجار في طريقهما إلى مصر، وديك قبل
الفتح قدم السوييس للملاحة، وكسب هاتان السفين قد أوصى خطيبو إسماعييل
شراهما من أوروبا، وعندما وصلت السفين إلى رنجار أكرم السفين وهذه
بهدايا ومن معه، وأهداه سيفا مرصعا وهذه أخرى، كما أرسل معه رسالته إلى
الخليو ودخلها الأخير برصالة ودية أخرى (١)

على أن جابينا بصفة خاصة مشروع معاهدة بين مصر ورنجار ولاشك أن
اتجاه سبعة رنجار إلى عهد معاهدة مع مصر، كما كان يعد اعتراف بالتعود الذي
بمنه، من المروجع أن الحيلولة العسكرية المصرية كانت منذ عام ١٨٧٠ تصل
إلى قلب الثورة الإفريقية، أشد تعود المصري بين قائدها وسكانها، وكانت تلك
القبائل تعمل مصريين بجهد من الحفاوة والرحيب، ففي عام ١٨٧٢ وصلت
إحدى السفين المصرية عن طريق أوغندا إلى رنجار، وهناك استقبلت بترحاب
بمع، إذ أظهر السكان ميولهم إلى الحكومة المصرية، وقبائل قائدها السلطة المصرية
برعش من سعيد، سفين رنجار الذي أكرم متوا، وأظهر به شدة رعيته في
مصادفه الحكومة المصرية، وأنه يريد الاستقلال بتقدم المصري العثماني على شرط
أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق أسرته ورعاياه، وأحسبه أنه
يحط باسم السلطان عثمانى في كل بلاده، ثم اتفق مع القائد المصري على
مشروع معاهدة تتكون من ست مواد تنص المادة الأولى على أن تكون سلطة
رنجار تحت حماية العثمانية المصرية، على أن يكون الملك محصورا بالتوارث بين
حرية السلطان الحالي أو بين أحصاء أسرته، بمعنى أن يكون امتياز السلطان في
سلطته شيئا باعتبار خليو، سماعيل وأسرته في مصر، وتنص المادة الثانية على
أن ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها يقومون بتأليف هيئة الحكومة في
رنجار، وتنظيم المالية وحشد طبقا للأنظمة تتبعها في الحكومة المصرية، ولا يحذر
تعيين مصري لأية وظيفة كانت إذا وجد قبطي يقدر على القيام بها

وتنص المادة الثالثة على أن ترسل الحكومة المصرية مسوئين من رجالها

(١) إسماعيل مروجعك حقائق الأخبار من دون المحار ج ٩ من ص ٣١٩/٣٢٨

لأحكام ليودوا كل المنظمات التي تس في منطقة رنجير بشأن إنشاء منظمات مالية
 وداحية وجوية ونظارة محارف ونظارة اتصال ويكون الملاصق المتخرجون في
 مدارس السلطة مقدمين على غيرهم في الترشيع لموظفهم، ولا يجوز نصر أن
 تطلب عساكر من رنجير، لا إذا حدثت حرب دينية بين أمير المؤمنين (السلطان
 العثماني) وعلو آخر فيطلب هو معه حينئذ جوداً من رنجير، ثم إن علاقات
 سلطة رنجير مع الدول الأجنبية يكون (مقتل رجليها) على يد نظارة الخارجية
 المصرية.

وتنص المادة الرابعة على أنه لا يجوز للحكومة المصرية أن تعين أحداً من
 الأجناب غير المسلمين في سلطة رنجير، أم إذا كان هؤلاء تابعين للحكومة
 لمصرية فلا بأس من تعيينهم في الوظائف، أم المادة الخامسة فقد نصت على أن
 جميع الأموال التي تحبى من سلطة رنجير تنمو في شئونها ويبقى بعد ذلك يودع
 في الخزانة لمصرية، حيث تكون مصر في هذه الحالة مزنة بصرف كل أجرة مالية
 أو عسكرية تصيب سلطة رنجير، أما المادة السادسة وهي عادة الأخيرة من مشروع
 هذه المعاهدة فقد نصت على أن تكون المعاهدة سارية المفعول بعد اصلاح حديو
 مصر عليها وإصدار أمر بقبولها.

لقد عرضنا هذه المعاهدة كي يوضح حشلة هامة، وهي إدراك مصر لضغط
 الأوربيين الذي كانت تتعرض به سلطة رنجير، فأصبح الأمر إذن بمثابة سياق بين
 مصر وبين ادوب الأوربية في الوصول إلى ممتلكات السلطة العربية، والأمر الذي
 لا شك فيه أنه إذا ما كان قد قدر لهاتين القوتين العربيتين الإفريقيتين، مصر
 ورنجير، التعاون فيما بينهما لأمكن بذلك إيجاء جبهة قوية تستطيع مواجهة
 الضغوط الاستعمارية التي كانت تتعرض بها هاتان الدولتان في آن واحد، على أن
 هذه المحاولة لم يدر لها شيء من النجاح، إذ تؤكد لنا بعض المصادر التي تناولها
 أن غوردون باشا، وكان حينئذ حاكماً باسم مصر على مديرية حط لاستواء، عرفل
 هذه المساعي فكتب إلى السلطان برغش بن سعيد يحذره من وقوع سيطرته تحت



خماية انصيرية، وهي نفس نوبة أولها إلى الخديو إسماعيل من يحموه بأن
سدخان ونجبار يسيء معاملة التجار المصريين^(١١)

وفي السجلات المصرية (وثائق القلعة مدينا - كوريش بين حالي)، توصح
للملاقات الودية بين مصر ونجبار، كما فيها توصح آخر لتوتر العلاقات بين هاتين
الدولتين، عتجد مثلا في محافظ السودان ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥)، بعض لوائح التي
تداول مرور السبطن برعنى من معيد في قناة السويس عند مصر، في ونجبر سريوة
امسكة هيكلوريا^(١٢)، وجرمه على البقاء في مصر عند أيام عقب عودته من لندن،
وعن الهدايا التي قدمت له والتي كانت تتضمن بعض الأسلحة والكتب^(١٣)، وعن
حضوره احتفال مهرجان جبر سين مع الخديو إسماعيل في عام ١٨٧٥^(١٤).

عنى أننا نجد في وثائق أخرى بؤادر التوتر الذي حدث نتيجة سياسة الخديو
إسماعيل في بصومال، الذي كان لسدخان ونجبار السيادة على الجرم خنوي مه،
وذلك بعد أن حاول الخديو إسماعيل تنفيذ مشروعه الحصن يضم البلاد الواقعة
جنوب هندكرو بوجداد طريق يصل بين أوغندة ومبسة، وكان هذا المشروع قد
عرضه الضابط الأمريكي شاي بويج Chasile Longue، وكان يعمل في خدمة
الحكومة انصيرية، على الخديو الذي عرضه بدوره على هوردرن باشا حاكم مديرية
خط الاستواء، وبعضهم من الوثائق التي تدولناها أن الإنجليس كانوا يعملون على
عرقلة المشروع المصري وذلك بأدهائهم، محافظه على حقوق سدخان ونجبار على
ساحل بصومال، وقد ظهر ذلك على وجه خاص في عام ١٨٧٥ عقب نجاح مصر
في الاستيلاء على هرر، وأخذت تمت السيطرة على ساحل بصومال لتحقيق
ملاكها بعد على ساحل إفريقيا الشرقي في موازاة خط الاستواء بهدف إنشاء

(١١) سرهين، حقائق الأخبار عن دول البحيرة ج ٢ ص ٣١٩

(١٢) وثائق حابس (كوريش بين حالي) صورة التفراف رقم ١٥٦ بتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٢٩٢ من محافظ
السويس إلى أبيه السيد. انظر جهد التفراف رقم ١٧٥ بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١٢٩٢ من محافظ بورسعيد
إلى مهر دار الخديوي

(١٣) بحر محافظ السودان ١٢٩٢ دفتر رقم ٣٥ صورة التفراف للمصري رقم ٩٤ - ٩٩ ١٩ بتاريخ ٨ رجب
١٢٩٢ من محافظ مصر إلى مهر دار الخديوي

(١٤) وثائق حابس دفتر رقم ٣٧ صورة التفراف للمصري رقم ١٩ من محافظ مصر إلى معاد صهر دار
الخديو

مواصلات مربعة مع المديرية لاستوائية التي كان قد تم فتحها تكون أسهل وأقصر من مواصلات النيل^(١)، ومن الطريف أن هذا المشروع الصخم الذي عملت إنجلترا على إحيائه كان يشابه من وجوه كثيرة المشروع الذي عملت بريطانيا على تنفيذه فيما بعد، وإذا كان ذلك صورة أخرى حتماً عملت خلال حرب العلية الأولى على إنشاء شبكة حديد كمالاً - بحية.

وليسير بالذكر أن تمكيز مصر في هذا المشروع يرجع إلى عام ١٨٧١ وكانت آخر محاولة لتثمينه في عام ١٨٧٦، وقد قرب جمع محاولات تنفيذ ذلك المشروع شكتم بدفع، كما حرص الخديو إسماعيل على أن يرسل تعليقاته إلى قومه حملاته بالأسيوط إلى القائل الإفريقية، وتنتفع هذه السياسة في رسالة بعثه بها الخديوي إسماعيل إلى الكولونيل بوردي يطلب فيها منه أن يتبع سياسة معتدلة يراه بديل الإفريقية، ويذكر في هذه الرسالة فيجب أن يفهم أن مهم لا يربطها بمهمة تجار الحاج والرفيق أي فرض مشرك، والتجار يجب أن يفهموا أنك لاذهب للإصرار بمصالحهم غير أن هذه المحاولات لم يقدّر لها النجاح، ومن ناحية أخرى فإن التوسع لمصر في منطقة البحيرات الاستوائية لم يكن قد استتب بطريقة تسمح بأن يتم الاتصال بين الساحل والداخل، ولكن في عام ١٨٧٤ حينما أحسب بالملكات المصرية تجمع في جنوب السودان، وأعلن الخديو رسمياً أن البلاد التي حول عسكره قد دخلت في حوزة الخديوية المصرية، وعين الكولونيل غردون حاكماً لمديرية نحد لاستواء، عزم الخديو على إرسال تجهيزته عسكرية إلى بلاد الصومال بحرية لإدخال البلاد الواقعة على نهر، بجوار تحت الإدارة المصرية حتى يمكن وصل ممتلكات مصر في إفريقيا الشرقية بممتلكاتها في مديرية نحد لاستواء، وقد عهد بالقيادة إلى ماكيلوب باشا، رئيس مصلحة المنازل، مدلاً من القائد الأمريكي بوردي^(٢)، وفيما يبدو أن الخديو إسماعيل بإمساكه قيادة هذه الحملة إلى قائد إنجلترا إلى كان يستهدف من وراء ذلك محاولة إسمالة لإنجلترا إلى

(١) نظر بعد ذلك إسماعيل سركك - حقائق الأخبار عن نهر النيل، ج ٢ القاهرة ١٩٢٣، ص ١٩٠
(٢) راجع بحث بوردي في هذه القصة بتجيلة الجمعية لمصرية الجغرافية ج ١ ص ٨ ص ٥ ونحوه
الملحق ٤

مشروعاته، وقد كان ذلك لم يمنع الخديو من مرفقة مأكيتوب براسطة شاي لوتج
الأمريكي، الذي أشركه معه في عبادة هذه الحملة، وكذلك براسطة بعض الصناد
والهتافين المصريين (١)

ولقد أفلحت هذه الحملة من مياه السويس في ١٧ فبراير ١٨٧٥، وقد
وحيث نبي رأس خضون نزل مأكيتوب ماشيا، واستدعى رأسه القناصل، وعذب
منهم إهلال ولائهم للحكومة المصرية، فأجابوه، في ذلك طعنين بعد أن قدم لهم
ثينا من الهدايا، ومن دفع نعلم العثماني، ثم طرح حقوق دور أن يترك حامية
صكرية، ومدال تقدم ويركز لأعلام المصرية العثمانية حتى وصل إلى ١٠
شرقي نهر جنوبا، وكذلك تتبع ملقنة الجند، وفيها كانت القوات المصرية ومعها
مأكيتوب الذي استنبح إلى شيوخ قبائل، فلما حضروا إليه عرض عليهم أمر
الاتحاد مع مصر، وأقنعهم ما في ذلك من الفوائد بهم فأجسروا بالقبول، بسبب
موجوده من عظمة القوة المصرية التي هلكهم وأدعشهم بحركتها الحربية التي
أجرتها أمامهم. وقد ثارت مأكيتوب حامية في المدينة ومحافظ بها، ثم تقدم حتى
وصل إلى مصب نهر الجنوب وأراد السير فيه، إلا أن الأمواج صلبته وتفرقت بعض
أفراكه والصاكر، ولما أحد مايلرم من مياه الشرب عاد إلى تسميرة، التي سميت
في الخريطة التي وضعها فبط أركان حرب الجيش المصري باسم برو، سماعيل،
التي تدعى أهلها، لما راوه من قوة هذه التجريد وأقبلوا في زوارقهم سائلين من
أين أنت، وما المقصود من حضورها؟ وقد أجابهم مأكيتوب بأن المقصد اكتشاف
نهر الجنوب

ويصل من المصالح التي تارلتها أن الغرض الأساسي من حملة الجنوب
بالإضافة إلى تحقيق كسب المنطقة، هو محاولة الوصول إلى منطقة البحيرات
الاسوائية (٢) وجدير بالذكر أن حملة جنوب كانت تنظر اتصال بكونلونيل
خضون بها، ولكنها قضت فترة طويلة دون أن تنقضي مع أي اتصال، وفيما يبدو
أن غرضه من تعمد إهمال الاتصال بهم، للحملة، نتيجة تعليمات وصلت إليه من

(١) محمد مري تاريخ الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر من ٢٨ - ٣٦ المجلد ١٨٤٨

(٢) Shoukry, Equatoria Under Egyptian Rule P 4 (٧)

حكومة البريطانية، وقد أكد هذا لرأى شاي لونيغ على أن مراسلات غردون مع
 الخديو إسماعيل تؤكد أن فكرة ربط الميناء الاستوائية بساحل شرق إفريقيا قد
 تمت أمسيًا في ذهن غردون، وذلك بعد تأسيس عاصمته الأولى في مدينة خط
 الامتواء في إقليم اللاتو، إذ اقترح غردون على الخديو أن يرسل قود مؤلفة من
 مائة وخمسين جديًا في باخرة إلى خليج عمسة الذي يقع على مسافة مائتين
 وخمسين ميلا شماليًا من الجندو، وأن يؤسس مركزًا يمكن الوصول عن طريقه إلى
 الدانق حتى بلاد النوبة، وكان من رأى غردون أن احتلال عمسة يعطى مصر
 فرصة سيطرة على الأقاليم النوبة في إفريقيا الوسطى، كما كان يرى أن هذه
 الخطة لن تجد معارضة من قبل الإنجليز بل كما يعتقد أنه من الممكن لتخديرو
 رسماهين أن يتوقع مسألة من الحكومة البريطانية، وخاصة من قبل الأسطول
 الإنجليزي. لرفض في رجبارة مؤكدا أن مشروع عمسة هو الطريق الوحيد لفتح
 لمناطق الاستوائية لأنه لا يمكن التعبد على الوصلات البطليئة والصعاب الطبيعية
 بين الخرطوم واللاتو وعلى الرغم من أن غردون كان يدرك جيدًا الصعوبات
 السياسية التي تعترض تنفيذ هذه المشروع، وخاصة حينما صم الإنجليز بمعية
 اللندون برغش بن سعيد، إلا أنه رأى أن يستبدل ذلك بمعية بديع فرمود. وفي
 الواقع لفتنا نجد في مراسلات غردون، في تخديو محاولة لتبرير مواقفه، وكثير من
 هذه المواقف لا تخلو من تناقض واضح، ولذلك فحين أميل مانكون إلى عباده
 شاي لونيغ في محاولة غردون القضاء على المشروع المصري، وخاصة أن الوثائق
 المصرية سجل لنا صحة ماذهب إليه لونيغ في اعتقاده هذا^(١). فهي برقة مبررة
 مؤرخة في ٩ محرم ١٢٩٢ (١٨٧٥) من الخديو إسماعيل إلى شاي لونيغ جاء فيها
 «نحصر من اتخاذ الطريق الموصل من عمسة إلى صحن إقامة العساكر بقرية لذلك
 سيه لأجل الحصون على البلاد الكثيرة بجموب كندكرو حيث إن هذه المسألة
 تقتضي الوقوف فيها على أفكار ومعلومات غردون باشا فيقتضي مبادرتكم

(١) ذكر شاي لونيغ لدانق من جندو (نوب) لم يكن مجرد كشف وإنما محاولة الوصول إلى منطقة البحيرات
 الاستوائية، وكانت الخطة تشر اتصال غردون بهد جهد للتقريب ولكنها لم تكن أي اتصال منه، ويبدو أن ذلك
 كان نتيجة توصيل نصيحت من حكومة البريطانية إلى غردون لوجب عليه عدم التعبد مع الحكومة، وفي
 الواقع أننا نجد في وثائق «دانق» مؤيد صحة هذا الاعتقاد.

والوقوف على حقيقة آرائه ومعلوماته، وذلك مع أحد التقارير والتعليمات التي
تختص بهذه المسألة من بحيث تكون متوفرة، وتكون هذه المسألة مبررة بينكم
وبينه دون أن يشعر بها أحد^(٢١)، كتب بحث الخديوي إلى عردون باشا يطلب منه
التعاون مع شاي لوبنج ومصادره بمعلومات عن المنطقة، كما طلب منه الخديوي أن يأتي
إلى القاهرة ومعه كافة التقارير والخرائط والرسومات الخاصة بهذه الموضوع لفتح
الطريق من البحيرات لاستوائية إلى المحيط الهندي ولكن من المؤكد أن عردون
أهم من عهد الاتصال بشاي لوبنج وبعث إلى الخديوي يقول أنه من المستحسن أن
تترك فكرة افتتاح السكة إلى البحر المالح مؤقتاً لأنه باطل لا يمكنه على سرمدات
وذلك أن الإنجليز أخذوا تدار (عمسة) لأجل إعطائها إمر سلطان رنجبار، وعقد
أجلوه فلا يمكن لها فيها مدخل^(٢٢)، ويقترح على الخديوي أن يعدل عن هذا المشروع
ويستعاض عنه بمشروع آخر وهو المشروع الذي يوصل حصّة بطريق النيل، وأن
تفتح السكة لجند البرك أمر مهم جداً^(٢٣).

وبما كانت الحملة المصرية تنتظر اتصال عردون بها بلا يتعدى أحدث
تتخرج من ضغط الإنجليز عليها، وتسجل الوثائق المصرية أن الإنجليز تدخلوا في هذه
المناطق باسم سلطان رنجبار، رغم محاولة الحملة بقدر الإمكان عدم التعدي على
المناطق التي تظهر فيها سيادة وأصحة سلطة رنجبار، ولكن رؤساء القبائل كانوا
يمشون على مراكزهم من الحملة المصرية، ومن المؤكد أن الدعاية الإنجليزية كان
بها أثر في ذلك، فعلى الرغم من أن رؤساء القبائل قد أخذوا ترحيبهم بحملة
المصرية في بداية الأمر، إلا أنهم لم يلتزموا بذلك أن بعثوا إلى السلطان برغش
ابن سعيد سلطان رنجبار يحذرونه من أن حكومة المصرية تريد الاستلاء على
بلادهم، كتب أن قبائل برو حاصرت محافظة براوة المصرية هو ومن معه من
الجنود وتكثفت بعض الوثائق أن قائد الحملة المصرية بحث يشتري فحمًا لوقود
السفن من رنجبار، وهذا مما يشك أن المناطق التي سولت عليها الحملة المصرية في

(٢١) محافظ السودان ١٢٩٢ هـ حشر جديين صورة التمرق، البحر

(٢٢) محافظ السودان ١٢٩٢ هـ صورة التمرق، البحر
الاستواء إلى بحري باشا في ٨ ربيع الثاني ١٢٩٢ هـ

ساحل الصومال الجنوبي لم تكن تحت التبعية المباشرة لسلطنة زنجبار، وقد طلب سلطان زنجبار من قائد السفينة التي ذهبت لشراء القود، بعد أن أجابه إلى دونه، ضرورة محاذرة هذه المناطق قبل أن يتفاقم الأمر، وقد رد عليه قائد السفينة بأن القوات المصرية لا تفكر في احتلال هذه المناطق، وإنما قدمت فقط لاكتشاف تلك الجهات، ولكن السمعان ألح عليه بضرورة الانسحاب، ولا فإنه سيعلم إنجلترا، عما حدث، لأنه هو وبلاده تحت حمايتها، وبطبيعة الحال لم تكن الحكومة البريطانية في حاجة إلى أن يقطعها سلطان زنجبار على التحركات المصرية إذ أسرع التسهيل البريطاني في زنجبار، الدكتور جون كريك، يرسل قوة عسكرية بريطانية إلى براوة لتوقوف على حقيقة الأمر، كما تقابل مع مكيدوب باشا قائد الحملة المصرية الذي كان قد تمكن من حث حصار القوات المصرية في براوة وأعاد الأمن إلى المدينة وقد رد الخديو على الأمر الحكومة لبريطانية بأنه حين أرسل هذه الحملة كانت تحذره فكرة قمع تجارة الرقيق، ولم يكن يقصد بها التعدي على ممتلكات زنجبار، ونزع ذلك أن أصدر الخديو أوامره بمنحبه خمسة من براوة إلى قسمايو على أنها لم تليث بعد ذلك أن عاهدت إلى فوسيس في يناير ١٨٧٦، وهكذا تنتهي حواشي حملة استكشاف الصومال الجنوبي وخاصة بعد أن تم توقيع الاتفاقية (الإنجليزية المصرية) لتصفية بقع تجارة الرقيق في عام ١٨٧٧. والحديث بالذكر أن الخديو أثر عدم التصادم مع الإنجليز، ومن ناحية أخرى يهمهم من تقرير الذي أعده فردريجو بدش مفتش عموم وابورات البوصلة الخديوية، الذي كان قد أرفعه الخديو للتفتيش على النقاط التي احتلتها الحملة، بأن الملاحظات بين هذه النقاط صعبة للغاية ولذلك طلب الخديو من مكيلوف، الانسحاب، وخاصة أن بريطانيا لم تكن ترحب بوصول الحملة المصرية إلى هذه المناطق (١).

(١) توجد في سجلات وزارة الخارجية البريطانية عدة ملفات من الفترة ١٨٧٥ - ١٨٧٧ سجل الادعاءات

البريطانية والمصرية في البحر الأحمر وميناء الصومال للبحر مال بيبوان

Claims to Sovereignty in Red Sea, Africa and Arabia (Seymour - Coats).

كما توجد مذكرة حملة مؤرخة في مارس ١٨٧٤ وصيها جوتلاند بصوان

Memorandum on the Turkish claims to Sovereignty Over the Eastern Shores of the Red Sea and the Whole of Arabia and on the Egyptian Claim to the whole of the Eastern Shores of the Sudan Sea including the African Coast from Sudan to Gulf of Aden, Sea Shukri, Egyptian under Egyptian Rule, P. 69.

وقد يكون من المناسب أن نعرض في هذا المجال لتقرير عن حوادث مأمورية
سواحل إفريقيا الشرقية، ما توثق على هذه الحوادث من علاقة بين مصر وليبيا،
وهذا التقرير مقدم من عبد الرزاق بك رئيس أركان حرب المأمورية ودخل المدرسة
الحربية، وهو مؤرخ في ٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٢ هـ (٦ ديسمبر ١٨٧٥)،
ويحتوي هذا التقرير على ثلاث وقائع هامة مرتبطة ببعضها البعض، وهي
توضح لنا التطورات التي مرت بها حملة لاصوال بحرية، ويمكننا من خلالها
تتبع الأحداث على الوجه الآتي:

الواقعة الأولى: وهي توضح أن ماثيوب باشا وفريدريجو باشا والكولونيلين
وورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهتي لأمور وفورمور في طريق مكة،
وأن أحدهما أصاب جرح الفجر أحبر السعة المصرية بوجود عدد الضم الحجرة
ولجأ إلى عربي محبسة، وأن أهالي تلك الجهات يردون التبعية لحكومة المصرية.

والثانية: أن الأمير محمد بن السلطان عبدالله سلطان جزيرة حرون أمدي
رغبه في التبعية للحكومة المصرية، وقد حمل معه كتاباً من سلطان جزيرة الفجر
يشي فيه بنفس هذه الرغبة.

أما الواقعة الثالثة: فتتضمن وصول كتاب من قومندان براوة جاء فيه: إنه
بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية إنجليزية بالقرب من براوة، وأن
قومندان السفينة بمنحة أحد قناصل الإنجليز وبعض الحدود حاولوا المرور إلى ليبيا
ولكن الليبيين قنومندان براوة أنهم أنه لا يستطيع الإدب أنهم يأتون جنود
مسلحين على أرض تابعة للحكومة المصرية. (١٢)

والجدير بالذكر أن بريطانيا استغلت حركة مكافحة تجارة الرقيق بالسيطرة على
الموانئ التابعة لمصر وليبيا في سواحل شرق إفريقيا، غير أن ما يثبت أن يؤكد هذا
أن وصول القوات المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي كان محدودة من جانب
مصر لكي تسبق إنجلترا في السيطرة على هذه المناطق التي لم تكن تابعة للسلطة
وليها تبعية فعلية، ومع ذلك فقد أوعز إنجلترا بسيد برغاش بن سعيد بأن يحتج
عني اختلال مصر بهذه المناطق، ويأتوا من جانبها إلى تأييده وحملت التحليل

(١٢) محافظ السودان من مأمور جهات خط الاستواء إلى حبري باشا ٨ ربيع الثاني ١٢٩٢ هـ.

على التراجع عن هذه الحملة، واضطرت مصر إلى الانسحاب دون أن تحصل مشروعاتها الحيوية الذي كان يقضي باتصال سواحل إفريقيا شرقية بمنطقة البحيرات الاستوائية وتدهيم نفوذ المصري في سواحل جنوب الصومال لمواجهة لتعدديات الاستوائية ومنطقة أعالي النيل^(١)

وعلى الرغم من أن اتفاقية منع تجارة الرقيق التي وقعتها مصر مع إنجلترا في عام ١٨٧٧ قد نصت على اعتبار إنجلترا بسلطان الخديوية لمصرية على بلاد الصومال حتى رأس حنون، إلا أنها اشترطت فعهد الخديو بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد، وتحويل الحكومة البريطانية حتى تعيين قاض لها في اموالى الواقعة على سواحل الصومال لتابعة لمصر

وتشير الوثائق المصرية إلى ندور المصري والعمراتى الذى حاول أن تقوم به أعماله لمصرية في سواحل إفريقيا الشرقية إلى وصلت إليها، ففى تقرير بعث به وهوام باشا إلى مبردار الخديو بتاريخ ١٨ شوال ١٢٩٢ هـ (١٧ نوفمبر ١٨٧٥) يعرض فيه بعض الأعداء التى قامت بها البعثة لمصرية في منطقة نهر الجوب وخاصة من ناحية برراعية، كما جاء فى التقرير وفرة لأشجار على ضفاف لنهر وأن خشبها يشبه الخشب الذى يستورد من تركيا ويطلب تقرير برمال حطابين ولجبرين وبنافين لشيد بيوت من الحجر. وفى وثيقة أخرى بعث بها عاكبوبة باشا فى ١٢ ديسمبر ١٨٧٥ إلى مبردار الخديو يذكر فيها أن عبد الرارق بك يطلب أكثر من ثلاثمائة من جميع الحرفيين والمهنيين فى مصر لترقية أعماله. وكان عبد الرارق بك قد قدم باكتشاف منطقة نهر الجوب، وقد كانت إنجلترا لم تجهه لإقام مشروعاته ذلك لم تهل الحملة المصرية لتتشر الحضارة فى هذه الربوع المتعطشة إليها^(٢). غير أن الأمر الذى لاشك فيه أن الإدارة لمصرية فى سواحل الصومال قد أشدعت الأمر، يدل على ذلك حضور مشيخ قسمايو وبراة ورحبيهم بالإدارة المصرية^(٣).

Coupland, R., *Exploitation of East Africa* p 285 ff. (١)

محمد صبرى مصر فى إفريقيا الشرقية من ٩٧ - ٩٨

(٢) انقلو وثائق حملة الصومال الجنوى من كتاب الدكتور شومى الجعل الوثائق التاريخية سياسة مصر فى البحر

الأحمر من ١٩٥ - ١٩٦

إن العلاقات بين مصر ولجبار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لا تزال تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليلات التفصيلية وخاصة أن الدور الذي لعبته دولتان كان متشابهًا من حيث توجههما إلى نشر حضارة في أواسط القارة الإفريقية، كما أن المصير الذي آلت إليه ممتلكات هاتين الدولتين كان متشابهًا أيضًا من حيث وقوعهما تحت السيطرة الاستعمارية. يدور حول ك هـ ١٨٨٦ تقسيم ممتلكات سلطنة زنجبار بين القوى الاستعمارية، إنجلترا وألمانيا، مع ملاحظة أن ذلك التقسيم قد تم بعد إجبار مصر على الانسحاب من سواحل الصومال، وبالتالي أفسح المجال أمام دول الاستعمارية لاجتياح القارة واقتسام ممتلكاتها فيما بينها، وذلك بعد أن أمضت تلك دول النصف الأول من القرن التاسع عشر في محاولات دائمة لاستكشاف القارة الإفريقية ولجباح كثير من المستكشفين وأبشريين الأوربيين في تمهيد السبل لدولهم لاستعمار القارة، وليس من شك في أن عمليات الكشف والتبشير لم يكن مقدر لأحدهما النجاح لولا اتخافهم من المراكز التجارية للحضارية التي أقامها العرب وكانوا مستعدون بواسطتها تحقيق هداياتهم وتمهيد للحركة الإمبريالية التي شهدتها القارة الإفريقية في السنوات الأخيرة من القرن الماضي.

وبما تجدد الإشارة إليه أن تأثير سلطنة زنجبار بصفدي لم يقتصر على مقاطعات الساحل الشرقي من القارة الإفريقية؛ بل كان لهذه السلطنة دورها الواضح في تسهيل الأحمراء على المقاطعات الداخلية وخاصة في حوض الكونغو والبحيرات الاستوائية، حيث حدثت حرب وجبار بشعوب هذه المناطق وقبائلها؛ فلما لاشك فيه أنه قبل أن يلتقي شعوب إفريقيا من قبائل النانو أنتي نكن بين نولاب والبحيرات العظمى بالأوربيين كان لهذه الشعوب سبق اتصال بالشجر العرب من الشرق؛ إذ كان العرب يأتون من الساحل الشرقي لإفريقيا بحثًا عن الذهب والعاج والرقيق؛ كما كان الساحل الشرقي لإفريقيا بمثابة نقاط تجمع للموارد الإفريقية، ولذلك كانت موانئه وممره أسواقًا تجارية رئيسية في الجزء الغربي من المحيط الهندي.

وفي البداية كان التجار العرب يتعاملون مع القبائل الإفريقية التي كان رؤساؤها يتجهون إلى الساحل يفتقد الثعالب مع العرب، وغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تلد على الساحل الشرقي لإفريقيا، ولكن بعض الرمن بدأ تجار العرب يتوغلون في الداخل حيث كثرت الحاصلات العربية في كثير من المقاطعات الإفريقية، وإن كان من المأخذ التي تأخذها على تلك الحاصلات عدم عيشها بالوحى السياسية أو التنظيمية من حيث إضمار المناطق التي آلت إليها على أواسط مقارة لإدارة منظمة يمكن أن ترتبط بالسلطة من الناحية سياسية أو التنظيمية وتتميز بذلك القصور في اعتقاد يرجع إلى أن العرب كانوا تجاراً بصيغتهم ولم يترك انصراف اهتمامهم إلى التنظيم الاقتصادي حقيقة أن هناك جماعات عربية كانت تستقر في منطقة من المناطق وتحكمها بالفعل، ولكن مع ذلك كانت هذه لتتوكلت للعربية تتميز بكونها ذات طابع تجارى سبب ما كانت تصف به من علم استقرار، وبهذا عقلها وصل، الاستعمار إلى المناطق الداخلية فشن العرب في مقاومتها، لأن النشاط العربى انتقل إلى التنظيم السياسى أو العسكرى، ويعنى آخر يختلف النشاط العربى عن الاستعمار لأوربى في أن الاستعمار لأوربى كان يضع يده على ساحات واسعة من الأراضى، ويضع فيها حاميات وقبلاً فسلحة فضلاً عن مصائدات أو اتفاقيات كانت الدولة الاستعمارية تهرس على عقلها مع الرعماء الإفريقيين لتعطى استعمارهم صفة (مشروعية)، والأهم من ذلك أن الجماعات لأوربية المستعمرة التي وصلت إلى المناطق الداخلية كان من وراءها دول قوية مستعدة لتأييدها وحمايتها أما العرب فمضى كان وراءهم؟ حقيقة كانت هناك السلطة العربية في التجارة، ولكن أين هذه السلطة من الدول الاستعمارية الكبرى كإنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها؟ هذا بالإضافة إلى ما كانت تتعرض له السلطة العربية من عوامل الانهيار والتفكك من قبل هذه القوى الاستعمارية ذاتها.

وعلى الرغم من قصور العرب في تنظيماتهم العسكرية والسياسية إلا أنهم يمحروا بحسب كبير من تنظيماتهم الاقتصادية، وخاصة فيما يتعلق بإيجاد خطوط منظمة من القوافل التجارية التي كانت تصل بين الساحل والداخل، كما أنهم

أسسوا على طول طرق القوافل مراكز تجارية تمت واردتهم وعملت من «الموانئ» بهمة التي اعتمد عليها العرب في نشر مذهبهم في الكونغو وأوسط إفريقيا على عام ١٨٣٠ أنشأ التجار العرب مركزاً تجارياً جدياً في طابورة وبعد ذلك بعشر سنوات تمت النشاط العربي إلى بحيرة تسانغها وتفتح التجار العرب في تأسيس مركز تجاري هام في أوغندا، ثم عبروا بحيرة تسانغها حتى وصلوا إلى إقليم ادانبي، واستقرت جماعات منهم في الدولا، ومنهم يسطرون على منطقة البحيرات الاستوائية ميطره اقتصاديه معتمدين على قبائل الإفريقية في نقل بضائع إلى الساحل. كما كان شيوخ البانتو يسعون أسراهم من أفراد القبائل التي كانوا يغيرون عليها للتجارة العرب على سبل للشايف التجاري.

ويلاحظ أن العرب قد صعدوا في توغدهم في الساحل مجتمعات بدائية. كما صعدوا أيضاً مجتمعات نظامية، وهي المجتمعات البدائية كما كان حظ العرب من الأسفر والتظيم بوضع من علاقتهم بالجماعات القوية المتعاضدة وخاصة في أوغندا وأرومبيريا ورغم توغل لتعود العرب في هذه المناطق التي وصل إلى حد سيطرة العرب الاقتصادية وتقدمهم ببعض الوظائف، إلا أن السلطة العليا استمرت بأيدي الرعمه الإفريقيين، والجدير بالذكر أنه في الفترة من ١٨٦٠ إلى ١٨٨٨ امتد نفوذ حيرامبو، رئيس أنيامويسري، على لطريق الرئيسي للقوافل العربية، مما عرضه لخاصة شديدة مع العرب في طابورة وأوجيجي، ومع ذلك كان التنظيم لدى إقامه مرامبو قوياً إلى الدرجة التي مكنته من المحافظة على نفوذه في تلك المناطق.

ويجوز أن تشير هنا إلى أن كثيراً من المصادر لأوربية تعطي لتقارير الطبعا مؤداه أن النشاط العربي في ساحل إفريقيا كان يستهدف في الدرجة الأولى عمليات التسلط والاستغلال فضلاً عما كان يتميز به من القوة^(١) ولكن دراسة النصفه والموصفة للمحققين تستطيع أن تمنع هذه الاتهامات جانباً ويمكن الرجوع بصله ذلك إلى كتابات الرحالة والرواد الأوروبيين للبحث وصولاً إلى المناطق التي وصل

(١) Ruth Slade, King Leopold's Congo p. 84 ff London 1962.



إليها بصوت؛ وقد اعترف كثير من أولئك الرواد لأوربيين، من رحالة ومبشرين
ومستكشفين، بأن العرب كانوا عصباً هاماً من العناصر التي حصلت نواها حضارة
إلى أواسط القارة الإفريقية ومجابهة لها، فقد نظم التجار العرب قوافل التجارة،
ووصلوا بها إلى مناطق بعيدة كما أقاموا مستودعات لحزن بضائعهم، ولم يحاؤفوا
في كثير من الأحيان إخضاع القبائل الإفريقية بالقوة أو السيف عليهم عن طريق
السيطرة على أراضيهم ولم حرص العرب على توثيق العلاقات التجارية بينهم وبين
زعماء القبائل الإفريقية واتسمت معهم في حدود هذه العلاقات، كما ينسب إلى
العرب إدخالهم زراعة الأرز وقصب السكر وقيود من الرعايات التي عرفوها من
الهند وجزر المحيط الهندي.

ومن لأوربيين انغمسين الدين وهو يدور العرب المحاصري في إفريقيا
يمكن أن سكر جيروم بيكر وأدولف بورجره وقد ركن الأسير على الجهود الزراعية
التي قدم بها العرب في سهل مدبره، فذكر أنهم أحبو الأمن بدلاً من العرضي
والاضطراب، وأن كثيراً من قبائل البانتو تمتعت بالعيش حول المراكز التي أنشأها
العرب، وتمت حمايتهم (١).

وقد يكون حقيقة أن العرب توغروا في الداخل قبل تأسيس سلطنة العربية
في النيجار خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر، وقد يكون حقيقته أيضاً
استخدام العرب لطرق التجارة قبل عهد سلطنة فخر، لكن الذي لا شك فيه أنه
منذ تأسيس تلك السلطنة أخذ التقدم العربي في داخل إفريقيا يحرر تقدماً
منحوتاً؛ إذ يؤكد رينشارد بيرتون Burton، وهو واحد من رواد حركة استكشافية
في إفريقيا في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، تقدم التجارة
العربية في داخلة القارة الإفريقية، كما عُدت المراكز التجارية التي أوجدتها العرب
في كل مكان تنقل إليه في مقاطعات الساحل. وذكر بيرتون أن التجار العرب كانوا
أول من وصلوا إلى أوجيجي في عام ١٨٤٤، كما تتبع بيرتون خط القوافل الذي
أنشأه العرب من مجامبو إلى أورادجا ومنها إلى أوجيجي على بعد مائة ميل صوب

BURTON, R., Lake Region of Central Africa London 1860, p. 324 (١)

المسلمون، وتحدث بيرتون عن أوجيجي فذكر أنها كانت مركزاً رئيساً للتجارة العربية، وبما كانت قوافل التجارة من طابورة الذهب تأتي إليها، كعباً أوجد العرب مركزاً استيطانياً بهم في جارجي، كما توغلوا على حقن طوق العوازل التي امتدت من أوجيجي إلى رواندا إلى بوهورو، ومن طابورة إلى جنكوريا جابرا، وذكر بيرتون أن أحد تجار العرب المومدين من أباد عربي وأم إفريقية، وهو سمائي من عابر، سيطر منذ عام ١٨٥٢ على المنطقة الممتدة من طابورة إلى كعبلا في إقليم بوجندا (١٦)

ويعتقد المؤرخ البريطاني السير ريجاند كوبلند Coupland، وهو أحد الباحثين المعروفين في تاريخ شرق إفريقيا، أن هذا الارتباط الذي دام به العرب من أجل التجارة كان يشكل أولى المحاولات الكشمية لمعاطق الداخلية من إفريقيا وقامت هذه المحاولات على أيدي جماعات التجارية العربية من أجل بحثها عن العلاج والرفق في التجارة القارة الإفريقية

حقبة أن لجماعات العربية في الداخل لم تكن تعترف بسلطنة البحار إلا بالنسبة الشكوى، إلا أن ما لاحظ مع ذلك وقت هذه السلطنة، وخاصة في عهد السيد سعيد بن سلطان وبعث بن سعيد، أن المداخيل لسلطنة كانت تعترف بسيطرة السلطنة عليها، كما أوضح التقدير التي كان يبحث بها الرواد واليهود الأوروبيون إلى التجمعات البشرية أو الجغرافية الموحدة من قبلها أهمية خطابات التوجيه التي كانوا يحرصون على الحصول عليها من سلطان البحار لأد عرب الداخل، وعبرهم من رؤساء المقاطعات الإفريقية، كانوا يحثرون الأوامر التي تصدر إليهم من حكومات السلطنة العربية في البحار (١٧)

أما من حيث معاملة عرب الداخل لمحاولة الأوروبيين فقد تحدث عنها هؤلاء وأكدوا أن التجار العرب الذين استقروا في مقاطعات الداخل كانوا يخدمون بهم كل ما يستطيعونه من رعاية ويؤكد أن الرحالة سيك Speke أن الرحلة من طابورة إلى أوجيجي، على الرغم من أنها لم تكن تتجاوز مائة ميل، إلا أنها كانت

Zoe March, op. cit. p.p. 6-17 (١٦)

Coupland, Ess: Africa and its Invaders London 1954-p. 307 (١٧)

تقطع فيما لا يقل من خمسة وعشرين يوماً، وكانت لمحطات التحذير التي أوجدها العرب في المعالم الرئيسية على الطريق. وقد تطلبت سبيك بضعة نحصة من المحطات التجارية التي أنشأها العرب في سنة، وذكر أنه قضى بضعة أيام في منزل الصياقة لتابع لشيخ منى بن عامر، وتمتع بالكرم العربي الأصيل، وأكد أن وجوده في وسط جماعات عربية شعر بأنه يعيش في بلاد مضمرة^(١)

أما المبشر، كريف ورفيقه ريسان، فقد اعتمدا في عملياتهما الاستكشافية والتبشيرية على قوافل التجارة العربية، حيث نجح في الوصول إلى كثير من مقاطعات شرق إفريقيا إذ كانا أول من وصل من الأوروبيين إلى جيبان كينيا وكيمبورو، وأول من تحدث من الأوروبيين عن وجود بحيرات كبيرة في أواسط القارة كان العرب يعرفونها من قبل^(٢)

وفي عام ١٨٤٤ استعاد ميرزا، وكان ضابطاً من صيائد البحرية الفرنسية من تقرير كريف وريسان، في الشوغل في الشرق لأفريقي، ونجح في الوصول إلى منطقة البحيرات العظمى، وقد اتحد طريقه من جزيرة الوريون الواقعة في الجنوب لغربي من للبحر الهندي، وعندما وصل إلى زنجبار قدم به السيد سعيد الكثير من العون والمساعدة، وإن كان ميرزا قد رفض أن يستصحب معه قوة عسكرية مكثفة ببعض الأدلاء العرب المدربين بالطرق وسبب المواجهة من السهل إلى الداخل، وبمساعدة أولئك وصل ميرزا إلى زنجبار ومنها إلى مضخة لوانكيا، بيد أنه لم يحص في بداخل جيبان قتله بعض أفراد من قبيلة فاساني، وتحت ضغط الحكومة الفرنسية أودعت حكومة زنجبار قوة عسكرية لتأديب هذه القبيلة ورعيها مارجرى

كذلك ساعدت سلطنة زنجبار المستكشفين الإنجليز بيرتون وسبك الذين قاما بعملياتهما الكشافية في عام ١٨٥٦، وكان مما ساعد على نجاح بعثتهما الجهود التي بذلها سلاطين زنجبار في تأديب قبائل الداخل ومحاولتهم نشر الأمن، مما أدى إلى تحييد حدة التمرد من قبل هذه القبائل على الأوروبيين وبالتالي نجاح حركات الكشف والاستعداد لأوروبي. وقد بدأت رحلة بيرتون وسبك حسم وحسلاً إلى

(١) Crupland, op. cit., p.p. 308-310

(٢) البروتو، نشر مجلة للقطب في ١٤.

ونجبار تم دعيا في جولة إلى بح ومغسة حيث جمع معلومات كثيرة من التجار العرب عن جنال، منطقة المثلوج، والبحيرة الكبيرة التي كان يسميها العرب بحيرة أو كبروي، وفيما يبدو أنها كانت التسمية بحيرة التي أطلقها عليها العرب في كانت تعيش على حوافها، وهي تسمى البحيرة التي أطلق عليها بعد اسم فيكتوريا سافرا

وفي نهاية عام ١٨٥٧ وصل الرحالة إلى أبيمويرى وهناك استقبلهم العرب الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة بترحاب كبير، ولقد أضاف الرحالة بالمعلومات القيمة التي قدمها لهم الشيخ ماني بن عامر ندى بحيرهما موجود ثلاث بحيرات مختلفة الحجم، وهي البحيرات التي أطلق عليها فيما بعد بسات وتجايف وفيكتوريا سافرا وبعد أن جمع بيرتون وسيت هذه المعلومات المحلية عاد إلى رنجبار استعداداً لرحلة أخرى، وقد استعاضا في الرحلة الثانية عن لما به في عام ١٨٦٦ بقوة عسكرية من الفرق التابعة لسلطان رنجبار، كما امتعنا بالكثير من الأدلاء العرب الذين رافقوهما من رنجبار إلى فارة، التي كانت محط رجاء القوافل العربية إلى أواسط إفريقيا وبحيرات العظمى، ثم وصل إلى أبيمويرى ومنها إلى أوججي، على بحيرة تنجانيقا، التي كانت من أعظم المستوطنات العربية حيث كانت تنتهي عندها إحدى طرق القوافل الرئيسية وبعد هذا بيرتون إلى فارة، واصل سيت رحلته إلى بحيرة فيكتوريا، ومنها عاد إلى فارة حيث اصطحب بيرتون إلى بحيرة، وفي أبيمويرى علم الرحالة سيت من العرب القيمين هناك بوجود جبل عظيم الارتفاع غرب بحيرة فيكتوريا وعن وجود بحيرة أخرى تسمى مياهها إلى الملوحة، وسميها العرب بالحجرة المنجة بسبب راسب الملح الموجودة على شواطئها

وأقبل بعد سيت وبرتون كثير من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين لارتداد المناطق النائية من إفريقيا، ويرد من أولئك لمجستون Lavagston الذي كان متصفاً إلى حد كبير في اعترافه بالمساعدات الكبيرة التي قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان رنجبار في عام ١٨٦٥. وكان الهدف يعلم من رحلة

لمنجستون حل مشكلة تقسيم المياه وتأكد من مبادئ الترتيبية لمنين في انطلق الواقعة بين ميسب وبتجانيلق^(١) وقد استقبله السيد ماجد استقبالاً طيباً ووروده بكثير من خطابات التوضيحية إلى الرؤساء العرب التابعين له في الداخل والجدير بالذكر أن منجستون تعرف في رحلاته بأحد التجار العرب ويدعى حميد المرحبي، واستمد منه معلومات كثيرة عن الطرق والمسالك التي كان يسلكها العرب في تغلاتهم في داخلية افقارة وقد رافق منجستون قاعدة عربية وصل معها إلى بحيرة مبروي وتمكن بمساعدة بعض الأتلاء العرب من اختراق إقليم كلهمي وفي بداية عام ١٨٦٩ وصل المنجستون إلى الشاطئ العربي لبحيرة بتجانيلق وتمكن بمساعدة بعض التجار العرب من الوصول إلى أوجيجي التي كانت، كما ذكرنا، محطة للتجار العرب

أما الرحالة الأمريكي هنري مورثون ستانلي، الذي كان يعمل حساب ليوبولد الثاني ملك بلجيكا، فقد نجح في اختراق القارة الأفريقية من بجمايو إلى الكونغو، وقد أشاد بديرو بأهميته التي قدمت له من قبل للسير برغش بن سعيد سلطان زنجبار الذي أمده بحامية عسكرية بصحبه إلى بحيرة بتجانيلق حيث التقى بلمنجستون في أوجيجي. وكان الهدف من رحلة ستانلي تتبع نهج اللولاباء وإثبات اتصاله بنهر الكونغو، كما تمكن من الوصول إلى منابع النيل الاستوائية وقد استمرت رحلات ستانلي سنوات طويلة وخاصة في منطقة الكونغو التي تعتمد فيها على حميد المرحبي اعتماداً كبيراً^(٢) والجدير بالذكر أنه كان قد أوكل ستانلي في عام ١٨٨٧ رئاسة حملة إيفاد أمين باشا التي نظمتها بعض الجمعيات الجغرافية الأوروبية بمعاونة صادية من الحكومة المصرية، للبحث عن أمين باشا حاكم مديرية البلاد بعد أن أطلقت الصحافة الأوروبية دعايتها عن تعرضه لمخطر السيد بسبب انتشار الثورة الهندية في مسيرته، ولم يكن الأمر إلا خطة استعمارية محكمة لإخراج مصر من مديرية تحت الاستواء حتى تصبح هذه المنطقة لأصاحب لها.

The Last Journal of David Livingstone in Central Africa from 1865 to His Death, 2 (١) vols, London 1880.

Ruth Siede, op. cit., p. 198. (٢)

وبالتالي تستطيع الدول الاستعمارية السيطرة عليها، وخاصة أن منطقة أعالي النيل
عدت من المناطق الهامة في سير الاستعمار في نقرة إفريقيا حيث إنها كانت
هدف الدول الاستعمارية في السيطرة عليها وتنافسهم من أجل ذلك، وقد نفى
مستانلي في بحثه هذه مساعيات كثيرة من المرجح^(٢١)

لقد كانت شخصية حميد المرجي هي الشخصية المسيطرة على مقاطعتي
الكومقرو وبعض المقاطعات الأخرى في أواسد إفريقيا، ولم قد يكون من اميد
أن يعرف تملك الشخصية العريضة في موعده وبذلك من مؤسسه أنا لا نجد
مصدر حرية تحدث عن هذا الرجل باستثناء ما أورده جورجى زيان في كتابه
تراجيم مشاهير شرق^(٢٢) حيث أورد له ترجمة وجيزة في جزء الأول من كتابه
هذا عرض فيه لنجهود التي بذلها في السيطرة على الكومقرو، وعن علاقته بكل
من الإنجليز والفرنسيين، وذكر جورجى زيان أنه نقل هذه الترجمة عن شيخ
ناصر لمسكي على أنه من الممكن لجمع معلومات كثيرة عن المرجي من سجلات
الرحالة الأوربيين وحداثة أولئك الذين حدثت بهم وبينه علاقات أو احتكاكات
مباشرة من أمثال فرنجستون ومستانلي، ويستمد من المعلومات التي سبق انتماء
حميد المرجي إلى قبيلة المراجعة، وهي قبيلة عربية وحمت جميعا يجمع من منطقة
الساحل الشمالي على الخليج العربي في سواحل شرق إفريقيا حيث كانت عاملا
هاما في توطيد تعود العمالي إذ استعان بها أئمة اليعاربة في التوسيع للنفوذ
البرتغالي خلال النصف الثاني من قرن السابع عشر والسواحل الأولى من القرن
الثامن عشر، وفي عهد السيد سعد بن سلطان استقرت هذه القبيلة في إحدى
مقاطعات الساحل لشرقي من إفريقيا إلى جنوب من مدينة دار السلام الجديدة

وقد ولد المرجي لأحد تجار العرب في طابورة في عهد السيد سعيد بين
عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠ وإن كان نشاطه التجاري والسياسي لم ينضج إلا في عهد
ساجد راجيه برغش بن سعيد، إذ استعان به كل منهما في تأكيد نفوذ السلطنة
العربية في المناطق الساحلية من شرق إفريقيا وكانت كل من أوجيجي وطابورة

(١) Continuation to Question Arabe et le Congo 1883-1892 p. 31 Brussels 1934 ()

(٢) جورجى زيان - تراجيم مشاهير الشرق ج ١ ص ١٦٨/١٧٣

ومقاطعات الكونغو من أهم مناطق نشاطه في التجارة حيث وهي السيطرة حيث أن^(١) ويستدل من ترجمة المرجعي على أنه كانت له صلات وثيقة بسلطنة النجاشي الذين كانوا لا يتوانون عن تقديم المساعدة والأسلحة به، وفي سجل مراسلات السياسة بسلطنة برعش بن سعيد بعض الرسائل التي كان يبعث بها إلى المرجعي يوثق فيها بالانتصارات التي كان يحررها في المناطق التي وصل إليها وخاصة في كل من طابرة وأرجيحي، مما يوضح أن المرجعي كان عملاً هاماً من عوامل نفوذ المنطقة العربية في الداخل.

وكان من أهم العوامل التي ساهمت المرجعي على السيطرة على المناطق الواقعة إلى الغرب من بحيرة تنجانيقا عدم وجود تنصيفات قبلية متماسكة، ولعل ذلك كان المرجعي يرى أن إقامة تنظيم قوى للتجارة العرب في تلك المناطق سيؤدي إلى تحقيق فرض كسيرة لجمع الحاج من هذه المناطق التي تشتهر بكثرة القبيلة بها وهي عام ١٨٦٧ أجبر المرجعي عملاً كبيراً في ضم الأراضي الواقعة بين حرس بحيرة تنجانيقا وبحيرة ميري إلى مملكته، ولكن دور المرجعي لهما بدأ في عام ١٨٧٠ حيث قاد حملة ضم المناطق الواقعة بين مري من مروج الكونغو في مقاطعة أوتير Uter حيث اتخذ يحارب سيطرة سياسية وتجارية مباشرة وضحت في فرضه الضرائب وقيامه بنور التحكيم في المنازعات التي تشب بين القبائل، كما أعطى به فرصة عزل الرؤساء وتعيين الأوصياء. وفي عام ١٨٧٠ كانت قوة المرجعي قوة يجب لها حصة في مقاطعات كثيرة من أوساط القارة الإفريقية، وظهر أن الذين حترفوا القارة الإفريقية من المستكشفين لأوروبيين، قد تقبلوا صراحة في مرحلة أو أكثر من مراحل عملياتهم الاستكشافية، فقد بقي به الرحالة لفحصون على مقربة من بحيرة ميري في عام ١٨٦٧، كذلك اشترك المرجعي في حملة ستانلي الاستكشافية التي كان يقوم بها لصالح ميرويلد الثاني ملك بلجيكا في عام ١٨٧٧، حيث قدم له المرجعي الكثير من العون والمساعدة إلى أن تضاربت مصالح بينهما بعد ذلك. والثابت أن بريطانيا كانت ترحبه باستيلاء ميرويلد على الكونغو صمناً لعدم وقوع المنطقة في أيدي الفرنسيين ومما قد يترتب على ذلك من إعاقة

(١) Zita Mureki, op. cit., p.p. 33-34.

العرصة عرساً لإيجاد حزام يربط بين مستعمراتها في كل من شرق وغرب القارة
 في عام ١٨٧٩ أسطح المرجي أو ميسوتيس - وهو الاسم الذي كان يطلق عليه
 ويشتهر به - من قبل مسعودي سلطان برعش بن سعيد بالعودة إلى ريجيارد لأنه
 معذب ببيع كبير من الحد كان متراكباً عليه منذ عشر سنوات، وقد اضطر بالفعل
 للعودة إلى ريجيارد في عام ١٨٨٢ ولما يبدو أن ذلك كان تحفظاً من التفتيش
 البريطاني النعم في ريجيارد السير جون كيرك Kirk، لكي يبيع خمسة بيورلد فرحة
 لاستيلاء على الكونغو، ومع ذلك فإن المرجي لم يستأن أن حصص تأثير لإيجير
 والباحثين الذين قادروا أهمية الاستعانة به، وبالعقد الذي كان يتمتع به، لتهمة
 تأثيره العربي والإفريقيين ضد استعمار بيورلد للكونغو، وخاصة أن بيورلد ووجه
 بمقاومة شديدة، ولحق الإعزلات التي تحدثت به من قبل رطة بيورلد الدولة عند
 لمحيى إلى الكونغو ومعه كميات كبيرة من الأسلحة مسعرة على أن يطلق الواقعة
 في أعالي الكونغو، وعندما علم برعش بن سعيد بذلك حذر أن تتحول التجارة
 لأفريقية من ريجيارد إلى صومالي غرب إفريقيا، وما قد يؤدي إليه ذلك الأمر من
 تعرض موارد السلطة للإهيار، ولذلك حاول استعانة المرجي إليه بأبيه وال
 على حدوره، وطلب منه التوسع في الكونغو ووسط إفريقيا باسم السلطة العربية
 في ريجيارد، وكان المرجي أسرع إلى الاستجابة لأوامر السلطان واستطاع بالفعل في
 السنوات الثلاث من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٦، أن يؤكد نفوذ السلطة العربية في المناطق
 المتاخمة، ولأشك أنه كان مدركاً مدى النفوذ الاقتصادي الذي يتمتع به العرب،
 وملك حاول أن يقر ذلك النفوذ بتنظيم سياسي يتيح السلطة العربية في ريجيارد،
 ويدين لها بالولاء، واتضح ذلك حيث نجح في السيطرة على معظم مداخل
 الكونغو، وعين وكلاء له للعمل في هذه المناطق لكي يقرروا الأمن ويجمعوا
 الضرائب التي كانت يعرضها على القبائل التي تدعى له بالولاء، وقد امتد هذا
 التنظيم السياسي والاقتصادي مثلاً واسعاً إلى الداخل بفضل الانتشار العربي
 الذي رافق حملة تنظيم هذه، فغير أن ذلك التقدم لم يلبث أن توقف في عام
 ١٨٨٥ بعد هزاع الدول الاستعمارية بدولة الكونغو حرة خلال انعقاد مؤتمر
 برلين ١٨٨٤/١٨٨٥، هذا بالإضافة إلى اتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا على تقسيم



مملكة رنجبار في العام التالي ١٨٨٦، وكان من نتيجة اتفاقية التقسيم، جبار منطقة رنجبار على الحدود من المناطق الداخلية، حيث قصرت هذه الدول الاستعمارية اعترافها في المادة الأولى من اتفاقية تقسيم على تحديد مملكة رنجبار لمساحات الواقعة بين الساحل شرقي من إفريقيا من لأمو شمالي حتى ساحلي جنوبياً معق لايجتد في الساحل سوى عدة أميال، وعلى مدن قعايو وبروة ومركا ومقديشو في دائرة قطرها عشرة أميال، ورشيع في دائرة لايتعدى قطرها خمسة أميال، هذا بالإضافة إلى جزيرتي ميا ورانجبار، وبعض الجزر الصغيرة المجاورة بها^(١) وواضح هنا أن لجنة لتقسيم تجاهلت الروابط الاقتصادية التي كانت تربط سلطنة مناطقها الداخلية. وبعد توقيع اتفاقية التقسيم ١٨٨٦ أدرج المرجعي أنه من الصعب أن يواصل نشاطه في الساحل بعد أن فقد الدخالة التي كان يستند عليها، ومع ذلك فقد حاول أن يحتفظ بالسيطرة على الجزء الشرقي من الكومو (مناطق شلالات ستانلي) على أنه لم يثبت أن وقع الاصطدام بين وبين دولة الكومو والجزء التي اضطرت مع ذلك إلى تعيينه حاكماً على هذه المنطقة بهدف الاستعانة بمؤديه، وفي عام ١٨٨٧ عقد مع ستانلي، الذي عين في ذلك الوقت، قائدًا لحملة إنقاذ أمين باشا في مذبحة خط الاستواء اتفاقية تم توقيعها بين الطرفين، وقد نصت هذه الاتفاقية على أن يكون المرجعي حاكم على الكومو بمرتب ثلاثون جيتها شهرياً، على أن يرفع علماً خاصاً، وأن يوافق على قبول مرؤف بلجيكي يعاونه في مباشرته اتصالاته الخارجية، وفي مقابل ذلك يقدم المرجعي مساعداته لحملة الإنقاذ، والأمر الذي لا شك فيه أن المرجعي لم يعجل توقيع هذه الاتفاقية إلا بعد أن أدرك تماماً تعكس سلطنة رنجبار وعدم فاعلية الاعتماد عليها لتأكيد مؤده في الداخل.

والحقيقة أن دولة الكومو الحرة مستعادت كثيراً من قطيعات المرجعي وإمراره الأمن في مد السكك الحديدية، وإنشاء الطرق. على أنه ماكداد يستمر الأمر بطبولة الجديدة حتى طرد المرجعي من خلعة المستعمرة واستولى عماله ليوبولد على تجارته ومراكزه كما جمعت حركة أتباعه، وأخيراً عاد المرجعي إلى رنجبار حيث توفي بعد

(١) عن تقسيم منطقة رنجبار. الطم صلاح العفة وجمال بكرياً قاسم، رنجبار - القامرة ١٩٥٩

صوات قبيحة من عودته إليها، واعتزال نوجي مشافه سبى و لاقتصادى انتهى
 العهد المجيد مدور العرب فى الكونغو ووسط إفريقيا واحتلت الأمم بحريضة فى
 يوجد تنظيم عربى إفريقى فى الداخل يعكس أن يحد بالسلطة العربية على
 ساحل

والأمر انتهى لأشبه به، وكما يقرر الكثير من الباحثين أنصهر، ويذكر
 منهم Ruth Slade فى دراسة لها بعنوان King Leopold's Congo أن دولة الكونغو
 الحرة استمدت فائدة كبيرة من جهود التى تبذلها العرب فى إنشاء المصالحات وبراكر
 التجارية وبتأثير نظام دقيق فى النقل سهوى حتى أن دولة الكونغو حفظت هذه
 الجهود وعملت على تجميعها وهناك تقرير كتب أحد المسئولين فى دولة الكونغو
 الحرة ويدعى Van Eyck، ويحث به إلى حكومته فى بروكسل جاء فيه أن دولة
 الكونغو كانت حريضة كل الحرص على الاحتفاظ بالتأثير لدى أحرار العرب فى
 الكونغو (١).

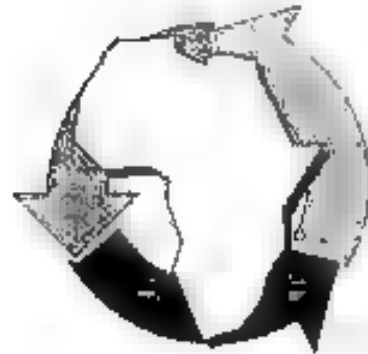
و يجدير بالذكر أن بوسع العرب لم يقتصر على الكونغو، وغا الخت
 توصلهم فى منطقة البحيرات الاستوائية، ولكنهم لم ينجحوا فى تأسيس ممالك أو
 مارات لهم، على نحو ما فعلوه فى الساحل، وذلك بسبب صعوبة المواصلات
 وانتقل فى هذه المناطق، هنا بالإغصنة إلى أنهم وجدوا فى الداخل تشكيلات
 محلية على جانب كبير من نقوة والتنظيم فاكفوا بتوثيق العلاقات التجارية معها
 وبما لأشبه به أن وصول العرب إلى المقاطعات التى تتكون منها أوغندا كان له أثره
 بين الجماعات الإفريقية التى تحول أكثرها إلى دين الإسلام، وما يذكر أن ملك
 بوضه، الذى كان يلقب بالكاباك، رحب بالعرب بوحيا كبيرا، واسعد بهم
 لتعبد على منافسه من حكام المناطق المجاورة وخاصة حكام أويسور، التى
 تشكل حاليا جزءا من أوغندا

وقد يكون من المفيد أن يؤكد أن العرب دخلوا فى علاقات مع الشعوب
 الإفريقية، وسكنوا كثيرا من الأقاليم الإفريقية، وذلك قبل أن يصل إليها

(١) Ruth Slade, op. cit., p. 17.

الاستعمار لأوروبي، وانؤكد أن الكثير من سجله العرب عن علاقاتهم برؤساء
 وشعوب المقاطعات المداخية من إفريقيا قد تمتع به الصياع، ولذلك فإننا في أشد
 ما نكون احتياجا إلى دراسات متقبضة عن دور العرب وتأثيرهم الحضاري في
 أواسط القارة الإفريقية (١)، وخاصة في مناطق الكونغو والبحيرات الاستوائية.
 وقد نجدنا في ذلك المصدد كتابات وتقارير الرحالة والمكتشفين من رواد حركة
 التبشير والكتبة الجغري في إفريقيا، وخاصة أن معظم هؤلاء مساهمو فائدة
 كبيرة من المراكز التجارية البحرية التي أوجدتها العرب عن طرق القوافل
 التي كانت بمثابة مراكز حضارية هامة ساهمت في نقل المؤثرات العربية
 والإسلامية، كما ساهمت مساهمة كبيرة في تخطيط الأوصاء على مجال لقارة
 الإفريقية، حتى يمكننا نقول أن الحركة الاستكشافية التي شهدتها القارة الإفريقية
 في القرن التاسع عشر لم تكن في حقيقة الأمر إلا سجلا علميا لمناطق وشعوب
 كان يعرفها العرب من قبل.

(١) James Stevenson, The Arabs in Central Africa p.4



الفصل السابع

دور مصر الحضاري في إفريقيا
في القرن التاسع عشر

يمكن تأريخ دور مصر الحضارى فى إفريقيا فى العصر الحديث ابتداء من السنوات الأولى من القرون التاسع عشر، أى ابتداء من الفترة التى أصبحت تظهر فيها طلائع دولة حديثة فى مصر، ومما نتج ذلك من نشر الأمن وقامس طرق التجارة وإرتباط ذلك بمدى هام، وهو تجاه مصر للتوسع وتكوين إستراتيجية بها صمم مساهم كثيرة من القارة الإفريقية، كان لها أثر كبير فى بث سماعات الحضارة داخل أرجاء القارة. وبعد كان هذا الدور «حضرى» من أهم الأدوار التى جعلتها مصر على عاتقها باعتبارها دولة عربية إفريقية وكان من أبرز سماته مساهمة مصر فى حركة اكتشاف الجغرافية، ويمكن تقسيم هذا الدور إلى قسمين

القسم الأول: وهو الذى ساهمت فيه مصر بطريق غير مباشر من حيث مساعدته للرحالة الأوربيين وتشجيعهم فى عملياتهم الاستكشافية، هذا بالإضافة إلى ما استغاده هؤلاء بما حققته الإدارة المصرية فى السودان وسواحل البحر الأحمر وأقصى النيل من نشر الأمن، الأمر الذى أدى إلى سهولة تحرك الكثير من الرحالة والتجار الأوربيين الذين نجحوا فى الوصول إلى أقاصى إفريقيا كثيرة مستعبدين به. حقق الحكم المصرى من توليد الأمن ولطمائنه فى تلك الأقاليم

والقسم الثانى: وهو الذى نجحته مصر على كاهلها فى حركة الكشف الجغرافى، ويمكن أن يطلق على هذا القسم الدور الرئيسى أو الدور المباشر الذى قامت به مصر فى هذه حركة الكشف التى تفرحت لها القارة الإفريقية.

وكانت الحركات الاستكشافية التى قامت بها مصر فى القرن التاسع عشر ترتبط بتحقيق عامين رئيسيين

نماض الأول وهو الكشف من أجل تحقيق مشروعات توسيعه، هو وقع أن كثيراً من الاستكشافات الجغرافية التى قامت بها مصر خلال القرون التاسع عشر قد ارتبطت ارتباطاً كبيراً بهذا العامل، حتى لقد أطلق كثير من الباحثين على الكشف الجغرافية لمصر أنها كانت سوعاً من الاستكشافات العسكرية ولاستطيع أن سكر تلك الحقيقة، فالكثير من الكشوف الجغرافية التى قامت بها مصر اصطلمت به

بعثات من الجيش المصري. وقد كان ذلك لأبعد من تقشير الدور الحضاري التي
 ساهمت به مصر في ربيع القارة الإفريقية. ويسمى أن نلعت الانتباه بهذا وقت
 إلى أن الكشف الجغرافية التي قام بها الأوربيون، كانت تحل في أساسها حركة
 التوسع الاستعماري، بل لقد اهتمت من المقدمات الطبيعية لحركة الإمبريالية التي
 شهدتها القارة الإفريقية منذ السوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، هذا
 على الرغم من أن البعثات الكشفية الأوربية اتخذت من الجمعيات الجغرافية مثلاً
 لها، وظهرت شعارات كثيرة بالترغبة في إدخال الحضارة والتدنية إلى إفريقيا، كما
 عكست كثير من المؤتمرات الدولية، ولكن سرعان ما انحست المواقف الإنسانية،
 وأصبح الجهد كل دولة يتركز في العمل على تحقيق أطماعها مستعملة في ذلك على
 ما تستطيع أن تفعل بها، عليه على أكبر مساحة ممكنة من أراضي القارة الإفريقية

أما العامل الثاني. فيرتبط بالبعثات الكشفية التي أرسلتها مصر من أجل
 الرغبة في العثور على معدن الذهب أو غيره من ثروات طبيعية؛ يمكن أن تساهم
 في بدء متطلبات الدولة الحديثة التي ظهرت في مصر في النصف الأول من القرن
 التاسع عشر وثمة ملاحظة تسترعى انتباهنا، وهي أن مصر اعتمدت على الكثير
 من الأوربيين في تحقيق عمليات الكشف الجغرافي، وبالمثل تظهر أسماء أسماء
 أوربية هامة دخلت في خدمة الحكومة المصرية من أمثال خورديون وصمويل بيكر
 وشايتزر (أمين باشا) وغيرهم كثيرين.

وهي اعتقادنا أن الدافع من وراء استخدام مصر لأوربيين يرجع إلى أن مصر
 كانت لا تزال، وهي في دور إنشاء الدولة الحديثة، تعتمد على الخبرات المتوافرة
 لديهم، هذا بالإضافة إلى اضطراب حكام مصر إلى استخدام موظفين أوربيين حتى
 يحدوا عطفاً من الدول الأوربية أو موافقة منهم على مشروعاتهم التوسعية في
 إفريقيا. وقد وصح ذلك بصفة خاصة في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩
 الذي حاول أن يقنع الدول الأوربية ولاسيما إنجلترا أن سيسنده في إفريقيا يمكن
 أن تحل محل الحضارة الأوربية التي كان فريق من الإنجليز ينادون بها في ذلك

بوقت ١٠ بن رب إسماعيل تأكيداً على حسن بوابه دخل مع بريطانيا في معاهدة خاصة بإلغاء تجارة الرقيق من شرق إفريقيا والسودان عام ١٨٧٧، وكان يأمل من وراء ذلك أن يجسد اعترافاً من إنجلترا بالدور المصري الذي تقوم به مصر في شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ولكن لم يثبت أن تعدت لأجتماع الإمبريالية ونهت الأمر بالقبض على الإمبراطورية المصرية في إفريقيا وتقسيمها بين الدول الأوروبية.

ويلاحظ الإشاره إليه أنه على الرغم من أن كثيراً من الاستكشافات التي قدمت يوماً مصر قد اضطلع بها كثير من الأوروبيين، إلا أن معظم أعضائه البعثات الكشفية كانوا من شباب الضباط والجنود المصريين، بل لقد استطاع الكثير من أولئك الضباط أن يحققوا استكشافات جغرافية علمية سمحت على جهودهم، ويعبر النص في ذلك إلى تأسيس قسم جغرافيا يسمى كان تابعاً لهيئة أركاناً حربية بجيش مصر، وسوف نتعرض لشأن ذلك القسم بعد قليل^(١).

وكان أهم مايميز البعثات الكشفية في سنوات الأولى من عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٨) نجاحها للبحث عن موارد الثروات الطبيعية، ففي عام ١٨١٢ وفد محمد علي بعثة إلى الصحراء الشرقية للبحث عن مكنون الذهب والرمال التي دلت بعض المصادر بحرية القديمة على وجودها في تلك المنطقة، وقد رأس هذه بعثة امير هودريك كايو، أحد العلماء الفرنسيين، وقد بدأ رحلته من قنا إلى جبل ريازة حيث وجدت بعض كهولاً وهنالك ومعاصر عميقة، كما وجدت آلات وأدوات مشوعة وأثاراً عديدة استدل بها على استخراج المعادن من هذه الجبل، ثم انقطاع بعض فيه فجأة، وقد التقطت البعثة من هناك بعض قطع الرمال التي رأيت أعمال محمد علي واشتكت رغبته وسعيه لإحياء مشروعاته فأرسل كايو، على رأس بعثة أخرى رافقها كثير من العمال عادت القاهرة في ٢ نوفمبر ١٨١٧، وبكتفها هم

(١) من يوم مصر في كشف إفريقيا يمكن الرجوع إلى فيريدريك ينولا مصر والصحراء، وهو علامة من الأعمال، حجم البعثات التي أجرتها مصر في القرن التاسع عشر، وقد وضع الكتاب أساساً باللغة الفرنسية ورجعه أحمد دكي إلى العربية القاهرة ١٩٣١م.

تحقق الهدف من إرسالها، وعلى الرغم من أنها لم تعثر على المعادن المتوقعة، إلا أن كتابه ومن معه عثروا على أطلال مدينة قديمة كانت قائمة هناك، كما حددت البعثة موقع إحدى هذه الإثريتين وهي مدينة بيريسيس المعروفة الآن برأس بناس. كما زارت البعثة بعض الواحات الغربية ووسمت خريطة لهذه البقاع وكان كثير أول من نشر بعض الأخبار العسكية ولروايات لصحيفة عن قبيلة العباددة. كما أقادت هذه البعثة أيضا في استجلاء بعض التعصبات الخاصة بالخرافية الطبيعية والتاريخية لهذه المنطقة^(١).

وشهدت الصحراء الغربية بعثة أخرى أوفدها محمد علي في عام ١٨١٩، لم يبحث عن مناجم الكبريت، وذلك لحاجته لشبدة في ذلك المدة لاستخدامه في صناعة البارود، وقد توجهت هذه البعثة إلى المنحدر الشرقي للصحراء مصر بحرية، وكانت تتألف من عدد كبير من الضباط والجنود المصريين، وقد كان قد عهد برئيسه إلى محبتي، وهو أحد الموظفين لأجانب الذين عملوا في خدمة محمد علي. وبين عامي ١٨٢١ و ١٨٢٣ أرسل محمد علي بعثة إلى شبه جزيرة لعلهم للبحث عن معدن الذهب، كما أرسل بعثة أخرى برئاسة السيود بروشي الإيطالي إلى الصحراء الشرقية لنفس ذلك الغرض.

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى الحملة العسكرية التي أرسلتها مصر إلى واحة سيوة في فبراير عام ١٨٢٠ والتي كانت تستهدف تحقيق سيطرة مصر على أقاليمها من ناحية وامتلاكها هذه الواحة من ناحية ثانية^(٢). وبما استلزم الأمر أن واحة سيوة ظلت بخارجة عن نطاق الولاية المصرية حتى تم لمصر إخضاعها في عام ١٨٢٠، وقد عهد بالحملة العسكرية إلى حسن بك الشماشجي، وكانت تستهدف إخضاع سكان الواحة وإلزامهم بالخضوع للإدارة المصرية وإخضاعهم بالملاحظة أن فتح سيوة وقع في أوائل عام ١٨٢٠، أي قبل الحملة العسكرية التي أرسلها محمد علي لفتح السودان، مما يدل على أن محمد علي أراد تأمين حدود مصر العربية قبل أن يوجه حوث إلى السودان. وقد

(١) نعيم شقر، تاريخ السودان القديم والحديث، ج ٣ ص ١٠٤.

(٢) طر عبد سيوف، انظر عبد الرحمن الرافعي، مصر محمد علي من ١٨١٦.

تبعته حملة سيرة وصورة عدة بعثات استكشافية، وكان من بين العلماء الذين رافقوا هذه البعثات أو الذين جاءوا أنحاء منطقة بعد أن انتظمت شؤونها في عهد الحكم المصري، كل من اميليو لينان دي بلوفون Lliant de Bellefon كبير مهندسي محمد علي، وخير ريتشي Ricci أحد الأطباء الإيطاليين، ودرويني Drovini فصيل فرسب العام في مصر، ولقد وقع على كاهل هؤلاء باسم مصر استكشاف ثلاث مناطق واستطلاع مابها من آثار والنحت في كل ما يتعلق بها، إلى جانب وضع الخرائط والمصورات الطبوغرافية وعلى أثر نجاح حملة العسكرية في إخضاع الواحة سهل الشعاشرجى لم يكن في صحبته من علماء مهمة همهم في الوقت الذي اشتدت فيه معارضة الأهالي الذين كانوا يرون فيما يقوم به المستكشفون والعلماء جاسراً لطغيانهم ومحالفاً لعدائهم

وقد نشر اميليو جومر JOURNET كتاباً بعنوان الرحلة إلى سيوة ضمنه بكثير من التفاصيل الخاصة بهذه البعثة، إلى جانب ما يقرب من عشرين خريطة، بالإضافة إلى بعض الصور والرسوم التي ألحقها بكتابه هذا، وذكر أنه امتنع في وضع هذه الخرائط والرسوم الطبوغرافية التي وضعها ليسو درومتي كما تضمن كتاب جومار تفاصيل دقيقة عن حملة سيوة وما وقع فيها من حوادث

وبفضل ساء الدولة الحديثة في مصر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، واستتباب الأمن في ربوع البلاد، وحماية محمد علي لرحالة تسي بمكثريين منهم القيام بعدة استكشافات هامة في بلاد النوبة والسودان كما تيسر للكثير من العلماء من أمثال سترون وبيلروتي وكبير ودروتي القيام بأبحاث ودراسات جغرافية هامة، ومنطاع كثير من لرحالة الأوربيين أن يتسجلوا أسوان وإبريم جنوباً وإن ظلت بقية البقاع الواقعة فيما وراء الشلال الثاني في حكم الأراضي المجهولة، مستثناء ما كان يرد بشأنها من أخبار أو معلومات نقلها عن قليل من الرحالة الأوربيين الذين جتروا باستيوار هذه المناطق

وبعد جون لويس بوركهارت Borchardt نموذج لاولئك الرحالة الأوربيين الذين استعانوا بما نجح عن الحكم المصري من استتباب الأمن في تحقيق



استكشافاتهم في بلاد النوبة. وقد وصل بوركهاردت إلى القاهرة في عام ١٨٩٢، معتزلاً القيام برحلة استكشافية إلى مصر العليا وبلاد النوبة. وقد ذكر في الكتاب^(١) الذي وضعه عن رحلاته هذه أنه استعان في أسفاره في بلاد النوبة بالخبراء والأدلاء العرب الذين كانت لهم سابق معرفة بتلك البلاد كما أنه يعترف في كتابه عن بلاد النوبة أنه حصل على توصيات من محمد علي ومن بعض كبار موظفيه في صعيد مصر، وقد مكنته هذه التوصيات من جتياز كثير من مناطق النوبة. كما رددت حاكم أسوان من قبل محمد علي بأحد الأدلاء العرب الذين صطحبه إلى مدينة الدر في بلاد النوبة، وكانت هذه المدينة من أهم مدن النوبة في ذلك الحين.

ولم يصادف بوركهاردت طوال تفرقاته في بلاد النوبة إلا مجموعات من الحجاج سودانيين أو التكرية، وهؤلاء الحجاج كانوا يأتون من جميع مقاطعات السودان الغربي، ومنهم من كان يمر بطريق كردفان إلى سار ورام إلى دنقلة رأساء ومن الس يسلوك بعضهم مراكب، حيث يعبرون البحر الأحمر إلى جدة، بينما كان ينح بعضهم لأخر طريق النيل محترقين دنقلة والحصن، حيث يبرون في نفس الطريق الذي كان يتبعه الحجاج للصيريين لتأدية لريضة الحج بعد أن يقيموا فترة من الوقت للاستراحة في أروقة لأمر، وقد عى بوركهاردت بتسجيل هذه الطرق التي كان يتبعها حجاج السودان، ولاشك أن بوركهاردت استعان من توصيات محمد علي وحكام أماليمة، كما استعان أيضاً بما كتبه المصنفون العرب واستلموا عن بعض قبائل، إذ كان يسعث إلى الجمعية الأمريكية التي كان مؤلفاً من قبلها لوجبة لما كتبه المقرري عن بلاد النوبة، جغرافيتها وتاريخها. وأكد بوركهاردت أن أفضل من كتب عن النوبة من مؤرخي العرب هو ابن بطيعة الأندلسي، وإن كان لم يعثر على كتابه، وإنما اعتمد على الفقرات الكثيرة التي أوردها المقرري، بقلاً عن هذا الكتاب كما استعان بوركهاردت أيضاً من عرب القاطنين في المناطق التي شق فيها، ولكنه ذكر أن المرء ينبغي عليه أن يشك في

(١) حثرت بحسب النسخة المصرية للدراسة التاريخية كتاب بوركهاردت مؤرخاً إلى النوبة (جزء ٢) رحلات في بلاد النوبة والسودان، القاهرة ١٩٥٩.

صدق رواياتهم، فقد حازوا تصديده كما كان يوجه إليهم أسئلة تبدو بهم خارجة عن موضوعات أبحاثهم بالولة، مما جعله يذهب في قوله أنه ليس لديهم تقدير واضح عن مسافات، وفي الواقع أن بوركهارت ربما يكون قد تعرض لبعض هذه المناهج بتأثير إلهام، وهذا يرتبط بموضوعه كأجسي، ثم إلى ظروف ملاحة سوية في ذلك الوقت، والتي كان يحكم بعض أجزائها شراذم من المصايف الذين خرجوا من وحيه محمد علي بعد مذبحة قلعة في عام ١٨١١، وتحرق هؤلاء من بوركهارت باحتمال كونه عينا من عبيد محمد علي، مما أدى إلى تعرضه لبعض المشايخ التي جذبت صيا في رحلاته هذه

وبعد بوركهارت قد استعاد بصورة عملية من الفواصل العربية التي كانت تعد من صعيد مصر إلى يرب وسواكن عبر الصحاري لتوبة، كما أن الدروب القابضة في الصحراء الشرقية كان لا يستطيع أي أجسي أن يعبرها إلا بالاستعانة بالآدلاء الوطنيين، وأن الذين يحاولون ريادة مجاهل القدرة وحدهم أو الغنص في أقاليم لا يترقب التجار الشماليون، إنما يعرضون أنفسهم بضياع على حد قوله، وذكر بوركهارت أيضا أن أبعد الحدود التي يمتد إليها سحار شماليون هي دار صديق (البحري) الواقعة في الشمال العربي من دارفور، أما الأقاليم الواقعة فيما وراء ذلك، فعلى الرغم من اتصالها بدافور، إلا أنها كانت تعلق أبوابها في وجوه أونتك الشجر، وعيك حائل نقر منهم التوصل في هذه المناطق، وإن كانت تجارة غزن تبتدأ في الانتشار فيما وراء بحر العرال في النجاء بورنو، ومن ذلك لإقليم كانت تصل إلى أقصى الغرب غير أقاليم غرب السودان

وعلى الرغم من أن العرض العلمي من مهمة بوركهارت، كان يستهدف التحقق من مشكلة منابع نهر النيل، إلا أنه فشل في تحقيق مهمته هذه، لعدم تمكنه من الدحاق بالقوافل العربية التجارية المتجهة إلى غرب إفريقيا، ويقرر بوركهارت أهمية مصاحبة تلك القوافل، وذلك في الرحالة التي بحث بها إلى المستر جوزيف بانكس Joseph Banks رئيس الجمعية لإفريقية^(١)، التي تأسست

The African Association For Promoting the discovery of the Interior Parts of Africa. (١)

في لندن في عام ١٧٨٨ ، بهلف تقديم وتشجيع الكشف الجغرافي في إفريقيا، حيث ذكر في تلك الرسالة لقد مضى على زمان لا أعمل فيها سوى التعليق على رحلاتي السابقة أو التحدث عن رحلاتي المقبلة . إني أقدم وعوداً بدلاً من أن أؤدي أعمالاً، ومع ذلك فلا أزال غير قادر على التحرر من مصر، فلم تصل بعد قافلة من الغرب، ومنذ زمن طويل ومضى توقع وصولها، وقد حان الانتظار بين وبين القيام بأي رحلات أخرى، ولو أنه هناك طريقاً آخر يصل إلى داخل إفريقيا عبر طريق غزاة لم تأخروا عن سبوكه لم أشعر به من ألم حولاً من أن يظن في الكس أو يفهم أن روجي قد ضاعت، لقد مضى على ثمانية أعوام، ولكني بذلت كل ما في وسعي لاكتساب المؤهلات التي تدعى في مشروعى، فإذا عشت فإن خلفى سيحتاج إلى سنوات طويلة يتدرب فيها لسج أبواب ليبيا على الثقة على استطيع أن أبلغها بها الآن

وقد حصل بوركهارد السبب في تأخر وصول الفسوافل من فران ناشنداد الطلب على الأرقاء السود في الساحل الشمالي العربى من إفريقيا ليجو بدلاً من الأتقاء البيض الذين حررتهم حروب الرقيق في منطقة البحر من احتوى لبحر المتوسط، وما استبح ذلك من معاهدات حويه. وذكر بوركهارد أنه بتوقع وصول الفسوافل إلى مصر بمجرد أنه ستوفى السوق الحربي بحتاجاته من هذه التجارة، وخصوصاً بعد أن قضى الطاعون على كثير من العبيد في مصر، وأصبح السوق المصرى في حاجة إلى وارد جديد. وقد كان في بنة بوركهارد في عام ١٨١٧ أن يترك القاهرة بصحبة حجاج لعائدين إلى ديارهم في بلاد المغرب بدلاً من أن يستمر في انتظار الفسوافل التجارية لو سم يوافه أجله في بقاها في نفس ذلك العام.

ولم يقتصر الدور الذى ساهمت به مصر في حركة كشف إفريقيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر عند هذه نهضة الظروف الملائمة للأجانب للقيام برحلاتهم، بل إن الظروف نهيأت أيضاً لمرحاة العرب أنفسهم بدورهم في تلك الحركة، وقد برر من أولئك الرحالة العرب الشيخ محمد بن عمر لتوسى، الذى

قدم برحلات في بلاد دارفور ووادي في السود الأولى من نفوس التاسع عشر،
ويصير كسبه اتشجد لأقرب بلاد العرب والسودان لهم مصدر يتعرف
بأحوال دارفور التي قامت بها منطقة إسلامية، كتب تكون حقة عادية في
سنة عمدة والسفينة الإسلامية التي ظهرت في حافق للواقعة بين الصحراء
الكبرى ومصر في شمال، وبين منطقة العباب لاسوائية في جنوب، وتنت من
البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلس غرباً

وتنص من رحلات التوسى معلومات هامة عن تاريخ دارفور ووادي
والبحر، وما حاورها من أقاليم، فضلاً عن دراسة الأحوال الاجتماعية
والاقتصادية والعلاقات التي قامت من هذه الممالك، وما كان يشهد في حقيقتها
من هزات وحروب أهلية^(١)، وتعتبر رحلات التوسى من هذه النواحي
معلومات هامة لمحتويات الخاصة بإفريقيا لا يفتقر من قيمتها إجمالاً الأريسي
لديها أو قلة تقديرهم بها. كما أنه بالنظر إلى ظروف تدوينها بالقاهرة يمكن أن
يحقها بانصر الذي أسهمت فيه مصر في حركة الكشف الجغرافي لإفريقيا، سواء
بتيسيرها لرحلات لأجانب القيام برحلاتهم، أو بفضح توطيدها للأمن في ربيع
الناطق التي هيمنت عليها أو فيما اصطفت به بصفة مباشرة من إرساء البعثات
لكشف منابع النيل. كما أن تدوين التوسى لرحلاته كما نرى من ثمرات البيئة
العلمية التي هيأتها مصر وأوجدت فيها تعاوناً وثيقاً بين العلماء العرب
والأجانب، ومن جهة أخرى تعتبر رحلات التوسى حلقة متأخرة من حلقات
الكتابات العربية عن إفريقيا، إذ إنها تذكر ما كشفه الرحالة العرب في العصور
الوسطى الذين لم يقتصر على كتاباتهم على مراد ما أمكنهم جمعه من وصف
للمعالم الجغرافية للبلاد التي جابوا ربوعها، بل كتبوا من نظمها ووقائع تاريخها
ومآثر أهلها وعادات أهلها ومذهبهم، وإذا صح ما قاله أحد المستشرقين من أن
الشبح هيبالرحمن الجرتي المؤرخ لمصرى المعروف هو آخر من مثل المؤرخين
العرب في الكتابة طسفاً لتقاليد العربية في تدوين التاريخ، فإن الشبح هيبالرحمن

(١) مؤرخة مستوردة - حافق العالم الإسلامي - لعبد شوكو لرسالة ج ١ ص ٢١



عمر التوسى، كان يحتل أيضا أحر من كتب طبقا لأساليب الرحالة العرب في
العصر الوسطى (٤١).

وقد نشر المستشرق الفرنسي الدكتور أ. بيرون A. Perroux رحلة التوسى في
طبعة حجرية بباريس عام ١٨٥٠، كما وضع ترجمة فرنسية نشرها قبل ذلك
بجمعس سوث، ولا تزال طبعة بيرون هي الطبعة المعتمدة، إذ لم يتوصل حتى الآن
إلى الأصل الذي دونه التوسى في هذه الرحلة، ومن المعروف أن التوسى قد
دون أخبار رحلاته استجابة لما اقترح عليه بيرون (٤٢)، أن يجعل من مشاهداته
وتجرباته من البلاد السودانية التي زارها وأقام بها عشر سنوات ١٨٠٣/١٨١٣،
وهي دارفور ووشاي - جزءا من دروس اللغة العربية التي كان يتعلمها من التوسى
إبان ترائلهم معا في العمر في مدرسة الطب بأبي رعين، حيث كان التوسى
يشغل هناك منصبًا للكتب العلمية لترجمة إلى اللغة العربية، كما كان بيرون
أستاذًا بمادة الطبيعة به، كما ترمز مل الأثبات عندما رقى الأول كثيرا للمصنفين
والثاني مظهرًا لمدرسة الطب عندما انتقلت إلى القصر العيسى.

وعلى الرغم من أن رحلات التوسى لم تذكر في المؤلفات الأوربية الخاصة
بتاريخ كشوف جغرافية الخاصة بإفريقيا، فإن كثيرا من المستشرقين قد أشادوا بها
من أمثال جومر الذي ذكر في تصديره لرحلة التوسى لدارفور، لقد أصبح لي
عد قرائني بهذه الرحلة، ألبا متصصة الكثير إلى مألوف في الوقت الحاضر من
معلومات من إفريقيا وأنها ستكون نعم العون لأولئك الذين مسوق بمشروع
السياحة إلى ذلك البلد النائي، الذي يمكن أن يعمد مدخلا إلى البلاد السودانية،
كما أكد جومر صدق ما اشتملت عليه الرحلة من البيانات بقوله «إن المؤلف إن

(٤١) راجع عبد العزيز جيبلى تحقيق استنساخات على رحلة التوسى إلى دارفور.

انظر محاضرات الموسى الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٨/١٩٦٩ من ٦٣ - ٦٤

(٤٢) نشر بيرون الذي كان يعمل صغيرا للموسى في دارفور في عهد محمد علي واحد أعضاء جمعية المنفعة
الأسبوية بباريس رحلة التوسى في عام ١٨٥٠ في طبعة حجرية صدرت في باريس، كما وضع لها ترجمة
فرنسية نشرت قبل ذلك في عام ١٨٤٥. ولا تزال طبعة بيرون هي الطبعة المعتمدة إذ لم يتم حتى الآن
التي دونه التوسى في رحلاته وإن كان هناك من يعتقد أن يكون النص مرسى لدى بيرون

كان قد أخطأ في بعض ما أورده فقد حدث ذلك عن حسن نية، فهو حين لا يرى شيئاً يعيى وأبى لا يتورع في أن يصرح بذلك، كما أنه يروي ما يحكى له دون أن يؤكد صحته»

وقال بيرون في تقديمه لكتاب النوسى بأنه كان عليه أن يستوثق من صحة البيانات التي أوردها في رحلته، فراجع إلى عدد من أئمة دربور وكردفان ورافائى، وقد وجد في أقوالهم ما هو مطابق تماماً لما كتبه النوسى، وروى في لاشيكى معنى بيرون في غضون على بيانات عن رحلات الإنجليز في البلاد السودانية بدءاً من عام ١٨٢٢، وقد تأكد لديه أن الشيخ النوسى لم يعرف شيئاً البتة من كتابات كلاپرتون Claperton ودهم وأونى والأحويين لاندو Lander، صديقاً دون رحلاته، كما لم تكن لديه فكرة عن هؤلاء برحالة ومشاهداتهم، عديم رحمة القبائل العديدة التي التقى بها وخبر لتقاليد وأعراس التي درج عليها أعرافه وألم بتاريخ مناطقها الذين اتصل بهم وقتاً طويلاً^(١).

وقد انتقد كل من بارت وناحيتيغال ورحلات النوسى بأنها لا تتضمن معلومات وثيقة عن البلاد التي زارها من المواضع الجغرافية والإحصائية، كما أخذ عليه كل من جومار وبيرون ميله إلى الاستطراد الشديد حتى في الموضوعات التي قد لا تتعلق بموضوع رحلاته، كما انتقده آخرون بأنه كثيراً من بياناته رغم صحتها، إلا أنها تقتصر على منهج مسبق في البحث، وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات إلا أنه الأمر الذي لا شك فيه طبقاً لما يؤكد ستريك Strick محرر مادة النوسى في دائرة المعارف الإسلامية، فإن كتابات النوسى تعد مصيراً هاماً لدراسة لأحوال الإثيوبية والثقافية والسياسية ببلاد السودان التي زارها، ولكنها مع ذلك لا تلقى سوى قليل من الاهتمام والتقدير^(٢) على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أنه على الرغم من أن رحلات النوسى لم ترد كثيراً في المصحات الأوربية الخاصة

[١] عثمان عيسى عبدالحق، استكشافات على رحلة النوسى إلى دربور - محاضرات، موسم الثقافة لمجموعة
الجمعية للدراسات التاريخية ١٩٩٧/١٩٩٨ من ٦٣

[٢] دكتور عبد النوسى في دائرة المعارف الإسلامية

بالكشف الجغرافية في غرب إفريقيا، إلا أنها كانت من المصادر الهامة التي رجع إليها بومان وروستمان Bauman and Westermann في كتابهما عن شعوب إفريقيا وحضارتها، كما رجع إليها الباحثون العرب في تاريخ السودان ومن أبرزهم معزم شفيق في كتابه تاريخ السودان القديم والحديث^(١)

وقد اختار التومسي لرحلاته عنواناً هو تشجيد لأعداء بسيرة بلاد العرب والسودان وهذا العنوان قصد به التوسى إطلاقه على الرحلتين اللتين قاما بهما إلى كل من دارفور وواداي، أما تسميتهما ولي كتابين، فقد كان من صنع بيرون نفسه، والجدير بالذكر أن التومسي كان يقصد ببلاد العرب جميع القبائل العربية التي تعيش في السودان بمفهومه الجغرافي الواسع، هذا إلى جانب الإحداثيات غير التقليدية التي أوردتها عن مصر ونونس وجرابلس.

ولرحلات التومسي أهمية بالغة، من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية التاريخية فلا تنحصر سوى بيد بيعة، ومع ذلك، فقد تكون الأهمية التاريخية لتلك الرحلات في تقديرنا أن تومسي يطلعنا على مشروع كان قد أعده محمد علي أفندي دار فور^(٢)، كتب أنها تحوي بعض التواريخ المهمة الخاصة بسلطنة الفور، وذكر بعض سلاطينها.

وقد بدأ التومسي تدوين لرحلاته بترجمة ثانية ذكر فيها المواقع التي حضرتها للقيام بها، ووقف فيها إلى وقت هودته إلى مصر، وكان مما ذكره أنه بدأ رحلاته إلى دارفور في عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف ألم في خلالها بأحوال البلاد إفاقاً تاماً ثم توجه إلى واداي الواقعة إلى الغرب من دارفور حيث قضى فيها ثمانية عشر شهراً، ثم استأذن السلطان صابون في السفر إلى تونس فأذن له وبعدها حوالي عام ١٨١٣، ثم عاد إلى القاهرة ليتمتع بخدمة الجيش المصري

(١) يعتبر كتاب معزم شفيق الذي وضعه عن تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته شمة لكتاب التومسي لمرحلة التي تخلق سلطنة دارفور منذ نشأتها حتى الخلع المصري

(٢) كان هذا المشروع يقتضيه سيرة عمله من كردهة إلى طرابلس تبعها حملة أخرى من مصر وفد الشار مصطفى بكير في دراسته «مناخ تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر» إلى هذا المشروع ولقد يوجد في دار وثائق طرابلس ببعض المعلومات التفصيلية الخاصة به

انظر الكتاب الصادر من مؤلفه عبد المصور ١٩٦٨، «مناخ تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر»

في وطيفة وعظ بإحدى فرق بلشاة التي حاربت في امورة عام ١٨٢٧، ولما عاد
مها في عام ١٨٣٢ اشغل بتفح كتيب الطب المترجمة إلى العربية (١)

ويقتضى حديثنا من سيرة النومي الإشارة إلى مواطن آخر له مدعى له
الدين النومي، وإن كان لا يعرفه شيئاً عنه سوى أنه كان معاصراً للنومي، وأن
سيرته تكاد تشابه سيرته، فقد كان مدوياً عالماً درس في الأزهر، وكان على
اتصال وثيق بالعلماء الأوروبيين الذين أقاموا بمصر في عهد محمد علي، وأنه سافر
إلى السودان في مقتبل حياته حيث قضى فيها نحو عشر سنوات، حيث ذهب أولاً
إلى مصر ثم كركردان وأقام فترة طويلة في دارفور ووداي، وكان يتكلم في
السلا التي كان يجود فيها، وذلك بالعمل بالمعهد أو الدرس، وبعد أن قضى
ما يقرب من ثلاث سنوات في وداي عاد إلى تونس عن طريق تونس وقد سجن لما
مشاهداته في البلاد السودانية في كتاب طبع ونشر دون تحديد لمكان وتاريخ الطبع،
ولكنهم أن جت الكتاب ترجم من العربية إلى التركية، وطبعت ترجمته التركية
في استانبول عام ١٨٤٦، وترجم إلى الألمانية من قبل لمشرق الألبس فون رورر
Von Rozen في عام ١٨٤٧ ومن المحتمل أن يكون دين النومي قد بدأ
رحلاته في الأقاليم السودانية بين عامي ١٨١٨ و ١٨١٩ وتخصص لهية كتاباته
في وصفها خصصها في دارفور ووداي وأنطمت الاجتماعية، إذ أورد دين
النومي بيانات مفصلة عن حياة القبائل والتجارة والعقائد السنية والتقاليد الشعبية
في المناطق المختلفة مما قد يعد تكملة هامة لما أورد محمد بن عمر النومي في
صورة أكثر تفصيلاً

أما عن كتاب التشجيد، لأفندي محمد مصطفى هاشم في التجربة بالحوال
إقليمين من الأقاليم السودانية هما دارفور ووداي. وقد عرف إقليم دارفور باسم
أقدم شعب سكن ذلك الإقليم وهو شعب الفور، وحوالي منتصف القرن السابع
عشر الميلادي قامت في هذا الإقليم سلطنة إسلامية كانت امتداداً للسلطات
الإسلامية التي ظهرت في إقليم السودان الغربي وليس من شك في أن مجموعتنا

(١) فيلترس دكي، تاريخ العرب لتاريخ عرب إفريقيا، ص ١٨

عن إقليم العور معلومات قليلة تعتمد أساساً على الروايات المتناقلة التي حصلها الأهالي ومعظمها يكتنفه التناقض والمعوص غير أنه من الثابت أن الهجرات العربية قد وصلت إلى هذا الإقليم خلال السوت الأخيرة من القرن السابع الميلادي، وأدى اختلاط العرب بشعب العور إلى ظهور طبقة كحجارة التي دلت مصيلاً من المداء العربية، ومن هذه الطبقة ظهرت أسرة حاكمة انتزعت حكم دارفور من شعب التنجور الذي كان يحكم المنطقة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، وقد ظلت الأسرة الجديدة تحكم دارفور عند منتصف القرن السابع عشر الميلادي حتى نهاية علي بن دينار في عام ١٩١٦.

وكان من أهم المرحالة الأوروبيين الذين زاروا دارفور برون W.G.Browne ١٧٩٣ - ١٧٩٦، ولكنه ظل خلال هذه السنوات الثلاث أشبه مايكون داعي، إذ لم يسمح له بالتنجول في البلاد بسبب ارتباط سلطان دارفور في نوايه باعتباره أجنبياً، ومن ناحية أخرى أن برون لم يعثر في دارفور على تاريخ مدون لهذه البلاد، ومن ثم جاءت المعلومات التي مستطاع الحصول عليها من الأهالي سطحية يشوبها القدر الكثير من الاضطراب باستثناء بعض الملاحظات الهامة التي أوردها عن أحوالها الاقتصادية والجغرافية^(١). ولعلك يعثر الشح محدث من عمر التومسي أول رحالة عربي زار المنطقة في عصر الحديث وأناجت به فروشه أن يلم بذاً واسعاً بأحوال دارفور من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى أنظمتها السياسية والإدارية والعسكرية وعلاقاتها بجيرانها، هذا فضلاً عن لمحات من تاريخها. وقد أذن التومسي على تسجيل هذه النواحي جميعها قدرته على التحرك في الإقليم الذي كان موضعاً لكثير من لقائات العربية التي تربطه وبينها روابط الأصل واللغة والدين.

حقيقة أن التومسي لم ينسحب إلى دارفور حباً في الدراسة أو الاستطلاع أو الكنف الجرمالي، ولكنه ذهب كما يعترف بنفسه لمهاق يأويه عمر التومسي الذي ارتحل إلى سار، ثم إلى دارفور، ومن قبل ذلك رحل جده سليمان إلى سار

(١) Browne W.G., Travels in Africa, Egypt and Syria London 1799.



ولكنه يبنى لرؤس من كل هذه السوافع الذاتية، لا أنها لا تؤثر في النتيجة التي انتهى إليها أخيراً، إذ إنه استطاع في نهاية الأمر أن يخرج ساعداً صحيفته قبضته معلجة.

وبين من شكك في أنه قد اقتصد التوسى في الإقليم بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية عملاقة أبيه وجدته بهذه البلاد من قبل، اللذين صاهر أهداه، وأصبح محمد بن عمر للتوسى فيها إحقاقاً وأصداً، وقد اشتمل هؤلاء جميعاً بالعلم والتجارة وتفننهم بين تونس ومصر وسجستان ودارفور وروادى، وهارت، لهم مصالح تجارية واسعة ومراكز سياسية مرموقة ومكانة دينية عظيمة عند سلاطينها وقبائلها، وثنا لا شك فيه أيضاً أن تجربة هؤلاء جميعاً أصابت كثيراً إلى ما اكتسبه الشيخ التوسى بنفسه من خبرة تالية لأحوال هذه البلاد خلال سنوات إقامته بها.

وما يستر للتوسى المعروف على مواطني الحياة في البلاد سهولة التجاذب مع كافة الطبقات باللغة العربية، التي كان لا يعرفها إلا بتقريب من أهالي دارفور، كما أتبع للتوسى في سائر أحواله من حظوظ مدى السلطان والأمراء والوزراء والقبائل، أن يعظم مجالسهم ويثق على كثير من أسرار السياسة وتقسيد البلاد ويظم الحكم والإدارة والنضام ويشهد بعض الحوادث السياسية وخبرته نهضة، وأتبع للتوسى أيضاً أن يتجول في كل أنحاء دارفور في حرية تامة وأن يمر بمدنها وأسواقها، وأن يدخل المناطق الحسنة الوعرة التي كان لا يسمح لأحد بالدخول فيها إلا بأذن من السطان، وهي المناطق التي يسكنها الأصنام القوية على حد تعبيره، ولذا تحرير كتابات التوسى نتيجة لما شاهده بنفسه في هذه البلاد بالحدة وقوة ملاحظته والقدرة على التفاد إلى أعماق الأمور، وعلى الرغم من خباياها وسهولتها، إلا أنه استطاع أن يدرس حياة سائر على اختلاف عناصرهم وطبقاتهم ولغاتهم، دراسة عميقة طيبة.

وفي مقدمة كتابه عرض لترجمة الذاتية، وصفاً مختصراً من مصر كلنت كعبه لعدم، حج إليها، جد المؤلف سليمان وأولاده عمر، ثم المؤلف نفسه، إذ تلقى

أجد علومه الدينية واللغوية في الأزهر، ثم خرج من تونس لفتح، ثم عاد إلى
 سار حيث طاب له العيش وبنى أهله في تونس ثم خرج سليمان من قافلة من
 سار إلى مصر للتجارة فالتقى ببنه ومحمده، وتواعد بجميع على اللقاء بعد انتهاء
 موسم الحج على أن سليمان مات في مكة فعاش ابنه في مصر وتزوج من فتاة
 مصرية، ثم انتقل إلى مصر، أما ابنه محمد فقد نشأ في مصر وتلقى دروسه في
 الأزهر، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره اعترم البحث عن أبيه في بلاد
 السودان، وكان مما دفعه إلى ذلك التقاؤه بأصدقاء أبيه في القاهرة، وسافر مع
 أحدهم في سفينة قافلة متجهة إلى دارفور سنك في طريق نوب لأربعين، وهو
 الطريق الذي سلكه قبل ذلك بعشر سنوات الرحالة الإنجليزي براون، وقد بقي هذا
 الطريق من بين الكثير من المسالك التجارية التي كانت تسير عبر الصحراء الغربية،
 وقد أهملت هذه الطرق بسبب أو آخر، من أهمها ساقية لريج التي كانت تروى
 العوازل بأكملها، وقد لعبت هذه الطرق دوراً هاماً في نقل الحضارة إلى قلب لندوة
 الأفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً الطريق الذي سلكته الهجرات
 المتتالية وبخاصة من حوض وادي النيل الأدنى

ربما وصل الشيخ محمد بن عمر لتونسي إلى دارفور، استقبله هناك أحد
 أعمامه، وصحبه إلى حيث يقبع أبوه عمر في إقطاعه الذي منحه له السلطان
 عبدالرحمن الرشيد في «أبو الجدول»، وكان السلطان في ذلك الوقت (١٨٣٠)،
 هو الخديوي محمد فضل الذي خلف أباه عبدالرحمن الرشيد على حكم دارفور،
 ونزول الوصاية عليه الوزير الأعظم الشيخ محمد كركر، ولم يمض على لاب أن
 يقدم ابنه إلى أولى الأمر في البلاد، فأرسله إلى تمولتي محمداً بالهدايا إلى الوزير
 الأعظم الشيخ محمد كركر، والعقبة مالك القوندي، وداد محمد بن عمر إلى
 أبي الجدول، سافر والده إلى تمولتي ليستأذ في السفر إلى تونس لرؤية أهله
 وأقاربه، ولخبير الوزير أنه سترك ابنه في «أبو الجدول» لجمع خراج إقطاعه ويشتغل
 برعايته، فسمح له الوزير بالسفر بعد أن وعد عمر بالعودة ثانية إلى دارفور، وقد
 أعطى عمر ابنه وثيقة الإقطاع في «أبو الجدول» ثم غادر دارفور عاصفاً تونس

بطريق واداي، غير أنه لم يصل إلى واداي تطلع بالحصول على منصب رفيع في
حاشية السلطان محمد عبد الكريم صبور سلطان واداي، وظل هناك عدة سنوات،
ثم رجع بعد ذلك إلى تونس.

أما عن الشيخ محمد بن عمر التونسي، فإنه عاش في دارفور سبع سنوات
ونصف الم في خلالها بأحوال البلاد هناك، ولم يتمكن من معرفة دارفور إلى
واداي إلا بعد انتهاء الحرب بين البهادريين حيث صافى إلى واداي على رأس وفد من
قبل السلطان محمد فضل، واستقبله السلطان محمد عبد الكريم صبور مستقبلاً
طيباً وأسمع عليه من حفظه ما أسمعته على أبيه من قبل وأقدم التوسى في واداي
فتوة من الوقت لم يثبت بعلمه أن واحته يعظم ابنه اكل، التي تغيرت بسببها
أحواله، وأولى هذه المشاكل أن حصة طمع في أملاكه بقية، وثالثتها تؤثر
العلاقات بينه وبين وزير سلطان واداي، ولكن والد التونسي استطاع بقوته لدى
السلطان أن يعزى وزيره أحمد العاص، وإن كان الأخير سم يثبت أن استرد منصبه
بعد رجوع عمر إلى تونس، وبعد أن هبى محمد بن عمر وقتاً في واداي استأذن
السلطان صبور في السفر إلى تونس فأتى له حيث تبعه حوالي عام ١٨١٣ أي
بعد عشرة سنوات تقريباً من غادر القاهرة إلى دارفور. ومن تونس رجع التونسي
إلى مصر حيث تقدم بها ووضع فيها كتابه.

وقد يكون من المفيد بعد أن أجبنا بعض الشيء سيرة التونسي، وعن ظروف
وجوده في بلاد السودان أن نعرض لكتابه المسمى بتشجيع الأدهان في سيرة بلاد
العرب والسودان.

يتشكّل الكتاب بمقدمة تفصيلية تشتمل على ثلاثة أبواب. أبواب الأول عن
السبب الذي دفعه إلى رحلته، والأبواب الثاني وصف الطريق الذي اجتده من
المصطاف إلى دارفور، ووه إشارات متعددة عن طريق درسه لأربعين^{١٦} أما الباب

(١٦) عن طريق مررب الأرميين من بين الكثير من المسالك التجارية التي كانت تسير عبر الصحراء العربية هو
الطريق الأكثر مستخدماً. ولقد ألفت هذه الطريق دوماً هناك في ظل الحصار إلى قلب القاهرة وألمسها،
العربية كتب كتاب أهل الطريق الذي يمكنه الهجرات بتابعه بذهنة في حرم وادي النيل الأعلى
راجع الشاطر يميني ملكة صوبها في مصرية من ص ٤٠٤. محاضرة القيت في موسم لثاني للجمعية
للمصرية التاريخية ٦٧/٦٨، وقد أورد على مبارك في عظمة يالاب هامة عن درب الأرميين
انظر على مبارك. المخطوطات البيوتيقية ص ٢٧ هي عن ٢٣/٢٧

الثالث فقد تعرض فيه لبعض الجوانب التاريخية، كدعوى بوضع ترجمة لبعض
عهد آل جمن الرشيد سلطان دارفور

وانتقل التوسر بعد المقدمة بأبوابها إلى محتوى الكتاب وقد قسمه بشور إلى
ثلاثة أبواب الباب الأول وينقسم إلى خمسة فصول، تناول في الفصل الأول
جغرافية دارفور وقبائلها والفصل الثاني عوائد المور، وعادات ملوكهم، والفصل
الثالث في مناصب ملوك القور، والرابع في كيفية مجلس سنان، أما الفصل
الخامس فقد جنى فيه بوضع أزياء ملوك القور

والباب الثاني من محتوى الكتاب ينقسم إلى فصلين، أحدهما في اصطلاح
ترويح القور، والثاني في الخصيان كما أنه يستمد من صحه لاجتماعي لمطقة
لغور في كتابة الباب الثالث، ففي الفصل الأول من ذلك لباب يعرض لأوضاع
السكان وكيفية معالجتهم بالطرق لسائية أما الفصل الثاني فقد خصصه لسماعات
للتجارية، وأخيراً يحسم رحلته في دارفور بما حدث وما يتتبع في البحر
والتعزيم ومغرب الرمل والتجيم، وما إلى ذلك مما قد يفيد المتخصص في
الدراسات الاجتماعية على وجه خاص.

وبلا شك فيه أن التوسر استطاع في رحلته إلى دارفور وودافا أن يجمع
بوصف جغرافي واجتماعي شيق، كما أعطى تقسيمات لبلاد السودان، كما كانت
على عهد: كمنكة سارة وكردفاد، ودارفور، وودافا، المعروفة بدار صبح
والباجرمي، ويوزنوا، وتغره، وتيكوت، ومالي

وعلى الرغم من أن التوسر قد قرر أن عهد تأسيس كل من وادي،
ودارفور ليس بقديم إذ لا يزيد على مائتي سنة من وقت رحلته، إلا أن ذلك لا يمنع
من أن يكون اندبن الإسلام واللغة العربية قد انتشرت في تلك الأقاليم، هي من
أسبق بكثير، كما أنهم ذلك من كتابات الرحالة السابقين عليه، وبأن كان التنظيم
السياسي لم يظهر بصورة واضحة إلا منذ أوائل القرنين لاسمى عشر الميلادي طعناً
لما يقروه التوسر

وعلى الرغم من أن التوسر قد تنقرو في كثير من بلاد السودان، إلا أن



كتاباتاته اتصفت في معظمها عنى كل من دارفور، ووادى من حيث أقسامها وحجراتها ومناخها ومبانيها وصناعات أهلها، ولاشك أن وصفه لتحصيلى دارفور يعطى القارئ انطباعاً بأن مذكره عن الإقليم سم يقتصر على مشاهداته الخاصة، وقد استعان في ذلك ببعض الجمع لمعلومات بقرات عن الكتب التى من المؤكد أن يكون قد صنع عليها، وإن لم يأت مذكر بها، ذلك لأن الوصف المتيق الشامل الذى أتى به أمر يعجز عنه لشاهد السطح، ولاشك أن رحمة التوسى تعد مسحاً دقيقاً من الدخيلين لطبيعية والبشرية، لإقليم دارفور ووادى، كما ترجع أهميتها إلى أنه عسى فيها توضيح لأصول العرية للقبائل السودانية كما ذكر عدد من القبائل المصرية التى صاب لها الاستيطان فى بعض إقاليم السودان، فقد ذكر مثلاً أنه حوب إقليم وادى تسكن قبائل عرية أهمها الزيدية (زيد)، كما أن هناك عرب عريقات، الذين وفدوا من العراق، كما تسكن إلى الشمال من وادى قبائل سحاميد، وهم يتألفون من يعلو وأفخاذ عبيدة وعمهم، كما يذكر، أمون لاخصى من الإبل والخيل وظهرها أما فى الجنوب فيوجد عرب بليرة والفلان، وهم ينتشرون بكثرة فى الإقليم والأمر الذى لا شك فيه أن مطالعته أوردته التوسى عن هذه القبائل توضح الأثر العربى العام الذى تتركه به إقاليم السودان

التوسع المصرى فى أفريقيا:

وبالإضافة إلى السور الذى أسهمت به مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مجال التأثير المصرى فى إفريقيا، سواء فى التعرف على الإقاليم الإفريقية بإتاحة الفرصة للرحالة عرباً أو أجانب للتوغل فى تلك الأقاليم، أو تهئية المناخ العسمى لشورى هذه الرحلات، فقد كان لمصر دور آخر أكثر إيجابية فى مجال إدخال الحضارة إلى كثير من الأقاليم الإفريقية، ويرتبط هذا الدور ارتباطاً وثيقاً بالتوسع المصرى، ومتمند الفتوحات المصرية إلى مناطق داية فى قلب القارة الأفريقية، وصلت إلى البحيرات العظمى ومناطق أعالي النيل، إلى جانب سواحل البحر الأحمر وقد امتد الحكم المصرى قرنه ستين عاماً من ١٨٢ - ١٨٨١، أى منذ بداية فتح السودان حتى قيام الثورة المهدية، ثم الانسحاب من المناطق التى



وصل إليها الحكم المصري عام ١٨٨٥. ولاشك أن هذه السنوات التي قضتها مصر
تركبت تأثيرها على كثير من الأقاليم التي شملها الحكم المصري، إذ أتاحت لها
محاولات كبيرة للتقدم والازدهار، على عكس عرودته بعض المصادر الاستعمارية
من اتهام الإدارة المصرية بالاستغلال، وكان ذلك لتبرير الخطة الاستعمارية التي
انتهت بالامتلاء على المطامق التي امتد إليها الحكم المصري.

وقد يكون من المناسب أن تشير هنا إلى أن أولى مراحل لتوسع المصري في
أفريقيا بدأت في عام ١٨٢٠، بفتح السودان، وهنالك دراهم عديدة أص إلى هذه
الفتح، لكن أبرزها أو على الأقل ما رددته بعض المصادر من حاجة محمد علي إلى
تجديد السودانيين لتعويض ما فقده في حروبه العديدة في الجزيرة العربية، هذا
بالإضافة إلى اضطراب التجارة بين مصر والأقاليم التي تليها جنوب شبهة سيطرة
الماليك الذين فروا إلى النوبة عقب سلطنة لقعة في عام ١٨١١، ووضوح
سيطرتهم على منطقة الواقعة بين إسا وواكي حلفاء، وحاجة محمد علي إلى
تأمين طرق التجارة، والتخفيف من بقايا المماليك، كما يمكن أن تضيق إلى تلك
العوامل دقة محمد علي في اكتشاف منافع النيل لما يرتبط ذلك باحتياجات الزراعة
التي كانت تعيه بصمة خاصة، وكذلك سد حاجته من الأيدي العاملة السودانية
لخدمة مشروعاته الزراعية والصناعية أو العسكرية، هذه فضلا عن رغبته في توسيع
حدود مصر من الجنوب ويجاد تكامل اقتصادي بينها وبين السودان وبالتالي ربط
البلدين بسياسة الاحتكار التي صار عليها.

وبما هو جدير بالذكر أنه لم يكن يقصد أقاليم السودان من المستعمرين بالتجارة
قبل الفتح المصري سوى فئة قليلة من التجار، أو المغامرين، وكان معظمهم من
سكان الوجه القبلي، وكانت مغامراتهم عرضة للأخطار في كثير من الأحيان. أما
معظم تجارة السودان فقد تحولت إلى طرق أكثر طمأنينة نسبيا نحو موانئ سواكن
ومصر على البحر الأحمر. ولاشك أن ظروف السودان المضطربة قد سرت كثيرا
من أسباب الفتح، وما يسترعى الانتباه أن الحملات العسكرية المختلفة التي
تتابعت من مصر إلى أقاليم السودان كانت تصاحبها عدة بعثات من العلماء، وكان

لهذه من ذلك واضحاً وهو الرغبة في توسيع نطاق المعارف الخاصة بالانقسام في
يمكن أن تصل إليها القوات المصرية

وبذلك فقد يكون من السير عيب أن نقيم الجهود الكشفية التي قامت بها
مصر من خلال تسعة بعثات عسكرية التي أرسلتها لمصر أمثالهم السود من
ذلك مثلاً أن حملة إسماعيل باشا بن محمد علي بعد أن نجحت في السيطرة بلاد
النوبة في عام ١٨٦٢، بدأت توغلها في جهات السودان، وبطراً لمصانع التي
وجهتها في «حشرق» بصحراء أثرت التقدم بمحاذاة نهر النيل إلى أن بلغت بربر
فشندي لمحاذاة، وكان ذلك التقدم الذي أحرقه الحملة هامة لمصرية من حيث
تأكيد أن البحر الأبيض (النيل) هو المجرى الرئيسي لسهل النيل وفي لعدم الثاني
١٨٦١ وصلت من مصر بعثات عسكرية بقيادة إبراهيم باشا الذي اشترك مع
إسماعيل باشا في اتحاد مايزم من مسائل مهمة استكشاف سبيل الأبيض
والأزرق، والوقوف على حقيقة حزامها، وبالفعل انضمت القوات المصرية إلى
قسم قسم سار هلى النيل لأزرق حتى وصل إلى فارو على، أما القسم لثاني
فقد اجتاز جزيرة الخرطوم مسجماً النيل الأبيض إلى بلاد السنكا، وكانت هناك بعض
الأمم المعلقة على هذه الحملة فيها إمكانية الوصول إلى أقدم السودان «عربي» بد
كان من يعتقد في ذلك سوقت انصار النيل الأبيض بهو البحر الذي يحترق
أفريقيم عرب السودان ومع ذلك فقد أصعب حطة أخرى هي حابة قبل الحملة
الأولى، وهي أن تواصل الحملة سيرها بعد استعانتها بوجود من بلاد كردفان، ثم
الرحيل إلى دارفور وبورنو، وأخيراً يمكن للحملة العودة إلى مصر عن طريق
طرابلس للعرب، ومع ذلك فلم يقدر لهذا المشروع أن يأخذ طريقه إلى مجال
التحليل.

وكان من أهم العلماء لأوروبيين الذين رافقو حملات السودان سجنوتو،
وذكولي، ولويسيانى، وريتشى، وكورنو، وليتوروك، ومارزى، وكابر Caillaud،
وقد يهمه لأخير بصفة خاصة حيث أمدا بوصف تفصيلي لرحلة النيل
الأبيض^(١)، وكان قد رتب كسابو قد صعد الحملة المصرية بعد فتح دنقلة وتوغل
(١) يقع هذا الوصف في أربعة أجزاء بعنوان:

Voyage à Merou et au Fleuve Blanc Paris 1828.

مع الحملة في النيل الأبيض بقصد الاستكشاف والبحث عن متجم الذهب، وقد وضع كتاباً هاماً يعد من أهم مصادر فتح واستكشاف أقاليم السودان، بعنوان 'رحلة مروي والنيل الأبيض وفازو على' ويقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء، كما وضع كتاباً خريطة لمجرى سيل من وادي حلفا إلى مصب نهر نوبت عبي فيها ما في هذه المناطق من موانع طبيعية. وقد عني كتابه بوصف التقارير المهمة عن الشرق وبذلك بهيمالية للمناطق التي سمرت بها الحملة، كما وضع كتاباً آخر عن لهجات القبائل السودانية المختلفة، القياسة في هذه مناطق، وأضاف إلى ذلك معلومات مفصلة عن تاريخ السكان، ووصف حالهم وبيوت أحوالهم ومعيشتهم.

وعقب افتتاح المصري للسودان، بدأ محمد علي في تعيين الولاة على الأقاليم المختلفة، وقد برز من ولاية السودان في عهد محمد علي، حورشيد باشا الذي عين في عام ١٨٢٦ وعمل على توسيع الفتوحات المصرية إلى القلايات الواقعة في شرقي السودان كما تم في عهد بولي أحمد باشا أبو وداد فتح إقليم انتاكا (كسلا) الواقع بين نهر عطبرة والنيل الأحمر (١٨٤٠) وبني هذا الوالي يعمر تأسيس مدينة كسلا التي اتخذت عاصمة لإقليم انتاكا^(١) كما رار محمد علي السودان في عهد أحمد باشا أبو وداد في عام ١٨٢٨، وكان محمد علي يشهد بهذه الريادة بفقد أحوال الإدارة المصرية والبحث عن معيد الذهب، ولدست وصل في رحلته إلى جبال فازو على، وكان يصحبه في رحلته هذه طائفة من الباحثين والمهندسين من أبرزهم يفر Lefevre، وداربو D'Amaud ولاسيوت Lambert

وعلى الرغم مما توجهت إليه بعض المصادر الاستعمارية من التهوين من أهمية الحكم المصري للسودان، ودمجه بأعمال القسوة والعتاة، مركزة في ذلك على بعض التصرفات الشاذة التي نسبت إلى بعض الولاة الأتراك، الذين توالوا على حكمه ارياقليم السودان، إلا أن الأمر الذي لا شك فيه أن هذه الأفعال لم تكن تصدر من سياسة مقررة في الحكم، كذلك حرصت المصادر الاستعمارية أيضاً على

Holt, A Modern History of Sudan from the Funj Sultanate to the Present day Lond. (١) dan, 1967, P.P 32 - 33.

دفع الحكم المصري بكل مقبضة، والتأكيد على فصل الإدارة الإنجليزية في إتحاد الحضارة إلى ربوع السودان، ولأشئت أن مدهيت إليه هذه المصدر إنما هي اتهامات باطلة، امتحنت في أسسها على تشويه متعدد لمحقبات، إذ من المعروف أنه بفضل في التقدم الذي أحرزته أقاليم السودان منذ الفتح الأول في عهد محمد علي، ثم الفتح الثاني في عهد الخديو إسماعيل، لما يرجع إلى حكم مصري وإلى الدعاء والسواعد والجهود والأموال التي بذلها المصريون بسطاء، فقد صحى المصريون بأرواحهم في مسيل فتح السودان وتعميره، وقرار سلطة الأمن في ربوعه. وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى التوضيحات الكثيرة التي بذلتها مصر من أجل تحقيق هذه العناية الكبرى، إذ بلغ عدد من خدمهم الجيش المصري في الفتح الأول لسودان، سواء تم قتلوا في المعركة، أو غر فقدوا في برحلات الكشفية المعينة الشاقة، أو غر حلت حتهم الأثرة والأمراض، ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص^(١)، وكان ذلك ثم مادفعته مصر لشرب لواء الحضارة والعمران، وتأسيس إدارة نظامية لم تكن أبلاد تعرف لها وجوداً من قبل وعلى الرغم مما يتسبب إلى محمد علي من أهداف وأغصحة جوب استعمال السودان إلا أن نظرة المصريين إلى السودان لم تصروف إلى تحقيق أطماع استعمارية، وإنما كانت نظرة مصروفة حائما إلى أن السودان يرتبط برابطات اقتصادية وروحية وثيقة بمصر.

وكان تأسيس المدن من أهم ما عني به الحكم المصري، وقد أصبحت هذه المدن مبعثاً للحضارة والتقدم في كثير من الأقاليم السودانية، وكانت من أهم المدن التي أنشئت. مدينة الخرطوم، التي كرس حورشيد باني جهودها لتشييدها وتطويرها، فقد شجع الكثيرين على الإقامة بها بمشجعهم من امتيازات عديدة م أدى إلى ازدياد عدد سكانها، حتى أن المسجد الذي أنشئ بها في عام ١٨٦٧ قد أزيل ليحل محله مسجد أكبر، كما أقيم مستودع عسكري وميناء بهري للشحن، وشجع بلوادي سكان الخرطوم على بناء متدرل ثابتة بدلاً من الخيام حيث أمدهم بأدوات البناء، كما وجه الاهتمام بدمعاش المجيرة بتأمين طرقها حتى استطاع عدد كبير من

(١) عدها من الزعماء. مصر سعيد علي. المجلد ١٤٥، ص ١٩٢



التجارة تكوين ثروات كبيرة خاصة بهم، وفي مجال الزراعة وصل فلاحون مصريون لتعليم السودانيين أساليب الزراعة ومربيها، حيث ظهرت زراعات جديدة، كما طورت زراعة قصب السكر والبنية، ثم أدخلت بعد ذلك زراعة القطن^(١)

وقد ذكر مسيو فيهر^٢ في كتابه «السودان المصري في عهد محمد علي» فيما يتعلق بتأسيس مدينة الخرطوم، أن المصريين حينما فتحوا بلاد السودان لم يقع اختيارهم على بلدة من بلاده نقالمة مثل بربر، أو سار، أو لايفس، عاصمة لممتلكاتهم، وإنما أنشؤا عاصمة جديدة هي الخرطوم التي لم يكن في مكانها قبل الفتح المصري سوى قرية صغيرة، بها أكوخ للصيادين تقع على رأس شطرين لايفس والأزرق، غير أنها أصبحت منذ عامي ١٨٢٣/١٨٢٤ مدينته أهلة بالعمارة ومن الملاحظ أنه محلات العسكرية كانت تتخذ من سار نقطة تجمع بها، ولما كان المناخ في سار قد أقصر بكثير من الجنود، فقد أنشئت مدينة الخرطوم، وتكون منذ عام ١٨٢٣ بدأ تحويلها إلى مدينة مقر للحكم ومركزاً للإدارة، وبعد أن تأسست المدينة أصبحت ملتقى المهاجرين القادمة من أنحاء السودان ودولية إفريقية، أو الواردة إليها من مصر وأخارج، فزدهر عمرانها، وصارت من أعظم المدن التجارية، كما أصبحت مركزاً لرحلات ولاستكشافات الجغرافية والعلمية.

ولم تكن الخرطوم هي الوحيدة من موعدها، وإنما تأسست كثير من المدن في أقاليم السودان المختلفة، أبرزها كالا، وفلمكة، على ليين الأزرق التي اتخذت عاصمة لمديرية فلزوغى.

وهنا يختلف بعض الكتاب الذين تعرضوا للحكم المصري في السودان في تقديرهم لذلك الحكم في عهد محمد علي، فرب المنصفين منهم قد أجمعوا على امتداح لوسائل لإدارية الحديثة التي أدخلتها مصر، كما اعترف الكثيرون بعبء مصر في وسط الأمر في كثير من الأقاليم لثانية وقد يكون من المفيد أن نقرر هنا

Holt, A Modern History of the Sudan p.p. 52-53. (١)



بعض المناطق التي تعبا في توصيح أهمية الدور الذي قامت به مصر، من ذلك أن برحلاته التي كانت تنجّه إلى السودان قبل الفتح المصري كانت مليئة بالخطار، سطرًا لأصعب الأمن والقطاع، سطرًا للمنطقة الواسعة للتحكم أو الرأسة المحجيين، وكان من جرء ذلك تعرض قوافل الحج والشجار لصعوبات السلب والنهب، وفي إقليم كردفان مثلاً حيث لم يكن أي تاجر يأمن على نفسه أو أمواله، استطاع الرحالة الإنجليزي بالم *Palme* أن يجتاز لإفسم، ولم يكن في صحبته سوى قانع واحد، كذلك صاح في السودان الرحالة كوتشي *Kotchy* في عام ١٨٣٩^(١)، وأحد أمراء الأمان ويدعى *Muskau*، كما جابت عائمة على *Mary* للسياحة في مدينة الخرطوم في عام ١٨٥٠، كما لو صاحب غني ربيع إيطاليا نفسها، وحدث على حد وصف ديبريان يظهر أن الأمن الذي حققه الحكم المصري في السودان وكان من نتائج الفتح المصري لأقاليم السودان تنظيم البريد وخاصة بعد أن أصبحت مدينة الخرطوم مركزاً لبريد النيل في السودان، ثم جعل على ظهور الجمال فيرسل إلى مصر، وجميع الممرات السودانية. وقد أنشئت على طول الطريق محطات لتريح هذه الإبل وتبين، وكانت الرسائل تصل من الخرطوم مرتين في الشهر، وتقطع المسافة بين مصر والخرطوم في خمسة وعشرين أو ثمانية عشر يوماً. وقد عقب لسيو جومار على انتعاش البريد بقوله «من ذا الذي كان يظن قبل أربعين عاماً بل خمسة عشر عاماً فقط، أن نصفاً الرسائل من ضفاف النيل الأبيض، إلى صعيد النيل في اثني وثلاثين يوماً، ونصف من فرنسور (جنوب السودان) عند الدرجة عشرة من خط الاستواء في خمسين يوماً؟».

ومن المظاهر الحضارية الأخرى التي أحدثتها مصر في السودان توجيه رعاية إلى إدخال زراعات جديدة في الثروة السودانية، كما بلغت مصر جهوداً كبيرة لتسهيل المواصلات بينها وبين السودان. وظهر الاهتمام بصحة طرق القوافل التجارية، ومن أجل ذلك جفرت الكثير من الآبار في الطريق بين كرسكو وأبو حمد، وكان ذلك الطريق من أشد الطرق صعوبة في صحراء النوبة.

(١) حسن أحمد محمود انتشار الإسلام والتألق العربي في إفريقيا من ص ٢٩٤ - ٢٩٥

وقد يعينا بصفة خاصة ما حققته مصر من جهود في كشف بعض أقاليم النوبة، إذ اهتم كثيرون من رواد حركة الكشف بمذبح نهر النيل، وشحنهم الحكومة المصرية بمئات الخاضعين كما حظوا بعناية الخاضعات المصرية العسكرية التي كانوا يصنفونها في رحلاتهم المختلفة والأمر الذي لا شك فيه أنه سولا هذه المساعدات ما تمكن هؤلاء من أن يحرروا نجاحاً في عملياتهم الكشفية، وكما سبق أن أشرنا أصبحت مدينة الخرطوم مركزاً هاماً للرحلات الاستكشافية التي تخرج منها بهدف اكتشاف منابع النيل.

ويمكن ملاحظة نهاية مصر بأعمال الكشف منذ بداية حملاتها إلى السودان حيث اصطحب إسماعيل باشا بن محمد علي بعض المهندسين في فتوحاته الأولى، كما أن محمد علي وولي بنه إلى أقدم السودان مصطفيًا معه بعض العلماء والباحثين بهذا الخصوص، في بعض الذهب ثم إنه بعد أن عاد من رحلته إلى السودان، تولى بنه تنظيم البعثات العلمية والبحرية لتكشف عن منابع النيل. وليس من شك في أن العمليات الكشفية التي قامت بها مصر قبل مئتي سنة في رحلات الاستكشافية الكبرى التي انتهت باكتشاف منابع النيل، وإذا كانت هذه العمليات الاستكشافية قد تمت خلال الفترة من ١٨٥٨ إلى ١٨٦٦. أي عقب أن انتهى الرحالة سيلك، وجنرات من الوصول إلى بحيرة فيكتوريا تسانزا وشلالا وريون. فإن الأمر الذي لا شك فيه أن الرحلات والحملات المصرية التي شهدتها أقاليم السودان، قد مهدت الطريق أمام المستكشفين الأوروبيين، وأضاءت لهم السبل، وفتحت أمامهم بلاداً وأقاليم وجنات مائة سم يكر في مقدورهم أن يجزوا فيها لو لم يشملها الحكم المصري. وقد ذكر ديفيدسون في كتابه عن السودان في عهد محمد علي، بأن مصر أرسلت بعثات ورحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل، قد ساهمت على تحقيق الأمن الكبير الذي كان يطمح فيه علماء البحرية، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد قبل أن يهرم باشا ابن محمد علي كان شديد التطلع إلى تحقيق هذه البعثة، فقد ألقى ببرهانه الخاص بصدده ذلك إلى غردونك كابو حيف قابله في عام ١٨٢١، وأكد أنه سيعمل على اكتشاف النيل الأبيض في حملة من مراكبه مسلحة، وعدد كبير من



القصور والكنائس التي تستطيع أن تضيء على النهج بهيئة دود أن تعترضها
 الشلالات، وتكون وجهة هذه العمارة شبيهة أن تتحد في نهر وروافده، حتى
 تصل إلى مناعته، كذلك كان إسحاقيل باشا قائم جبهة السودان بطمح أيضاً إلى
 كشف منابع النيل، فقد أخرج المير كايو حينما استلذه في العودة إلى مصر في
 فبراير ١٨٢٢ أن يشر بالمعلومات التي تم التوصل إليها في فرنسا، وأنه إذا عاد إلى
 مصر فإنه سيجد أن المصريين لن يقتنعوا بالاستكشافات القصية التي تم التوصل
 إليها، بل أنهم سيلتفتون جهوداً أخرى للوصول إلى منابع نيل الأبيض.

وي تحذر الإشارة إليه أن أحكم المصري كان عاملاً في تشجيع الرحلات
 الاستكشافية في حوض النيل، ودينا بعد ذلك رحبة ماي وهرش Hay-Hochi
 النديين وحققا في عام ١٨٢٤ إلى ميس الخريطوم جنوباً. وفي عام ١٨٢٧ وصل
 ليد دي بلون إلى حوض الخريطوم في سيل الأبيض، كما وصل إبراهيم باشا
 كاشف إلى بلاد تشيت والثنكا الواقعة قرب بحر المزال فيما بين عامي ١٨٢٨
 و١٨٣١.

وقد يكون من المناسب أن نشير هنا أيضاً إلى مساهمته الإدارة المصرية من
 توطيد الأمن في أقاليم السودان خلال عمليات نفتح لأوى، فقد وصلت حدود
 مصر شرقاً إلى لبحر الأحمر وذلك عقب فتح إقليم الناكسا، والقضارف،
 والقلايات على مصر من حدود الحبشة، وكان ذلك في عام ١٨٤٤. كذلك
 دعت موني سواكن ومصروع في حدود السودان المصري بعد أن رأت مصر
 استجارهما من السلطان العثماني باعتبارهما متفدين هامين للأقاليم السودانية
 بصفة عامة، ولإقليم ناكسا بصفة خاصة، ولم يكن العزم من ذلك تحقيق
 أغراض توسعية وخاصة في الوقت الذي اتهازت فيه قوة مصر لمدية والعسكرية،
 وإنما كان الهدف تأمين حدود الممتلكات لمصرية من اخلة أما من جهة الجنوب،
 فقد بلغت الحملات المصرية بحرية جونكر الواقعة في مقابل غدكرو على النيل
 الأبيض، أن فيما بين جونكر جنوباً وهو لإقليم الذي هو يعرف باسم مديرية
 حط لامتوء، وإقليم أوغده الذي يشمل منطقة البحيرات الاستوائية فقد سم

فتمسكها على عهد الخديو إسماعيل . لما من الساحة العرية ، فقد شمل الحكم المصري إقليم كردفان وسلطه دارفور التي دخلت تحت الحكم المصري من الساحة الرسمية على عهد محمد علي ، وذلك بمقتضى فرمان ١٣ فبراير عام ١٨٤١ ، الذي أمثل إلى محمد علي ولاية أقاليم السودان ، وقد ورد فيه لفظة إقليم السودان . دارفور كردفان . ما روجع توابعها وعشقاتها بيد أن الحكم المصري لم يستقر في دارفور ولا بعد أن أرسل الخديو إسماعيل حملة عسكرية لإخضاعها ، والامر الذي لا شك فيه أن بلجهد التي بذلتها مصر لفتح أقاليم السودان ، كانت جهوداً عظيمة وكان يمكن أن تكون أشد قوة لولا انشغال محمد علي بحروبه في سوريا والأناضول ، وإلى غير ذلك من المشكلات العديدة التي تعرض لها وخاصة خلال السنوات الأخيرة من حكمه .

وغد يكون من المفيد أن نركز في هذا المجال على الحملة التي قام بها محمد بك المسترदार ، بهدف فتح إقليم كردفان الذي كان من المتوقع لاستمدة منه اقتصادياً . اشتهر به من معدن الذهب وريش النعام والصنغ العربي ، وبالمثل لم تحت حملة المسترदार في ضم لإقليم إلى الممتلكات المصرية . وقد نكوب من أهمية حملة المسترदार ، أن ما تحقق فيها من استكشافات جغرافية وقع أكثره على كامل الحملات العسكرية المصرية ، إذ رفض المسترदार أن يصحبه في حملته أوربي واحد وربما أدخل يحمل على تقرير الحقائق الجغرافية والطبيعية البشرية ، فكتب مجلة تقرير هامة عن أحوال البلاد وجامعاتها ومليصدر منها من تجارة ومايرد إليها موضحاً الوسائل اللازمة لإنعاش التجارة ومساعدة التجار ، وبث روح النشاط في نفوسهم . كما اهتم يذكر طبائع السكان ويسان عاداتهم وثقالدهم وأحوالهم الطبيعية ، وقد ضمن ذلك مجلة من التقارير الكثيرة ، التي قد يبحث بها إلى القاهرة ، وكثير منها لأحوال محفوظة حتى الآن في وثائق القاهرة ، وبالإضافة إلى ذلك أمر المسترदार بتصميم خريطة لإقليم كردفان ، وكانت أول خريطة وصفت لذلك الإقليم ، وقد وضعها المسير بيان دي بلقون بأنها « كانت عبارة عن قطعة طويلة من القماش ملفوفة على بعضها وقد رسم عليها بمقنص قياسي ما جمعت الطرق المتنوعة التي تم السير فيها ، وهي طريق النيل ، وطريق دنقة إلى كردفان ، وطريق كردفان



بني مار، ثم إلى غباروعس، وطريق قصدير إلى التاك إلى شدا، وقد وصح
فيها المدن والأكبر والجمال وديار بأمنها، ولكنها كانت كلها مرسومة على حديد
مستقيم بحيث إنها كانت تذكر من ينظر إليها بحر تعذر طرق والفرود التي كان
يرسمها الرومان في قديم الزمان (١).

الفتح المصري وانفتحت رحلاتهم المنطق التي امتدت إليها الإدارة المصرية في بلاد
 النوبة، وسناره وكرنفان، وقليم النكا. أما أقاليم السوحد الجبسية التي لم تكن
 الإدارة المصرية قد امتدت إليها، فلم يستمع الرحالة التوغل فيها^(١١). ولذلك
 عتبت مصر منذ عام ١٨٣٦ بإرساء رحلات كشعة إلى أعالي النيل الأبيض.
 وكانت النتائج التي توصلت إليها هذه الحملات هي الأساس الذي ارتكز عليه حل
 مشكلة منابع النيل الاستثنائية وكانت أولى الحملات المصرية التي أرسدت بذلك
 الهدف بعثة سليم قبودان التي غادرت الخرطوم في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩،
 وعادت إليها في ٣٠ مارس ١٨٤٠، وقد وضع الكيخاني سليم قبودان تقريراً
 سجل فيه رحلته هذه وضمها تفاصيل كثيرة عن حالة المنطق والقبائل التي
 صادفها، وألحق بهذا التقرير جداول تتعق بالأرصادات البحرية، كما أورد معلومات
 مفيدة عن محرى النيل ومروفت التي نصب فيه، كما أضاف إلى ذلك بياناً بالطرق
 وبمسالك تخصص بها «يقرب من عشرين جدولاً، وقدم المسير يومياً هذا التقرير
 إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية ببيريس» وشرف في مجلته في عام ١٨٤٢، ويذكر
 جومار ذلك التقرير بمقدمة أتى فيها على الجهود التي بذلها ذلك الضابط المصري،
 وكان مما ذكره أن حملة سليم قبودان تألفت من أربعين جندياً، وكانت غايتها
 تحقيق اكتشافات جغرافية، وكانت أول بعثة من نوعها تصل إلى تقرير حقائق
 جغرافية هامة، وإن لبعثة كانت ثمرة من ثمرات حضارة والبيئة العلمية التي
 ظهرت في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وكانت البعثة الثانية التي أرسدت إلى النيل الأبيض أكثر أهمية من البعثة
 الأولى، وقد قاد سليم قبودان هذه البعثة أيضاً في ٢٣ نوفمبر ١٨٤٠، وإن كانت
 رئيسها، علمية قد أقيمت على عاتق المسير دارنو D'Arnaud، وقد أجهت لبعثة
 مربعة نهر السوناط مقترية من حط لامتواء إلى الدرجة الرابعة من خطوط العرض
 الشمالية، ولكنها لم تستطع أن تتوغل إلى أبعد من ذلك بسبب ضخامة الماء
 فعادت إلى الخرطوم في ١٨ مايو ١٨٤١

Hill, Egypt in the Sudan 1820 - 1881 p.32. (١١)

وكان من نتائج هذه بعثة رسم خريطة كبيرة في عشر صفحات من مجرى
النيل الأبيض ولما طرقت لمحاولة به، إلى جانب وضع خريطة أخرى عيت بتوضيح
الطرق والمساكن التي قطعها البعث، وقد نشرت الجمعية الجغرافية المصرية صوراً
مصغرة من هاتين الخريطين وفي مؤتمر الجغرافيا الدولي الذي انعقد في باريس
في عام ١٨٨٩، وصف الدكتور فيودريك يانولا رحلات سليم قيودان باعتبارها
لأساس الذي بني عليه حل مشكلة منابع النيل، وذلك بفضل ما توصل إليه من
دراسات طبيعية وجغرافية مدججى النيل الأبيض، والأمر الذي لا شك فيه أن
رحلات سليم قيودان أدت إلى نتائج هامة، كان أبرزها التمهيد لارتداد منطقة
أعلى النيل، ونقل بعض الرحلات التي أصاب إليها، والأهم من ذلك أنها كانت بمثابة
في فتح الطريق بين النيل الأبيض ومقاطعات السودان الحوي، إلى جانب ربطه
للسودان الشمالي بمجوبه، والجليل في بعثات سليم قيودان أنها اكتشفت بلانكا
ومناطق كثيرة كانت تعد حتى ذلك الوقت في حكم مناطق مجهولة، ولم
يعتقد من قبل أحد من الرحلة أو المستكشفين، كيب أعطت هذه البعثات فرصة
لدراسة جغرافية الأقاليم التي وصلت إليها ومعرفة سكانها وحياتها ومناخها، كما
أنها مهدت لنيل لمجموعات أخرى التي أرسلت من مصر في النصف الثاني من
القرن التاسع عشر لكشف منابع النيل (١).

وبالنظر إلى النجاح الكبير الذي حققته البعثات الاستكشافية المصرية، فقد
كان من المتوقع أن تستمر هذه البعثات في التوصل إلى أبعد من ذلك، وبالفعل
أرسلت عدة بعثات أخرى، وبكثيرة أحدثت تواجده العديد من الصعوبات بسبب
تعمق بعض الحكامانيين الذين تولوا أقاصم السودان، حتى أن امير دارو القى
كثيراً من العوم على أحمد باشا أبو زيد، وحمه مشوية مثل البعثة الثالثة في
سليم الأبيض، فقد تعرضت هذه الحملة بكثير من الشق وفقد للرجاء، بالإضافة
إلى ما تعرضت له من صعوبات ومشاكل أخرى، إذ ضاعت أبحاث دارو ومصنفاته

(١) هي البعثات التي أرسلت إلى منطقة السود البقية، انظر الكتاب الذي وضعه الدكتور سليم منقار
عن البعثات، مطبعة بولاق، القاهرة ١٩٥٨.

العربية، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الحملة أن تقوم بحفر آثار تفسير الاتصال وتسهيل طرق التواصل، إلى جانب ما حققت من رسم خريطة لمحرق النيل من الخرطوم إلى أبي حديد.

وبما تجدر الإشارة إليه أن الحملات المصرية كان لها أثر كبير في إطلاق نوع من الذي كان يرد اعتقاده الجغرافي والمستكشفين الأوروبيين، من أن نهر النيل يسع من جبال القمر، الواقعة شمال خط الاستواء، إذ أثبت أن النيل يتدفق من مجرى من الجنوب وليس من شك أن الدراسات العربية والجغرافية التي أجريت على مجرى النيل الذي وصلت إليها هذه البعثات، ومجموعته من معلومات وأخبار عن هذه الأقاليم السائية، مهدت السبل لآلاف أعالي النيل واكتشف منابعه.

ومع تبليغ البعثات المصرية وما انتهت إليه من التعدي على منطقة السودان السائية وفتح طريق للملاحة إلى لأجزاء العليا من النيل، توافد عدد من التجار والمغامرين والمبشرين الذين استطاعوا إلى جانب تحقيق أهدافهم التجارية أو التبشيرية جمع مزيد من المعلومات الجغرافية عن هذه المناطق البعيدة. وكما سبق أن أشرنا أنه قد تولى على إثر الإدارة المصرية في السودان إقرار الأمن على ما بين أمبوك حتى السويع في هذه الأقسام. ويمكن أن يشير بعدد من إلى الرحلة المرسى مرون روليه «باتريك» و«ثانول» وإخوانه بوشيه وغيرهم، الذين عموا بتأسيس المراكز التجارية، ثم طمعتهم احتياجاتهم التجارية إلى التوسع في الداخل، وساهموا في أعمال استكشافية مفيدة كما وصفت حديث من البعثات التبشيرية إلى الخرطوم، ومذكرات، وأسهمت بدور كبير في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية. وقد استمرت مصر توالي البحث وتواصل الاستكشاف وتقديم تسهيلات مختلفة للرحالة والتجار الأوروبيين، كما ظهر في ذلك الوقت مشروع هدف به محمد علي توسيع نفوذه إلى دارفور، ولكن الظروف السياسية التي واجهها في نزاعه مع سلطان العثماني وتدخل نفوس لأوروبية عاقته عن تنفيذ ذلك المشروع. ولأنه أن فتح السودان وتسهيلات التي تمنحها مصر أنت يربيا عبيدة، إذ كانت مصر مصدر إنبام لكثير من الرحلة والمستكشفين والبحريين، وبولا قليلين للحكومة

لمصرية للمصنوعات التي كانت تعرض استكشفيين لامشعوت طبات السودان في حكم الاراضي المجهولة، ولما امكن التوصل إلى معومات صحيحة عن كثير من أقاليم السودان مثل السوية الحلي، وكردف، والبحر الأزرق، من حسب الأقاليم الاجتماعية التي كانت تكون غير معروفة تماماً^(١).

ومن المعروف أن الحملات المصرية قد توقفت في الفترة التي أعقبت تسوية تس ١٨٤١/١٨٤٢، ولكن هذه التسوية على الرغم من أنها حمت على مصر الانتعاش من لأماكن التي توسعت فيها في خربة العربية وبلاد الشام، لا أن أقاليم السودان استمرت دحلة ضمن نطاق الولاية لمصرية بمقتضى فرمان فبراير ١٨٤١^(٢)، وبذلك استطاعت مصر على الرغم من تداعى قوتها لمادية والعسكرية أن تضع الأساس الذي ارتكزت عليه إمبراطوريتها الإفريقية في نصف للثانى من لقرب التاسع عشر. ففى بلرحله الثانية من مراحل التوسع لمصرى، تم لمصر فى عهد الخديو، سماعيل فتح أقاليم دارفور، ومنطقة البحيرات لاسوائية، هذه بالإضافة إلى لتوسع المصرى على ساحل البحر الأحمر، وتخليج عدن، فى كل من الصومال، وإريتريا، وهرر، وبذلك بكونت مصر إمبراطورية إفريقية أصبحت هاملا حاسماً فى السياسة الإفريقية، وخاصة فى الوقت الذى بدأت فيه لاطماع الامتعمارية تتضح من أجل السعرة على القدرة الإفريقية، فكانت مصر أوانت تكون إمبراطورتها أن تسبق الاستعمار الأوروبى، ولكن ارتبطت بالأوضاع ابالية وماتعها من احتلال سىاسى، وتدخل لجنبى، انتهى بالاحتلال البريطانى لمصر، ثم قيام الثورة المهدية فى السودان، ووزم مصر بجلأ عن ممتلكاتها الإفريقية، كان لكن هذه العوامل أثرت فى أن أصبحت القدرة الإفريقية مهياً للاستعمار الأوروبى وعلى الرغم من أن مصر اضطرت إلى إخلاء عن الأقاليم التى توسعت فيها، فأن العمل الذى قامت به مصر ظل باقياً وظهر ذلك جيد يأتى:

(١) جمال زكريا قاسم: دور العرب فى كشف إفريقيا، مجلة عالم الفكر، سبند الأول، العدد للقرن للكويت مارس ١٩٦٩

(٢) انظر عبدالرحمن الراحمى: جبر محمد على ع ١٨٤٢، القاهرة ١٩٥١

أولا أن مصر كانت عاملا هاما في إدخال الحضارة الحديثة إلى كثير من الأقاليم الإفريقية.

ثانياً، وقع على كاهل مصر تنظيم الإدارة ووصل كثير من الأقاليم الإفريقية بالعالم الخارجي حضارياً وثقافياً

ثالثاً، تمكنت مصر من أن تجعل من الأقاليم السودانية المشتتة وحدة إدارية ومبانية لأول مرة في التاريخ، فأعطت هذه البلاد كياناً سياسياً لم تعرفه من قبل، وهذا الكيان هو الذي قامت عليه جمهورية السودان الحديثة. إذ لم يكن السودان يشكل وحدة سياسية قائمة بذاتها وإنما كان يحتوي على مناطق متباعدة مثل سدر، وكردفان، ودافور، وغيرها.

رابعاً، لا شك أن التدخل المصري في السودان فتح أمام الإسلام والثقافة الإسلامية العربية باباً جديداً، وبحث منه إلى داخلية القارة الإفريقية، إذ انتشر الثقافة العربية، وقرئت في ظل الحكم المصري، كتب بدأ الإسلام ينسحب إلى الأقسام الجنوبية من السودان التي تسكنها لعناصر الزنوجية، وبولا أن الاستعمار دخل هذه المناطق وطلب فيها سياسة خاصة فكان من المنتظر أن تتحول هذه لأجرة كفة إلى العقيدة الإسلامية، وبالتالي كان من الممكن أن يتخلص السودان من مشكلة كبيرة لا يزال يواجهها حتى وقت الحاضر. ومعنى بها مشكلة جنوب السودان، إذ حرص الإنجليز خلال سيطرتهم على السودان على عزل هذه منطقة عن الشمال وأصدروا قانوناً عرف بقانون المناطق المغلقة Closed Districts في عام ١٩٢٣، وبموجب إصدار هذا القانون بقاء حماية شعوب الجنوب من (استغلال) الشماليين بهم، وأخذوا يعمدوا في قمعهم الكراهية لشبيبة محوهم، ولم يكن يسمح خلال الإدارة الإنجليزية لأي فرد من سكان الشعب بالاستقرار في الأقاليم الجنوبية إلا بقبول شديدة، كللته جنون، دون إنشاء مدارس أو مساجد في الجنوب، ولا في أضياع الحدود، في الوقت الذي أمسحوا به أجمال أمام البعثات التبشيرية المسيحية، وأكثر من ذلك كانوا يعمدون على الاحتفاظ بأحوال بدائية لشعوب الجنوب، معجزة المحافظة على أوصافهم الاجتماعية وتقسيمهم القبلي، ولا شك أن

حسبة الجيوب هذه كان لها نتائج خطيرة، ظل السودان يعاني منها في نوبة الذي استطاعت فيه الأجزاء الشمالية والوسطى من السودان أن تصل إلى درجة كبيرة من الترابط الثقافي والعنصري، عشت مناطق جنوب من تفكك حضارى وثقافى وعائى، إذ يتحدث سكان الجنوب لهجات مختلفة ويلبسون بعبائد متعددة حتى وصل الأمر إلى مناداة البعض بمنح مناطق الجنوب حكمًا ذاتيًا، أو حتى لتحقيق استقلالها وانعصامها عن السودان أو ربطها بإحدى الدول المجاورة لها.

وبعد ما تجدد الإشارة إليه أن عصر التوسع المصرى فى إفريقيا كان بمثابة عصر الإحياء للقوى الإسلامية للبيئة المحلية، حقيقة أن هناك بعض الدول الإسلامية كانت تجاور بحشة وأبرود دولة بروج فى سائر، ولكن هذه الدولة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والاضمحلال فى القرن التاسع عشر، ويرى كثير من الباحثين أنه لو لم تأت مصر إلى هذه المناطق فى القرن التاسع عشر لكان من المحتمل أن تستولي بحشة على المقاطعات والسلطات الإسلامية المجاورة لها، وخاصة مملكة الفوج أو المملكة الررقاء كما كان يطلق عليها أحيانًا. وبالغرض حدثت عدة معارك بين الفوج والأحباش حتى جاء بحكم مصرى وحسم دولة الفوج إليه، وبذلك أصبحت بحشة تجاور دولة إسلامية قوية متحضرة، بما سيؤدى إلى حرب بين مصر وبحشة فى عام ١٨٧٧، وكان ذلك فى عهد الخديو إسماعيل، وعلى الرغم من فشل حملة مصر العسكرية، إلا أنها استطاعت أن تحقق نتائج جغرافية هامة ولاشك أن العمل فى الإنجازات بكثافة والحضارية التى حققتها مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يرجع إلى تأسيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى^(١)، وقد مهد بؤدرة هذه الهيئة إلى البكولوس نشر مستون Stone وهو أمريكى الجنسية، وكان القسم الثالث أو العصل الثالث من هذه الإدارة يطلق عليه القسم الجغرى، حيث كان العرس من إنشائه القيام بالأعمال المدنية والكشفية إلى جانب تدريب شباب الضباط المصريين على الأعمال التى تقتضيها طبيعة الاستكشافات الجغرافية.

١، يرجع المصرى أرف إلى الجمعية المصرية الجغرافية التى تأسست فى عام ١٨٧٥ وقامت بغير لانحال والامسك، نائب جغرافيد - الطر مبالوحنس الرافى، عصر إسماعيل القادر ١٩٢٥، ص ٣٤١ ومابعها.

وكان من أهم الأعمال التي تولاهما القسم الجغرافى استكشاف الصحارى المصرية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ١٨٧١/١٨٧٠، وقد ذكر ستون بعدد ذلك أن الضبط لمصريين الذين اشتركوا فى هذه مهمة، عادوا منها وقد شحوا، دفاترهم بإرشادات هامة كما رسموا كثير من الطرق والبروب.

كذلك ارتبطت البعثات الاستكشافية لكبرى بحركة التوسيع المصرى فى إفريقيا على عهد الخديو إسماعيل، وكان السير سمبول بيكر قد اشتهر أمره بتفصيل قيامه بعدة رحلات كشفية فى إفريقيا. وقد جاء إلى مصر فى عام ١٨٦٩ بصحبة الأمير دوجال ولى عهد إنجلترا، الذى أصبح الملك إدوارد السابع فيما بعد، حيث دارت معاهدات بين الخديو إسماعيل ولى عهد إنجلترا، حول تولي سمبول بيكر قيادة حملة عسكرية إلى الجنوب الغربى لارضى الواقعة فى بادشودة حتى لنحيرات العظمى إلى أملاك الخديوية المصرية، وقد أبدى ولى عهد إنجلترا تأليف هذه الحملة وشجع على رسائله وتم الاتفاق بين الحكومة المصرية وسمبول بيكر على تعيينه حاكمًا لمديرية بحط لامستواء، بمقدد مدته أربع سنوات من عام ١٨٦٩ إلى ١٨٧٣، ومرتب سنوى قدره عشرة آلاف جنيه، وكان الغرض من هذه الحملة بالإضافة إلى تحقيق التوسيع إدخال بحصارة إلى ربوع المدهق الاستوائية وتوطيد دهائم بلحبة وتنظيم الإدارة والعلم الاسترقاقى، إلى جانب تنشيط التجارة على أسس قوى ونظام متين.

ولاشك فى أن مصر كانت تتحمل الكثير من الجهد والنفقات فى سبيل تحقيق الأهداف المصرية فى إفريقيا، فقد ذكر السير سمبول بيكر فى كتابه «الإسمايلية» جميع التفاصيل المتعلقة بهذه الحملة التى أتممت عليها مصر ما مقداره مائتا مليون فرنك فى الفترة من فبراير ١٨٧٠ حتى أغسطس ١٨٧٤. وقد حمل عهد الخديو إسماعيل بكثير من البعثات والحمالات التى أرسلتها مصر، وكان قوامها صباط أركان حرب الجيش المصرى، الذى كان لهم الفضل الكبير فى انتفاذ لحكم مصرى، وشر بحصارة بالسودان، وفى تقديم علوم الاستكشافات الجغرافية مما أسهموا به من دعاية الكثير من الحقائق والبيانات والخرائط والرسوم الدقيقة.



ومن أهم هذه البعثات بعثة سمبول بيكر إلى منابع النيل . ثم بعثة بوردي
 بك أخذت حياض أركان حرب الجيش المصري الذي استطاع من كان يرفضه من
 الضباط المصريين مسح المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر من القاهرة
 والسويس شمالاً إلى قنا والقصر جنوباً ، وتمكنت هذه البعثة من اكتشاف عدد
 طرق إلى جانب بعض المناجم والمحاجر المتناثرة في تلك الجهات . وفي عام
 ١٨٧٣ وصل بوردي إلى موقع مدينة يرنيس (برقة) انقديه على ساحل البحر
 الأحمر عرسي رأس ياس ، حيث لحق به كولستون Colston عن طريق قنا بر
 وتمكنا من تخطيط المناطق الواقعة بين يرنيس وبيرس عيسى النيل ، وقصبا في هذه
 المهمة مديونية من جمعية شهور

وفي عام ١٨٧٤ غكى شاي لويج Chaille Longue من اكتشاف بحيرة
 كيوج (براهيم) كما اكتشف جزءاً من مجرى النيل ، الذي عرفه باسم بلي
 فيكتوريا ، وتمكن من تحقيق بعض للشكالات الجغرافية التي كانت لاتزال حاصه ،
 وهي أن بين فيكتوريا يصب في بحيرة ألبرت ، كما رسم الطريق بين اللادو
 ومكرمة الواقعة جنوب بحر العزال ، وبعد أن تم لصرف قنح درفور في عام ١٨٧٤ ،
 أولدت عدة بعثات استكشافية لتتعرّف على أقاليم دارفور وكردفان كان أهمها
 البعثة التي نجحت في كشف المواقع وطرق المواصلات بين النيل وحفرة النحاس
 الواقعة في أقصى حدود دارفور جنوبية الغربية ، وقد جنت أرجاء هليه لتلطفة ،
 وكشف من الطرق ماطولها ٦٥ ميل ١ وحظت اثني وعشرين موقعاً من المواقع
 الضلكية ، وكانت البعثة الثانية برئاسة كلستون ونجحت في اكتشاف جهات كردفان ،
 وحظت مواقعها ومعدنها وطرق المواصلات فيها ، ورست خريطة دقيقة لها .

أما البعثة الثالثة فكانت برئاسة أحمد المهديين لأمريكين ، ويص ميشيل ،
 وقد هيت باكتشاف مواقع المناجم بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة مناجم
 الذهب في الحامة شمالي قنا ، ثم طافت بمواني البحر الأحمر في القصر ومصوع
 وتاجورة وريبع ، واهتمت بمسح الأقاليم الشرقية من البعثة ، وإلى جانب هذه
 البعثات الكبرى كانت البعثة الاستكشافية التي هدفت مصر من ورائها إلى فتح

لطريق من نيسة إلى بحيرة فيكتوريا عن طريق النوديان الممتدة من الساحل الشرقى
لإفريقيا، إلى مناطق أعالي النيل بعد جبال كينيا وكينيا مجازوه، ولكن
الصعاب السياسية التي واجهتها هذه الخدمة أدت بحصر إلى العمل عن هذا المشروع
الكبير

كذلك امتدت المتوحشات المصرية إلى أوغندا، ومهدت مصر إلى ذلك
بإرسال البعثات إليها، ففي نوفمبر ١٨٧٤ أرسل شاي لويج رسالة من الخرطوم، إلى
استر بومس R. Beardsley الفتح لأمريكا بالعاهرة، تحتوي على تقرير مفصل
عن البعثة التي قام بها إلى أوغندا، وفي هذا التقرير توجد بعض الإشارات التي
تضمن أنه إلى جانب المعلومات الجغرافية التي قصد بها تهيئ فتح طريق لنيل
بين عنديرو وبحيرة فيكتوريا، فإن شاي لويج كان مزوداً ببعض التلميحات الخاصة
بالاتفاق مع لثيسا، إلى إرسال موارده إلى المديرية الاستوائية بدلاً من إرسالها إلى
تجار ولجبار، باعتبار أن ذلك يحقق له استغلالاً أكبراً وبطبيعة الحال عندهم تجار
ولجبار في فتح الطريق التجاري بين أوغندا والمديرية الاستوائية، وبالتالي تمكن من
التأثير على لثيسا، الذي أكد الاحتفاظ بالعلاقات الاقتصادية مع سلطنة ولجبار

وبما كان نشط ضابط أركان حرب الجيش المصري يظهر واضحاً في
الأقاليم الجنوبية والعربية، فتحت الحكومة المصرية المجال لتوسيع ممتلكاتها في
المقاصد الشرقية، وذلك بفتحها بقلم هرر، وكان استيلاء مصر على ذلك
الإقليم يعنى فتح أبواب القسم الشرقى من قناة إفريقيا للتدويرات الحضارية التي
جاءتها مصر على عاتقها رغم ظروفها الصعبة في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر، ويمكن أن نعرض ثلاث مراحل توضح هذا التوسع

المرحلة الأولى: من عام ١٨٦٣ حتى استيلاء مصر على مياه النيل من عام
١٨٧٥، وهي فترة تبلغ اثني عشر عاماً، وفي هذه المرحلة كان كل ما هم مصر أنه
تجد اهتماماً بسيادتها على مناطق الواقعة فيما بين مصيقي باب المندب إلى رأس
حمود الواقعة على بعد مائتي ميل جنوب رأس جردفون

المرحلة الثانية اتجه مصر نحو مد سيطرتها إلى الجنوب حتى نهر الجوبا
ولذلك قررت إرساء بعثة الجوبا التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل السابق

المرحلة الثالثة اضطراز مصر نتيجة الضغوط الإنجليزية إلى توافقة على
وجهة النظر البريطانية بتحديد رأس جردفون باعتبارها نهاية لسيادتها على الساحل
الشرقي من إفريقيا، وقد سم ذلك بالفعل على أثر توقيع المعاهدة المصرية البريطانية
في عام ١٨٧٧. ولما كانت سياسة مصر في إفريقيا تؤدي إلى الإصرار على مصالح
البريطانية على الساحل الإفريقي للمحيط الهندي، فقد كان من الطبيعي أن يبقى
وكلاء الإنجليز وقاصدهم صيغا ساهرة على النشاط المصري وتطوره في تلك
المناطق، والحقيقة أن مصر كاتب قد قطعت شوطا كبيرا من التراجع في توطيد
سيادتها على ممتلكاتها في الساحل الشرقي من إفريقيا، وقد تأكد ذلك بمرور الأيام
المعالي عن ميناء زيلع للحكومة المصرية في عام ١٨٧٥، نظير صرية متونة خسرت
يد ١٣٣.٣٦٥ جنيهها. وكما سيطرة مصر على ذلك ابناء أثر كبير في مواصله
عمليات الكشف الجغرافي؛ إذ قاد رفوف باشا حملة عسكرية في نفس ذلك العام
اتجهت من ربيع صوب المناطق الداخلية من الحيلة، كما كان احتلال هرر عاملا
هاما في دراسة تلك الإقليم الذي آل إلى الإدارة المصرية والذي كان في حكم
الأرض المجهولة. وقد برز في حملة رفوف باشا اليكباشي محمد مختار الخدي،
وكان من أحقق الضباط المصريين بمصل ثالث أركان حرب الجيش، وقد باشر عدة
أعمال جغرافية هامة، منها تعيين عدة مواقع تمينا فلكيا إلى جنوبي وصف
انسانك التي نفذت منها حملة ورفوف باشا إلى الداخل. كما وضع رسومات
جغرافية لكل من منطقة زيلع وهررو، ووصف قبائل الصومال^(١)، وأبرز بعض
المعلومات الهامة التي تستحق بمعيونة هذه القبائل وفي أثناء عمليات احتلال هرر
قتل مورتلجر باشا قائد الحملة، ولكن تمكن أحد معاونيه من الصياد المصريين

(١) لتعرف على منسجله اليكباشي محمد مختار عن بلاد النابل وقبائل الحالا وحمولات رفوف باشا على
الزيج إلى مجلة الجمعية المصرية الجغرافية في أواخرها الصادرة عام ١٨٧٧ الجزء الرابع من القسم الأول
انظر

Notes par le Poyx de Harar Par Mohamed Muktar Bulletin Trimestriel de la Société
Kimbiviale de Géographie du Caire 1877

كما يمكن الرجوع إلى جريدة أركان حرب الجيش المصري الصادرة في سبتمبر ١٨٧٦

وبدأ عرت أفندي من مواصلة الحملة وإتمام كشف الطرق التي فطنتها حمدة
هرره كما رسم خريطة للجهات الواقعة بين تاجورة وبجيرة أوسا ياخشة

وبدأ بلغت البحوث أقصى حدود توسعها جنوباً وشرقاً عملت
الحكومة المصرية على تنظيم ما آل إليها من ممتلكات فقسمتها إلى قسمين قسم
الأول ويشمل إقليم السودان إلى داشودة جنوباً وقد وسى عليه إسماعيل أيوب
باشا، أما القسم الثاني، فشمس أقاليم خط الاستواء ومناطق أعالي نهر، وقد
عهد إلى غردون باشا إدارة ذلك القسم حينئذ لصمويل بيكر بعد انتهاء تعاقد مع
الحكومة المصرية، ويتضح من ذلك أن غردون لم يأت إلى أعالي النيل مستكشفاً
ولما قدم إلى هذه المناطق بصفتها الرسمية كحاكم مصري على مديرية خط
الاستواء. وكان غردون من مهندسي الجيش البريطاني، وكان قبل تعيينه حاكماً
على مديرية خط الاستواء يشغل منصب المصور البريطاني في الدفعة الأولى
الخاصة بالإشراف على الملاحة في نهر النوب، واتفق أن تقبل نوادر باشا معه في
السفارة البريطانية في الأمشاة حيث عرض عليه تعيينه حاكماً على مديرية خط
الاستواء بحسب سوي قدره المال من الجيوب، وقبل غردون ذلك في فبراير عام
١٨٧٤ وقد تم في عهد إدارته تحقيق المزيد من الاستكشافات لعل أبرزها وضع
خريطة لمجرى النيل من خط الاستواء جنوباً إلى مدينة الخرطوم شمالاً كما تمكنت
مصر بفضل المئات للحملة التي أرسلتها إلى أوغندا من اكتشاف بعض روافد
نيل وكان من أبرز هذه المئات لاستكشافية بعثة أمين باشا.

وفي عام ١٨٧٦ تمكنت القوات المصرية من اجتلال بلاد أوغورو ودارت عدة
اتصالات بين صباط الحملة المصرية والشيخ الذي أعرب عن رغبته في الارتباط
بمصر بعلاقات ودية وطيب إرسا بعض العلماء المسلمين بشر الإسلام في بلاده،
وتفصل جبهة مصر إلى بلاد الصومال أمكن التوصل إلى بعض الاستكشافات
الجغرافية الهامة، من ذلك لأراضي نوقعة على صغرى نهر الجوبة كما نجح
البيروياشي حسن أفندي واصعه في رسم مجرى النهر، كما أتت هذه الحملة أيضاً
بعدة فوائد هامة من أبرزها تصحيح خريطة سواحل الصومال إلى جانب العديد

مواقع كل من قسنبر ودمعورد الواقعين على ساحل الشرقى من إفريقيا، كما رسم محمد مختار وعبدالله فوزى خريطة تفصيلية لإقليم هر إلى جانب خريطة لأول بوضع خريطة راسى جردقون، كما وضع الملاحق عبد الرزاق بطنى خريطة لبريرة ومدحمتها إلى جانب مدعى به الضباط المصريين من اكتشاف ساحل البحر وجهات قسنبر وجون وغيرها من الجهات التى وصلت إليها جمعة بجومان^(١)

وفي عام ١٨٧٧ قام الأمير لاي ميزود Milson، تسعده بعثة من بضعة مصريين باكتشاف بحيرة البرت، وأتم بذلك الاكتشاف الذى كان قد بدأه مصريون يكر ووضع خريطة دقيقة للبحيرة وحوضها. كما حدد صباط أركان حرب الجيش المصرى برئاسة عبدالله فوزى حدود الخبشة الشمالية والشرقى بواسطة من مصرع إلى الخرطوم ورسم عدة خرائط خاصة بها، كما حقق جيسى باشا مواقع بحر النهر، وعنى محمد مختار بسبع أقاليم السودان الشرقى وبحث فى خلال السنوات التى كان فيها رئيساً لأركان حرب القوات المصرية فى السودان وله دراسة مفصلة وضعها فى عام ١٨٨٨ خاصة بتخطيط مدن السودان الشرقى، كما اكتشف أمين باشا حاكم مديرية حط لاستواء نهر اسمينيكى الواقع بين بحيرتى إدو رة والبرت.

وقد يكون من المفيد أن يشير هـ إلى مذكور ستوى باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى عهد الخديو، سماهين من أن مساهق التى جابها صباط أركان حرب الجيش المصرى وحققوها وجددوا مواقعها تقع فى اتسع مساحتها مجموع مساحة فرنسا وألمانيا واليابان وتبلغ حدودها التى كانت معروفة فى ذلك الوقت وذكر ستون أيضاً أن الألمان، استكشمية قفت على كثير من السهام

(١) فى عام ١٨٧٧ وضع صباط أركان حرب الجيش المصرى خريطة مفصلة لإقليم البرت من ادو النهر التى كانت معروفة حتى ذلك الحين، وقد اشترك فى وضعها كل من الأمير لاي بوكيت Lachon ومحمد مختار وعبدالله فوزى، ولازال هذه الخريطة حادثة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية المصرية وتنشر على البلاد الواقعة بين مصرى وعضية، حيث أنه ذكر من Hill أنه وضع هذه الخريطة كان بعد بحث من ليرد ملك هيئة أركان حرب الجيش المصرى، انظر

II & Egypt in the Sudan P 141

الأوروبيين إلى جانب بعض القضاة والجواري المصريين الذين قطفوا ثمرهم
مثل كون ميل العلم والمعرفة

وعندما تولى غردوي باشا حكومة السودان في عام ١٨٧٧ استمرت البعثات
الكشفية التي كانت توفدها وتزورها الحكومة المصرية إلى كثير من الأقاليم
الإفريقية وفي عهد غردوي أنشئت الكثير من المراكز التجارية في أعالي النيل
وعلى الرغم مما ترتب على فتح الأقاليم الاستوائية من تشييد في بحيرة الرقيق، إلا
أن مصر استجبت لإنهاء هذه التجارة بمقتضى المعاهدة التي عقدتها مع بريطانيا في
عام ١٨٧٧ وقد عسى ستون باشا بمعاونة ليعف من القضاة والمعلماء لأجانب
ومصريين يرسم خريطة كبيرة شاملة لممتلكات مصر في إفريقيا كان العرض
من وضعها جميع النتائج المتحصلة في مدى ثمانية عشر عاماً انقصت في الفتوحات
والاستكشافات (١٨٦٩ - ١٨٧٧)، غير أن ما يدعو إلى الأسف أن هذه الخريطة
الهامة قد ضلت عند سقوط الخرطوم في عام ١٨٨٥ خلال الدلاع الثورة المهدية
في السودان.

يتضح أن مدى مأسسة الحركة الكشفية في مصر من تقدم وحداثة في
عهد الخديوي إسماعيل، وبالإضافة إلى الأعمال التي قام بها صباط جيش مصري
فقد وجد الرحالة الأوروبيون من الحكومة المصرية كل تشجيع وتأييد واستطلاع
كثيرون منهم أن يجوبوا كثير من مناطق والطواف في ربوعها ومباشرة التردد من
لاستكشافات، كما تسمى للفواصل التجارية أن تعدو جيئة ورواحا عبر المسالك
الصحرية التي أشجع الأمر في ربوعها إلى حد كبير، وقضيا عن ذلك أنشأ
استكشافيون مصريون جملة من المحطات والمنزل التي كانت تسريع في القوافل
وبأوى إليها الرحالة، وكان الكثيرون منهم يحصلون على فرمانات من حكام مصر
تحتوي على أوامر صادرة من قبل الحكومة المصرية لمساعدتهم في حركاتهم الكشفية،
وبالإضافة إلى أعمال الأجانب الكشفية سجل استكشافيون مصريون دوراً هاماً في
حركة اكتشاف مصر، وعلى الرغم من أن معظم البعثات الكشفية كان يعهد
برئاستها إلى الأوروبيين، إلا أن عدداً من أعضاء تلك البعثات كما لاحظنا كانوا من
القضاة والجواري المصريين

ومما يذخر إلى الأسف حقيقة أن كثيراً من أبحاث هذه البعثات قد مشى يد الضياع وخاصة أن الاحتلال الإنجليزي لمصر تعمد أن يهبط أعمال هذه البعثات وحرأظها وتقديرها ممشهداً بذلك قطع الصلة بين الجيش المصري - الذي كان لمصر آنذاك - وبين خبثى لدى ألقاه الإنجليز بعد احتلالهم للبلاد

ومع ذلك فإن الأبحاث التاريخية توضح الجهود التى قامت بها مصر خدمة للمعلم والحضارة الإنسانية، وليس من شئ فى أن الاستكشافات والحملات البعيدة التى قامت اعتماداً على أسواعد المصرية تعد معجزة من معجز تاريخ مصر لقومى، ومن المصنوعات المشرفة فى تاريخ مصر بصفة عامة.

ونحذر الإشارة هنا إلى أن بعض الأكبر فى تحقيق هذه الانتصارات المتعلقة كان مرتبطاً بمؤسس الجمعية الجغرافية الخديوية فى عام ١٨٧٥ وكان الغرض من إنشائها العديدة بالأبحاث العلمية والجغرافية وتدريبها وشرعاً وكذا أدب رئيس لها العالم الألبانى الدكتور جورج شومبرغ Schewenfurth وكان يساعده كل من محمود باشا العلى وسون باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى، وقد عكست الجمعية الجغرافية الخديوية على نشر الأبحاث والاستكشافات الجغرافية فى مجلتها الدورية وإلى جانب الجمعية الجغرافية كانت هناك هيئة أركان حرب الجيش المصرى التى عهد بتكشوفاتها الجغرافية إلى طائفة من الضباط الأمريكيين إلى جانب عصبية عدد من الضباط المصريين الذين حددوا من بعثاتهم العسكرية بحرب وكان على رأس هذه الهيئة مشوى باشا وهو ضابط أمريكى، غادر الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء الحرب الأهلية فى عام ١٨٦٥ حيث وجد إلى مصر وعرض خدماته على الخديو، وساعين الذى ألحقه بالجيش بمصوى وعهد إليه فى عام ١٨٧٠ برئاسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى وعبر يعرف باسم الجنرال سون بعد أن صبح الخديو رتبة أفند - وقد استعان سون بطائفة من الضباط المصريين إلى جانب طائفة أخرى من الضباط الأمريكيين، ولهم أنه أنشأ فى الهيئة فرعاً للجغرافيا كانت مهمته وضع الخرائط أنطوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر وسودان وقد تولى تحفظ هذه الخرائط الضباط المصريون من قاموا بالرحلات

الاستكشافية في إفريقيا. كما يسمى أد مشير أيضا إلى صدور صحيفتين عسكريتين إحداهما جريدة أركان حرب الجيش المصري والأخرى الجريدة العسكرية المصرية تسمى تحرير كل منهما مجموعة من لقطات المصريين، وتوجد في دار الكتب المصرية أعداد من جريدة أركان حرب الجيش المصري التي كانت تصدر شهريا حيث صدر بعدد الأول منها في يونيو سنة ١٨٧٣، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات وأعدادها كاملة تقريباً حتى أكتوبر ١٨٧٨ وهي حافلة بالأبحاث الجغرافية الهامة

ولقد يكون من المناسب أن نقيم الجهود التي بذلتها مصر ليس من وجهة النظر المصرية ولكن من وجهة النظر الأوربية، لأن الحكم قد يكون أكثر موضوعية في هذا المرقب، من ذلك ما يؤكد السير سمويل بيكر في كتابه الإسماعيلية، الذي صدر في عام ١٨٧٣، إن مصر وحدها هي التي تستطيع تفسير إفريقيا السيلية، يوشم حكومة نظامية وحبا أن تجد حشودها بحرية إلى خط الاستواء ولذلك تضمن حماية الرحالة والسائحين في تلك الجهات، و يوم قد أصبح بغداد عتودها الجنوبية إلى خط الاستواء أسوأ واقعا، وكان من شأن ذلك فتح أواسط إفريقيا للحضارة والعمران.

وفي تقرير للميو سوارا قنصل النمسا في مصر على عهد الخديو إسماعيل جاء فيه إننا ما كنا نعلم عليه الشعوب في تلك الأقطار من العوصى، وجب علينا أن نجد حصة مصر تدرجا نحو تقدم، فإن كثيرا من الشعوب الأمريكية التي شملت الإدارة المصرية تحولت فألف الإدارة منتظمة القائمة على قواعد النظام، ومن جهة أخرى، فإن لأقطار السودان التي كانت معقدة، قد فتحت للتجارة والأرياد، في مهد ليل لدخول الحضارة إليها.

أما سلاتين باشا فقد ذكر في كتابه البيع والنار في السودان Sword and Fire in Sudan أن السوداء ظل مسجون عينا مستظلا بالحكم المصري مفتوحا للحضارة والتعلم، يذهب للتاجر المصرية والأوربية في مائه، وثوب الدول الأجنبية قاصتها إلى الخرطوم، ويجوب السائحون على اختلاف أجاسهم في

البلاد دون أن يفتقر ممانعة، بل بمقرب عطفاً ورعاية من ولاية الأمور، كما انتظمت طرق المواصلات والبرق والبريد، فهت الاتصال بين أجزاء السودان، ويؤدي الناس شعائهم الدينية على الطريقة سواء في المسجد أو الكنيسة، وفدت مدارس البعثات التبشيرية إلى جانب مدارس الحكومة، وعلى الرغم من تعدد القبائل التي تكن السودان وما كان بينها من الصراع ومحورها للقتال، فإن حرم الحكومة وسلطانها كانا كافيين لتوحيد دعائم الأمن والسلام في مختلف ربوعه.

ورغم التضحيات الكثيرة والجهود الكبيرة التي لمحمدي مصر على عاتقها سوت طويلة، إلا أنها اضطرت إلى التخلي عن أملاكها وملحقاتها بعد قيام الثورة المهدية في السودان. وهكذا ذهب في بضعة شهور ماتم بحجرة في سوت حديدية، وترتب على ذلك إغلاق كثير من الأديس أبواب في وجه الرحالة، هذا بالإضافة إلى أن مصر مع مايلها من جهود في إدخال الحضارة والمدنية إلى ربوع إفريقيا وجعلت معها محرومة من لرب التي كانت تنتظرها، إذ قامت بملكتها بين الدول الأوروبية، حيث خضعت لمجترات بالنصيب لأولى والجدير بالذكر أنه سم بعد مصر عند سقوط الخرطوم في أيدي قوات المهدية في ٢٦ يناير ١٨٨٥ سوى مديرية خط الاستواء، التي تبيت أمين باشا بإيقانها خاضعة لمصر، ولكن السيادة التي أعطتها الصحافة لأربية عن المصير السيئ الذي بات يتعرض له وبالبانغة في وصف مايعانيه من الشذائد، كانت خطة استعمارية محكمة بطرد مصر من هذه المنطقة حتى تصبح أرضاً لا صاحب لها No Man's land، وبالتالي تستطيع الدول الاستعمارية السيطرة عليها، وبالفعل تشكلت حملة لإنقاذ أمين باشا عهد برئاستها إلى سنغالي، وقد يكون محم يصر إلى العناية حتى أن هذه الحملة التي كان من أهدافها طرد مصر من أملاكهم خط الاستواء قد أجبرت مصر على تحمل قسم كبير من نفقاتها ورجائها، ولمدة يكون حصر الفصل في الاستكشافات التي نجح ستين في تحقيقها، ووصوله إلى بعض الأديس التي كانت لا تزال بعيدة في مجال معرفة الإنسانية.

وعلى الرغم من الاتهامات العديدة التي وجهت إلى الحكيم المصري في المطلق التي توسعت فيما مصر في إفريقيا كالتصليب في غرض الضرائب

والامتثال أو استيفاء بعض الولاة إلا أن ذلك لم يكن يصدر عن سياسة مفررة في الحكم. ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى صلاته التوسع المصري من نتائج إيجابية كان أبرزها بيط الأمن والنظام، وهما قواما العمران وأساسا التقدم الحضارى، ويتكفى دليلا على مآثر الحكم المصري في هذه النواحي ما ذكره معمول بيكر من أن السائح الأوربي أصبح في إمكانه أن يجوب الأسماعيق البعيدة التي امتد إليها الحكم المصري دون أن يحس على نفسه أكثر غنا يخشاه من يتنزه بعد عروب الشمس في حديقة هايدبارك. كذلك على الحكم المصري بتأسيس جيش نظامي من السودانيين، كما انتشرت الزراعات الحديثة، وخاصة زراعة القطن في الأقاليم الشرقية من السودان^(١)، وشطت المواصلات بين مختلفه بندان السودان بعد أن عهد إلى مجموعة من المهتمين بحفظ السكك الحديدية التي ربطت بين مصر وأقاليم السودان المختلفة، وقد شطت التجارة وتعمشت المدن التجارية القديمة كبربر وسار، وغرفد كثير من التجار المصريين من صعيد مصر، بالإضافة إلى كثير من التجار الأوربيين، كما ذهب كثير من الفلاحين المصريين لزراعة في أقاليم السودان، ووجدت معهم طوائف من الصاع والتجار. وقد بلغ عدد البيوتات التجارية المملوكة للمصريين في السودان ما يقرب من ثلاثة آلاف، والمملوكة للأوربيين ما يزيد عن ألف، ووجدت واردات السودان مئويتين من الجبهات، وصاحباته تعادل هذا القدر سنوياً.

وفي عام ١٨٧٣ عهد الخديو إسماعيل إلى موسى بك مدير مصلحة البريد المصرية بإنشاء مكاتب للبريد في كثير من المدن السودانية، فأنشئت مكاتب في كل من الخرطوم وبنقنة وبربر وكلا، وفتحت مكاتب أخرى في سنار والمدينة والقنصرق وفازوعلى وغامودة والابيض والفاشر، إلى جانب إدارة عامة للبريد تأسست في مدينة الخرطوم، وقد بقيت هذه المكاتب البريدية تزدى مهامها حتى تعطلت بعد نشوب الثورة المهدية. كذلك اجتم الحكم المصري بالخطوط البرقية، فتم في عام ١٨٦٦ إيصال خط برقي من حلفا إلى مصر امتد في عام ١٨٧٤ إلى

(١) H.I., Egypt in the Sudan P.P. 49 - 50.

مدينة الخرطوم، ثم إلى بربر وكلا وسواكن إلى جانب خطوط برقية امتدت إلى العرب حتى لايبش وناقور وقد سعت الخطوط السريعة إلى أنشئت في السودان أكثر من ألفي كيلو متراً كما بلغ عدد مكاتب البريد في عدد السودان المحتلة ما يزيد عن عشرين مكتباً حتى عام ١٨٧٧.

وقد بلغ من اهتمام مصر بالسودان وبإكتناجها الإفريقية حرص الحكام على قيادة تلك الأقاليم، وقد سبق أن أشرنا إلى زهرة محمد علي لسودان وتبعه سعيد باشا الذي رار السودان في عام ١٨٥٦، وحاول تنظيم الإدارة السودانية وحلال مشيخ المحليين بدلاً من الحكام المصريين، واتبع طريقة الملامكية في الحكم، بالإصطفاء بين محالوت تفتيش عليه، المصريين، كما درست في عهد سعيد مشروعات محضنة لمد الخطوط الحديدية في أرجاء السودان، كما عمل على وصل السودان بعالم الخارج بمقنص فرما أن أصبح ينشأ حد ملاحى بين موانئ البحر الأحمر - سواكن ومصوع - وشرقى البحر المتوسط، وأنشئت من أجل ذلك اقترعن الشركة الحديدية التي كان لها أربع سن تجوب البحر الأحمر، وفي عهد الخديو إسماعيل حيث اهتمام أكبر بالتصديت السودان وأنشئت الشركة السودانية في عام ١٨٦٢ بهدف مد السكك الحديدية والإشراف على سير البواخر النيلية، وقد امتدت بشركة وكالات بها في سواكن والخرطوم، وفي نفس ذلك العام تأسست الشركة العربية المصرية لمعالجة بيطرية، وكانت تقوم برحلات منتظمة من السويس إلى سواكن ومصوع^(١)، كما أعطى لشركة حق إنشاء خطوط حديدية من مصر والخرطوم ومنها إلى سواكن، وتقدمت المواصلات من بربر إلى سواكن التي أصبحت مركزاً لمعهد املاحى الحبوبى، وكانت تستقبل البواخر في طريقها إلى الموانئ الأوربية عبر قناة السويس، وكان لاكتعاش الملاحة في موانئ البحر الأحمر أثر كبير في ازدياد حجم للتجارة وازدهارها.

ونجد الإشارة أيضاً إلى ما أدى إليه الحكم لمصرى من تقسيم في علوم لأجاس والباب والحيوان، كما تمكك الإدارة المصرية بفضل امتدادها إلى أعالي

Hill, op. cit., P.P 49-50. (١)

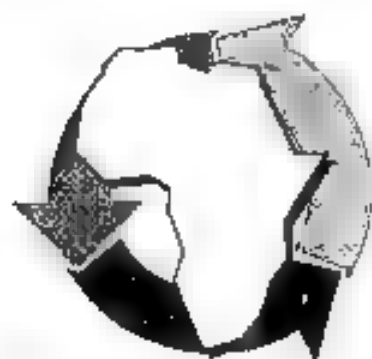
النيل من وضع يدها على مصادر ثروة الرقيق والسيطرة على منافذها في البحر الأحمر، وفي دجلة النيل الإثنية اتخذت الأمور تشق طريقها الطبيعي نحو التنظيم والاستقرار كما أخذ المجتمع السوداني يكيف مفوماته ووجهها نحو شهور عام يجمع بين مختلف القبائل ويعمل على توحيد كميته، وكان ذلك تمهيداً لقيام أمة سودانية عمدت الإدارة المصرية على تحقيق وجردها بفضل ما اتجه إليه الحكم المصري من إسقاط الحواجز السياسية بفضائه على السلطات وبلديات وإماتها في حكم واحد.

كما شملت الإصلاحات المصرية ترقية الزراعة، إذ كان لإدخال زراعة القطن في مصر خلال الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١/١٨٦٥ أثر كبير في الاتجاه إلى مشروعات إنتاج القطن في مقاطعات شرق السودان، حيث أخذ أحمد مختار باشا وإلى سواكن مشروعات في منطقة طوكر صانداً نجاحاً كبيراً بتخصيص العبيد وحملاتهم هناك لزراعة القطن في ذلك الحاش. وقد أصبح هذا الإقليم في عهد الإدارة الإنجليزية من أهم مراكز إنتاج القطن في السودان. كذلك عني الحكم المصري بتحصين وسائل الري والإكثار من إنتاج الحلات الزراعية، إلى جانب نشر التعليم وتسهيل مواصلات وتعبئة الطرق، ولو قدر لتلك الإصلاحات أن تأخذ طريقها الطبيعي ولم تعرض للتأثيرات الأجنبية لكأن من المؤكد أن تكون نتائجها أكثر ثراءً ووضوحاً (١).

وقد يكون من الضروري أن يؤكد في هذا المجال أن مصر لم تذهب في سياستها إلى استغلال السودان، وإنما على العكس من ذلك كانت تسد عجز ميرانية بممتلكاتها من موانئها الخاضعة دعم صائفتها المالية الشديدة، وما يستفقت الانتباه أن الأنظمة التي أدخلتها مصر في السودان من حيث الإدارة والحكم ظلت هي الأنظمة التي حرصت الإدارة الإنجليزية على الاستعانة منها خلال السيطرة البريطانية على السودان في ظل الحكم الثنائي، كما اعتمد عليها السودان أيضاً بعد استقلاله.

(١) الشاهر بعلبي. معالم تاريخ السودان وأبلى النيل في القرن التاسع عشر من ١٨٤٨ - ١٩٠٠





الفصل الثامن

التوغل العربي في الصحراء الكبرى

سم تكن الصحراء الكبرى مع ما يتصف به من طبيعة قاسية، عذرا من
 عد من الانعزال بين منطقة شمال العربي لإفريقيا والمناطق التي تحدّها جنوباً في
 غرب إفريقيا، بقدر ما كانت معبراً هاماً من عناصر الاتصال بينهما. وقد لعبت موانئ
 الساحل الشمالي لإفريقيا دور هام في ميقات الصحراء، وذلك بفضل طرق
 القوافل الممتدة في مسالكها ودروبها ومضارها، واستمر لحد هذه الموانئ والمين
 الشمالية يسيطرون سيطرة تكاد تكون تامة على هذه الطرق إلى أن أصبحت وسائل
 النقل والواصلات الحديثة.

ومن الثابت أن موانئ الساحل الشمالي كانت تلعب دور الوسيطة التجارية
 بين مناطق الإنتاج للثاوي والأستوائي في الجنوب، وبين شعوب حوض البحر
 المتوسط في الشمال، ولعلّ هذا سهل هذه الوساطة لامتداد الطويل لتلك السواحل
 والحداء معظمها إلى الجنوب، وخاصة السواحل البنية التي غدت أقرب إلى ما هي
 الإنتاج هذه. ومن ناحية أخرى فإن بواحات الكثير البشرية عبر الصحراء الكبرى
 ساعدت لتجار العرب على توغلهم والمعامرة في الداخل والوصول إلى مناطق
 البعيدة من غرب إفريقيا، وقد استقر كثير من لتجار العرب في هذه المناطق
 واشتغلوا التجارة في بحيرها وغيرها من البلاد المجاورة^(١)

ويمكننا أن نصيغ إلى طرق التجارة عبر الصحراء هرق الحج التي كانت
 تحرق شمال إفريقيا من العرب إلى الشرق بخطاء الساحل، ومع تكن قوافل الحج
 هذه قاصرة على تمرير الديسي غنم، بل وبملاحظة في كثرة حدودها وتلوع
 ماكان يحمله الحاج منهم من بضائع مبدع ما إلى الاعتماد بأن هؤلاء كانوا
 يقومون بالتجارة إلى جانب قيامهم بأداء فريضة الحج، إذ إن كنسراً منهم كانوا
 يستعيرون بالتجارة أمد نفقات رحلاتهم، وقد عكف كثير منهم على الكتابة عن
 بلاد التي ارتحلو إليها من مائر توجيه الجغرافية والتاريخية والاقتصادية.

وقد ظلت قوافل الحج والتجارة تدر من نشاطها ليلة العهد العربي
 للإسلام، حتى إذا خضعت مناطق الشمال الإفريقي، باستثناء مراكش، للحكم

(١) مصطفى جبر: دراسات في التاريخ العربي - الأسس التاريخية لسفر العرب من ١١٧ ١٧١

العثماني خلال القرون السادس عشر، انتاب هرق القوافل الشيء الكبير من القلهور، ما أدى إلى إصعاف شأنها، وكان ذلك نتيجة لأسلوب حكم العثماني، فضلا عن الانقلاب البحري الكبير الذي حدث نتيجة اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، وما أثرت على ذلك من فقدان منطقة البحر المتوسط لأردها الاقتصادي، كما أن كتف البرتغاليين سواحل غرب إفريقيا كان له أثر كبير في تأكيد ذلك انضمام، وخاصة بعد أن قدموا بعدة محاولات لمحاولة منحويين بالتجارة الداخلية من طريق التقليدية إلى الساحل العربي مباشرة، ومع ذلك فقد ظلت بعض عوارق الإنتاج الإفريقي بعيدة عن أيدي الأوروبيين لوقوعها في مناطق بعيدة، مما صعب الأمر للوصول إليها، إلى جانب ما يوجد في سواحل غانا من غابات كثيفة عالت لأوروبيين عن تحقيق أهدافهم.

ومع ذلك فقد استمر الضغط يستشري في طرق القوافل العربية بسبب فرضي العهد العثماني ومواء النظم واحتلال الأمن فمن الثابت أن العثمانيين اقتصرُوا في تأكيد مبادئهم على الساحل دون الداخل، مما عرّض الأقاليم الداخلية للعرض والاضطراب، كما أن مسؤولية العثمانيين ترجع أيضاً إلى أنهم لم يملكو على تشييد تجارة القوافل، ويكفي لإثبات ذلك أنهم أصبحوا ينظرون إلى منطقة قران كمعنى للمعصوب عليهم أو الخارجين عن طاعتهم بعد أن كانت هذه المنطقة مركزاً هاماً من مراكز التجارة الداخلية.

ولعل مما يساعدنا على إلقاء نظرة على التدهور الذي طرأ على قوافل التجارة العربية نتيجة لإعمال العثمانيين ما يمكن أن نستشعره من كسبات الحاج أبو سالم المباشي، وذلك من خلال رحلاته الثلاث التي قام بها فاصداً خليج إلى مكة خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ميلادي^(١) ولقد مر في أقاليم بطرابلس، التي كانت تخضع لوالي العثماني عثمان باشا لافرلى ١٦٤٩ - ١٦٧٢^(٢). وقد

(١) تقع رحلات أبو سالم المباشي في سجلتين كبيرين وتوجد نسخة منها مكتوبة بخط العرب في المكتبة النجديّة بدار الكتب المصرية

(٢) هو من المندوبين - حالة بيا محمد ذكرها احتج سالم العيسى في رحلته، يبحث عدم إلى مؤلفه ليا هو المصور ١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٨



أفرد العياشي وصفاً مهماً نظرائه، واتفق في ذلك الوصف مع ما سمعه من الرحالة في وصفه بندية ومثدور فتمتعها بالرخاء ولأمن وكثرة مساحته وعبائهم ودرج تجارتهم، وإن كتبنا نلاحظ أن هذا لأردعار لم يشهد أسوار عبيد إلى حرجهم، حيث كانت القوصى صغرى أهلها. وبالأهتمام على ما أورده العياشي من معلومات، يمكن استخلاص حالة المناطق التي مر بها من البواحي الساسة والاقتصادية والاجتماعية، فمن الناحية السياسية ذكر العياشي حصول طرابلس للدولة العثمانية، وإن كانت سيطرة الدولة لا تمتد إلى مدن ساحلية إلى البحر، وكانت طرابلس هي عفر الوالي نهشحي، وبه عامل في كل من معزى ودونة، وبعض مدن الأخرى ذات الأهمية، وعلى الرغم من أنه كان هناك نظام حكم في المدن إلا أنه عياشي لم يذكر لنا هذا النظام بالتفصيل، أما في المناطق فلم يكن دولة العثمانيين سطات فعلية، فعلا لم يكن أهلى الحي لأحضر يتخضعون لوالى طرابلس خضوعاً تاماً، وإن كانت القبائل تتدفع السلطة فيما بينها، فكيف لم يكن للعثمانيين سطات محسوسة على إقليم عزان^(١)

ومن حديث العياشي يمكننا أن ندرك حالة التاجر التي كانت تعاني منها المناطق الداخلية من الشمال الإفرقي التي كثرت بها عصابات من قطاع الطرق، الذين كانوا يستولون على متجهم القوافل التي كفت تمر بها، وقد أشار إلى أن منطقة جبل الأخضر لم تنعم بالاستقرار، إلا في خلال فترة قصيرة استطاع فيها أحد الزعماء العرب ويسمى سيد روعة القضاء على قوة البوهد ولكن هذه الفترة كانت قصيرة، أحقيتها قوصى شحنة حتى أن الحجاج والمافرين الذين كانوا يمررون بيها كانوا يخشون تلك المناطق التي تبدأ من قصر الحجد عزراً إلى الإسكندرية شرقاً. ويظهر من كتليات العياشي أن قوصى لم تقتصر على التاجر، بل وبه بعض المدن كانت تكثر أحياناً في وجه الوالى العثماني، وكان معظم سكانها من المقاربة، وإن مبدكره العياشي هي تلك الثروات وكيفية قمعها، إنما يدل على مدى ما وصلت إليه الإدارة العثمانية من انحلال وتدهور

(١) رحلة العياشي ص ١ من ٤ - ٩ - ٥



كما يفهم من كتابات انغياشي أن السيادة العثمانية كانت إسمية تعطي لولاياتها قدرًا كبيرًا من حرية في إدارة شؤونها، يساعد على ذلك بعد المائة بين مركز الإدارة العثمانية في «أستانة» والإدارة المحلية في ولايات الشعار، الإغريق، وخاصة إذا أُخذ في اعتباره صعوبة توصيلات في ذلك الوقت.

ولعل أهم ما يستلفت نظرنا في رحلات العياشي وصحة لأعمال الجهاد البحري، وما يجنيه سكان الموانئ في شمال إفريقيا وحكمهم من العنايم، الكثيرة لحرية على ذلك، وكان مذهب البحري أو ما تسميه المصادر الأوربية بالقرصنة بعد تشجيعها من الدولة العثمانية باعتباره حركة موجّهة ضد القرصنة كما كان يحكم يسعدون له بالسفن بحرية القرية، وقد أشار العياشي إلى الدور الكبير الذي قام به درغوث باشا، واستملاكه على بعض موانئ الشمال الإفريقي وتصدية الأتراك وفرسان القديس يوحنا.

وهناك بعض المعلومات الكثيرة التي أوردها لك العياشي خاصة بالأحوال الاقتصادية من زراعة وصيد وحشاه، كذلك أورد معلومات أخرى عن الأحوال الاجتماعية والثقافية حيث قسم السكان إلى قسمين (القسم الأول) وهم سكان المناطق العمرانية، وهم على حظ من الثقافة الدينية والأدبية، (القسم الثاني) وهم الذين يقطنون المناطق الناحية ويشعرون بالتأخر الاجتماعي والتأخر وكثرة حوائج الشعب واختلال الأمن.^(١)

وقد استمرت هذه الحالة من انهيار قاطعة على هذه الصورة، مما ترتب عنها ضعف حركة تجارة القوافل، وذلك باستثناء طرابلس التي تحكمت من تحقيق استقلالها، أو بالأحرى انفصلها عن الدولة العثمانية في عهد الأسرة القرمانلية ١٧١١ - ١٨٣٥، وخاصة بعد أن استطاع أحمد باشا القرمانلي مؤسس تلك الأسرة، أن يرفع من شأن طرابلس مقلداً أهمية استقلال تجارة القوافل في تحقيق مورد ليس قليلاً من المدح الذي اعتمد عليه في إدارة البلاد وتنظيم أمورها ومن ثم وجه اهتمامه إلى تنظيم مورد هذه التجارة والإشراف عليها وتأمين مبلها.

(١) رحلة الشيخ إلى تياشي ج ٢ ص ٦١ نسخة بيد المكتب للجمعية (تاريخ ليون ٥ ٤)

وفي عهد يوسف باشا القرماني، أعظم حكام هذه الأسر، افسدت تجارة القوافل بتهجرة جديدة كان لها أثرها بفعال جدا بعد في القضاء على هذه التجارة بطريق غير مباشر ذلك من الدول الأوروبية بعد أن سبب عنها بوضوح إلى وسط إفريقيا من السواحل الجنوبية والعربية سفرة لإمبريالية، أخذت توجه اهتمامها إلى الساحل الشمالي لإفريقيا وتنافس فيما بينها للوصول إلى داخلية إفريقيا عبر ممالك الصحراء الكبرى. وقد أشد ذلك تنافس خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، مما جعل مدينة طرابلس وغيرها من المدن الساحلية، لاخرى بمثابة محطات أو مراكز للرحالة الأوروبيين الذين قصدوا تلك المدن بغية تسوغ في الداخل معتمدين في ذلك على مايتحصلون عليه من توصيات خاصة عنقمة في شكل رسائل كانوا يخصونها معهم من حكام المدن الساحلية إلى حكام المناطق الداخلية، وكان كثير من أولئك الرحالة يعمدون إلى إلقاء بصرهم لأسماء الذي يكمن وراء رحلاتهم ومن ذلك تعسفهم بالكشف عن بعض بيانات الطية، أو دراسة بعض أطلال الأثرية، كما تعلم الكثير منهم اللغة العربية، وأظهروا اهتمامهم بتعبئة الإسلام ومراولة شعورها على مرأى من رجال القوافل الذين كانوا يصاحبونهم في رحلاتهم، إذ كان لكثير من أولئك الرحالة يتفكرون موسم بقول للرحيل معها، إذ يحضرون معهم من مذهب السفر وجعل الطرق، ولعل ذلك مما دفع بعض السحشين إلى التأكيد بأن تهجرة القوافل العربية قد ساهمت مساهمة فعالة في كشف كثير من أجزاء الغارة الإفريقية وإن كانت قد ساعدت بطريق غير مباشر أيضا على تشييط الحركة الاستعمارية في إفريقيا، خلال القرن التاسع عشر، فليس من شك في أن الجهود التي بذلها أولئك الرحالة لاويرسون كانت من المقدمات الطبيعية لمحركه لإمبريالية التي شهدتها القارة الإفريقية، وخاصة منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضي^(١)

ومن ناحية أخرى انحد قاصد بدول لأوربية في طرابلس وغيرها من مدن الشمال الإفريقي من قوافل التجارة العربية مسيلا لث عبوبهم صوب

(١) مصطفي رمزي بعض ملاحم من تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر، حرفة طبعت إلى سوار ليبيا عبر البصرة مارس ١٩٦٨



الدجل، واستمر على الأوصاف وبلوغات الخاصة بادق التفاصيل، وكان
 ودرجتون Warrington فبصل بريطاني في طرابلس متحمسا لجعل طرابلس قاعدة
 لمشروعات الكشف الجغرافي في فريق الوسطى وخاصة لما كتلت تنمى به
 السواحل الغربية من تعدد الدروب وسانده وكانت مدينتا طرابلس وسفاري، هما
 المنفذان البحريان لتلك الدروب الصحراوية، فهناك طريق كان يصل طرابلس
 بإقليم قند ولاجر يمشى من مدينة طرابلس إلى إقليم النجر جنوباً، كما كانت
 هناك بالإضافة إلى ذلك عشرات من الطرق والدروب التجارية.

على أنه فهدر الإشارة هنا أن وارجتون لم يكن هو صاحب فكرة اتحاد
 طرابلس قاعدة لكشف الصحراء الكبرى، وبما سبقته في ذلك جمعية كشف
 أواسط إفريقيا، التي تأسست في لندن سنة ١٧٨٨، وكانت أولى محاولاتها في
 ذلك الصدد المهمة التي كلمت بها وليام لوكاس Lucas الذي ارتحل في عام ١٧٨٩
 من طرابلس إلى غامبيا ثم أحبطه فريدريك هورنمان Hornemann الذي نجح
 في التوصل في إقليم نهر نيجر^(١) بيد أنه لقي حتفه هناك، وكانت النهاية لآلية
 التي تعرض لها هورنمان مآ في توقف الشدط الكشفي الذي كانت تضطلع به
 جمعية كشف أواسط إفريقيا لعدة سنوات، حتى عادت إلى منتصف محاولاتها في
 عام ١٨١٨ بتشجيع من وارجتون، الذي استطاع الحصول من يوسف باشا
 الفرمانلى وإلى طرابلس على تعهدات خاصة بضممان سلامة المستكشفين في
 لأراضي التابعة لطرابلس ومنحهم كل مساعدة ممكنة، ولأشك أن ذلك كان دافعا
 على تدفق كثير من الرحالة ورواد لكشف الصحراء الذين كانوا يطلبون معظم
 الدول الأوروبية، وكثير من الجمعيات الجغرافية، وقد أود أولئك الرحالة من
 تشجيع يوسف باشا الفرمانلى كما صرحوا قواما لتجيرة العربية في طريقها إلى
 الساحل حيث كانت الأهداف العلمية التي كان يضطلع بها معظم أولئك
 المستكشفين في كشف مقاطعات السودان الغربي، إلى جانب التحقق من مشككة

Bov, *Missions in the Niger, the Journal of Friedrich Hornemann, Travels and (١)
 Letters of Alexander Gordon Laing*, Hakluyt Society second series No. CXXIII: Vol
 II, Cambridge, 1962, p. 3-4.

وفي مارس ١٨٢٢ غادرت البعثة طرابلس متجهة نحو واحة مرزوق التي كانت هدفاً لبعثات الكشفية باعتبارها على الطريق المؤدى إلى الداخل، وكان هدف البعثة عبور الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد. وقبما يبدو أن الأهداف التي كان يسعى إليها وارجنتون هي مد انحدود الإنجليزى إلى بورتو

وكان يصحب البعثة في تنقلاتها تاجر عربى من مراد يدعى محمد الرودى وفى عام ١٨٢٤ توفي أودى وامسر كلايرتوب فى رحلته إلى كانو التي تحتل مركزاً وسطاً بين بحيرة تشاد ونهر النيجر.

ركان النجاح الذي حققه كلايرتون مسيلاً فى قيام لاينج Laing بمعبدية استكشافية أخرى فى أقاليم السيجر، وقد بدأ رحلته من طرابلس متجهاً إلى غدامس وقد أوضح له يوسف باشا الفرناتلى الصعوبات ولاخطار التي يمكن أن يتعرض لها بعثته مؤكداً له أنه لا يستطيع ضمان سلامته إن مات بعدى حدود غدامس ودخل فى أقاليم لايتضع لسلطانه، ومع ذلك فإن باشا طرابلس قد عهد برعاية لاينج إلى أحد قهار غدامس وهو الحاج محمد باباي، كما أمده ببعض احتياجات التوصية لرؤساء سكانها وغيرها من المدن والأقاليم التي كان من المقرر له اجتيازها، على أن لاينج لم يثبت أن لقي حتمه فى إقليم سيرا على أيدي أحد الخراس بوعشرين بلين كانوا مكلعين بعمادته وقد وجه وارجنتون احتجاجاً إلى يوسف باشا بكونه هو بلستون عن مصير لاينج، وعندما عارض الباشا فى ذلك أصر وارجنتون على موقفه غير أنه عذرت وحصل إلى يوسف باشا فى يناير ١٨٢٨ خطاب رسمى من الحكومة البريطانية يبدى فيه أسفه بعبارة شديدة الدهشة لعدم اهتمامه بمسألة لاينج وكلايرتون وجميع الرحلة الإنجليز احتجاج الباشا على هذا الاتهام مؤكداً أنه بذل كل ما فى وسعه لنجاح حركات الكشف الجغرافى وإن كان فى نفس الوقت لا يمكن أن يعتبر نفسه مسئولاً عن حوادث تقع خارج حدود ممتلكاته

وفى تقريره أن بريطانيا كانت تحاول استغلال الظروف لتثبيت نفوذها فى عربات وخاصة أنها كانت تعمل على ماضفة نفوذها رسمى وبهم ذلك من المشكلة التي أدهى وارجنتون مع انفصل الفرنسى روسو Rousseau لقي اتهامه

صرحة سرقة أوراق لايج^(١)، بل أن وارجنوت طلب من يوسف باشا التحقيق في كيفية انتقال أوراق لايج إلى القنصل الفرنسي وعلى الرغم من فشار وارجنوت في الحصول على أي سند يمكن بواسطته إدانة القنصل الفرنسي إلا أنه حسب تحت ضغط تهديد إلى استكتاب لروافض لايج إقراره تدين سفصل الفرنسي وقد أدى هذا حادث إلى خلاف سياسي بين إنجلترا وفرنسا اصغر يوسف باشا على اثره أن يتحد جانب الإنجليز ولعبه كان مدفوعا إلى حواره من أطماع محمد علي وحكومة الفرنسية في الجزائر ومالقة يترقبه على ذلك من تهديداته يمكن أن يتعرض لها بلاده

ولعل هذه الطوائف تشر أشرا إليها تؤكد أن وصول برحالة لأوربين إلى أقاليم السودان العربي عبر ممالك الصحراء لم يكن إلا خطوة تمهيدية بلأهـب ولاستعداد لتحقيق أهداف حركة التوسع الاستعماري التي تشهدها القارة الإفريقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي

الروايات السنوسية وامتدادها عبر الصحراء

وكان لظهور الدعوة السنوسية وانتشار الروايات التي تقوم عليها هذه الدعوة أثر كبير في ربط ساحق للصحراء الكبرى ببعض الأجزاء وأصبحت الروايات السنوسية ملاحقاً عمرانية هامة لأنظر بها في وجود الصحراء وحاجة للرحلة واسباهرين والشجاء كما أن هذه الروايات خدمت انتشار الإسلام في أواسط إفريقيا خدمة جليظة إذ إنها حملت رسالة الإسلام إلى شعوب الوثنية في قلب إفريقيا بسبب امتداد هذه الروايات في الصحراء الكبرى جنوب حتى إقليم تشاد^(٢)

وقد تمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم في الأقاليم التي توحد بها زواياهم وكان من أهم لأسباب التي جعلت مؤسس السنوسية يختار إقليم برقة مركزاً

Bravli, Travels and letters of Alexander Gordon Living Hakluyt society No. CXXIII. (١) Cambridge 1962

(٢) مصطفى بجزء: دراسات في التاريخ للنوس من ٢٨/٢٠٠٠ نشر أحمد صديق الديبقي، الحركة السنوسية مثلاً، مجموعة في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٦٧ من ٢٦٠، وكذلك محمد فؤاد حجازي للسنوسية في دولة الدولة ١٩٥١ من ٥٠



للدعوة أن منطقة المجلس الأخضر تنصل بالعالم الخارجي بمساري حرة وسعاري، كما
تجر بأصل الأخضر جميع القوافل الذاتية إلى طرابلس وقران وبرنو وواداي أو
تلك الأتية من كل هذه البلدات ومايجاورها ومن ثم تستطيع الدعوة أن تجد في
جميع هذه الاتصالات عبلاً ليطبق نفوذها (١)

وقد أنشأ موسى الكبير رابطة القضاء (أم البروديا) في عام ١٨٤٢ وسخ
عدد الزوايا أثناء حياته سبعاً وثلاثين رابطة ثم تصاعفت عددها في عهد خلفه من
بعده.

على أنه لم يلبث أن انتقل من الرابطة ببغداد إلى زاوية جصوب لأن إنشاء
الرابطة البيضاء على مقربة من ساحل جعلها قريبة من سلطان حكومة عثمانية
في مغازي التي راعها أن الرابطة البيضاء بعد فترة قصيرة من إنشائها أصبحت مدينة
كبيرة، فأراد السوسى أن يثنى روية عسرها تكون بعيدة عن الساحل وعن مشاغل
سلطات الحكومة القائمة، ووقع الاختيار على واحة جصوب وذلك لأن هذه
الواحة كانت تقع في مكان تكثر فيه القبائل البرية التي قبلت الدعوة السنوسية
وأصبح من المستطاع أن يعتمد السنوسى على أهلها في نشر الدعوة الإسلامية في
مجاهل الصحراء.

وكان يربطه لجمهور بدخل إفريقيا العربية حتى بهيرة تشاد طريقان أحدهما
شرقي وينتهي عند مرزوق، والآخر غربي من غنداس والعابر، وكانت جصوب في
تلك الآونة واحة يأوي إليها البدع والنصوص ولا تجسر لقوافل أن تجر بها من
جهد أبيث والعرضى في أنجالها، فقد احتارها السنوسى مقره وبنى بها زاويته
الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة وأطمئنان وكانت الرابطة هي الدعامة
الأساسية التي يقوم عليها نظام السنوسية، فهي المكاء الذي يجمع فيه الإخوان
بالعبادة ونشر الدعوة والإرشاد بين أهالي لمدان المجاورة وبين القبائل القاطنة أو
رجال القوافل الذين كانوا يمرون بهند البروديا ولم تكن الزوايا مراكز دينية
فحسب بل كانت بالإضافة إلى ذلك مركز نشاط الاجتماعى لأن الطريقة

(١) طبيب الأنف : المهدي السنوسى ص ٣٠-٣١



السومية كانت تحرم حتى اتباعها التسول أو لانتفاع للعبادة، وإنما كانت تطلب منهم العمل في الزراعة والتعمير والإنشاء.^(١)

وقد بلغ من نفوذ شيوخ أوروبا في الأقسام التي توجد بها زو بهم أن المقابلة لم تكن تأمن على مساجرها وأموالها ورجائها، لأن أحدث بين قبائلها وتوغلها في الصحراء محروقات من شيوخ الروايا تصبح بمثابة حواجز مورو تمنكها من اجتياز أراضي قبائل الهوارق ونحوه، لأن هذه القبائل كانت عيسى ما عرفه عنها من إحلال دأمن تحترم محروقات شيوخ السومية، وحتى هذا أصبحت السبل آمنة في فريق لوسطى وشمالية، كما نجحت السومية بفضل تحوّل الكثيرين منهم إلى تجمع من القبائل التي اشتهرت بالهبة وقطع الطرق على نفسها مسئولة من لأمن في القوافل الصحراوية

وبعض ما أدخلته الروايا السومية من طمأنية راس في مجاهل الصحراء زاد نشاط القوافل التجارية وأقدم المسافرون والتجار على قطع الصحاري والعيامه كما أصبح من الجور على دعاة السومية أن يصبحوا قوافل التجارة في طريقهم بدعون إلى الإسلام ويقضون على الوثنية وليس من شك في أن انتشار الزوايا والإكثار من إرسال الدعاة كان سبب في انتشار الإسلام في غرب إفريقيا وأوسطها، إذ وجدت عديد من الروايا في بلاد البحر ونشأ مناطق وادي وبرنو ودغومي وغيرها

وقد عى برينشورد Pritchard يحصر روايا السومية ولا حظ أن معظمها أقيمت على طرق القوافل، وعدد الخدمات التي تقوم بها بالنسبة للمجتمع المحيط بها وشبهها بالأديرة المسيحية من ناحية الخدمات التي تؤديها^(٢) ومن المؤكد أن

(١) تميم صغلي البجاني، الحركة البلومانية، إثباتها ونحوها في الفترة التي عثر عليها ١٩٦٧، ص ١٦٣-١٦٤

(٢) في أواخر القرن التاسع عشر نشر عدد الزوايا في برقة إحدى وسجن رابطة، وتماي بمشرفة باردة في طرندس، واشيك وعشرين في فزان، وأربع عشرة في السوكة وموت زوايا في الكفرة، وعشرين في الجرات، وثلاث في مراكني. راجع تحقيق الأثير شكيب الزملائ على الدعوة السومية في كتابه حاضري العالم الإسلامي في أوروبا، ص ١٠٩

الروايات السنوية قدمت أفرصاً أخرى غير الأغراض الدينية فقد كانت مدارس وإسراحات للفواصل ومراكز تجارية واجتماعية وحصون ومحاكم ومعارف ومجارب وبيوت للفقراء.

وقد تم تنظيم الروايات السنوية التي ربطت بين الجيوب وبين بقية الروايات بإنشاء نظام محكم من الاتصالات بواسطة الخيول التي كانت تقطع المسافة من جنوب إلى مصر، وهي جنوب إلى طرابلس وبرقة وهران ورائي، كما جرت لأبار على طول الطرق الموصلة فيما بينها، وقد أضاف كثير من الرحالة الأوروبيين مدى انشغال البدو كالم تسمع به السنوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولأثبت أن تلك الدعوة بدو بلغة الدعوة السنوية كان أمراً متفقاً بالة للدول الاستعمارية فوجدوا بعد احتلالها لمصر ١٨٨٢ واحتلالها لسودان ثم اتجهوا إلى استغلاله فخطرت أن تحب حباً كبيراً للدعوة السنوية وتعلن لأب تسجب حصر هذه الدعوة عندها، أما فرنسا التي نجحت في التوغل في غرب إفريقيا ووصل حدودها إلى وادي فقد كان من المحتمل أن تصطدم بالسنوية إذ كانت فرنسا تحشى من انتشار الدعوة السنوية في مناطق احتلالها في الجزائر وتونس وبلاد غرب السودان ولدت وكف من السنوية مولف عدايب كما وقفت إرماياتها التبشيرية مثل هذا الموقف العدائي لكانت تنحى إليه الدعوة السنوية من تحويل القبائل الوثنية إلى الإسلام^(١)

وكان انتشار الروايات السنوية أكبر حافز للرحالة الأوروبيين على التوغل في داخل الغارة الإفريقية، وبالإضافة إلى تحقيق أهداف الكشف الجغرافي كان كثير منهم يهتمون بدراسة الدعوة السنوية ومعرفة أهدافها ومواقفها من الدول الاستعمارية، وكان الرحالة الفرنسيون من أنشط الجماعات لأوربة التي نهجت بدراسة الدعوة السنوية نظراً للعداء الذي استخدم بين فرنسا وعملاء السنوية الدين وغير ضد الغزو الفرنسي لجزائر وغرب إفريقيا وعلى أي حال فقد نجحت الدعوة السنوية برواياتها ونظامها لإخواني في

(١) محمد طيب بن إدريس الأشهب للهدى السنوية، طرابلس ١٩٥١، ص ٧-٧١



إيجاد إدارة محبة ساعدت على حفظ لأمس وبوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين
 التجارة بسلام، كما انتشرت الرواية في الأصقاع السودانية، إذ كان الحقيقير
 للدعوة السنوسية معظم أهالي واداي وبربو وكثائم وداغومي^(١) وقد عرفوا
 السنوسية وعلماء أربعة هم عبي النوالي، السيد بر علي السوسى مؤسس الدعوة
 وسيد جهدي وسيد حمد وأخيراً السيد إدريس السوسى والدعوة السنوسية
 شأتهب في ذلك شأن الدعوات الإسلامية الإصلاحية لأخرى، كانت تستهدف
 العودة للإسلام لدى أصحاب الأوسى، وكان ترتكز على دعائم ثلاث هي الرواية
 والإخوان والوكيل، أما الرواية فبأن يكون من ثلاث حجرات يتوقف حجمها على
 أهمية المكان، تقدم فيه، ويحتل هذه العرف خاصة بإعطاه لفروس التي يتظاهر
 صغار بيده، ولثلاثة أشبه بمضيفة ينزل فيها، سفرون لتغطية بضعة أيام، والعرفقة
 الثالثة تسكن الإخوان، وعادة كانت تقدم الرواية بالقرب من نهر أو مورد ماء يقف
 عندها الثمار أو السفرون ويجاور الرواية في أصعب، لأحد قطعة أرض بربرية
 الإخوان، والإخوان هم الأعضاء المأملون، وهم الذين يشيرون تعاليم الدعوة
 السنوسية وأعراسها، أما الموكل فهو ممثل شيخ السنوسية والقائم عنه بالأمر في
 تلك الزاوية

وقد تأسست أولى الروايات السنوسية في واحة سيوة لم تقدم مؤسس
 السنوسية من سيوة غرباً إلى برقة، فأسس روي في كل من جنوب وأوخلقة، ووعس
 في طرير، ثم في تونس يشير بتعاليم دعوته بين البسوة، ثم عاد إلى برقة حيث
 أسس الرواية الشيخاء بالقرب من درة في جبل الأخضر، ثم تعددت الروايات
 السنوسية في مناطق أخرى أهمها واحة الكفرة، وقد ذكر الرحالة لمصري أحمد
 حنين أنه طلع على أهل رسالة في الكفرة كان قد بعث به السوسى الكبير إلى
 أهل واججة في واداي، يطلب فيها منهم التمسك بأهانت الدين، وقد جاء في
 رسالته هذه بعض الفقرات التي توضح الفكرة التي أكد عليها السوسى دعوته،
 وهي نبيه العاقل وتعليم جاهل ويهدى من ضل سواء السبيل وفي عام ١٨٥٥

(١) بالعصر اليناى حتى ٢٠ وما بعدها

أمر لنوسى رواية الجنيوب التى أصبحت بعد ذلك أهم مركز من مراكز العموم والدير، ولم يكن اختياره لجعبوب احتياطاً^(٢٦)، وإنما قصد لنوسى باعتبارها أن تكون مركزاً للتوجيه بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر الدعوة بينهم جميعاً، إذ جاء فى رسالة الرسمى التى سبق أن أشرنا إليها إلى أهل واجنجة أنه يريد أن ينشر للإسلام بينهم وبين الأعرابي، الذين يعبرون على بلادهم ويستعبدون أولادكم ويستولون أموالكم، وإن جعل هذا تقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز، «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو، بهما».

وكانت جعبوب مركزاً أحسن لنوسى لاختياره لتحقيق أغراضه لدى وسط قبائل كاد الشروع بينها مستمرا، ومن ثم أمكن لنوسى أن يسهل تسوره على «لادعين وأن يوضح ذات بينهم، وبالمثل، قطعت بعد إقامته فى الجعبوب، وانخفاها مفرراً لدعوته، تلك الإصدارات التى كانت مستمرة بين قبائل الشرق والغرب، كما عني لنوسى بتزويد رأيته بكتابة كبيرة حوت الكثير من المصادر ومخطوطات الذخيرة التى ضاع أكثرها عقب الاحتلال الإيطالى لليبيا^(٢٧)، كما أقبل عليه الطلاب والعلماء. وهذا ما مات النوسى الكبير كانت الدعوة النوسية قد حققت نجاحاً كبيراً وعلمه ابنه محمد المهدي الذى بقى مركز قائمته من جعبوب إلى الكفرة لأنه أدرك أن الدعوة النوسية يمكن أن تجدد فى البلاد الجنوبية مجالا أوسع مما تجدد فى الشمال، وكان انتقاله إلى الكفرة حدثاً حاسماً فى تاريخ النوسية، إذ تمخذه، متجذرة بين السودان العربى وشاطئ البحر المتوسط عن طريق الكفرة، وفى عهده أيضاً كان الانحدار النوسيون يحويون العمالي فى الصحراء الكبرى، وفى إفريقيا الاستوائية العربية، وبين القبائل الرحل، وقبائل الطوارق، والقبائل المنيية وقد نجح النوسيون فى عهده من نشر دعوتهم فى كل من وادى الباجيرى والنوركوه وقبو ونهر بيوى، إلى أن بلغوا لبيجر الأدنى. وبواسطة النوسة ودعاتها وزواياها صيرت وادى نجرى بشاد مركزاً للإسلام فى

(٢٦) عن أميرة راحة الجنيوب الطر

Priehard, Son of Cyrenica p. 15.

(٢٧) أحمد صبرى الديباني، مرجع سبل نجرى ص ١٦٦



أوسط، مرقب، وهكذا تعدت الدعوة السنوية من البحر المتوسط شمالاً إلى قلب السودان الغربي جنوباً^(١).

وقد شمل عهد السنوية الديني والسياسي مناطق كثيرة من الصحراء، ونقطت «عروضي» الشبكات المذاهب المسيحية ومناخاً حاراً على صحراء، ويمكن أن نستدل على ذلك من ذكره الرحالة الجغرافي^(٢)، الذي يحدثنا في كتابه جلاء الكرب عن طريق الغرب «أن أهل الجبل الأخضر طلبهم حصة وأخذوا لهم طيبة بنة يمشقون في شيخهم سوسى اعتقاداً لا تزجره حبه الحبان ويحاربون الله ورسوله وهم أصحاب عبادة، وقد ضرب الأمن وعدم الحقوق أهلهم بأرضهم، والعرب والساحل عندهم لا يضم لهم جائت ولو كانت معهم خمول الذهب والفضة، وأصبح نبدن التجارة في الأراضي الواقعة بين البحر المتوسط شمالاً ومختلف البحار البرية الاستوائية جنوباً مرتبطاً برمان وثيق، وسعر القوافل جيدة وذاتاً، وجنت حقيقت للصحراء التي أقل مدينته (نسب في جوفها، هو بلوت ملتحق حاشياً، إذ القربى نجاته من الدمار والنصوص من قطاع الطرق، وحفرم لأبداً في جوف الصحراء، وأصبح شاجر يحتم كل غزال وميس على جماله، من بشارى إلى وادي ومن طريق من بحيرة تشاد حاراً بفران، ومن مصر إلى بركة أم السودان مطمئن لا يحتمى على أي شيء». وقد حدثت رحمة الجغرافي على كثير من المعلومات من سوسية وأثرها لديني والعلمي والسياسي، حتى أصبحت تعد من أخصب المصادر في ذلك الميدان^(٣) وقد كان من

(١) أحمد حمزة في صحراء ليبيا ج ١ من ص ٥١/٥٣، وفي نشر الدعوة السنوية الطر محمد فايز شكرى السنوية في دولة في ٥٠ وما بعدها

(٢) الشريف الشيبى الشيخ محمد بن حبان خاشي لم يرحل من أوامر القرن التاسع عشر (١٨٩٥) وقد نعم الكرسون برحلاته كما قدم إليها عند كثير من المستشرقين، وكان خاشي يعمل مركز معقد لحالي الكتب بجامع الزيتونة وقد عاهد ذلك على الإخراج على المصادر الهامة فجاء رحلته تخرج به التاريخ والتأريخ

وللكتاب حزان آخر هو التعداد الحكمة في الجبل بمنطقة الطرابلس

(٣) الطر حلال الكرم عن طريق الغرب، حصة مكتبة على الألة الكتابة بين الكتب المصرية لمع رقم ١٣٢٩٥١ كما حققت هذه الرحلة وتلهم طيبة حسنة في بيروت بإشراف عن مصطفى سرياني في عام ١٩٦٥



الأسف أن التعصبات كثيرة التي أتى بها الحثائث عن رحلاته في الصحاري لم تصل إلى كاملة، فمن الثابت أنه وضع كتاباً كبيراً بعنوان الرحلة للصحراوية. ولكن هذا الكتاب فقد ولم يصل إلينا وكل معرفتنا بهذا الكتاب تقتصر على بعض الإشارات التي أوردنا عنه في ثنايا كتابه المختصر جلاء الكرب.

ولم يكن الحثائثي وحده هو الذي أشاد بالأمس الذي حققته الروايات السوسية، ولما أشاد بذلك أيضاً كثير من الرحالة لأوربيين، يذكر منهم الرحالة الانجليزي بل العلق، الذي أقام فترة في الكفرة، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية، وقد ذكر بل أنه قبل العهد نسوي لم يحدث توغل في مصقة الكفرة، ولم تحاشي الكثيرون التوغل في الصحراء التراسية لأطراف اتى تمتد من المنطقة الساحلية إلى مجموعة واحلات الكفرة، لما في ذلك من الأحطار الداعمة، أما بعد انتشار البترولية، فقد قشعت حرق جديدة بين الساحل والداخل، ولاسيما بعد أن قامت الثورة المهدية في السودان، وما ترتب عليها من تحوّل لتجارة، إذ كان يصل إلى جبال من الكفرة أسبوعياً قوافل ضخمة يقدر عدد رعاة بين مائتين وثلاثمائة، كما ازدهرت التجارة زدهراً كبيراً في تلك الواحة. ولأنك أنه انتقل المهدى إلى الكفرة في قلب الصحراء بعيداً عن أي إشراف أو تدخل من جانب لدولة العثمانية، قد كشف عن بوايا الحقيقة، أو بالأحرى الأهداف السياسية التي صارت السوسة نسختي تحقيقها، وهي إنشاء ملك مستقل كامل لقيادة يعتمد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطئ الأطلنطي غرباً، يضم بين جوانبه برقة وطرابلس ولواء، ثم صحراء الجزائر ومنطقة بحيرة تشاد، ويسيطر على طرق التجارة من بحر المتوسط شمالاً إلى السودان جنوباً. وليس من شك في أن النمط الذي كان يتطلع إليه المهدى كان سبباً في أن توجه الدول لأوربية اعتمدها إلى دعوته، ففرنسا كانت تتوجس حيفه من المهدى على مستعمراتها في إفريقيا الاستوائية وأواسط إفريقيا وشمالها، وبريطانيا كانت تعد المهدى خطراً على نفوذها، أما إيطاليا فكانت تبرك أن السوسية هي القوة التي تستطيع الصمود في وجه إيطاليا.



وحيثك من المهود الاستعمارية من سعت إلى شطب ود المهدي وخاصة الماديات التي كانت تحاول التصهم معه سووقوف ضد القبرئسيين في الشمال الإفريقي وإمريقيا العربية، بيد أن المهدي لم يستجب لهذه المدعية، وبيد أنه كان من أعباء ترحمة لأفاني جيرانه دوليس في زيارته لبرقة والكفرة ولجعبوب لتعرفه على المهدي السنوسي ولكنه لم يتمكن من مقابله، وري كان قد التقى بوكيده على مقربة من بجعبوب، وفي عهد المهدي عميد السنوسيون إلى رسائل البعثات، الأمتكشلية، بوحدة تلو الأخرى، لدراسة أحوال الطرق المختلفة في جوف، بصحران والسواحة بين الكفرة وفوان من جهة، وبين كفرة وأقسام عرب السودان من جهة أخرى، ودراسة لطرق الواقعة بين الكفرة ومصر، وآخر هذه بعثات هي تلك التي كانت برئاسة سيد مصطفى السالوسي، وقد اكتشفت هذه البعثة خطية العويدات والخطايا التي تكفي^(١)، ولم تكن معروفة قبل ذلك، ومن المعروف أن الرحالة المصري أحمد حنين من حدد موقع هذه الخطايا جمران، عندنا ومن إليها بين سني ١٩٢٢ و١٩٢٣ مصحوباً بالأدلة السنوسية.

وفي عام ١٩ توفي الإمام المهدي السنوسي، وحفنه ابن أخيه السيد أحمد الشريف، وصبا على السيد إدريس السنوسي، وقد خرج السيد أحمد الشريف من نهج أسلافه، إذ أراد أن يجمع بين يديه سططين الدينية وسيامية، ووضح ذلك حينما استولى لإيطاليون على برقة وطرابلس من الأتراك العثمانيين، إذ حاول السيد أحمد أن يضع إلى تعود الدينى متركه العثمانيين من فراع سياسي وعسكري، وعمد لتثبيت الحرب لعليه الأولى قام تحت تحريض البعثات العسكرية التركية والأنايه بمهاجمة الإنجليز في مصر، ولكن محاولاته لم يقدروا لها نجاح، واضطر إلى اللجوء إلى الأمتنة^(٢)، وجعله السيد إدريس السنوسي، الذي وقع اتفاقاً مع الحكومة الإيطالية في عام ١٩١٧، أقرت فيه بحقه في إدارة شؤون واحات جالو، أو حدة إحدانية، والكفرة، وإن كان الإيطاليون

١ أحمد صمدى الشافى، الحركة السوية شافى، ومود في القرن التاسع عشر من ٢٢
 Dahan Cumming, Sanusiya in the First World War, Paper Submitted to Libya in History Conference, March 1968.

قد نكثوا بآلتنا قديم. وفي عهد السيد إدريس السوسي انتشرت الزوايا السوسية في الصحراء مما دفع كثيرًا من الرحالة إلى القيام برحلات استهدفوا من ورائها كشف المعنويات الكبرى، ويمكننا أن نضيف إلى الرحلتين الأمانيس وروفس وبخشيجال الرحلة الإنجليزية رورينفوردس^(١١)، التي قامت برحلتين في الصحراء كانت إحداها برفقة الرحالة المصري أحمد حسين ثم رحلة أخرى قامت بها بمفرده في عام ١٩٢٠، فجهت فيها إلى واحة الكفرة لتثبت من موقعها وصلاح بعض لأجزاء الجغرافية التي وقع فيه الرحالة روفنس

وليس من شك في أن رورينفوردس قد استعادت فائدة كبيرة من الزوايا السوسية في رحلاتها عبر الصحراء، إذ برزت هيئة علي السيد رحبًا شقيق السيد إدريس السوسي، واستعانت بإحدى القوافل الشجرية حتى وصلت إلى واحة أوجنة، وأمد السيد رحب عن يميني بشأنها، كما رويها بزمدة إلى قنات مقام حالي بوضيه بها، وتقرر فورس أنها استعادت كثيرًا من معارفه لسوسيين لهذه ولكنها ذكرت أن السوسيين كانوا ينقسمون إلى فريقين، الفريق الأول وهم أنصار السيد أحمد الشريف، والفريق الثاني وهم أنصار السيد إدريس، والفريق الأول عني الظن بالفريق الثاني، وعمل على مقاومة أتباعه وهي الكفرة أقامت في دار السيد إدريس المستوى وأرشدت فلايس العربية، غير أن تصرفاتها لم تكن بحتراما في نظر شيوخ القبائل لأن ماء العرب دم يعتمد الخروج من مدارجهم ويعد أن أقامت في الكفرة بعض الوقت لراحت أن ترجع بطريق آخر غير الطريق الذي ذهبت منه، معها سيكشف طريقًا جديدًا، ولكن لم يثبت أن اتضح لهذا أن الطريق الذي سارت فيه من الكفرة إلى جنوب هو من الطرق التي عرفها السوسيون لتسهيل الاتصال مع مصر، وقد وصلت أخيرًا إلى الجغبوب، وأقامت في زوايتها، ثم غادرتها إلى واحة سيوة، ومنها إلى الإسكندرية^(١٢)

(١١) وصلت رورينفوردس كتابة قصيدة لخبير رحلتها يثران

The Secret of the Sahara

(١٢) الزوايا، نشر مجلة المصطفى من ١٩٢٨ ومعه



ويمكن أن نعرض في هذا المنهج أيضاً للرحلات المصرية أحمد حسين الذي قام برحلته في عام ١٩٢٣ من السلوم إلى الأبيض عاصمة كردفان، وتقدر هب المسافة بتقريب من ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر قطعها على ظهر الإبل، وتم في خلالها التعرف على وحتى أركنوا العويبات، كما نجح في التوصل إلى الكفرة، ولم يكن قد روي من قبله إلا المستكشف الأمللي رونيس الذي تعد نتائج ملاحظاته ومدوماته العلمية في أثناء رحلته

ولواقع أن رحلات أحمد حسين لم تكن لتتجمع لولا المساعدات التي قدمت به من قبل وهما التوسية وشيوخ روايا، وخافه أن الطريق التي قطعها كانت غير مأمونة العواقب، وكان السوسيون في وقت رحلات أحمد حسين يتحدون من الكفرة مقر حكمهم، ويقرر أحمد حين استشارته من المساعدات الكبيرة التي تقدمها السوسيون له، وقد شهد لرحلته في جوف الصحراء منذ عام ١٩١٥، أي قبل أن يقوم بها بعثة سنو، حيث التقى في ذلك العام ياسيد إدريس السوسي في الداهرة، عند عودة الأخير من الحج، حيث تعرف عليه في البصرة التي بدأ يظهر فيها كشيخ للطائفة السوسية، وعندما تولى إدريس حكم في عام ١٩١٧، استولى أحمد حسين مع طالبوت بشا، وهو أحد القبط الإنجليز الذين كانوا يعملون في الجيش المصري، في بعثة إلى الشبح كان الهدف منها الاتفاق معه على منع البو من الإغارة على حدود مصر الغربية، ومنع القلاقل التي قد تحدثها «خوفاً» إذ إن الإنجليز كانوا حينئذ على ضرورة حفظ الأمن على الحدود وخاصة بعد أن تعرضت لاضطرابات عنيفة، وكانت هذه البعثة فرصة للرحالة المصري كي يجمد علاقته بالسيّد إدريس السوسي، لدى التقى به في الروشية، وهي ثغر صغير يقع بالقرب من أجداية في ولاية برقة، ومرة أخرى التقى به في عكرمة، بالقرب من مدينة طبرق، حيث وعده الإدرسي بمسهيلات اللازمة لنجاح رحلته التي رافق فيها روزيتاغوريس، ورحلوا بعد إلى الكفرة في يناير ١٩٢١

وفي عام ١٩٢٣ قام أحمد حسين برحلة ثانية في أعماق الصحراء الكبرى وكان يتجه في هذه الرحلة للوصول لوصوب جنوب بني واداي والسودان، وتمكن في

حلالها من مبط مواقع الأبار ووحدات الكفرة، إلى جانب التحقق من النتائج العلمية التي توصل إليها الرحالة الألماني رولفس والتت من موقع الكفرة على الخرائط الجغرافية، وقد سجل أحمد حسين أبار رحته هذه في كتابه المعروف «في صحراء ليبيا» الذي صنفه وصفاً مفيداً لأحوال بلاد الصحراء وعاداتهم، كما تضمن الكثير من أخبار النومية وزواياها ومخيمها في الصحراء. وقد ذكر عن النوميين أنهم أهم عامل من عوامل التصود في الصحراء، وأنهم لا يكونون شعباً أو مملكة أو وحدة سياسية، وإن كان فيهم من هذه الأمية حواص كثيرة، ولعله يندك أود من ثباً بملكانة البطمية التي قدر بنوميين أن يصلوا إليها خلال السنوات التالية. وقد أشار إلى أنهم يستطيعون نفوذهم على مساحة كبيرة من الصحراء كما وصف النومية باعتبارها رابطة دينية وعامتها وراثية ونفوذها قوى في دارا شرد مكان الصحراء.

وقد اتحد الرحالة المصري طريقه من السود إلى سيوة ومنها إلى جغبوب حيث قبله هناك وكيل السيد إدريس النومي، وقد أشاد أحمد حسين بجذبوت فلذكر عنها أنها بلد عامر باعلم والدين، ولكنها ليست مركزاً هاماً للتجارة أو نفوذاً ومن الواضح أن جغبوب كانت قد وصلت إلى أقصى ازدهارها على عهد السيد بن من النوميين، حين اتخذها مركزاً لنفوذ، وقد ظلت محافظة على شهرتها وازدهارها على عهد حبيقتة انهدى، حتى انتقل منها إلى الكفرة فأصبح الكفرة هي المركز الرئيسي للنفوذ، وبالتالي كانت أهمية جغبوب تزداد أو تقل فيما ترك النوميين لها أو خروجهم إليها، ومن الجغبوب اتحد أحمد حسين طريقه إلى جالو على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلو متر، وكان السيد إدريس قد طلب من سكان جالو أن يوحىو، بلغائه وقد أشاد أحمد حسين بوصف بواحة جالو، فذكر أنها من أهم واحات برقة على مسافة مائتين وأربعين كيلو متراً من أقرب نقطة من شاطئ البحر المتوسط، وعلى مسافة مائة كيلو متر من الكفرة، وأنها تنتج كميات كبيرة من التمور، وفوق هذا فإنها تنتج الذي تصدر عن طريقه حاصلات دررور وواداي بعد مرورها بالكفرة، ويمر بواحة جالو كمن هالو من اتجاهات الأخرى إلى الكفرة، ومن جالو اتحد أحمد حسين طريقه إلى واحة أوجله، على

مسافة اثني عشر ميلا غرب جنسو. وسجل في كتبه النتائج الاقتصادية التي توصلت
 على ميطره الإيطاليين على سواحل ليبيا، لأنه في أثناء إقامته في جنسو، كانت
 العلاقات متوترة بين السلطات الإيطالية، وبين السيد إفريس حيث منع الإيطاليون
 إرسال البضائع من بنغازي وعبيد من موسى مرقة إلى أبلات الساحلية، وبسبب
 ارتفعت أسعار المنتجات ارتبعا شديداً في مدن الصحراء. وقد اتجه أحمد حسين
 بعد ذلك إلى واحة الكفرة، وكان المستكشف جيرارد رولفس قد أطلق اسم الكفرة
 على الواحات الأربع للوارة اسماء ترويو - بوزيم - ويانه - كباو، ولكن اسم
 الكفرة، كما أكد أحمد حسين، كان يطلق على الواحة الأخيرة فقط، وقد تحدث
 عن الكفرة باعتبارها طريقاً هاماً لتجارة كما أنها تتميز بزراعة وخاصة زراعة
 أشجار الزيتون الذي يستخرج زيت بهامو عتيقة.

ومن الكفرة تمكن أحمد حسين من الوصول إلى وادي أركنو والعوينات،
 ذكر عنهما أنهما وادان مجهولتان، ولكنه استطاع أن يحدد موقعهما على الخريطة
 بصرافية، ولم تكن هاتان الواحات مجهولتين تماماً لأن السنوسيين كانوا يعرفونهما،
 ويعترف أحمد حسين أنه قل وصوله كانت هناك إشاعات بوجود واديتين قريبتين
 من دكن مصر الجنوبي الغربي، وإن كان يذكر أن المكان الذي حدد لهما بالتقريب
 كان بعيداً جداً عن موقعهما الحقيقي، وقد ألبس أحمد حسين أن إحدى هاتين
 الواحاتين وهي أركنو تشكل في حدود مصر الليبية، بينما تقع الصوتيات على
 مسافة قصيرة من حدود السودان.

وقد يكون من المفيد أن نتوصل فيما يلي أهم نتائج التي توصل إليها
 الرحالة المصري من رحلاته في الصحراء، وخاصة أن هذه النتائج عدت بمثابة
 إضافات جديدة للمعلومات الجغرافية ومن بينها أن الكفرة لا تطلق إلا على بحره
 الذي أطلق عليه رولفس اسم كباو، كما أن رحلات أحمد حسين ساعدت على
 تحديد موقع أبار نظمين إلى جانب اكتشاف طريق يقع في الحريب العربي من
 مصر يجتاز سهل أروى ندى في هوقب الاستوائية المرسبة إلى دارفور وتعيين
 موارد المياه الواقعة عليه، والأهم من ذلك إثبات حقيقة وجود وادي أركنو

والعربيات، حقيقة أن هاتين الرحلتين كانت معروفتين لدى النوبيين، كما سبق أن
أشرنا، بل ولعلهما أصعب هزفتا في بعض الخرائط الجغرافية من ذلك خريطة إفريقيا
التي نشرها Justus Perter في عام ١٨٩٢ التي هلت درجة صغيرة غير مسماة بين
خطي عرض ٢١ و ٢٣ درجة شمالاً ثم درجة أخرى على مسافة صغيرة إلى
الشرق منها، وقد رسمت هاتان لوحتان على الخريطة امتداداً إلى أقوال العرب
لشائعة من وجودهم وإن كانت مع ذلك لم تثبت في الخرائط العسكرية الإنجليزية
أو الفرنسية

وعلى أية حال فقد يكون من أهمية اكتشاف هاتين اللوحتين أنهما فتحت
مجالاً لاكتشاف الرواية الجنوبية العربية لمصر، نبت الرواية التي لم تكن قد
وصلت إليها حتى ذلك الوقت انخاميات المصرية العسكرية، كما أصبح من الممكن
على أي رحالة أن يصل ويحصل على المياه اللازمة التي تعب على استكمال
رحلاته، كما أنه من الممكن الاستفادة من قيمة درجة أركنو من الناحية العسكرية
نظراً لوقوعها في ملتقى خطي الحدود العربية والجنوبية لمصر. وعلى جملة فإن
الرجح في تحقيق مورد المياه وموقع اللوحات قد فتح آفاق رحلات جديدة في
جوف الصحراء^(١)

ولاشك في أن الرحالة المصري أحمد حسين ومن سبقه من الرحالة
الأوربيين قد استضاءوا خلال رحلاتهم في الصحراء، وبلاستعانة بأدلاء من
نوبيين وباتخاذ الروايات النوبية معالم لهم على طول الطريق أن يفتحوا مناطق
شاسعة في جوف الصحراء كانت تعد في حكم الأراضي المجهولة، وقد استطاع
أحمد حسين بصفة خاصة أن يضع محددات جغرافية وباتى بالرصد فلكية دقيقة،
في جسر رحلاته تحت مركزاً هاماً بين الرحلات لاكتشافه، وقد استمرت
رحلاته تسجل مساقاً في تاريخ حركة الكشوف الجغرافية التي وجهت إلى مجاهل
الصحراء الكبرى

(١) أحمد حسين في صحراء ليبيا - حيفا وال - القاهرة ١٩٣





خاتمة



من أهم ما وضع لنا في مجالات هذه الدراسة أن العلاقات العربية الإفريقية كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في إفريقيا وإدخال الحضارة إلى شعوبها. ويعتقد كثير من الباحثين أنه لو أتبع وقت أطول أمام تيارات الإسلام والعروبة بكافة مظاهر إفريقيا اليوم مصيراً آخر إذ إن الاستعمار الأوربي عمل على صعيد المقوميات العربية والإسلامية في المناطق التي سيطر عليها - حقيقة أن القرن التاسع عشر شهد حركات إحياء امتدت على إتعاث الثقافة العربية ونشر الإسلام بين القبائل البدوية، إلا أن ذلك القرن أيضاً كان يعد عصر الصدام بين القوى الإسلامية من ناحية والاستعمار الأوربي من ناحية أخرى، ولكن القوى الإسلامية انتشرت إلى قوة مدية التي نعيشها على مواصلة هذا الصراع، فكان النجدة الحتمية هي استسلام المسلمين، ونشر الاستعمار نفوذه بين الشعوب الإفريقية.

ولقد كان من الطبيعي أن يجد الاستعمار في الإسلام وثقافة العربية عقبات تهدد نفوذه، ومن ثم عمل على إضعاف المقومات العربية والإسلامية التي لاقت قدراً كبيراً من الانتعاش خلال القرن التاسع عشر الميلادي وقد يكون من المبعد أن نشير هنا إلى ما كان للطرق الدينية من فضل كبير في نشر الإسلام وبعلاء شأن نظافة العربية في مناطق كثيرة من ربوع القارة الإفريقية ومن جدير بالذكر أن معظم هذه الطرق دخلت إلى إفريقيا من العالم العربي أو على الأقل أسسها عيماة إفريقيون تلقوا تعليمهم الديني في حواضر العالم العربي ثم عادوا إلى بلادهم يشيرون تعاليمهم الدينية وقد بدأت الطرق الصوفية يتضح أثرها في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي على وجه خاص، ولعل من أهم الطرق التي ظهرت حول هذه الفترة الطريقة القادرية التي أسسها في العراق الشيخ عبدالقادر الجيلاني وحافظت انتشاراً كبيراً في بلدان المغرب العربي، و كانت قد انقسمت إلى فرق ثلاث كان من أبرزها البكائية التي انتشرت من عزون مركزاً لها في حين امتدت للفرقتان الأخرتان إلى كثير من مناطق غرب إفريقيا، وقد كان لاتباع الطريقة القادرية دور كبير في نشر الدين الإسلامي في كثير من جهات غرب إفريقيا، عن طريق تعليم الحباة من تلاميذهم وعريديهم، وإرسالهم إلى المراكز الدينية في طرابلس وجامع القرويين في فاس أو جامع الأزهر في مصر، وذلك لتلقي العلوم الدينية ثم العودة إلى بلادهم لنشر مبادئ

وتعاليم الدعوة الإسلامية. كما شهدت أجراء كثيرة من الفترة الإفريقية عبد نهاية القرن الثامن عشر، وخلال سنوات القرن التاسع عشر، ظهور طرق دينية جديدة برزت من بينها الطريقة التيجانية التي أسسها أحمد بن محمد التيجاني، ملتقى في عام ١٧٨٢، والتي صاعدت انتشاراً كبيراً في شمال إفريقيا، كما امتدت إلى أقاليم غرب السودان وسيطرت على المناطق المعتنة من تيكتو شرقاً حتى المحيط لأطلسي غرباً، وعلى الرغم مما أخذ على الطريقة التيجانية من مهادنة بعض شيوخها للمسيحيين خلال احتلالهم لمصر، إلا أنها لعبت برفعها راية الجهاد ضد الفرنسيين في غرب إفريقيا^(١).

وليس من شك في أن الطرق الدينية قد صادفت نجاحاً كبيراً إذا قيس على الخصوع تحت رايها كثير من الإفرقيين، وبخاصة حينما نجح الدعوة بفضل استجاباتهم لبعض البناهر الثقافية المحلية، بعد وجمعهم في إطار إسلامي، أن يحفظوا ماضي الشعوب الإفريقية والإبقاء على مقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وما نجد الإشارة إليه أن العصر الزاهر لانتشار الإسلام في إفريقيا، تم عن طريق تلك الجماعات الدينية التي التفتت المتأشاً بالها في القرن التاسع عشر، وتحولت إلى الدعوة الدينية إلى سيانيم التعليم والتدريب.

وقد سبق أن أوضحنا ما كان للطريقة السوسية التي أسسها محمد بن علي السوسي من دور كبير في نشر الإسلام، وإحياء الثقافة العربية عبر الصحراء الكبرى إلى جهات البحر والمستغيب، كما قد يكون من المفيد أن نشير أيضاً إلى الطريقة المرعية التي أسسها محمد بن محمد الميرغى في النصف الأول من نقره التاسع عشر. وقد تلقى الميرغى تعاليمه الدينية في الحجاز، وتأثر إلى حد كبير، بتعاليم السنية، وانتشرت طريقته في جهات شرق السودان بين قبائل البجة وفي أقسام النيل الأزرق، وقد استمرت الميرغية تشكل عائلة دينية قوية في السودان إلى عهد قريب.

ولعل عنيونكة لنا عمق الروابط العربية الإفريقية تلك العمليات الروحية والثقافية التي جمعت بين الشعوب الإفريقية من ناحية، والشعوب العربية من

(١) لوثرين سولود. محقق المصنف الإسلامي، ص ٤٠٠، ٣٩٦/٣٩٥.

ناحية أخرى، ومما لا شك فيه أن الحركة السنية بنى ظهوره في أحقريرة عربية حول منتصف القرن الثامن عشر، ومعنى بها الحركة الوهابية، كانت ثمرة اثنين الذين عدوا مختلف الحركات الإصلاحية، سلعة في إفريقيا، وتظهر أمثلة بصفة خاصة حركة عثمان بن هودى (دافوديو) ١٧٥٤ - ١٨١٧، في غرب إفريقيا، وكان زعيم هذه الحركة قد ارتحل إلى الحج، حيث اتصل بهذه الحركة الوهابية وتحمس لمبادئهم، وعندما عاد إلى بلاده بدأ بالدعوة انسحابية عن طريق إعداد التلاميذ وتلاميذهم، ثم انتشرت دعوته إلى مرحلة أخرى، وهي الانتصار للأمراء ودعوتهم إلى محاربة البدع التي دخلت على الدين الإسلامي والعمل على نشر الإسلام بين شعوب الوثنية في غرب إفريقيا. وقد نجح في عام ١٨٠٢ في تأسيس سلطنة سكنت التي مدت نفوذها على معظم الأقاليم الواقعة بين تسكنو ونجوة تشاد، وفي عام ١٨٠٩ أعلن دافوديو الجهاد الديني ضد أمير جوير، وبات عام ١٨١٠، لا وتم له، حصص كثير من إمارات لاهوسا الوثنية^(١)، وعند توفى عام ١٨١٧ خلفه ابنه الذي تبع رسائله التي كان لها أثر كبير في إحياء الدعوة الإسلامية، إذ من الملاحظ أن دافوديو وأتباعه من بعده كانت لهم اهتمامات خاصة بالثقافة العربية والعلوم الدينية، وقد وضع دافوديو نفسه الكثير من المصنفات العربية في العلوم الدينية والعقوبة^(٢)

وهناك الكثير من حركات الدينية التي عاصرت حركة دافوديو وإن كانت قد تأثرت بالهسية، وانتشرت كذلك الحركات في المناطق الواقعة بين البحر والساحل، ولعل من أبرزها حركة أحمدو لويو الذي أتخذ من مدينة مركزاً له، ومجاور الاتصال بمجلس شمال إفريقيا في الجزائر وتونس ومراكش ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية الأخرى، وقد توفى في عام ١٨٤٤ وخلفه به أحمدو شيخو، كذلك يمكن الإشارة إلى الحاج عمر الموتي الذي نشأ بين شعب التكرور، وارتحل إلى شرق العربي، حيث انضم بعلما مصر والحجاز واتحد من فوجا جالون مركزاً بدعوه^(٣)، وقد استلهم حركته الدينية بعزوه لشعب اليعاربة ١٨٥٤، وقد

(١) Boyl E/W, The Golden Trade of the Moors P. 229.

(٢) عبد الرحيم زكي - الإسلام والمسلمون في إفريقيا من ص ٩٧ - ١٠٠ وكذا على أحمد محمود

المنشأة العربية في غرب إفريقيا المجلد ١٢ من مجلة المصرية التاريخية

(٣) توباس - بول - الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٧

اصطلحت حركته بالقرويين، ولعلها كانت من أولى لحركات الإسلامية التي اصططلت بالاستعمار الأروبي في إفريقيا في القرن التاسع عشر (١٨٥٧) وقد حارب الحاج عمر العوفي أن يتخذ من تيبكتو عاصمة لسلطنة نفوذه التي امتدت إلى السنغال ١٨٦٣، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الاستعمار الفرنسي إذ استمرت الحرب قائمة بين وبين الفرنسيين أو بينهم وبين حلفائه من بعده، حتى تم للفرنسيين السيطرة على هذه المنطقة الواقعة في غرب إفريقيا في عام ١٨٨٦

ومن الحركات التي اصططلت بالفرنسيين أيضاً حركة ربيع بن الزبير في عام ١٨٩٣ الذي أسس ملكاً به في رادى حتى لجح الفرنسيون في حربه منها (١). كذلك شهدت سلطنة يرنو عند بحيرة تشاد حركة دينية إصلاحية ترعها محمد الأمين الكاظمي الذي برع على عرض السلطة في عام ١٨٩٦ وقد تأثرت حركته إلى حد كبير بتدبع الثقافة العربية والإسلامية، إذ رار مصر وفرنسا والجزائر، وقد ظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضعت السلطة للاحتلال البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كذلك نجدهم الإثارة يصند ذلك إلى الحركة المهدية في السودان التي منعتها الإنجليز لسيطرتهم على السودان وكانت سلطنة دارفور التي وصل إلى حكمها علي بن دينار بين عامي ١٨٩٨، ١٩١٦ آخر السلطنات الإسلامية التي اصططلت بالاستعمار الإنجليزي، وقد وصل علي بن دينار إلى حكم هذه السلطة بعد سقوط الدولة المهدية في عام ١٨٩٨، وقد حاول الحصول على اعتراف الإنجليز له بالبرصع المجدد في السلطنة، ولكن وجود الفرنسيين في منطقة بحيرة تشاد وأطماعهم أثارت الكثير من مشكلات الحدود بين دارفور ومناطق النفوذ الفرنسي في الأوسط وغرب إفريقيا، وبطبيعة الحال اتجهت الحكومة البريطانية إلى مراعاة جانب فرنسا ومضلا عن ذلك هو العلاقة بينه وبين بريطانيا مرت بأزمة شديدة عند قيام الحرب العالمية الأولى حينما رادت محاذف الإنجليز من التصار الأتراك بدافور وخاصة حين وصلت بعثة تركية إلى برقة براسة ثور بك كان هدفها إثارة الاضطرابات في المناطق التي تسيطر عليها كل من إنجلترا وفرنسا في غرب ووسط إفريقيا، وراحت عوامل التوتر حين قنع علي بن

(١) جمال محمد - مطالعات في الشؤون الإفريقية من ص ٢٩/٢٨ - القاهرة ١٩٦٩
 نظر كذلك مجلة مجلة إفريقيا - العدد الثامن - أغسطس ١٩٥٨ - ربيع لعل البنية ليعنه بديري.

فيما أبواب سلطنته لفتارين من السيطرة المصرية في شعب إفريقيا، وأخذ الوضع يتطور بسرعة حيث أعلن استقلاله عن حكومة السودان، وحاول الاتصال بزعماء لسموية في ليبيا للحصول منهم على الأسلحة والعتاد، وقد بدأ الإغتراب إلى مهاجرة مذبذبة دارفور، وساعدت فرنسا لحكومة البريطانية في تفريق الحصار على هذه المنطقة حتى تم القضاء عليها نهائياً بسقوط عاصمتها البشائر في مايو ١٩١٦.

وما تجدد الإشارة إليه أيضاً أن القرن التاسع عشر شهد ظهور دول عربية إفريقية كان لها أثر كبير في دخول الحصار الإسلامية، ومثل الثقافة العربية في اصفرع مالية من القدرة الإفريقية، ومن أبرز نماذج تلك الدول لإمبراطورية المصرية ومتمادها إلى السودان ومراحل البحر الأحمر ومنطقة أعالي النيل، ومنطقة البحار العرسية، وامتدادها إلى الكونغو والبحيرات الاستوائية وكان الأسلوب الذي اتبعه الإنجليز هو صراف كل من هاتين الدولتين وجعلها معككة عاجزة لا تقوى على الدفاع عن نفسها أو ممتلكاتها التي استولت بريطانيا على السبب لأولى منها.

وقد احتك أساليب الفرنسيين عن أسلوب الإنجليز حيث نجح الاستعمار الفرنسي إلى التمدد المباشر لتقوى الإسلامية هذا فضلاً عن اتجاهاهم إلى إحلال اللغة والثقافة الفرنسية محل اللغة والثقافة العربية، ولكن الاستعمار الفرنسي أخذ يواجه وخاصة منذ السنوات الأولى من بقرب العشرين - حركات قومية برزت ارتباطاً كبيراً بالدين الإسلامي والثقافة العربية، وما تجدد الإشارة إليه أن لرعاة الإثريتين عدلين تنفقوا في الشرق العربي على يد دعنة السفيرة في مصر والشام والحداد هم الذين عملوا على الحفاظ على التراث العربي والإسلامي وخاصة في شمال إفريقيا بعد أن كاد يتمحى أثره تماماً إذ أن محاولات فرنسا في المناطق التي خضعت لها، ولعل أوضح مثال على ذلك حينما قدم عبد الحليم بن باديس ١٨٨٩ / ١٩٤ بتأسيس جبهة علماء الجزائر، وبعد ابن باديس باعت النهضة الإسلامية والعربية في الجزائر، ومن الرعين الأول الذين كانوا من أجل تحرير

A. B. Theobald, *Ali Dinar, Last Sultan of Darfur* 898 1916 London, 1963. (١)



الجزائر من الاستعمار الفرنسي وإدخالها في دائرة العمومية والإسلام^(١) وقد اتخذت جبهة علماء الجزائر، من التربية والتعليم أساساً لها، ووضع ذلك في المدارس الكثيرة التي أنشأتها واتجهت إلى نشر مبادئ الإصلاح الديني ومحو طريقة اليهودية، وذلك حيث اكتشف المصلحون الدينيون أن بعض مشايخ تلك الطرق يتهاونون مع الفرنسيين، فكان على السعيين أن يتواصلوا ضد رجال هذه الطرق من ناحية والعروة الأجانب من ناحية أخرى. ولعل ذلك كان دافعاً لتسخطات الفرنسية إلى أحد من شاطئ الدعوة السلفية والتصدي لمقاومة دعائها. ففي عام ١٩٣٣ أصبحت سلطات الفرنسية في الجزائر مشغولاً بحلوم على (الوهابية) المخطئة، وعلى الموقف المعادي الذي رفقته سلطات الفرنسية ضد شاطئ هذه الجبهة يرجع إلى تهديدها للمخططات الفرنسية الرامية إلى تنظيم الشخصية العربية والإسلامية للشعب الجزائري بين وللشعوب العربية من شمال إفريقيا إلى جانب تعكث الرعية الوطنية بين العرب واليهود عن طريق إثارة الفتنة والخرافات العنصرية بينهما، والقضاء على معتقد وممارس العقوم الإسلامية والثقافة العربية، وكانت هذه المخططات نافذة لكي فتتحول جبهة علماء الجزائر من هيئة دينية خالصة إلى حركة قومية كان لها انعكاس في إعادة وصل الجسور التي شقيقتها من الدول العربية والإسلامية.

وأخيراً ينبغي أن نؤكد هنا إلى أنه إذا كانت معظم الشعوب الإفريقية قد حصلت للاستعمار الأجنبي بمختلف أشكاله وأساليبه خلال صاعد الموجة الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فإنه لا ينبغي لاشبه أن الشعوب العربية قد بقيت من هذا انصر وقد عمد للاستعمار إلى قضم الروابط العربية والإفريقية طوال السنوات التي سيطر فيها على المقنونات العربية والإفريقية، ولذلك أفسس من الطبيعي بعد تحرير الدول العربية والإفريقية، وروال السيطرة الاستعمارية أن تعود تلك الدول تدعيم الروابط فيما بينها، لما فيه ازدهارها ووحاها ومصلحة شعوبها؟

(١) كلمة ابن ماضي، جمع ولويب عبد المالك، ٢ مجلدات - مكتبة الشركة الجزائرية ١٩٦٨



المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق العربية والأجنبية

وثائق هابسبورغ (ذكوريث: البرل: غالباً)

محافظ نسودن، السواب ومحافظ المشرق بها لو. هو مشر الكتاب

- جيان، شارل

وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية، عن شرق إفريقيا - عربيه ملخصاً لأمير

يوسعد كمان - القاهرة ١٩٢٧.

- سجل كتابات السامية في عهد سلطان برغش بن سعيد، مخطوطة

يدار لكتبة المصرية، المكتبة القبطية.

- شوقي الجمل.

لوثائق التاريخية لمباسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩)، بشر

الجمعية المصرية لدراسات التاريخية، القاهرة (بدون تاريخ)

- Perrot - Galrie.

Documents Historiques et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turcs relatifs à l'Extreme Orient du VIIIe au XVle siècles.

2 tomes

Paris 1913

- Granville - Freeman.

Selected Documents on the East African Coast, Oxford 1962

- Guilain.

Documents relatifs à l'Histoire, à la Géographie et au Commerce De l'Afrique Orientale.

Tome I - Exposé critique des diverses Notions acquises sur L'Afrique Orientale depuis les temps le plus loins jusqu'à nos jours.

Tomes II, III - Relation de Voyage d'exploration à la Côte Orientale d'Afrique, exécuté pendant les années 1847 - 1848.

- Handbook Prepared under the direction of Great Britain Foreign Office - Historical Section.

* Kenya, Uganda and Zanzibar No 26

London 1925

* The formation of the Portuguese Colonial Empire No 116

London 1920.

Zéio March.

East Africa through Contemporary Records

London 1967

ثانياً: المصادر والمراجع العربية

- إبراهيم على طرخان.

* دولة مابى للإسلامية، القاهرة : ١٩٧٣.

* الإسلام وملكك الإسلامية بأحبشة، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثامن، ١٩٥٩.

- أبو إسحق، الإصطخرى

مسالك والممالك، تحقيق الدكتور يحيى القاهرة ١٩٦١

- أبو الحسن المسعودى.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، فى مجلدين نشر دار الراجدة - القاهرة

- أبو زيد الأرقى.

رحلة الشاجر مسلمان، سلسلة التواريخ، دار الطعاعة السبطية، بريس ١٨١١.

- أبو سالم العياشى.

رحلة الميشتى، فى مجلدين بالخط العربى، مكتبة التيمورية رقم ٥ ٤ تاريخ

- أبو عبد الله بن عبد العزيز البكرى

كتاب المغرب فى فكر بلاد البرقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، الجزائر ١٩٧١.

- أبو عبد الله محمد بن بطوطة.

تحفة الخوار فى عجائب الأسفار وغرائب الأمصار، مجلدين القاهرة ١٩٣٣.

- أبو محمد عبد الله التيجانى

رحلة التيجانى، المطبعة الرسمية تونس ١٩٥٨

- أبو العباس أحمد، لقفشقى.

صيح الأعى فى صناعة الإث.

- أتيليو مورى.

- حالة اكتشف المعروف في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى
 الاحتلال الإيطالي، تعريب خديعة محمد شيبني، مكتبة الفرجاني
 طرابلس، ١٩٧١
- أحمد بابا الشكني
- ابن لايحاح بتطوير الفياح، قاس ١٣١٧ هـ
- أحمد حسين
- محمد محرز، ليبيا، طرابلس، القاهرة ١٩٣
- أحمد مويدي، العمري
- العرب والإفريقيون، القاهرة ١٩٦٧
- أحمد صدقي الدجاني.
- حركة نسوية، شأنها ونحوها في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٦٧
- أحمد عبدالقادر شهاب الدين (عرب فقيه).
- فتوح الحبشة، آخر، لأوله، نشر ربيعة ياسين، باريس ١٩٠٩
- أحمد بن فضل الله العمري.
- مالك الأمازيغي في مكتب الأسرار، عدة مطبوعات بدار الكتب المصرية تحت
 رقم ٢٥٦٨.
- أحمد بن ماجه.
- نسخة زكروغرافية من مؤلفات أحمد بن ماجه من مكتبة لاهوت
 يازيس ومكتبة بدار الكتب المصرية.
- آدم مر
- الخسارة الإسلامية جرداته، ترجمة المكنوز محمد عثمان، أبو ريدة،
 القاهرة.
- إسماعيل سرعك.
- حقائق لأخبار عن دول البحار، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٢٣
- أغاثا بولس كراتشكوفسكي
- * مع المخطوطات العربية، معهد لانتراق لوسفي

• لأدب الجغرافى عبد المعرب، نغمات الأول والثانى، مشر لإدارة
الثقافية بجامعة ندون العربية، ترجمة صلاح الدين عثمان القاهرة
١٩٦٣

- الدوميللى (مترجم).

المهم عند بمرية، القاهرة ١٩٦٢

- أنور عبدالعظيم

- أحمد بن مسعود.

من سلسلة أعلام العرب، القاهرة ١٩٦٧.

- يوزل دافليبيون

إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمه جمال أحمد، بيروت ١٩٦٥

- توماس (أرنولد).

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق حس إبراهيم وتحسين، الطبعة الثانية
القاهرة ١٩٥٧

- توفيق ميخائيل،

غرائب الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار، القاهرة ١٩٦١.

- جمال أحمد

مطالعات فى التنوع الإفريقية، القاهرة ١٩٦٨.

- جمال وكريا فاسم

• دولة يوسف من عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها حتى انقسامها
١٧٤١ - ١٧٦١، القاهرة ١٩٦٧.

• استقرار العرب على ساحل شرق إفريقيا

العدد للعشر - جوياب، كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٦٥

• نضائر بحرية تاريخ شرق إفريقيا، المحلة المصرية التاريخية، العدد
الرابع عشر ١٩٦٦ - ١٩٦٧

• دور العرب على كتف إفريقيا، مجلة عالم الفكر - الكويت، العدد
الأول من المجلد الثانى مارس ١٩٧١

• كتاب وصف إفريقيا وتاريخها لمحمد بن محمد الوران المعروف بـ
الإفريقي، حويزات كلية الآداب - جامعة عين شمس - لمجلك الحادى
عشر ١٩٦٨.

• المملك الإسلامية فى الحبشة، مجلة العرب، إبريل ١٩٧٣
• تاريخ العرب فى إفريقيا سبيل للتغلب أم للتباعد، ندوة جامعة القاهرة
عن العرب فى إفريقيا، أبريل ١٩٨٧.

- جورجى زيدان.

تراجم مشاهير الشرى فى القرون لتاسع عشر، مجلذان القاهرة
شجون لويس بوركهارت

رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ترجمة فرود الدروس، نشر
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٥٩
- حامد وصيع.

الزنجية فى الفكر السياسى - مجلة لعلوم القانونية والاقتصادية العدد ٣
السنة ١٢ - يولييه ١٩٧٣.

- حسن إبراهيم حسن.

انتشار الإسلام والعروبة، عبد ينى الصحراء، انكبرى شرقى القاهرة لإعريضه
وغربيها، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧.

- حسن أحمد محمود

• انتشار الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا، القاهرة ١٩٥٧

• دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب إفريقيا، المجلة المصرية
التاريخية

- الحليمى.

سيرة الحبشة الحديثة، النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر، تقديم الدكتور
مراة كندل، القاهرة.

- زكريا القزوينى

آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠.

- زكى محمد حسن

لرجال المسلمين فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥

- زين الدين -

تخمة المجامعين في بعض أحوال البرتغاليين، مخطوطة عربية نشرها
وحققها David Lopes بأصلها العربي وترجمتها البرتغالية
بمنوان Historia Des Portugesa.No Malabar، لشبونة ١٨٩٨

- مائة بنت سعيد (إيلي رويت).

مذكرات أميرة عربية، مترجم، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة
عمان

- سراج الدين بن الوردي.

فريدة المعجائب وحريدة الغرائب

- محمد زكوة هبلويه.

تجاره لوقب وأثرها في استعمار غرب إفريقيا العدد (٢) من المجلة المصرية
لدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٣.

- سعيد عبد الفتاح عاكور

بعض أضيواء جديدة على العلاقات بين مصر وحيشة، العديد النوبع عشر
من المجلة المصرية التاريخية.

- سعيد بن علي المعري

هيئة الأبحار في تاريخ البحار، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة
عمان

- سليمان المهري

نسخة لكتوغرافية من مؤلفات سليمان المهري منقولة من المكتبة لأهلية
بياني، ومصحوفة بدار الكتب المصرية

- الشاهن بصيلي عينا جليل

• مجالس تاريخ حيوكان رادي النيل، القاهرة ١٩٥٥

• تاريخ وحضارات السودان لشرقي والأوسط من القرن السابع إلى

لقرن التاسع عشر الميلادي، القاهرة ١٩٧٢

• محكمة مورتساب المصرية، الموسم الخامس للجمعية المصرية للدراسات

تاريخية ١٩٦٧ - ١٩٦٨

- صلاح الدين المنجد

مملكة مالى عند الحفر، مجيب، مسلمين، مصوص جمعها وعلى عليه وعدم ابا
صلاح الدين المنجد - القاهرة

- صلاح العقيد.

الحرب في بداية العصور الحديثة، معهد الدراسات العربية - القاهرة

- صلاح العقاد وجمال زكي قاسم.

والجبال، القاهرة ١٩٦٠

- عبدالرحمن بدوي

لأفريقيا والثقافة العربية، العدد ٤٨ من مجلة نهضة إفريقيا - أكتوبر ١٩٦١

- عبدالرحمن الراغبى

* عصر محمد على، القاهرة ١٩٥١.

* عصر إسماعيل، القاهرة ١٩٤٥.

- عبدالرحمن زكى.

* الإسلام والمسلمون في إفريقيا، القاهرة ١٩٧٠

* المرجع العربية للتاريخ الإسلامى في غرب إفريقيا، محاضرات موسم

التقاع للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧ ١٩٦٨

- عبدالله بن مصطفى الصوافى .

كتشفت السلو، هي أجداد كنوة، مقال عن أوراق الشيخ محبى الدين
الزنجبارى، نشر وتحقيق آرثر سترويج ١٨٩٥ بأصلها، العربى وترجمتها يعون

History of Kiliwa.

- عبدالمعز عبدالحق.

استدراكات على رحلة التوبى إلى دارفور، محاضرات الموسم شغافى

للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨.

- عبدالمعز كامل.

بحر تحيط على لدرساتنا لإفريقية، من محاضرات الجمعية الجغرافية

المصرية القاهرة ١٩٥٩

- عبدالغنى سعودي.

العروبة والإفريقية، مواجهة أو تصادم - بحث منشور في العلاقات العربية
الإفريقية، دوسية في أبحاثها المختلفة - معهد البحوث والدراسات العربية،
القاهرة ١٩٧٨.

- عبدالكريم كريم.

متاهل الصفا في أخبار دولة ملوك الشرق، المجلد لمصرية أناريجية، المجلد
الخامس عشر، القاهرة ١٩٦٩

- عبدالمجيد عديدين.

بين الحشة والعربة، القاهرة ١٩٤٧.

- عبيد بلوى.

رابح فضل الله، مجلة مهضة إفريقية العدد العاشر أغسطس ١٩٥٨

- عماد العادى.

أثار ابن باديس، أربعة أجزاء، جمع وتبويب عماد العادى، جرائر ١٩٦٨.

- غزالدين موسى.

الإسلام في إفريقيا، من أعمال ندوة العرب وإفريقيا، عمان، ١٩٨٣

عوض اسطادور.

حالة ليبيا كما ذكرها ابن ماجع أبو سالم العادى في رحلته، دراسة قدمت إلى

مؤتمر ليبيا عبر العصور، الجامعة البنية بنغازى - مارس ١٩٦٨

- فردريك بنولا.

مصر والجفاف، خلاصة عن الأعلام الجغرافية التى أنجزتها مصر في القرن

التاسع عشر، ترجمة أحمد زكى، القاهرة ١٣١١هـ

- فضل حوراني.

العرب والملاححة البحرية في العهد النهدي، القاهرة ١٩٥٨

- فؤاد حبروف.

الرواد، شر مجلة المتخصص، القاهرة (بدون تاريخ)

- فيروز شوموشكى

ثلاث رسائل المجهولة، إصدار معهد الاستشراق السوفيتي، لفسراد
١٩٥٧

- كلارك، ج. وهاريس، هيسنت.

تجملات البراق والموتيق (مترجم)، القاهرة

- كيلي، جون.

بريطانيا، والحديث - ترجمة محمد أمين عبد الله - نشر وزارة تراث وعمومي
والثقافة سلطنة عمان

- نوروي، ستودارد.

جسائر الصدام الإسلامي، ترجمة هجاج لويشوس وعدين الأمير شكريه
أوسلان - مجلدان - القاهرة ١٣٤٢ هـ

- نورمر، ج. ج.

دليل الحديث - القسم التاريخي - سبعة مجلدات، الدوحة ١٩٦٧

- محمد أمين

تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، بحث مشور في
العلاقات العربية الإفريقية دراسة في أبعادها المختلفة، نشر معهد بحوث
والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٨

- محجوب، زياد

لإسلام في السودان، القاهرة

- محمد خير فارس

تاريخ الجزائر الحديث، دمشق ١٩٦٩

- محمد ضري

تاريخ الإمبراطورية المصرية السودانية في القرن التاسع عشر، القاهرة
١٩٤٨

• مصر في إفريقيا الشرقية، القاهرة ١٩٣٩

- محمد الطيب بن إدريس الأشهب.

- المهدي، المتوسي، طرابلس ١٩٥١.

٣- محمد هبة النقي حسن.

الشريف الإدريسي - من سلسلة أعلام العرب (٩٧) القاهرة ١٩٧١

٤- محمد بن عثمان الحشاشي

جلاء السكر من طرس العرب، أو المعجمات المسكية في أحبار المملكة
الطرابلسية، نسخة منار الكتب المصرية على آلة الكتابة مكتوبة بأمر لأمير
عمر طوسون تحت رقم ٩٣٥٧، تاريخ

كما حققت رحلة الحشاشي وطبعت طبعة غنية قام بها مصطفى المراتي،
بيروت ١٩٦٥

٥- محمد بن عمر الترسى.

تشجير لادعان بيرة بلاد العرب والسودان - تحقيق ونشر الدكتور حبل
محمود عاكز، والدكتور مصطفى سعد، القاهرة ١٩٦٥.

٦- محمد فؤاد شكرى.

السرسية دين ودولة، القاهرة ١٩٥١

عصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل في القرون التاسع عشر ١٨٢ -
١٨٩٩، القاهرة

٧- مصطفى يعزى.

٨- لأمس التاريخية لمستقبل لوباء، الإسكندرية ١٩٥٣

٩- بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرون التاسع عشر دراسة قدمت إلى مؤتمر

ليبيا عبر العصور، الجامعة الليبية - بنغازي مارس ١٩٦٨

١٠- مصطفى كامل.

أعجب ما كان في الرق عند الرومان، عرض الدكتور جمال زكريا قسم
مؤلفات الزعيم لوطنى مصطفى كامل في ندوة لجمعية بصرية لدراسات
التاريخية بالقاهرة ١٩٧٥

١١- مصطفى محمد سعد

الإسلام والنوبة في المعصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠

١٢- مكى شيكه.

مملكة الموننج الإسلامية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٤

- المقتضب

الإسلام بأحبار من بأرض الحنيفة من مدوك الإسلام، الطبعة المصرية ١٩٨٠
- ميكاكي.

طربس العرب تحت حكم الأسره القرمانيه، معهد الدراسات العربية،
القاهرة ١٩٦٦

- نسيم عطار

البكاشين المهندي سليم قيردانه، القاهرة ١٩٥٨

- نجوم شفيق

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٠٣

- نفولا زبدة

الرجال العرب.

- نور الدين الباشا.

حصة لأعيان بسيرة آل عثمان، في مجلدين، طبع وتصحيح وتعليق أبو
إسحق إبراهيم الجزائري، القاهرة ١٣٣٣هـ

هوشجورث

وحيار تحت حماية لبريطانية ترجمة حسن حشيش، القاهرة ١٩٦٨

- ياقوت الحموي

معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٩.

- يوسف أحمد

الإسلام في الحنفية، القاهرة ١٩٣٠

ثالثا - المصادر والمراجع الأجنبية

- Aida Arrf and Abu Hakima, Descriptive Catalogue of the Arabic Manuscripts in Nigeria -^{لوزان}

London 1965

- Bidger, G

History of the Imams and Seyyids of Oman by Sal Bin Razik, translated from the Original Arabic and edited with appendices and Introduction continuing the history down to 1870

London 1871

Bovill

- * Caravans of the old Sahara.
- * The Golden Trade of the Moors.

London , 968

- * Missions to Niger Journal of the Frederick Hornaman, Travels and letters of Alexander Gordon Laing, Hakluyt Society Second series No. CXVIII, Vols II,III.

Cambridge 1962

- Boxer, C R

- * Fort Jesus and the Portuguese in Mombassa 1593 - 1729.

London 1961

- * Four Centuries of Portuguese Expansion.

London 1961

Brown, R

The History and Description of Africa and Notable Things Contained Therein, written by Al Hasan bin Mohamed Awezaz al Fasi better Known As Leo Africanus, 2 Vols.

London 1898

- Browne, W G

Travels in Africa, Egypt and Syria

London 1799

- Burton, R.

* Zanzibar, City, Island and Coast.
2Vols.

London 1886

- ¹⁰ Lake Region of Central Africa.
London 1860
- Cienfuegos.
La Question Arabe et Congo.
Brussels 1959
- Chittick, Neville.
Kilwa and the Arab Settlement of the East African Coast.
Journal of the African Society
No. 2, 1963
- Cole, Sonia.
The pre-History of the East African Coast.
New York, 1962
- Colomb, R. N.
Slave Catching in the Indian Ocean
A Record of Naval Experience,
London 1873
- Compland, Reginald.
* East Africa and Its Invaders, From the Earliest Times to the Death of
Seyyid Said in 1856.
Oxford 1938
- * The Exploitation of East Africa 1856 - 1990.
London 1939
- * The British Anti-Slavery Movement.
London 1938
- Crawford, O.
The Fung Kingdom of Sennar
London 1961
- Crowder, Michael.
The Story of Nigeria.
London 1962
- Dames, I. (Editor).
The Book of Duarte Barbosa.
London 1918
- Darley, H.
Slaves & Ivory
London 1916

- Eliot, Charles.

East Africa Protectorate.

London 1905

- Fage,

An Atlas of African History

- Ferrand, Gabriel.

Les Musulmans de Madagascar et L'iles de Comores.

2 tomes, Paris

- Foster, (W.)

England's Quest in Eastern Trade.

London.

Forbes, R.

The Secret of the Sahara

London 1933

Freeman, Grenville

The Medivea. History of the Coast of Tanganyika.

Berlin 1962

- Ghunter, John .

Inside Africa, 2 vol II.

London 1959

- Hichens

Islam in East Africa.

London

Hil

Egypt in the Sudan

London 1963

- Hofer, M. F

L'univers, Histoire et Description de tous les Peuples (Afrique Orientale et Centrale)

Paris 1848

- Hollingworth, L.

Zanzibar.

- Holt, P.

History of the Sudan From the Fong Sultanate to the Present day.

London 1967

- Huthinson, Edward.
The Slave Trade of East Africa.
London 1874
- Ingram, (H)
Arabia & The Isles, London 1960.
- Johnston, Mary.
The Colonization of Africa.
Cambridge 1913
- Kummerow, A.
La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabe aux XVIe et XVIIe Siècle et la
Cartographie des portugais du Monde Orientale.
Le Caire MCMXLIX.
- Kensdall, W F
A Catalogue of the Arabic Manuscripts in the University Library, Iba-
dan
1955 - 1958
- Krapf, Lewis
Travels, Research and Missionary labours During an Eighteen years
Residence in Eastern Africa.
London 1860
- Lopes, David.
Historia Portuguesa No Malabar
Lisbon 1898
- Lyndon.
Swahili Poetry
- Lync, Robert
Zanzibar in Contemporary Times.
London
- Mc Millan, Mona.
Introducing East Africa.
London 1965
- Muktar, M.
Notes Sur le Pays de Harar, Budget n° 11matrice de la Societe Khedivale
de Geographie du Caire.
Cairo 1877

• Oliver, Roland.

The Dawn of African History

London 1962

• Owen, W P.

Narrative to Explore the Shores of Arabia, Africa, and Madagascar
2 Vols.

London 1826

• Palmer, H. R.

History of Ketsina, Journal of the African Society XXVI, April 1927

Paule, A.

A History of the Beja in the Sudan.

Cambridge 1964

Pearce.

Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern Africa.

- philips, Wendel.

Oman - Amistory,

London 1967

- Pory, John

A Geographical Historie of Afrika written in Arabicke and Italian.

London 1600

Prins, A.H.

* On Swahili Historiography

Journal of East African International Institute.

London 1963

* The Swahili Speaking peoples of Zanzibar and East African Coast,
Arab - Shiraz and Swahili.

East African International Institute.

London 1961

- Prichard, Evans.

The Samusi of Cyreneica.

London 1951

Pruett, S.

The Arab and the African.

Experience in Eastern Equatorial Africa during a residence of three
years.

London 1891

Rabat, A. Frey
Zanzibar.
La Côte Orientale de L'Afrique
Extrait de Bulletin de la Société Géographique de Marseille
Reinard.
Relation de voyages fait Par les Arabes et Persans à l'Inde et la Chine.
2 tomes Paris, 1845

Ricci, A.
Travels of Marco Polo.
Rondiere, Charles de m.
La Découverte de L'Afrique aux Moyen Age.
Le Caire 1925 - 1927

Rueda, R.
* The Al Bu Said Dynasty in Oman and East Africa.
Journal of the Central Asian Society Vol VXXI,
London 1929

* Said Bin Sultan.
London 1929
* Dates & References of the Al Bu Said dynasty in Oman & East Africa
* Schefer, Ch.
Description de L'Afrique écrit par Jean Léon African
Paris 1898

Schoff
The Perplus of the Erythraean Sea.
* Serjeant.
The Portuguese off the South Arabian Coast.
* Shoukry, M F.
Equatoria under the Egyptian Rule.
Cairo, 1953

Slide, Rich.
King Leopold's Congo.
London 1962

Sievenson J
The Arabs in Central Africa.
Sigung

In the land of Zinj

London 1913

- Strong, Arthur

History of Kilwa

Journal of the Royal Asiatic Society

April, 1895

- Theobald, A B

Ad Dinar, Last Sultan of Darfur, 1898-1916

London 1965

- Thomas, B.

The Arab Rule under the A. Bu-said Dynasty in Oman and East Africa
.741 - 1937

London 1938

- Trimmingham, Spencer

* A History of Islam in west Africa

Oxford, 1959

* Islam in Ethiopia

Oxford, 1962

- Vambery A.

The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis During the years 1553-1555

Translated from Turkish with notes.

London 1899

- Villet, Allen.

The Arab Dhows Trade.

Journal of the Middle East

October, 1954

- Warner, A.

A Swahili History of Pate.

Journal of the African Society.

Vol xiv 1913

- Younghusband

Glimpses of East Africa and Zanzibar.

London 1908

رابعاً - الدوريات العربية والأجنبية

(أ) العربية:

- جليات كلية الآداب - جامعة عين شمس.
- جريدة أركان حرب الجيش المصري.
- المجلة المصرية التاريخية.
- مجلة عالم الفكر - الكويت.
- مجلة العربي - الكويت.
- مجلة العلوم القانونية والاقتصادية - القاهرة.
- مجلة نهضة إفريقيا - القاهرة.

(ب) الأجنبية:

- Bulletin de la Societe Geographie de Marseille.
- Bulletin de la Societe Khediviale de Geographie, Caire.
- Journal of the African Society.
- Journal of the Central Asian Society.
- Journal of the East African International Institute.
- Journal of East African Swahili Committee.
- Journal of the Middle East, Middle East Institute Washington.
- Journal of the Royal Asian Society, London.

خامساً - معارف عامة

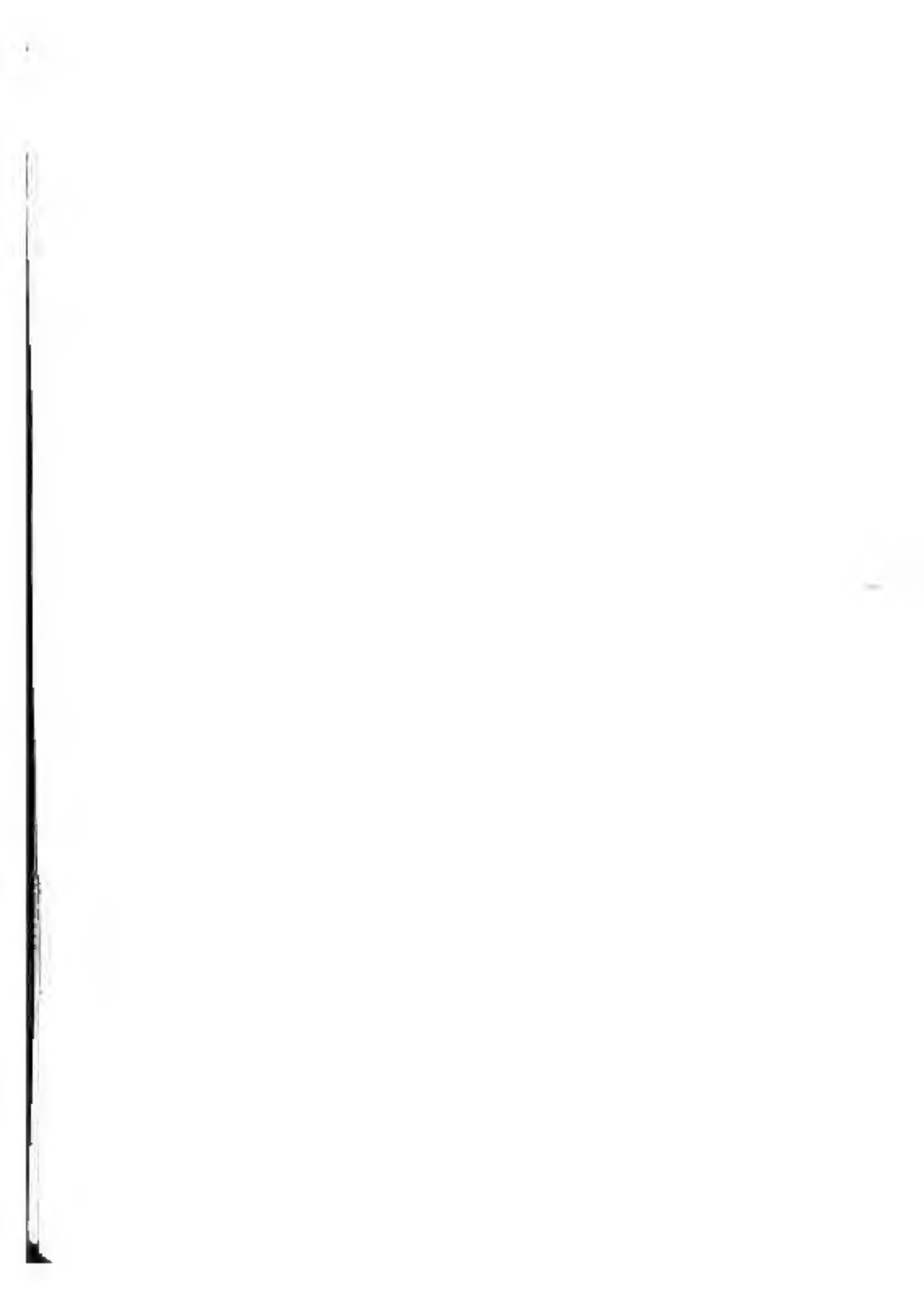
- دائرة المعارف الإسلامية.

- Encyclopedia of Religions & Ethics.

المحتويات

٣	تقديم الكتاب
٨	المقدمة
٢١	الفصل الأول: إفريقيا في المصنفات العربية
٥٩	الفصل الثاني: العرب في شرق إفريقيا حتى تأسيس سلطنة زنجبار
	الفصل الثالث: التوغل العربي في الممالك المسيحية في الحبشة
١١٩	والنوبة
١٤٥	الفصل الرابع: العرب وممالك السودان الغربي
١٩١	الفصل الخامس: مسألة الرق وتجارة الرقيق في إفريقيا
	الفصل السادس: سلطنة زنجبار وامتدادها إلى الكونغو وهضبة
٢١٥	البحيرات الاستوائية
	الفصل السابع: دور مصر الحضاري في إفريقيا في القرن التاسع
٢٥٤	عشر
٣٠٣	الفصل الثامن: التوغل العربي في الصحراء الكبرى
٣٢٧	خاتمة
٣٣٥	المصادر والمراجع

General Department
5/5



هذا الكتاب

يعنى الكتاب بتوضيح الروابط الثقافية والاقتصادية والمجتمعات البشرية التي كانت تتم عن طريق المعابر الرئيسية في مصر والشمال الإفريقي وموئل شرق إفريقيا إلى أواصل القارة ودواخلها وما ترتب على ذلك من امتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية وارتباط مصائر العالم الإفريقي بالعالم العربي في عصور التاريخ المختلفة.

وتحاول الدراسة لوجه الاعتماد إلى إعادة كتابة تاريخ العرب في إفريقيا وتنقيته مما حجب به من تشويه وما علق به من شوائب نتيجة استغلال أعداء التعاون العربي الإفريقي الدعاوى الانفصالية للتشكيك في الروابط العربية الإفريقية وذلك إدراكاً من المؤلف بأن أي قرار سياسي أو اقتصادي لتوثيق ذلك التعاون لن يكون له أدنى فاعلية ما لم يرتكز على قاعدة صلبة تجعل من الشجرة التاريخية التي صير بها للعرب والإفريقيون سبيلاً للتقارب وليس للتباعد فيما بينهم.

ومع ما قد تنجم إليه الشخصية الإفريقية في بعض الأحيان إلى وجود فعل مضادة في حولها العربي نتيجة خضوعها لتأثيرات ثقافية أجنبية إلا أن ما يدعو إلى التفاؤل بظهور صفوة إفريقية أصبحت تدعو في وقتنا الحاضر للاعتزاز بالتراث العربي باعتباره نواة إفريقيا وذلك لتبعض الفكرة التي روحها المستعمر بأن الإفريقيين عاشوا خلال العصور التي سبقت الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية عملاً لا ثقافة ولا تاريخ لهم.

وبعد الكتاب من هذا المنظور محاولة إيجابية لإعادة كتابة تاريخ العرب في إفريقيا برؤية موضوعية.

تطلب جميع مشورائنا من وكيلة الوحيد ملوثة الكويت

دار الكتاب الحديث

ت: ٢٤٦٠٦٣٥ - فاكس: ٢٤٦٠٦٢٨